الطريق إلى أوكسيانا

روبرت بايرون

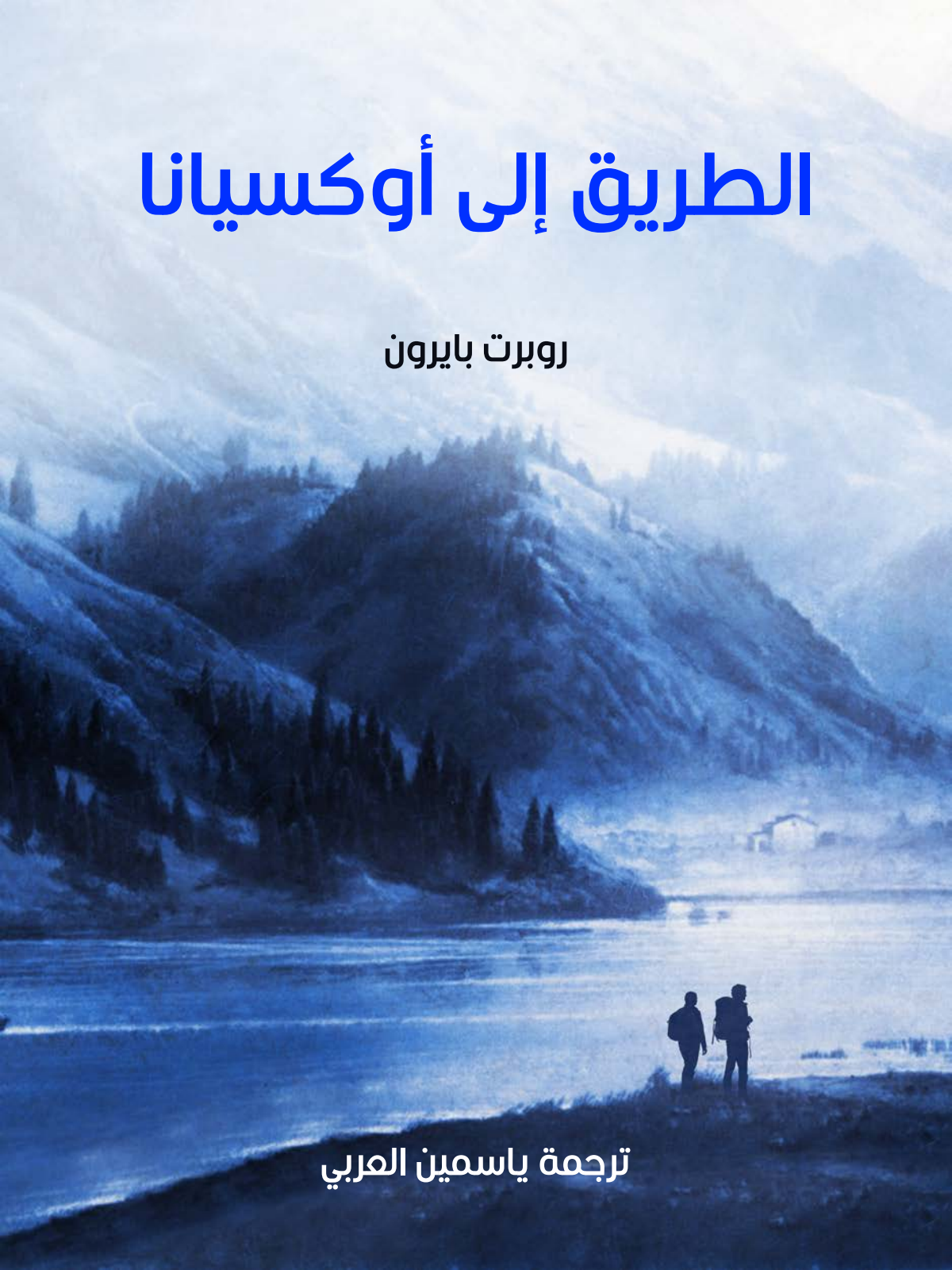

ترجمة ياسمين العربي

الطريق إلى أوكسيانا

تأليف
روبرت بايرون

ترجمة
ياسمين العربي

مراجعة
محمد حامد درويش

هنداوي

الطريق إلى أوكسيانا

روبرت بايرون

The Road to Oxiana

Robert Byron

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٣ ٢٩٤٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٧.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الجزء الأول	٩
الجزء الثاني	٣٩
الجزء الثالث	٦١
الجزء الرابع	١١٥
الجزء الخامس	١٨٥

ورامين: مسجد الجمعة.

الجزء الأول

فينيسيا، ٢٠ أغسطس ١٩٣٣: هنا ننغمس في المرح، تغييرٌ لطيف بعد تلك الإقامة الكاملة على جزيرة جوديكا قبل عامين. ذهبنا إلى جزيرة ليدو هذا الصباح، وبدا قصر دوجي من فوق سطح الزورق السريع أكثر جمالًا مما بدا عليه في أي وقت مضى من فوق سطح الجندول. لا بد أن السِّباحة في يومٍ هادئ هي الأسوأ في أوروبا؛ فالماء كاللعاب الساخن، وأعقاب السيجار تطفو لتدخل في فم المرء، وثَمَّة أسرابٌ من قناديل البحر.

جاء ليفار من أجل العشاء. وذكر بيرتي أن جميع الحيتان مصابةٌ بداء الزُّهري.

فينيسيا، ٢١ أغسطس: بعد تفقُّد قصرين، لابينا الذي يحتوي على جداريةٍ مأدبة كليوباترا لتيبولو، وبابادوبولي، وهو متاهةٌ خانقة من الصور الفخمة والمَلَكية، التجأنا من المعالم الثقافية إلى حانة هاري. كانت ثَمَّة ثرثرةٌ منذِرة بالسوء، وتحياتٌ سريعة كطلقات الرصاص: لقد وصل الإنجليز.

في المساء، عُدنا إلى حانة هاري، حيث أمتعَنا مضيِّفنا بمشروب مكوَّن من الشمبانيا وبراندي الكرز. قال لي هاري على انفراد: «للحصول على التأثير الصحيح، يجب أن يكون أسوأ أنواع براندي الكرز.» وقد كان كذلك بالفعل.

كانت معرفتي بمضيِّفنا قبل هذا مقتصِرةً على مجال الصيد. فبدا غيرَ مألوف في صدرية الشاطئ الخضراء والسترة البيضاء التي كانت في حالة من الفوضى.

فينيسيا، ٢٢ أغسطس: في جندول إلى كنيسة سان روكو، حيث شعرتُ بالانبهار عندما شاهدت لوحةَ صلب المسيح لتينتوريتو، وكنت قد نسيتها. أُزيلَ سجلُّ الزوَّار القديم الذي كان يحتوي على اسم لينين. على جزيرة ليدو كان يهبُّ نسيم؛ حيث كان البحر هائجًا، ومعتدلَ الحرارة، وخاليًا من النُّفايات.

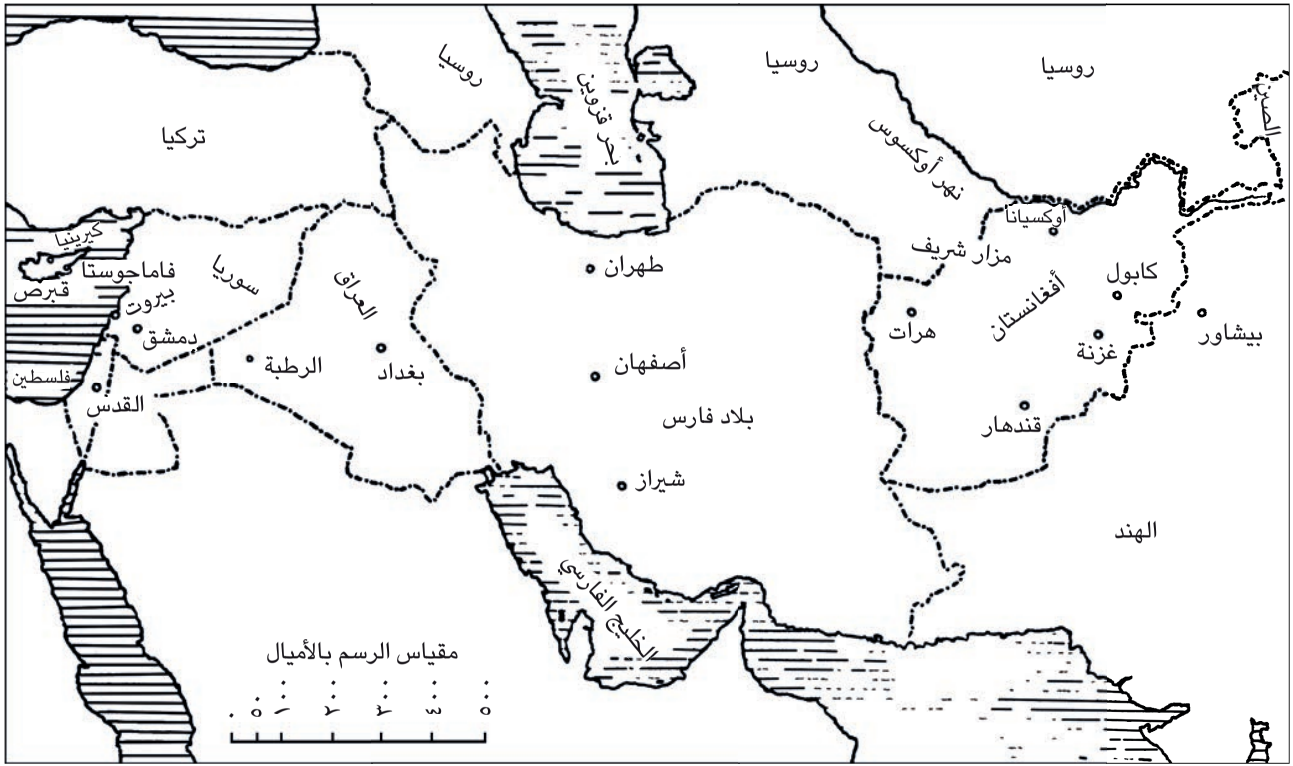

خريطة الشرق الأوسط.

استقلَلْنا السيارةَ لتناوُل الشاي في فيلا مالكونتينتا، على الطريق الجديد عبر البحيرات بجانب السكة الحديدية. قبل تسع سنوات، وجد لاندسبيرج فيلا مالكونتينتا، التي يُحتفى بها في كل كتاب عن بالاديو، في حالة من الخراب، بلا أبواب أو نوافذ، وكانت مخزنَ حبوب لمحاصيل زراعية غير محدَّدة. وقد جعلها منزلًا صالحًا للسكنى. النِّسب بين أبعاد القاعة الكبرى والحجرات الفاخرة ترنيمةٌ رياضية. لو كان رجلًا آخَر، لملأها بما يُسمَّى زعمًا أثاثًا إيطاليًّا، أثاثًا مُذهَّبًا من نُفاياتِ تجَّار التحف. كان لاندسبيرج قد أمَر بصناعة الأثاث من خشبٍ عادي في القرية المحلية. لا يوجد شيء «من نفس الحِقبة» إلا الشموع، وهي ضرورية في غياب الكهرباء.

في الخارج، يتجادل الناس حول جانبَي المنزل ويتَّفقون على استهجان الخلفية. أما الواجهة، فلا خلاف عليها. فهي سابقة لعصرها، وبمثابة معيار في حدِّ ذاتها. يمكنك تحليلها، فلا شيء يمكنه أن يكون أكثر وضوحًا، لكن لا يمكنك المجادلة في أمرِها. وقفت مع ديان على العُشب أسفلَ الرواق؛ حيث للحظةٍ قبل الغسق حدَّد التوهُّج تحديدًا أكثر وضوحًا كلَّ مرحلة من مراحل التصميم. لم يكن بوسع أوروبا أن تقدِّم لي وداعًا يجعلني أقعُ في غرامها أكثرَ من هذا الإقرار المبتهِج بالنصر للفكر الأوروبي. قالت ديان، مدرِكةً أنها أثبتت الفكرة بما هو قائم بالفعل: «من الخطأ تركُ الحضارة.» فغمرني الحزن.

بالداخل، أُضيئت الشموع ورقَص ليفار. عُدنا بالسيارة عبر عاصفةٍ مُمطِرة، وأويت إلى الفِراش بعد أن ضبطتُ المنبِّه.

العبَّارة إس إس إيطاليا، ٢٦ أغسطس: كان الجناديلي البدين ذو الشاربِ الملحَقُ بالقصر ينتظرني في الساعة الخامسة. تتشابه جميعُ المدن عند الفجر؛ فحتى شارع أكسفورد يمكن أن يبدو جميلًا وهو خالٍ من المارَّة؛ لذا بدت فينيسيا حينئذٍ أقلَّ نبضًا بالحيوية التي لا يُشبَع منها. أعطني فينيسيا كما رآها روسكين لأول مرة، من دون سكة حديدية، أو أعطني زورقًا سريعًا وأثرياء العالم. المتحف البشري رهيب، كتلك الجُزر قُبالة ساحل هولندا حيث يحافظ الهولنديون على ارتداء زيِّهم الوطني.

صاحبت مغادَرةَ هذا المركب من ميناء تريستي مَشاهدُ وقعت لأول مرة في العهد القديم. حيث كان اللاجئون اليهود من ألمانيا يغادرون إلى فلسطين. من ناحية، كان يوجد حاخام مدهِش موقَّر، حدَّدت جدائلُ شَعره الأرثوذكسيةُ الطويلة وقبَّعتُه المستديرةُ من فرو القندس الأزياءَ السائدة لتلاميذه حتى سن الثامنة؛ ومن ناحية أخرى، كانت توجد مجموعةٌ لافتة للأنظار من الفتيان والفتيات بملابس الشاطئ، الذين أخمدوا مشاعرهم بالغناء. كان

حشدٌ قد تجمَّع لتوديعهم. عندما فُتح المركب، نسي كلُّ شخص شواغله الشخصية، وحقائبَ السفر المفقودة، والركن المُختلَس. انطلق الحاخام المدهِش وبطارقته المرافقون في تلويحٍ واهن القوى متعذِّر ضبطُه، وبدأ الأولاد والبنات في غناءِ ترنيمة وقورة تكرَّرت فيها كلمة أورشليم بنبرة انتصار. انضم إليهم في الغناء الحشدُ الواقف على الشاطئ، وهو يسلك رصيف الميناء إلى حافته، حيث وقف حتى غابت السفينة في الأفق. في تلك اللحظة، وصل أيضًا رالف ستوكلي، مُعاوِن المفوَّض السامي في فلسطين، إلى رصيف الميناء ليجد أن المركب قد فاته. وقد خفَّف اضطرابه، وملاحقته التالية للمركب في زورق بخاري، من حدَّة التوتر.

تضرب ريح شمالية البحرَ الياقوتي بموج أبيض، وأسكتت أولئك اليهود المتحمِّسين بالأسفل. أمس أبحَرْنا مارِّين بالجُزر الأيونية. بدت الشواطئ المألوفة قاحلةً وغير مأهولة، ولكنها ذات جمال لا مثيل له في الضباب الوردي. عند الزاوية الجنوبية الغربية لليونان انعطفنا شرقًا، ومررنا بمدينة كالاماتا في خليجها، وبلغنا رأس ماتابان، التي رأيتها آخر مرة من جبل تايجتوس وقد أبرزها البحر البعيد كما لو كانت رسمًا على خريطة. تحوَّلت الوجوه الصخرية إلى ذهبٍ أحمرَ داكن، والظلال إلى زُرقة شفَّافة. غرقت الشمس في الأفق، وصارت اليونان صورةً ظليةً متعرِّجة، وبدأ ضوء المنارة الواقعة في أقصى جنوب أوروبا يتلألأ. حول المنعطَف، في الخليج التالي، ومضت كهرباءُ بلدة جيثيون.

روى ستوكلي حكايةً لرئيسه، الذي أصيب بطلقاتٍ نارية في ساقَيه أثناء حرب البوير، وتُرِك لمدة ست وثلاثين ساعةً قبل أن تأتيه النجدة. كان آخرون قد أصيبوا بطلقاتٍ نارية مماثلة؛ لأن البوير كانوا يطلقون النارَ على ارتفاع منخفض. مات بعضهم وحصدتهم النسور. ما دام كان بإمكان الجرحى التحرُّك، مهما كان ضَعفهم، كانت الطيور تبقى بعيدة. وحين لا يعود بوسعهم الحركة، كانت أعينهم تُقتلَع وهم ما زالوا أحياءً. وصف رئيس ستوكلي مشاعره إزاء ترقُّبه لهذا المصير، بينما كانت الطيور تحلِّق على ارتفاع بضع أقدام فوقه.

هذا الصباح، تتقاطع قِمم سانتوريني المزدوجة مع ضوءِ فجرٍ أحمر. وتُرى جزيرة رودس على مرمى البصر. نصل إلى قبرص في منتصف نهار غد. سأَحظى بأسبوع لنفسي هناك قبل وصول الفحَّامين إلى بيروت في ٦ سبتمبر.

قبرص: كيرينيا، ٢٩ أغسطس: التاريخ في هذه الجزيرة شديدُ الثراء. إنه يصيب المرءَ بنوع من التُّخَمة العقلية. في نيقوسيا، حلَّ مبنًى حكومي جديد محلَّ المبنى الذي دمَّرته أعمالُ الشغب سنة ١٩٣١. ويوجد خارجه مدفع قدَّمه هنري الثامن ملك إنجلترا

إلى جماعة القديس يوحنا المقدسية عام ١٥٢٧. ويُزيِّنه شِعارُ نَبالة تيودور. أما العُملة التي صُكَّت احتفالًا بيوبيل الحُكم البريطاني في عام ١٩٢٨، فتحمل شعارَ نَبالة ريتشارد كور دي ليون، الذي غزا الجزيرة وتزوَّج هناك في عام ١١٩١. رسا مركبي في لارنكا. على بُعد أميال قليلة، في عام ٤٥ ميلادية، رسا مركب بولس وبرنابا. ولعازر مدفون في لارنكا. وكذلك ابنا أخي الأسقف كين، أيون ووليام، اللذان تُوفيا سنتَي ١٦٩٣ و١٧٠٧. تبدأ التواريخ بإشارةٍ مصرية ترجع إلى عام ١٤٥٠ قبل الميلاد. اشتُهرت الجزيرة في نهاية القرن الثاني عشر، مع حكم آل لوزينيان وثقافتهم؛ فقد أهدى مؤلِّفون متنوِّعون، أمثال بوكاتشيو والقديس توما الأكويني، كتبًا للملك بيتر الأول. في عام ١٤٨٩، تخلَّت المَلِكة كاثرين كورنارو عن سيادتها للفينيسيين، وبعد ثمانين عامًا سُلِخ آخر قائد فينيسي حيًّا على يد الأتراك. انتهت القرون المنسية الثلاثة التي تلت ذلك بمعاهدة برلين، التي أُجِّرَت بموجبها الجزيرة للإنجليز. في عام ١٩١٤ ضممناها إلى تبعيتنا.

ينتمي المشهد الطبيعي إلى آسيا وليس إلى الجُزر اليونانية الأخرى. فالأرض باهتةٌ حدَّ البياض، ولا يخفِّف من عزلتها القاحلة إلا رقعةٌ خضراء من الكروم أو قطيعٌ من الماعز الأسود والأسمر المصفر. زُرعت أشجار على طول الطريق المعبَّدة البالغة النظافة التي أوصلتني من لارنكا إلى نيقوسيا، أشجار الكازوارينا والسَّرْو. لكنَّ الريح دحرتْها، هبَّة حارَّة عنيفة ترتفع من البحر عصر كل يوم وتُدوِّر سواقي المياه التي لا حصر لها. تقف هذه الهياكل الحديدية الهزيلة في الأيكات في أطراف البلدات، وصريرها الجماعي هو أغنية الجزيرة الرئيسية. من بعيد توجد دائمًا جبال. وفوق المشهد بأكمله، يُخيِّم ضوءٌ غريب، طبقةٌ ملساء من الفولاذ والليلك، تزيد من حدة المعالم والمنظورات، وتجعل كلَّ ماعز عابر، وكلَّ شجرة خروب منعزلة، تبرُز عن اليابسة البيضاء كما لو كانت تُرى عبر مِجسام.

المشهد جميل من الناحية المجرَّدة، لكنه عنيف ووعر كموطن للإنسان. حتى الأزهار غير موجودة في هذا الموسم، باستثناء زهرة بروق صغيرة، «رمادية» اللون ومائلة كإيماءة شبح. يُسميها اليونانيون «زهرة الشمعة». الجانب الشمالي من الجبال، بين نيقوسيا والساحل، أكثرُ ملاءمة. هنا، الأرض حمراء كما لو كانت أكثر تغذية، وتنتشر في الحقول المدرَّجة أشجارُ الخروب. كان حصاد الخروب على قدم وساق بينما كنت مارًّا، حيث يجُزُّ الرجال الثمار بِعصيٍّ طويلة؛ وتعبِّئها النساء في أكياس وتُحمِّلها على الحمير. يُصدَّر الخروب لصناعة علف الماشية. شكله يشبه الموزة الذابلة، وطعمُه، في رأيي، كمِمسحةِ أرجُل من الجلوكوز.

زرتُ رئيس الأساقفة في نيقوسيا كي أطلب منه رسالة إلى رجل الدين في قرية كيتي. لم يكن مرافقوه متعاونين؛ لأن الكنيسة تقود المعارضة للإنجليز، ولم يكونوا قد عرفوا أنني تحدَّثت لصالح قضيتهم في الصحف الإنجليزية. لكن رئيس الأساقفة، مع كِبَر سنِّه وما يعانيه من صمم، بدا سعيدًا باستقبال زائر، وجعل سكرتيرًا يكتب الرسالة على الآلة الكاتبة. عندما انتهت كتابة الرسالة، أحضروا له قلمًا مغموسًا في الحبر الأحمر، وبه وقَّع عليها، بمقتضى امتيازٍ منحَه الإمبراطور زينو في القرن الخامس: «+سيريل قبرص». ومنذ ذلك الحين، اغتصب حكام الجزيرة العلمانيون هذا الامتياز. فعلَ الأتراك ذلك تكديرًا، بينما فعله الإنجليز تباهيًا.

ذهبت إلى قرية بيلا بايز هذا الصباح لرؤية الدَّير. وذهب سائقي لرؤية خطيبته، التي تعيش في القرية المجاورة. قدَّمت لي هي وعمَّتها القهوة وقطعة من الجوز المُحلى المحفوظ. جلسنا في شرفة محاطين كما هو الحال دائمًا بأواني الريحان والقَرَنفل، ونُطلُّ عبر أسطح القرية على البحر. ظل ابن العمة، البالغ من العمر عامين، يدفع الكراسي في كل مكان ويصرخ: «أنا سفينة بخارية، أنا سيارة.» وعندما غادرت السيارة الحقيقية، وأنا بداخلها، انطلق بخيبةِ أمل في عواء تبعني إلى سفح الجبل.

عصر هذا اليوم، عند القلعة، كان يوجد رجلٌ نبيل يعتمر قبعةً بيضاء من الفلين، وله لحية بيضاء قيل لي إن اسمه السيد جيفري. ولأنه كان مسئولًا عن آثار الجزيرة، عرفته بنفسي. فأبدى نفورًا. حاولت ترضيته بذكر كتابه عن حصار كيرينيا. فردَّ قائلًا: «لقد كتبت العديدَ من الأشياء. ربما لا أستطيع تذكُّرها. لكن في بعض الأحيان، كما تعلم، أقرؤها وأجِدها «مشوقة للغاية».»

تابعنا المسيرَ إلى القلعة، حيث وجدنا بعضَ السجناء يباشرون أعمال حفر عشوائية. عندما ظهرنا، ألقَوا مجارفَهم على الأرض، وخلعوا ثيابهم، وخرجوا ركضًا من بابٍ جانبي إلى البحر لممارسة نشاط سباحتهم لفترة ما بعد الظهيرة. قال السيد جيفري: «يا لها من حياة سعيدة. إنهم يأتون هنا فقط عندما يرغبون في الراحة.» أخرج مخطَّطًا لأساساتِ مباني القرن الثالث عشر، كما كشفت عنها أعمال الحفر التي اضطلع بها المساجين. لكن البقاء بالخارج جعله يشعر بالجفاف، وذهبنا إلى المكتب لشرب الماء. قال: «أسوأ ما في الماء أنه يجعلك تشعر بالعطش الشديد.»

كيرينيا، ٣٠ أغسطس: ممتطيًا حمارًا بلون الشوكولاتة، وبأذنين بطول ثماني عشرة بوصة، مضيت إلى قلعة سانت هيلاريون. عند الجدران ربطنا الحمار، وكذلك الحيوان

رفيقه، الذي كان بغلًا رماديًّا يحمل الماء البارد في جَرَّة ضخمة من الفخَّار مغلقة بأوراق الخروب. تقود الممرات الشديدة الانحدار ودرجات السلالم لأعلى عبر مُصليات وقاعات وصهاريج وزنازين تحت الأرض، إلى المنصة العلوية وبرج حراستها. أسفل الجروف الفضية اللامعة وأشجار الصَّنوبر المتقزِّمة ذات الأوراق الشبيهة بالريش الأخضر، عند سفحٍ يبلغ ارتفاعه ثلاثة آلاف قدم، يقع السهل الساحلي، في بانوراما لا نهائية من الرُّقط الحمراء الصدئة وعدد لا يُحصى من الشجيرات وظلالها، وخلفه، على بُعد ستين ميلًا عبر البحر الأزرق، ظهر خطُّ آسيا الصغرى وجبال طوروس. ولا بد أن المحاصرين أيضًا كانوا يجِدون سلواهم في ذلك المنظر.

نيقوسيا (٥٠٠ قدم)، ٣١ أغسطس: «حادثٌ يستدعي تأخيرَ أسبوع؛ لذا نصل بيروت في الرابع عشر، وقد أبلغتُ كريستوفر أن يوقِف السيارة وليس المُشغِّل المعطوب.»

يمنحنا هذا أسبوعًا إضافيًّا. سأقضيه في القدس. أظن أن كلمة «المُشغِّل» تعني جهاز الفحم. أخذًا في الاعتبار تكلفة البرقية، لا يمكنني إلا أن أفترض أنه لا يعمل. وإلا فلمَ الاهتمامُ بنفي الأمر؟

منذ فترة طويلة، في مقرِّ المفوضية اليونانية في لندن، تعرَّفت على صبيٍّ عصبي يرتدي رداءً طويلًا، وكان يحمل كأسًا من عصير الليمون. كان هذا صاحبَ الغبطةِ مار شمعون، بطريرك الآشوريين؛ وبما أنه الآن منفي في قبرص، ذهبت لزيارته هذا الصباح في فندق كريسنت. حيَّاني شخصٌ ملتحٍ قويٌّ يرتدي سروالًا من قماش الفانيلا بلهجةٍ خاصة بالجامعات الإنجليزية (كامبريدج في حالته). أعربتُ له عن تعازيَّ. قال مشيرًا للأحداث الأخيرة: «كما قلت للسير فرانسيس همفريز، كانت المنشورات في بغداد تجهَر بالجهاد ضدنا منذ شهور. سألته عما إذا كان يمكنه ضمان سلامتنا، فقال إنه يستطيع وما إلى ذلك. لقد وضعوني في السجن منذ أربعة أشهر، وحتى في ذلك الحين لم يفعل شيئًا، رغم أن الجميع كانوا يعرفون ما هو آتٍ. من هنا سأذهب إلى جنيف لمناصرة قضيتنا وما إلى ذلك. أبعدوني بالطائرة على غير رغبتي، لكن ماذا سيحدث لأبناء شعبي المسكين، سيغتصبونهم، أم سيطلقون عليهم النار بالرشاشات وما إلى ذلك، لا أعلم.» وما إلى ذلك.

مَعلمٌ آخر في عصر خيانة السياسة الخارجية البريطانية. ألن تتوقَّف أبدًا؟ لا شكَّ أن الآشوريين كانوا عنيدين. لكن النقطة التي أوضحها مار شمعون، والتي أعتقد أنها صحيحة، هي أن السلطات البريطانية كانت تعرف، أو كانت لديها وسائل عديدة لمعرفةِ ما كان ينويه العراقيون، ولم تتَّخذ أيَّ خطوات لمنعه.

فاماجوستا، ٢ سبتمبر: توجد هنا مدينتان؛ فاروشا اليونانية، وفاماجوستا التركية. وتصِل بينهما ضاحيةٌ سكنية إنجليزية تحتوي على مكاتب الحكومة، والنادي الإنجليزي، وحديقة عامة، والعديد من الفيلات، وفندق سافوي الذي أقيمُ فيه. فاماجوستا هي البلدة القديمة، وتحيط جدرانها بالميناء.

لو كانت قبرص مملوكةً للفرنسيين أو الإيطاليين، لزارَ العديدُ من القوارب السياحية فاماجوستا كما هو الحال الآن في رودس. في ظل الحكم الإنجليزي، تعيق الزائرَ نزعةٌ فلستية مُتعمَّدة. لا تزال النواة القوطية للبلدة في عزلة تامة. حقيقة أن هذه النواة لا يزال من الممكن أن يطمسها أيُّ مبنًى يرغب أيُّ أحد في تشييده، وأن قذارة المنازل الجديدة تفوق القديمة، وأن الكنائس تستأجرها عائلات فقيرة، وأن الحصون تُغطِّيها يوميًّا فضلاتٌ بشرية، وأن القلعة هي محلُّ نجارة تابع لمديرية الأشغال العامة، وأنه لا يمكن الوصول إلى القصر إلا عبر مركز الشرطة، فمظاهرُ العناية البريطانية هذه، وإن لم تكن فنية، تتمتَّع على الأقل بميزةِ مناهضةِ جو المتحف المفتقر إلى الحيوية. كذلك يُعد غيابُ المرشدين وبائعي البطاقات البريدية وعُصبتهم أحدَ عوامل الجذب. ولكن حقيقة أنه، في جميع أنحاء البلدتين، يوجد رجلٌ واحد فقط يعرف حتى أسماء الكنائس، وهو مدرِّس يوناني يشعر بالريبة لدرجة تجعل الحوار العقلاني مستحيلًا، وأن الكتاب الوحيد، للسيد جيفري، الذي يمكن أن يُطلِع الزائرَ على تاريخ المكان وتضاريسه، ليس معروضًا للبيع إلا في نيقوسيا على بُعد أربعين ميلًا، وأن كل كنيسة، باستثناء الكاتدرائية، مغلقةٌ دائمًا ويحتفظ بمفاتيحها، إن كان من الممكن تتبُّع مكانها بأي حال من الأحوال، لدى الكاهن الرسمي المنفصل، أو العائلة المُخوَّل استخدامها لها، والتي توجد عادةً، ليس في فاماجوستا، ولكن في فاروشا؛ فإن هذه المظاهر كانت تفوق الاحتمالَ حتى في حالتي أنا؛ مع أنني أتحدَّث بعض اليونانية — الأمر الذي ليس في مقدور معظم الزائرين — فشلت فشلًا تامًّا خلال ثلاثة أيام كاملة أن أكمل جولةً في المباني. ينطوي مشهد بهذا القدر من عدم الأهمية على اهتمام خاص، لطلاب الكومنولث الإنجليزي. لكنه ليس نوع الاهتمام الذي يستقطب سفنًا محمَّلةً بالسائحين الذين يُدرُّون الربح. فلا يوجد سوى مصدرِ جذب واحد لهم، هو «برج عطيل»، وهو مَعلم مصطنَع سخيف يعود تاريخه إلى الاحتلال الإنجليزي. ولا يدعم هذا الاصطناع سوى سائقي سيارات الأجرة. هناك لافتةٌ رسمية على المبنى، بدت وكأنها مكتوبٌ عليها كلمة «شاي» أو «سادة نبلاء». هذه اللافتة هي التوجيه الوحيد الذي يمكن للسلطات، أو أي شخص آخر، أن يمنحه.

أقف على متراس مارتينينجو، وهو سدٌّ عملاق بواجهة من حجارة مشذبة ومحمي بخندق مائي محفور في الصخر على عمق أربعين قدمًا، كان البحر يصبُّ فيه قديمًا. من أحشاء هذا التحصين الجبلي، تخرج عربتا نقل تسيران تحت الأرض إلى ضوء النهار عند قدمَيَّ. وإلى اليمين واليسار تمتد حواجزُ الجدران المحيطة، وتقطَعها سلسلةٌ من الأبراج الدائرية السميكة. مقدِّمة المشهد مُقفِرة، تتحرك عبرها سلسلة من الجمال التي يقودها رجلٌ تركي يرتدي سروالًا فضفاضًا. وثَمَّة منخفض صغير تشغله امرأتان تركيتان تطهيان شيئًا تحت شجرة تين. وبعدهما تبدأ البلدة، حيث مزيجٌ من البيوت الصغيرة، بعضها من الطين، وبعضها من حجارةٍ منهوبة من الآثار، وبعضها من جصٍّ أبيضَ جديد ومسقوفة بأسقف باللون الأحمر. لا يوجد تخطيط ولا مراعاة للمرافق. وأشجار النخيل قائمة بين المنازل، وتحيط بها قِطع الأراضي. ومن هذه الفوضى العارمة، تظهر معقوفات ودعامات معمارية لكاتدرائية قوطية، تتقاطع حجارتُها البرتقالية مع الاتحاد البعيد للونَي السماء والبحر، الفيروزي والياقوتي. وتمتد سلسلة جبال بنفسجية على الساحل جهة اليسار. يخرج مركبٌ من المرفأ نحوها والبخار يتصاعد منه. وتنبثق من الأرض عند قدميَّ عربةٌ يجرُّها ثور. تبرُك الجِمال. وتحدِّق سيدة، ترتدي ثوبًا ورديًّا وقبَّعة ذات حافة عريضة، برِقة في اتجاه نيقوسيا من أعلى البرج بعد التالي.

لارنكا، ٣ سبتمبر: الفندق هنا دون المستوى. في أماكن أخرى، تكون الفنادق نظيفةً ومرتَّبة، وقبل كل ذلك رخيصة. والطعام ليس شهيًّا، ولكن حتى الاحتلال الإنجليزي لم يستطِع جعل الطبخ اليوناني يسوء. يوجد بعض النبيذ الجيد. والماء حلو المذاق.

قدتُ السيارة متوجهًا إلى كيتي، على بُعد ثمانية أميال، حيث تلقَّى الكاهن وحافظ غرفة المقدَّسات، اللذان كان كلاهما يلبس سروالًا فضفاضًا وحذاءً ذا رقبة طويلة، باحترامٍ رسالةَ رئيس الأساقفة. اصطحباني إلى الكنيسة، التي بها فسيفساء جميلة الصنع، ويبدو لي أن أسلوبها يعود إلى القرن العاشر، مع أنَّ آخرين ينسبونه إلى القرن السادس. رداء العذراء ذو لون بنفسجي فاتح، وهو غالبًا ملوَّن بالفحم. وترتدي الملائكة بجانبها أقمشةً بيضاء، ورمادية، وصفراء بُنية فاتحة، ويتكرَّر اللون الأخضر لأجنحتها التي تتخذ شكل أجنحة الطاووس على الكرات الخضراء التي تحملها. وقد استُخدمت في تشكيل الوجوه والأيادي والأقدام مكعَّباتٌ أصغر من تلك المستخدَمة في بقية التكوين. يتميز التكوين بأكمله بتناغم استثنائي. أبعاده صغيرة، لا تزيد عن الحجم الطبيعي، وسقف الكنيسة منخفِض للغاية حتى إنه يمكن تفحُّص محتويات قنطرتها من مسافة عشر أقدام تقريبًا.

العبَّارة إس إس مارثا واشنطن، ٤ سبتمبر: وجدت كريستوفر على الرصيف البحري مزدانًا بلحيةٍ مهندَمة، ولكنها نافرة تُركت دون حلاقة خمسة أيام. لم يبلغه شيء من الفحَّامين، لكنه يرحِّب بفكرة الذَّهاب إلى القدس.

يوجد ٩٠٠ راكب على السفينة. أخذني كريستوفر في جولة في مهجع الدرجة الثالثة. لو كان شاغلوها من الحيوانات، لكان أيُّ رجل إنجليزي صالح قد أبلغ «الجمعية الملكية لمنع القسوة على الحيوانات» بالأمر. لكن أسعار التذاكر رخيصة، وكونهم يهودًا، فالمرء يعرف أنه بإمكانهم جميعًا دفعُ المزيد إن أرادوا. الدرجة الأولى ليست أفضل حالًا بكثير. أتشارك مقصورةً مع محامٍ فرنسي، لا تترك زجاجاته ولوازم تأنُّقه مكانًا لإبرة. أعطاني محاضرةً عن الكاتدرائيات الإنجليزية. دورهام كانت تستحق المشاهدة. «أما البقية، يا سيدي العزيز، فليس بها شيء سوى أنابيب السباكة.»

على العَشاء وجدتُ نفسي بجوار رجل إنجليزي، فبدأت معه محادثةً بأنني آمُل أن يكون قد قام برحلة بحرية جيدة.

ردَّ قائلًا: «أجلْ بالفعل. لقد تبِعنا الخير والرحمة طوال الوقت.»

شقَّت امرأة متعَبة طريقَها بجهد جهيد، وهي تقود طفلًا عنيدًا. قلت: «أشفِق دائمًا على النساء اللواتي يسافرن ومعهن أطفال.»

«لا أوافقك الرأي. فمن وجهة نظري، الأطفال الصغار مثل بريق الشمس.»

رأيتُ الرجل لاحقًا، يقرأ الكتاب المقدَّس على أحد كراسي سطح المركب. هذا ما يُسميه البروتستانتيون بالمبشِّر.

فلسطين، القدس (٢٨٠٠ قدم)، ٦ سبتمبر: كان المُصاب بالجذام في نيكاراجوا سيكون أفضلَ حالًا مع سلطات الموانئ التابعة للانتداب البريطاني من حالنا أمس. صعِدوا على السفينة في الساعة ٥ صباحًا. وبعد الانتظار لمدة ساعتين في طابور، سألوني كيف يمكنني النزول من على متن السفينة من دون تأشيرة، ومنذ متى وجواز سفري لم يكن حتى معتمَدًا لفلسطين. قلت إن بإمكاني شراء تأشيرة، وأوضحت أن نظام الاعتماد لم يكن سوى أحد أشكال التضليل الفظة التي مارستها وزارة الخارجية، الأمر الذي ليس له تأثير حقيقي على صلاحية جواز السفر. بعد ذلك اكتشف فضوليٌّ آخرُ أنني كنت في روسيا. متى؟ ولماذا؟ آه، من أجلِ المتعة، أليس كذلك؟ هل كانت الرحلة ممتعة؟ وإلى أين أنا ذاهب الآن؟ إلى أفغانستان؟ لماذا؟ للمتعة مرةً أخرى، بالتأكيد. فقد افترض أنني كنت في رحلة للمتعة حول العالم. ثم انشغلوا بتأشيرة كريستوفر الدبلوماسية حتى إنهم نسُوا إعطاءه بطاقةَ النزول من السفينة.

استشاط حشدٌ مسعور حول رأس سلم السفينة. جسديًّا، يمكن أن يبدو اليهود أفضل سلالات البشر أو أسوأها في العالم. هؤلاء كانوا الأسوأ. كانت رائحتهم منفِّرة، ويحدِّقون، ويتدافعون، ويصرخون. بدأ رجل، كان هناك لخمس ساعات، في النحيب. عندما فشل حاخامه في تهدئته، عرض عليه كريستوفر الويسكي والصودا من نافذة البار. فرفض. نُقلت أمتعتنا، شيئًا فشيئًا، إلى قارب. فتبِعته. وكان على كريستوفر العودة للحصول على بطاقة النزول. كانت هناك موجةٌ شديدة عندما مررنا بالشعاب المرجانية على حدود الأمواج المتكسرة التي تشكِّل «ميناء» يافا. تقيأت امرأة مصابةٌ بالغثيان على يدي. تعهَّد زوجها طفلهما، بينما كان يدعَم بذراعه الأخرى نبتةَ فيرونيكا طويلةً في إناء.

«للأعلى، من فضلكم!» انقسم الغوغاء المتعرِّقون الغريبو الخِلقة إلى طابورين. بعد نصف ساعة وصلت إلى الطبيب. اعتذر عن التأخير، وأعطاني شهادةً طبية دون فحص. بالأسفل، كان رجال القوارب يحدِثون صخبًا طلبًا للمال. تكلفة نقلنا والأمتعة جنيه إسترليني وسِنْتان. سأل ضابط الجمارك، مشتبِهًا في كوني مؤلِّفًا للأعمال المشينة الخاضعة للرسوم: «هل تؤلِّف الكتب؟» قلت إنني لست اللورد بايرون، واقترحت عليه مواصلة عمله. وأخيرًا، وجدنا سيارة، وبعدما ارتدينا القَلَنْسوتَين تمجيدًا للأرض المقدَّسة، انطلقنا إلى القدس.

فندق الملك داود هو الفندق الجيد الوحيد في آسيا على هذا الجانب من شانجهاي. إننا نعتز بكل لحظة قضيناها فيه. الزخارف العامة متناغمة، ومنضبطة، وشبه حادة. لكنك قد لا تظن ذلك من هذا الإشعار المعلَّق في القاعة:

«إشعار عن الديكور الداخلي لفندق الملك داود، القدس»

كان الهدف هو استحضار أجواء الفترة المجيدة للملك داود عبر ذكرى الأنماط السامية القديمة.

كانت إعادة البناء المطابِقة للأصل مستحيلة؛ لذا حاول الفنان أن يُكسِب الذوقَ الحديث أساليبَ يهوديةً قديمة مختلِفة.

(التأثير الآشوري): قاعة المدخل: حِقبة الملك داود.

الرَّدهة الرئيسية: حِقبة الملك داود (التأثير الحثي).

غرفة القراءة: حِقبة الملك سليمان.

الحانة: حِقبة الملك سليمان.

المطعم: على الطراز اليوناني السوري.

قاعة الولائم: الطراز الفينيقي (التأثير الآشوري)، إلخ.

جي إيه هوفشميد
المصمِّم، أويف آند سواب
جنيف

يمكن مقارنةُ جَمال القدس من حيث مناظرها الطبيعية بجَمال طُلَيطلة. المدينة قائمة في الجبال، وهي عبارة عن مشهد من القِباب والأبراج المحاطة بجدران مزوَّدة بفتحات للرماية والجاثمة على لوحٍ صخري فوق وادٍ عميق. وفيما يخص تلال موآب البعيدة، تشبه ملامح المنطقة تلك الموجودة على خريطة طبيعية، حيث تكتسح المنحدرات في منحنياتٍ منتظمة وطبقية، وتلقي بظلال كبيرة على الوديان التي تظهر بغتة. تعكس الأرض والصخور أضواءَ حجر أوبال ناري. إن مثل هذا التكوين في موضعٍ حضري، سواء أكان عرَضيًّا أو مخطَّطًا له، قد أنتج تحفةً فنيةً.

من ناحية التفاصيل، حتى طُليطلة لا تُقارَن بها في شوارعها المتعرِّجة الشديدة الانحدار، المرصوفة بالحصى في درجاتٍ واسعة وضيقة للغاية، حتى إن جملًا واحدًا يتسبَّب في نفس القدر من الاضطراب الذي تتسبَّب فيه حافلة في جادة إنجليزية. لا يزال الحشد، وهو يشق طريقه صعودًا وهبوطًا في شارع الملك داود، من الفجر وحتى الغروب، صورةً لـ «الشرق»، بمنأًى حتى الآن عن مدِّ البِذلات اليومية والنظارات ذات الأطر البارزة من الجانبين. ها هو ذا عربيُّ البادية، بشاربه الكث، يمرُّ بردائه الضخم المصنوع من شَعر الإبل المشغول بالذهب؛ والمرأة العربية، بوجهها الموشوم ولباسها المطرَّز، تحمل سلةً على رأسها؛ ورجل الدين المسلم، المشذَّب اللحية، ويلُف عمامةً بيضاء أنيقة حول طربوشه؛ واليهودي الأرثوذكسي، بالسوالف المجدولة، وقبَّعته من فرو القندس ومِعطفه الأسود؛ والكاهن اليوناني والراهب اليوناني، بلحيتَيهما وكعكتَي شعرهما أسفل قبَّعتَيهما السوداوين الطويلتين الشبيهتين بفوَّهة المدخنة؛ والقساوسة والرهبان من مصر والحبشة وأرمينيا؛ والأب اللاتيني في رداءٍ بُنِّي وقبَّعة بيضاء من الفلين، والمرأة من بيت لحم، التي يُقال إن غطاء رأسها المائل للخلف تحت غطاء أبيض هو إرثٌ من مملكة النورمان؛ ووسط هؤلاء جميعًا، كخلفية للوضع المعتاد الأساسي، البِذلة اليومية العابرة، والمِعطف المصنوع من قطن الكريتون، والسائح الذي يعلِّق الكاميرا في عنقه.

ومع ذلك، فإن القدس هي أكثر من مجرَّد منظرٍ خلَّاب، أكثر من مجرَّد مدينة رديئة الطراز ضمن عديد من المدن الشرقية. ربما توجد بها قاذورات، لكن لا يوجد قِرْميد أو جص، ولا توجد انهيارات ولا تغيُّر في الألوان. المباني جميعها من الحجارة، وهي حجارة ضاربة إلى البياض أشبه بالجُبن، ناصعة ومضيئة، وتحوِّلها الشمس إلى جميع درجات اللون الذهبي الضارب إلى الحمرة. لا مكانَ للسحر والرومانسية. فكل شيء صريحٌ ومتناغم. تتلاشى روابط التاريخ والاعتقاد، المتجذِّرة في ذكرياتِ الطفولة الأولى، أمام الظهور الفعلي. لقد غلَّف تدفُّق الإيمان، ومراثي اليهود والمسيحيين، وإخلاص الإسلام للصخرة المقدسة، «روح المكان» دون غموض. هذه الروح هي انبثاق مهيب يستدعي إجلالًا خرافيًّا؛ ومن ثَم ربما مستدام، ولكنها موجودة باستقلالية عنه. تعاطفها مع القادة الرومان وليس مع الكهنة. والقادة الرومان موجودون هنا مرة أخرى. يرتدون سراويل قصيرة وقبَّعات فلين، ويرُدُّون، عند مخاطبتهم، بلهجةِ يوركشاير.

في هذه البيئة المتوهِّجة، تبدو كنيسة القيامة أكثرَ الكنائس تواضعًا. يبدو ظلامُها أحلكَ مما هو عليه، وعِمارتها أسوأ، وعبادتها أدنى شأنًا. الزائر في صراع مع نفسه. فالتظاهر بالتجرد عجرفة، والتظاهر بالتوقير رياء. يكمُن الاختيارُ بينهما. ولكن فيما يخصُّني فقد تجنَّبت هذا الاختيار. قابلت صديقًا عند المدخل، وكان هو مَن أراني كيفيةَ التعامل مع الأماكن المقدسة.

كان صديقي راهبًا برداءٍ أسود، ذا لحيةٍ قصيرة وشَعرٍ طويل، وقبعةٍ أسطوانيةٍ مرتفعة.

قلت باليونانية: «مرحبًا، هل أتيتَ من جبل أثوس؟»

أجاب: «نعم، من دير دوتشياريو. اسمي جابرييل.»

«هل أنت أخو أرستارخوس؟»

«نعم.»

«وهل مات أرستارخوس؟»

«نعم. ولكن مَن أخبرك؟»

لقد وصفتَ أرستارخوس في كتابٍ آخر. كان راهبًا في فاتوبيدي، أغنى أديرة جبل آثوس، حيث وصلنا بعد خمسة أسابيع على الجبل المقدَّس، متعَبَين ونعاني سوءَ التغذية. اعتنى بنا أرستارخوس. كان فيما مضى خادمًا على متنِ يختٍ إنجليزي، وكان ينادي علينا كلَّ صباح بهذا السؤال: «في أي وقت تريدان تناوُلَ الغداء اليوم يا سيدَيَّ؟» كان شابًّا

وكفؤًا، وماديًّا، ولم يكن مناسبًا على الإطلاق لرسالةِ الرهبنة، وكان عازمًا، إن استطاع، على أن يوفِّر ما يكفي من المال لانتقاله إلى أمريكا. كان يكره الرهبانَ الكبار الذين أذلُّوه.

في أحد الأيام، بعد عام أو عامين من زيارتنا، حصل على مسدس وأطلق النار على اثنين من هؤلاء المتنمِّرين الموقَّرين. هكذا تقول القصة. المؤكَّد في الأمر أنه انتحر بعد ذلك. ظاهريًّا، لم يكن يوجد رجلٌ قَط أرجح عقلًا من أرستارخوس، وقد عمَّ الخزي والتكتم على المأساة مجتمعَ جبال آثوس.

قال جابرييل وهو ينقر بأصابعه على رأسه: «كان أرستارخوس معتوهًا.» كنت أعرف — لأن أرستارخوس قد أخبرني — أن جابرييل كان سعيدًا في رسالته، ولم يكن يرى في عنفِ أخيه سوى انحراف. تابع قائلًا، مغيِّرًا الموضوع: «هل هذه هي زيارتكما الأولى للقدس؟»

«وصلنا هذا الصباح.»

«سآخذكما في جولة في المكان. أمسِ كنت في «القبر» نفسه. غدًا سأذهب مرةً أخرى في الحادية عشرة. من هذا الطريق.»

كنا الآن في غرفةٍ دائريةٍ واسعة بارتفاع كاتدرائية، وكانت قبَّتها الضحلة مدعومةً بحلقة من دعامات ضخمة. في منتصف الأرضية الفارغة كان يوجد المَقدِس، وهو عبارة عن كنيسة مصغَّرة تشبه محرِّك سكة حديدية من طراز قديم.

سأل جابرييل: «متى كانت آخر مرة كنت فيها على جبل آثوس؟»

«في عام ١٩٢٧.»

«أتذكَّر ذلك. لقد أتيتَ إلى دوتشياريو.»

«أجل. وكيف حال صديقي سينسيوس؟»

«في خيرِ حال. لكنه ما زال صغيرًا جدًّا على أن يصبح شيخ كنيسة. تعالَ ادخل إلى هنا.»

وجدت نفسي في غرفةٍ رخامية صغيرة، منحوتة على الطراز الباروكي التركي. كان يقطع الطريقَ إلى الحرم الداخلي ثلاثةُ رهبان فرنسيسكان راكعين.

«مَن تعرف أيضًا في دوتشياريو؟»

«أعرف فرانكفورت. هل هو بخير؟»

«فرانكفورت؟»

«فرانكفورت، قِط سينسيوس.»

«آه! قِطه ... لا تُبالِ بهؤلاء الرجال؛ إنهم كاثوليك. إنه قطٌّ أسود ...»

«أجل، ويقفز.»

«أعرف. ها نحن ذا. انتبهْ لرأسك.»

خطا جابرييل، مارًّا عبر الفرنسيسكان كما لو كانوا نباتات قُرَّاص، وغاص في حفرةٍ ارتفاعها ثلاث أقدام، ينبعث منها ضوءٌ ساطع. وتَبِعته. كانت الغرفة الداخلية بمساحةِ سبع أقدام مربَّعة تقريبًا. وعلى لوحٍ منخفِض من الحجر، كانت تركع امرأة فرنسية في نشوة. وبجوارها وقف راهب يوناني آخر.

قال جابرييل لرفيقه، الذي صافحني من فوق جسدِ المرأة الفرنسية: «لقد ذهب هذا السيد المحترم إلى جبل آثوس. كان ذلك قبل ست سنوات وهو يتذكَّر قِط سينسيوس ... هذا هو «القبر»» — وأشار إلى لوحٍ من الحجر — «سأكون هنا طَوال اليوم غدًا. يجب أن تأتي وتقابلني. لا يوجد متسع، أليس كذلك؟ هيا نخرج. الآن سأريك الأماكن الأخرى. هذا الحجر الأحمر هو الموضع الذي غسَّلوا فيه الجسد. أربعة من المصابيح يونانية، والأخرى كاثوليكية وأرمينية. مُجسَّم صلْب المسيح في الطابق العُلوي. اطلب من صديقك أن يأتي. هذا هو الجزء اليوناني، وذلك الكاثوليكي. لكن هؤلاء الذين عند المذبح اليوناني كاثوليك؛ لأن مُجسَّم صلْب المسيح كان هناك. انظر إلى النقش فوق الصليب. إنه من الماس الحقيقي، وقد أُهدي من القيصر. وانظر إلى التمثال. يأتي الكاثوليك ويقدِّمون للسيدة العذراء هذه الأشياء.»

أشار جابرييل إلى علبةٍ زجاجية. رأيت في داخلها تمثالًا شمعيًّا للعذراء، ملفوفًا في دعامة من السلاسل والساعات والقِلادات.

أخبرت جابرييل بخبث: «صديقي هذا كاثوليكي.»

«أوه، أحقًّا؟! وماذا عنك؟ هل أنت بروتستانتي؟ أم لا شيء على الإطلاق؟»

«أعتقد أنني سأكون أرثوذكسيًّا أثناء وجودي هنا.»

«سأخبِر الربَّ بذلك. أترى هاتين الفتحتين؟ وضعوا المسيح فيهما، كلٌّ ساق في واحدة.»

«ولكن هل ذلك في الكتاب المقدَّس؟»

«بالتأكيد هو في الكتاب المقدَّس. هذا الكهف هو مكان الجُلجُثة. ذلك هو المكان الذي شقَّ الزلزال فيه الصخرة. كان لأمي في ساموس ثلاثة عشر ولدًا. لم يتبقَّ منهم الآن سوى أخي في أمريكا، وأختي في القسطنطينية، وأنا. ذلك الذي هناك هو قبر نيقوديموس، وذلك قبر يوسف الرامي.»

«وما القبران الصغيران؟»

«هما لأبناء يوسف الرامي.»

«ظننت أن يوسف الرامي قد دُفن في إنجلترا.»

ابتسم جابرييل وكأنه يقول: «قُل ذلك للبحرية.»

وتابع قائلًا: «ها هي ذي صورة للإسكندر الأكبر وهو يزور القدس، وفي استقباله أحد الأنبياء، لا أتذكَّر أيُّهم.»

«ولكن هل سبق أن زار الإسكندر القدس؟»

«بالتأكيد. أنا لا أخبرك إلا بالحقيقة.»

«أعتذر. ظننت أنها قد تكون أسطورة.»

خرجنا أخيرًا إلى ضوء النهار.

«إذا أتيت وقابلتني بعد غد، فسأخرج من القبر مرةً أخرى. إنني أخرج في الساعة الحادية عشرة، بعد أن أمضي الليل كلَّه بالداخل.»

«ولكن ألن ترغب في أن تنام؟»

«نعم. أنا لا أحب النوم.»

الأماكن المقدَّسة الأخرى هي حائط المبكى وقبَّة الصخرة. بإيماء الرءوس والنحيب فوق كتبهم، وإقحام رءوسهم في صدوع البناء الحجري الضخم، ليس المنتحِبون اليهود أكثرَ جاذبيةً من المصلين في الضريح. ولكن يوجد ضوء على الأقل؛ حيث تشرق الشمس، والجدار نفسُه يشبه جدران إمبراطورية الإنكا. تخفي قبَّة الصخرة جُرفًا هائلًا، انطلق منه النبي محمد في معراجه إلى السماء. وها هو ذا أخيرًا، بغضِّ النظر عما يرتبط به، أثرٌ جدير بالقدس. مِنصة من الرخام الأبيض، تمتد على مساحةِ عدة أفدنة، وتُطِلُّ على أسوار المدينة وجبل الزيتون، وعلى مقربة منها من جوانب مختلِفة ثماني مجموعات من درجات السلالم تبرزها خطوطٌ من الأقواس. في منتصف المِنصة يقف، متضائلًا بسبب المساحة المحيطة به، مُثمَّنٌ منخفِضٌ متلألئ ببلاطات زرقاء، ويشكِّل دعامة لأسطوانة من البلاط الأزرق، عَرضُها حوالَي ثُلث المُثمَّن. أعلى الأسطوانة، توجد قبَّة بصليةُ الشكل بعض الشيء، ومنثور عليها طلاء ذهبي قديم. على أحد الجوانب ينتصب مُثمَّن آخر مصغَّر، كما لو كان ابن المُثمَّن الأكبر، مرتكِزًا على أعمدة ويظلِّل نافورة. يحمل الجزء الداخلي طابَعًا يونانيًّا؛ فلا بد أن الأعمدة الرخامية، التي تدعم التيجان البيزنطية، والقناطر من الفسيفساء الذهبية، المزينة بأرابيسك مُدوَّر، من أعمالِ حِرفيين يونانيين. وتُخلِّد الحواجز الحديدية ذكرى

فترةٍ مسيحية فاصلة، حوَّل فيها الصليبيون المكان إلى كنيسة. أما المسجد، فقد تأسَّس في القرن السابع. غير أن عصورًا كثيرة قد أسهمت في هيئته الحالية. في وقت متأخر، أُعيدت زخرفة التيجان البيزنطية لتصبح مشرقةً للغاية. سيخفُّ لمعانُها بمرور الوقت.

عندما رأينا المسجد لأول مرة، كان قد فات أوان دخوله، ولكن كان بإمكاننا فقط أن نلقي نظرةً سريعة عليه من المدخل في نهاية شارع الملك داود. اعترض رجلٌ عربي طريقنا، وبدأ في إخبارنا بالمعلومات. قلت إنني أفضِّل أن «أرى» المسجد في الوقت الحالي، وأن أسمع عنه غدًا، فهل يتلطَّف ويتنحَّى جانبًا؟ ردًّا على هذا أجاب: «أنا عربي وسأبقى حيث أريد. هذا مسجدي وليس مسجدك.» يا له من لُطف عربي.

ذهبنا هذا المساء إلى بيت لحم. كان الغسق قد حلَّ بالفعل، ولم نتمكَّن من تمييز صفوف الأعمدة المهيبة التي تقوم عليها الكنيسة. كان المرشدون أكثرَ إزعاجًا مما كانوا عليه في الضريح. تركت كريستوفر وحدَه لرؤية المِذود، أو أيًّا كان ما يعرِضونه.

القدس، ٧ سبتمبر: بينما كنت جالسًا تحت شجرة زيتون في ساحة قبَّة الصخرة، جاء صبي عربي ليشاركني الظل ويراجع دروسه بصوتٍ عالٍ. كانت دروسًا في اللغة الإنجليزية. كرَّر قائلًا: “Gulfs and Promòntories, Gulfs and Promòntories, Gulfs and Promòntories” (الخُلجان والنتوءات البحرية، الخُلجان والنتوءات البحرية، الخُلجان والنتوءات البحرية).

قاطعتُه قائلًا: «تُنطق Pròmontories وليس Promòntories.»

“Gulfs and Pròm-òntories, Gulfs and Pròm-òntories, Gulfs and Pròm-òntories Deliver Mosul, Deliver Mosul, Deliver Mosul. Gulfs and …” (الخُلجان والنتوءات البحرية، الخُلجان والنتوءات البحرية، الخُلجان والنتوءات البحرية، سلِّموا الموصل، سلِّموا الموصل، سلِّموا الموصل، الخُلجان و…) قال إنه كان الأول على صفِّه في مادة الرسم، ويأمُل أن يذهب إلى القاهرة؛ حيث يمكنه أن يدرُس ليصبح فنانًا.

أقام ستوكلي حفلَ عشاء الليلةَ الماضية؛ حيث برهن ضيفان عربيان أنهما صحبة طيبة. أحدهما، الذي كان يعمل في وزارة الخارجية التركية، كان يعرف كمال ووالدته في الأيام الخوالي. أثناء الحرب كان قنصلًا في سالونيك، التي رحَّله منها ساريل إلى تولون، وهي معاناة بلا داعٍ؛ لأن الحدود التركية كانت قريبة جدًّا، وقد نتج عنها أنه فقدَ جميعَ أثاثه وممتلكاته. تحوَّل الحديث عن الزعيم اليهودي أرلوسوروف، الذي أُطلِق عليه النار على رمال يافا بينما كان يسير مع زوجته. من المفترض أن القتلة كانوا من التصحيحيين

القدس: قبَّة الصخرة.

اليهود، وهو حزبٌ متطرِّف يريد التخلص من الإنجليز وإقامة دولة يهودية. لا أعرف إلى متى يظنون أن العرب سيتحمَّلون وجودَ يهودي واحد بمجرد رحيل الإنجليز.

هذا الصباح ذهبنا إلى تل أبيب ضيوفًا على السيد جوشوا جوردون، المروِّج الأكبر للوكالة اليهودية. في البلدية، حيث استُقبل كريستوفر باعتباره ابنًا لأبيه، كان معلَّقًا على الجُدران صورًا شخصية لدعاة الصهيونية: بلفور، وصامويل، وألنبي، وأينشتاين، وريدينج. وأظهرت خريطةٌ تطوُّر المكان عبر السنين، من مدينةٍ فاضلة مكافحة تضم ٣٠٠٠ نسمة فقط إلى مجتمعٍ متفجِّر يضم ٧٠٠٠٠ نسمة. ونحن نتناول نبيذَ هوك الأبيض من يافا في فندق فلسطين، اختبرت الحجج العربية على السيد جوردون. كان

مزدريًا لها. كانت قد شُكِّلَت لجنة لرعاية العرب الذين لا يملكون أراضي. ولم تتمكَّن من العثور إلا على بضع مئات منهم. في نفس الوقت، كان عرب إمارة شرق الأردن يتوسَّلون إلى اليهود كي يذهبوا إلى هناك ويطوِّروا المنطقة.

سألته عما إذا كان ذلك يمكن أن يدفع اليهود، حتى ولو على مضض، لاسترضاء العرب بغيةَ تحقيق السلام في المستقبل. أجاب السيد جوردون بالنفي. فالأساس الوحيد الممكن لتفاهمٍ عربي يهودي هو معارضة مشتركة للإنجليز، وهذا ما لن يُقرَّه قادة اليهود. «إذا كان للمنطقة أن تتطور، فلا بد للعرب أن يعانوا؛ لأنهم لا يحبون التطور. ولا نقاش في ذلك.» قد حظي أبناء الصحراء في الآونة الأخيرة بما يكفي من المدافعين عن قضيتهم. وأجد أنه من المنعِش أكثر أن أفكِّر في ميزانية موسعة — الميزانية الوحيدة في العالم في الوقت الحالي — وأن أهنِّئ اليهود.

كان الإيطاليون فئةً مخادعة أخرى في نظر السيد جوردون. فمنذ وقتٍ مضى، حاول هو وآخرون إنشاء خط ملاحي أنجلو فلسطيني، يمكن أن يحمل البريد بدلًا من القوارب الإيطالية. ولكنهم فشلوا لعدم تعاون الإنجليز. يقدِّم الإيطاليون تعليمًا مجانيًّا في روما لجميع الفلسطينيين، وبأسعار مخفَّضة. ومما لا يمكن إنكاره أن حوالي ٢٠٠ فقط يذهبون سنويًّا. لكن السيد جوردون شعر بالمرارة عندما فكَّر في الصعوبات التي يواجهها أيُّ طالب يرغب في إنهاء تعليمه في لندن، حتى على نفقته الخاصة.

بعد زيارة حزام أشجار البرتقال ودار الأوبرا، ذهبنا للسباحة. فجأةً، من بين الحشد الذي على الشاطئ، خرج السيد آرانسون من العبَّارة «إيطاليا». «مرحبًا، مرحبًا، هل أنتم هنا أيضًا؟ القدس خاملة جدًّا في هذا الوقت من العام، أليس كذلك؟ لكني قد آتي في زيارةٍ سريعة غدًا. إلى اللقاء.»

لو كانت تل أبيب في روسيا، لتكلَّم العالم بحماسةٍ بالغة عن تخطيطها وعمارتها، وحياتها المجتمعية الباسمة، ومساعيها الفكرية، وأجواء الشباب التي تكلِّلها. لكن الاختلاف عن روسيا هو أن هذه الأشياء ليست مجرد هدف مستقبلي، وإنما حقيقة واقعة.

القدس، ١٠ سبتمبر: أمسِ تناولنا طعام الغداء مع الكولونيل كيش. دخل كريستوفر الغرفةَ أولًا. لكن الكولونيل توجَّه إليَّ قائلًا: «أنت، حسبما أرى، ابن السير مارك سايكس»، وهذا يعني، كما افترضنا، أنه لا يمكن لأي رجل إنجليزي من هذا النَّسب أن تكون له لحية. أبلغَنا مضيِّفُنا أثناء الغداء بوفاة الملك فيصل في سويسرا. عُلِّقت على الحائط لوحةٌ جميلة للقدس بريشة روبين، الذي كان السيد جوردون قد انتوى أن نزوره في تل أبيب إن لم يكن خارجها.

ذهبت للسباحة في جمعية الشبان المسيحيين المقابِلة للفندق. استلزم هذا أن أدفع شلنين، وأن أتخلَّى عن شرط الفحص الطبي، وأن أغيِّر ملابسي وسط كثير من الأقزام المشعرين الذين كانت تفوح منهم رائحة الثوم، وأخيرًا أن آخذ حمَّامًا ساخنًا مصحوبًا بجدال حادٍّ لأنني رفضت فرْك جسمي بقطعة من الصابون المبيد للحشرات. وصلت بعد ذلك إلى المسبح، وسبحت بضع ياردات دخولًا وخروجًا من محيطِ مباراة كرة قدم مائية أدارها مدرِّب التربية البدنية، وخرجتُ تفوح مني رائحة المُطهِّر حتى إنني اضطُررت إلى الإسراع في العودة والاستحمام قبل الخروج لتناول العشاء.

تناولنا العشاء مع المفوَّض السامي بسرورٍ شديد. لم يكن يوجد أيٌّ من تلك الشكليات الرسمية التي تكون جيدة جدًّا في التجمعات الكبيرة، ولكنها تكون محرجةً في الصغيرة منها. في الواقع، لولا الخَدم العرب، لكانت الأجواء أشبهَ بتناولنا الطعامَ في منزل ريفي إنجليزي. هل كان بيلاطس البنطي يُذكِّر ضيوفَه بإقطاعي إيطالي؟

كان الناس يرقصون في الفندق عندما عُدنا. قابل كريستوفر أحدَ أصدقاء الدراسة في البار، والذي رجاه، بحق مدرستهما، أن يحلق لحيته. «ما أقصد أن أقوله، يا سايكس، كما تعلم، قطعًا، لا، لا أحب أن أقول ذلك، حسنًا، ما أقصده، بالتأكيد، لا عليك، قطعًا أفضِّل ألا أقول ذلك، كما ترى يا صديقي القديم الأمر وما فيه، أعني قطعًا كنت سأحلق تلك اللحية لو كنت مكانك؛ لأن الناس قطعًا يظنون أنك، كما تعرف، أقصد، لا، صدقًا لن أقول ذلك، قطعًا لا يمكنني، لن يكون من العدل، قطعًا لن يكون كذلك، حسنًا إذَن، إذا كنت تريد حقًّا أن تعرف، فقد اضطررتني أن أقول ذلك، أليس كذلك، قطعًا، الأمر وما فيه، أقصد أن الناس قد تظن أنك سوقيٌّ نوعًا ما كما تعلم، قطعًا.»

عندما أوى الجميع إلى الفِراش، مشيت إلى البلدة القديمة. كان الضباب يكتنف الشوارع؛ فكادت تبدو مثل لندن في شهر نوفمبر. في كنيسة القيامة، كان يوجد قدَّاس أرثوذكسي عند القبر، بمصاحبة جوقة من الفلاحات الروسيات. غيَّرت تلك الأناشيد الروسية كلَّ شيء، وأصبح المكان مهيبًا وحقيقيًّا عندما خرج الأسقف ذو اللحية البيضاء في تاجه الماسي البصلي الشكل ورِدائه المطرَّز، من باب المَقدِس إلى وهج الشموع الخافت. ظهر جابرييل، ودفعني بعد القدَّاس إلى غرفة المُقدَّسات لاحتساء القهوة مع الرجل العجوز وأمين الخزينة. كانت الساعة الثالثة والنصف عندما عُدت إلى الفندق.

سوريا، دمشق (٢٢٠٠ قدم)، ١٢ سبتمبر: هنا تجِد الشرق في فوضاه المثالية. تُطلُّ نافذتي على شارع ضيِّق مرصوف بالحصى، اختفت مؤقتًا رائحته المتمثلة في الطهي المليء

بالتوابل في تيار من هواء بارد. إنها ساعة الفجر. يتحرَّك الناس بنشاط، يحفِّزهم النداء الروحاني للمؤذن من مئذنة صغيرة مقابِلة، وترديد المآذن الأخرى البعيدة. وعاجلًا سيبدأ ضجيج الباعة وقعقعة الحوافر.

يؤسفني أنني غادرت فلسطين. إنه لمن المنعِش للمعنويات أن تجد بلدًا يتمتَّع بجمال طبيعي رائع، وعاصمة يستحق مظهرها الشهرة التي تحظى بها، وزراعة مزدهرة وعائد متزايد زيادة مذهلة، وبذرة ثقافة محلية حديثة متمثِّلة في رسامين وموسيقيين ومعماريين، وحكومة يشبه سلوكها سلوك لورد ضيعة إقطاعية خيِّر مع مَن يعولهم. لا حاجةَ لأن تكون صهيونيًّا لترى أن الفضل في هذا الوضع الراهن يرجع لليهود. إنهم يتدفَّقون على البلاد. في العام الماضي، مُنح ٦٠٠٠ منهم تصاريح دخول: وصل ١٧٠٠٠ شخص، ودخل ١١٠٠٠ شخص إضافي عن طريق الحدود التي لا يمكن السيطرة عليها. بمجرد وصولهم إلى فلسطين، يرمون بجوازات سفرهم؛ ومن ثَم لا يمكن ترحيلهم. ومع ذلك، يبدو أن هناك وسائل لدعمهم. فهم يملكون روح المبادرة، والمثابرة، والتدريب التقني، ورأس المال.

يظهر في الأفق عداءٌ عربي. يبدو لأي مراقب من الخارج أن الحكومة، بإذعانها لحساسية العرب، تشجِّع إحساسهم بالغَبن، ولكنها لا تنال رضاهم. العرب يكرهون الإنجليز، ولا يهدرون أيَّ فرصة للتنفيس عن سوء أخلاقهم معهم. لا أستطيع أن أفهم كيف يدعم هذا قضيتهم لدى الحكومة. فليس لديهم عذر الهنود؛ أي التمييز العنصري.

في الليلة الماضية على العشاء، كان كريستوفر يتحدَّث عن بلاد فارس، عندما لاحظ مجموعة على الطاولة نفسها تحدِّق إلينا. وفجأةً سمِعهم يتحدثون الفارسية. حاول أن يتذكَّر، وهو يهمس لي، إن كان قد قال أي شيء فيه ازدراء للشاه أو بلده. يبدو أننا نوشك على التعامل مع استبداد يختص بحساسيات معاصرة، ولكنه يضاهي استبدادَ العصور الوسطى. حدثت مشكلة دبلوماسية عندما أخبرت السيدة نيكولسون الجمهور الإنجليزي أنها لا تستطيع شراء مربى المرملاد في طهران.

دمشق، ١٣ سبتمبر: مع أنه رُمِّم عدة مرات على إثر حريق نشب في عام ١٨٩٣، يعود تاريخ الجامع الأموي إلى القرن الثامن. يضاهي حُسن تناسُب أبعاد رواقه المقنطر الكبير، والشرفة أعلاه، مكتبة سانسوفينو في فينيسيا، ويمتد بتناغم يضارعها فخامةً، بطرازه الإسلامي غير المزخرف. في الأصل، كان السطح غير المزخرف مكسوًّا بفُسيفساء لامعة. تبقَّى بعضها، ويمثِّل المشاهد الطبيعية الأولى من التراث الأوروبي. مع كلِّ ما بهذه المشاهد الطبيعية من إبداعٍ يضاهي إبداع جداريات بومبي، بقصورها ذات الأعمدة وقلاعها

المحاطة بالصخور، فهي مَشاهد طبيعية حقيقية، أكثر من مجرد زخرفة، متعلِّقة داخل قيود منهجية بتماثل شجرة أو بطاقة مجرًى مائي. لا بد أن مَن صنعوها هم الإغريق، وقد استبَقوا، على نحوٍ صحيح جدًّا، المشاهد الطبيعية التي رسمها إل جريكو لتوليدو. حتى الآن، بينما يدرك ضوء الشمس جزءًا من الجدار الخارجي، يمكن للمرء أن يتخيل البهاء الأول للونين الأخضر والذهبي، عندما أضاءت الساحة بأكملها بتلك المشاهد الساحرة التي تصوَّرها الخيال العربي للتعويض عن الجفاف الدائم للصحراء.

بيروت، ١٤ سبتمبر: كي نأتي إلى هنا، أخذنا مقعدَين في سيارة. إلى جانبنا، في الخلف، جلس رجل عربي ضخم البنية، جعله زيُّه يشبه الدبور بعباءةٍ ذات خطوط سوداء وصفراء، وكان يمسك بين ركبتَيه بسلة من الخضراوات. في المقدمة، كانت تجلس أرملة عربية، برفقتها سلةٌ أخرى من الخضراوات وابنٌ صغير. وكل عشرين دقيقة كانت تتقيأ من النافذة. أحيانًا كنا نتوقف؛ وعندما لم نكن نتوقف، كان قيئها يتطاير راجعًا إلى السيارة من النافذة الأخرى. لم تكن ثلاث ساعات لطيفة.

جلب البريد قصاصات من الصحف تصف رحيل الفحَّامين. حتى صحيفة «ذا تايمز»، كان بها نصف عمود. وأوردت صحيفة «ديلي إكسبريس»:

> غادر خمسة رجال فندق ويست إند الليلة الماضية في حملةٍ استكشافية سرية. قد تكون أكثرَ حملة استكشافية رومانسية على الإطلاق.
>
> غادروا لندن إلى مرسيليا والصحراء الكبرى. بعد ذلك، عرف بضعة رجال الوجهةَ التي ينبغي أن يتجهوا صوبها.
>
> إعلان مبتسَر، قد يؤدي إلى تبِعات سياسية خطيرة ...
>
> هؤلاء الرجال الخمسة سيسافرون في شاحنتين تعملان بمحركات غاز محمولة. الوقود المستخدَم هو الفحم العادي، ولا حاجة للتزود بالوقود إلا كل خمسين أو ستين ميلًا. هذه هي المرة الأولى التي يُستخدم فيها هذا الاختراع الجديد، ولكن من المحتمل أن يُستخدم عالميًّا للنقل البري في المستقبل.

إنه لمن المزعج أن يجد المرءُ اسمه مرتبطًا بمثل هذا الهراء.

ننتظر الآن العبارة «شامبليون»، بالسيارات والجمع على متنها.

بيروت، ١٦ سبتمبر: لقد تحقَّقت توقعاتي.

صعدت على متن العبارة «شامبليون» عند بزوغ الفجر. جولدمان؟ هندرسون؟ شاحنتان؟ لم يسمع بهم أحد. لكن رَتر كان هناك، وفي جَعبته حكاية كارثية وعبثية.

تعطَّلت العربتان في أبفيل. كان من الممكن أن تستمرا في العمل بالبنزين، لكنهما أُعيدتا سرًّا إلى إنجلترا؛ حيث من المقرَّر أن يُجرى مزيدٌ من التحسين على الاختراع، وأن يشهد بداية جديدة، دون علم الصحافة هذه المرة، في غضون شهر أو نحو ذلك. وخوفًا من أن أعود أنا أيضًا، وأن يكشف وجودي في لندن عن فشل الأمر، أُرسل رتر مقدمًا ليسهِّل وصولي بأمان إلى بلاد فارس. في الواقع، أنا مفوَّض مجاني بصلاحيات وسِمات مُبتز.

أمضينا معظمَ اليوم في البحر، نتعافى من الصدمة، وحجزنا أماكنَ في حافلة شركة نيرن المتَّجهة إلى بغداد يوم الثلاثاء.

جاء السيد نيرن بنفسه لتناول مشروب هذا المساء، متسائلًا في فضول عن السيارات التي تعمل بالفحم. بعدما ظل يسمع بالاختراع لسنوات عديدة، أو غيره من الاختراعات المشابِهة، كان متشككًا، ولم نتمكَّن حتى مع أفضل إرادة في العالم من التصدي لثقته الكبيرة في شكوكه. سوريا بأكملها متحمِّسة جرَّاء صور حافلة بولمان الجديدة، التي ستصل في شهر نوفمبر.

دمشق، ١٨ سبتمبر: منذ وصولنا على هذه السواحل، تعلَّمت أنا وكريستوفر أن تكلفة كلِّ شيء بدءًا من جناح ملكي في الفندق إلى زجاجة المياه الغازية، يمكن خفضها إلى النصف ببساطة بأن نقول إنه يجب خفضها إلى النصف. وقد أحسنَّا استخدام أسلوبنا في الفندق الذي في بعلبك.

«أربعمائة قرش مقابل «تلك» الغرفة؟ هل قلت «أربعمائة»؟ يا إلهي! لنذهب! استدعِ السيارة. ثلاثمائة وخمسون؟ أتقصد «مائة» وخمسين؟ ثلاثمائة؟ هل أنت أصم، ألا تسمع؟ قلت مائة وخمسون. يجب أن نذهب. توجد فنادق أخرى. تعالَ، حمِّل الأمتعة. أشك في أننا سنبقى في بعلبك أصلًا.»

«لكن يا سيدي، هذا فندقٌ من فنادق الدرجة الأولى. أقدِّم لك عشاءً جيدًا جدًّا، من خمسة أطباق. وهذه أفضل غُرفنا يا سيدي، بها حمَّام ومُطلة على الآثار، إنها جيدة جدًّا.»

«رُحماك يا إلهي، هل الآثار ملكك؟ هل يجب أن ندفع ثمن الهواء الذي نتنفَّسه؟ خمسة أطباق على العشاء أكثر من اللازم، ولا أظن أن الحمَّام يعمل. ما زلت تقول ثلاثمائة! خفِّض السعر. أقول خفِّضه قليلًا. هذا أفضل، مائتان وخمسون. قلتُ مائة وخمسون. سأقول مائتان. سيتعين عليك دفع الخمسين الأخرى من جيبك، أليس كذلك؟ حسنًا «افعل»، من فضلك، سيسعدني ذلك. مائتان إذَن؟ لا؟ جيد جدًّا. (نركض إلى الطابق السفلي ونخرج من الباب). وداعًا. ماذا؟ لم أسمع. مائتان. ظننت ذلك.

والآن، نريد ويسكي وصودا. كم تأخذ في مقابل ذلك؟ خمسين قرشًا. خمسين قرشًا حقًّا. مَن تظننا؟ على أي حال أنت تقدِّم دائمًا كثيرًا جدًّا من الويسكي. سأدفع «خمسة عشر» قرشًا وليس خمسين. لا تضحك. ولا تنصرف أيضًا. أريد بالضبط هذا القدر من الويسكي، لا أكثر ولا أقل؛ تلك نصف حصة فقط. أتقول ثلاثين؟ وهل الثلاثون نصف الخمسين؟ هل يمكنك الحساب؟ وماء الصودا، بالطبع. عشرون إذَن. لا «ليس» خمسة وعشرين. عشرون. ثَمَّة فرق كبير، فقط لو كنت تدركه. أحضِر الزجاجة في الحال، وبحقِّ السماء كُفَّ عن الجدال.»

أثناء العشاء المكوَّن من خمسة أطباق، أثنينا على الرجل لتقديمه بعضَ الطيور الدسمة.

ردَّ قائلًا: «إنها طيور الحَجَل يا سيدي، أُسمِّنها في أقفاص صغيرة.»

يكلف الدخول للآثار خمسة شلنات للفرد لكل زيارة. بعد أن حصلنا على تخفيض لهذه الرسوم بمكالمة هاتفية لبيروت، عبَرنا الطريق لزيارتها.

أسمع بالفرنسية: «هل تريد مرشدًا يا سيدي؟»

صمت.

ثم بالفرنسية: «هل تريد مرشدًا يا سيدي؟»

صمت.

بالفرنسية: «ماذا تريد يا سيدي؟»

صمت.

بالفرنسية: «من أين أنت يا سيدي؟»

صمت.

بالفرنسية: «إلى أين أنت ذاهب يا سيدي؟»

صمت.

بالفرنسية: «هل لديك شئون هنا يا سيدي؟»

أجبت بالفرنسية: «لا.»

بالفرنسية: «هل لديك شئون في بغداد يا سيدي؟»

أجبت بالفرنسية: «لا.»

بالفرنسية: «هل لديك شئون في طهران يا سيدي؟»

أجبت بالفرنسية: «لا.»

بالفرنسية: «حسنًا، ماذا تفعل يا سيدي؟»
أجبت بالفرنسية: «أنا في رحلة إلى سوريا.»
بالفرنسية: «هل أنت ضابط بحري يا سيدي؟»
أجبت بالفرنسية: «لا.»
بالفرنسية: «إذَن، ماذا تكون يا سيدي؟»
أجبت بالفرنسية: «رجل.»
بالفرنسية: «ماذا؟»
أجبت بالفرنسية: «رجل.»
بالفرنسية: «فهمت. سائح.»

حتى كلمة «رحَّالة» قد عفا عليها الزمن، ولسببٍ ما أصبح لها طابع إطرائي. كان الرحَّالة قديمًا شخصًا يذهب بحثًا عن المعرفة، وكان السكان الأصليون يفتخرون بالترفيه عنه بالأمور المثيرة للاهتمام في ثقافتهم المحلية. في أوروبا تبدَّد منذ فترة طويلة هذا المسلك الذي ينطوي على التقدير المتبادل. لكن هناك على الأقل لم يعُد «السائح» ظاهرةً. إنه جزء من المشهد الطبيعي، وفي تسعِ حالات من أصل عشر يتبقَّى لديه القليل من المال لينفقه بعد ما دفعه مقابل جولته السياحية. أما هنا، فلا يزال يُنظر له على أنه شذوذ عن المألوف. إذا كان بإمكانك القدوم من لندن إلى سوريا للعمل، فلا بد أنك غني. فإذا كان بإمكانك قطْع كل هذه المسافة دون أن يكون ذلك من أجل العمل، فلا بد أنك غني جدًّا. لا أحد يهتم بما إذا كنت قد أُعجبت بالمكان أو كرهته، أو بالسبب. أنت ببساطةٍ سائح، تمامًا مثلما أن الظربان ظربان؛ أي إنك كائن مهجَّن طفيلي من الأنواع البشرية، موجود من أجل أن يُستغل مثل بقرة حلوب أو شجرة صمغ.

عند الباب الدوار، حيث الفَعْلة الشنيعة الأخيرة، استغرق رجل خَرِف ومشلول عشرَ دقائق لكتابة كل تذكرة. بعدها فررنا من هذه التفاهات إلى مجد العصور القديمة.

تمثِّل بعلبك انتصارَ الحجَر؛ بعظمة جواهري يجعل مقياس لغته — فالسكون هو لغة العين — مدينةً مثل نيويورك تتضاءل أمامها لتصبح قريةَ نمل. الحجر بلون الخوخ، وموسوم بلونٍ ذهبي ضارب إلى الحمرة مثلما أعمدة كنيسة سانت مارتن إن ذا فيلدز موسومة بالسُّخام. ولها قوام مرمري غير شفَّاف، لكنه مغبَّر قليلًا، كغبار الطلع على ثمرةٍ برقوق. الفجر هو الوقت المناسب لرؤيتها، لترفع عينيك إلى الأعمدة الستة، عندما يلمع الهواء الذهبي الخوخي والأزرق بتألقٍ متساوٍ، وحتى القواعد الفارغة التي لا تحمل أيَّ أعمدة

لها هوية حية تباركها الشمس في مواجهة لُجج السماء البنفسجية. ارفع ناظرَيك، ارفع ناظرَيك فوق هذا النسيج المستخرَج، هذه الأعمدة الأضخم بثلاثة أمثال، إلى تيجان الأعمدة المكسورة والإفريز الذي يبلغ في ضخامته حجم منزل، كلها تطفو في زُرقة السماء. تَخطَّ بناظريك الجدران إلى الأيكات الخضراء لأشجار الحور ذات السيقان البيضاء، وتَخطَّها بناظريك إلى لبنان الذي يبدو من بعيدٍ وميضًا بنفسجيًّا وأزرقَ وذهبيًّا ووورديًّا. انظر على طول الجبال إلى الفراغ؛ الصحراء، ذلك البحر الحجري الفارغ. ارتشفِ الهواء العالي. اضربِ الحجر بيديك الناعمتين. ودِّعِ الغرب إن كنت منه. ثم اتَّجِه «سائحًا» إلى الشرق.

فعلنا ذلك، عندما أُغلقت المواقع الأثرية. كان الغسق قد حل. وكان سيدات وسادة في مجموعات منفصلة في نزهات خلوية على مرْج عشبي، بجانب مجرًى مائي. جلس بعضهم على الكراسي بجوار نوافير رخامية يدخِّنون النارجيلة، وجلس آخرون على العشب أسفل أشجارٍ موسمية يتناولون الطعام بجوار فوانيسهم. ظهرت النجوم واكتست منحدرات الجبال بالسواد. شعرتُ بسلام الإسلام. والسبب في أنني أذكر هذا الشعور العادي، هو أن ذلك السلام منتفٍ الآن في مصر وتركيا، بينما يظهر الإسلام في الهند، بطابع هندي فريد وحصري، مثل كل شيء آخر. وبطريقةٍ ما الأمر كذلك؛ لأنه لا يمكن لأي شخص أو مؤسسة التعاملُ مع مثل هذه البيئة القاهرة دون تغيُّر في الهوية. لكن سأقول هذا بناءً على تقديري الشخصي: عندما كنت أسافر في المناطق ذات الأغلبية المسلمة في الهند دون معرفةٍ مسبقة ببلاد فارس، قارنت نفسي بهندي يراقب التقاليد الأوروبية، وكان قد بدأ رحلته من شواطئ بحر البلطيق وليس من البحر الأبيض المتوسط.

بعد ظهيرة أمس في بعلبك، اشتكى كريستوفر من الإجهاد واستلقى على سريره؛ الأمر الذي أرجأ ذهابنا حتى حلَّ الظلام والبرد القارس فوق مرتفَعات لبنان. عندما وصلنا إلى دمشق، ذهب إلى الفِراش بعد أن تناول قرصين من الكينين، وأُصيب بصداعٍ حتى إنه حلم بأنه وحيد قرن، واستيقظ هذا الصباح ودرجة حرارته ١٠٢ فهرنهايت، مع أن الأزمة قد ولَّت. ألغينا حجز مقاعدنا في حافلة نيرن ليوم غد، وبدلًا من ذلك حجزناها ليوم الجمعة.

دمشق، ٢١ سبتمبر: أقحم شابٌّ يهودي نفسه في معيَّتنا. حدث هذا لأنه يوجد نادل في الفندق هو صورة طبق الأصل من هتلر، وعندما علَّقتُ على الأمر انفجر اليهودي والمدير والنادل نفسه في نوبة من الضحك الهستيري حتى إنهم لم يستطيعوا الوقوف.

أثناء عبورنا أنا ورتر منطقةً مغبرةً بعض الشيء، خلَّفها القصف الفرنسي خرابًا، رأينا عرَّافًا يرسم علامات على صينيةٍ تحوي رمالًا، بينما كانت امرأة فقيرة وطفلها المصاب

بالهزال ينتظران خبرًا عن مصير الطفل. وفي الجوار، كان يوجد عرَّاف آخر مثله، ولم يكن معه أحد. جلست القرفصاء. ووضع القليل من الرمل في راحة يدي، وطلب مني أن أنثره على الصينية. ثم رسم بيده ثلاثةَ خطوط غير مقروءة في الرمل، ومرَّ عليها بيده مرة أو مرتين وكأنه يتعامل مع بطاقاتِ لعبة سوليتير، وتوقَّف مفكرًا قبل أن يرسم فجأة خطًّا قُطريًّا عميقًا وينطق بهذه الكلمات، التي أتصوَّر أن رتر، الذي أمضى فيما مضى تسعة أشهر في مكة متنكرًا في هيئة رجل عربي، قد ترجمها بدقة كافية:

«لديك صديق أنت تحبُّه وهو يحبك. في غضون أيام قليلة، سيرسل لك بعض المال لتغطية نفقات سفرك. وسينضم إليك لاحقًا. ستكون رحلتك ناجحة.»

يبدو أن قدراتي الابتزازية تعمل من تلقاء نفسها.

الفندق مملوك للسيد علوف، الذي يقطن أبناؤه في الطابق العُلوي. وفي إحدى الأمسيات قادنا إلى قبوٍ من دون تهوية تصطفُّ فيه صناديق زجاجية وخِزانة. ومنها أخرج الأغراضَ التالية:

زوجًا من الأواني الفضية الكبيرة، مختومة برموز مسيحية وصورة بشارة مريم.

ووثيقةً مكتوبة على قطعة قماش بلون الطين، يبلغ طولها بين ثلاث وأربع أقدام، وعرضها ثماني عشرة بوصة، يُدَّعى أنها وصية أبي بكر، الخليفة الأول، ويُقال إن عائلة الملك حسين جلبتها من المدينة المنورة في عام ١٩٢٥.

وزجاجةً بيزنطية من الزجاج الأزرق الداكن رقيقة كقشرة بيضة، غير مكسورة، وارتفاعها حوالي عشر بوصات.

ورأسًا هِلينِستيًّا ذهبيًّا، بشفتين مفترقتين، وعينين زجاجيتين، وحاجبين أزرقين زاهيين.

ومومياء ذهبية في صندوق.

وتمثالًا صغيرًا من الفضة بطول تسع بوصات ونصف البوصة، ونظرًا لعدم وجود ما يُقارَن به، وصفه السيد علوف بأنه ينتمي إلى الحضارة الحيثية. هذا الشيء، إن كان أصليًّا، فلا بد أن يكون أحد أبرز الاكتشافات في السنوات الأخيرة في الشرق الأدنى. التمثال على هيئة رجل، بكتفٍ عريضة وفخذين نحيلين. يعتمر قبَّعةً مدبَّبةً طولها يوازي طول جسده. وذراعه اليسرى مكسورة، بينما تحمل اليمنى ثورًا ذا قرنين في خطافه وتمسك بصولجان. حول الخَصر، توجد أحزمة من السلك. هذا السلك، والصولجان، وذيل الثور وقرناه، والقبعة، كلها من الذهب. والذهب شديد المرونة حتى إن السيد علوف ثنى الصولجان

مازحًا بزاويةٍ قائمة ثم أعاده إلى استقامته مرة أخرى. لا يمكن لأي محاول إقناعَ أن تدفعه إلى أن يسمح لي بتصوير الشيء. أتساءل متى وكيف سيتحرَّر التمثال من ذلك القبو.

نهض كريستوفر من فراشه يوم الأربعاء، واصطحبَنا رتر لتناول الشاي مع الحاج محمد بن البسَّام، وهو رجل مُسنٌّ يبلغ من العمر سبعين عامًا أو أكثر، ويرتدي ملابس بدوية. كانت عائلته تجمعها صداقة مع دَوتي، وهو شخصية مشهورة لدى محبِّي العرب وثقافتهم. بعد أن جنى ثروة من الجِمال في الحرب، خسر ٤٠ ألف جنيه إسترليني في المضاربة في المارك الألماني. تناولنا الشاي على طاولة رخامية، لم يُمكِّنَّا ارتفاع الكراسي إلا من لمسها بأذقاننا. ذكَّرني ضجيج المحادثة العربية، التي تخلَّلتها تجشؤات وارتشافات، بونستون تشرشل وهو يلقي خطابًا.

يكره العرب الفرنسيين أكثرَ مما يكرهوننا. وهم أكثر تهذيبًا، لوجود أسبابٍ أكثر تدفعهم لأن يكونوا كذلك؛ بعبارة أخرى، لقد تعلموا ألا يُظهروا الأمر عندما يقابلون أوروبيًّا. وهذا يجعل من دمشق مدينةً لطيفة من منظور الزائر.

العراق، بغداد (١١٥ قدمًا)، ٢٧ سبتمبر: لو كان يمكن لأي شيء على وجه الأرض أن يجعل هذا المكان جذَّابًا على النقيض مما هو عليه، لكان الرحلة التي أوصلتنا إلى هنا. سافرنا في عربة على شكل موزة غضة بعجلتين، كانت ملحَقة بمقعد خلفي لسيارة بويك ذات مقعدين ومعروفة، من باب التلطيف، بالحافلة الهوائية. وتبعتنا بالخلف حافلة أكبر، وهي أقدم الحافلات السياحية جميعها. في الحافلة المغلقة بإحكام، بسبب الغبار، والغارقة مع ذلك في الماء من خزان شرب ناضح، ترجرجنا عبر الصحراء الخالية من الممرات بسرعةِ أربعين ميلًا في الساعة، تضربنا أشعة الشمس، ويصمُّ آذانَنا قرعُ الحجارة في الأرضية الرقيقة، وتخنقنا رائحة خمسة من المرافقين المتعرقين. توقَّفنا في الظهيرة لتناول طعام الغداء، الذي قدَّمته الشركة في صندوق من الورق المقوَّى مكتوب عليه «خدمة مع ابتسامة». ستكون «خدمة مع عبوس» لو سيَّرنا في يوم من الأيام وسيلةَ مواصلات في هذه الأنحاء. تطاير ورق الزُّبد وقشور البيض بعيدًا لتفسد مظهرَ الريف العربي. وصلنا عند الغروب إلى بلدة الرطبة، التي كانت، منذ أن تناولت الغداء هناك في طريقي إلى الهند عام ١٩٢٩، محاصَرةً بخطوط الحمَّالين وبمعسكر؛ وذلك نتيجة لخط أنابيب الموصل. هنا تناولنا العشاء، حيث تكلفة الويسكي والصودا ستة شلنات لكلٍّ منهما. في الليل ارتفعت معنوياتنا، حيث سطع نور القمر من النافذة، وغنَّى العراقيون الخمسة أغنيةً بقيادة السيدة مُلا. مررنا بقافلة من السيارات المصفَّحة، التي كانت ترافق إخوة فيصل، والملك

السابق علي، والأمير عبد الله، عائدين من جنازة فيصل. لم ينبلجِ الفجر عن الصحراء الذهبية، وإنما عن طين، طين لا نهاية له. كلما اقتربنا من بغداد ازداد الفراغ. أخفتِ السيدة مُلا، التي كانت حتى الآن خجولًا للغاية، سِحرها وراء حجاب أسود كثيف. أخرج الرجال قبَّعات الثُّكنات السوداء. وبحلول الساعة التاسعة صباحًا، كان بإمكاننا أن نتخيل أنفسنا في الطرف المفقود من طريق إدجوير، كما لو أن مدينة ألف ليلة وليلة تكشف لنا عن طريقها الوحيد.

مما يمنح بعض السلوى تذكُّر أن بلاد الرافدين كانت «يومًا ما» شديدةَ الثراء، ووافرة الخصوبة بالفن والإبداع، وواسعة الجود مع السومريين والسلوقيين والساسانيين. الحقيقة الجوهرية عن تاريخ بلاد الرافدين هي أن هولاكو في القرن الثالث عشر دمَّر نظام الري، وأنه منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا ظلت بلاد الرافدين أرضًا طينية محرومة من الميزة الوحيدة التي يوفِّرها الطين، وهي الخصوبة بالنباتات. إنها سهل طيني، مسطَّح حتى إن طائر بَلَشُون وحيد يقف على ساقٍ واحدة بجوار بعض قطرات المياه النادرة في حفرة، يبدو طويلًا كهوائي لا سلكي. من هذا السهل ترتفع قرًى من طين ومدن من طين. وتتدفَّق الأنهار بطين سائل. ويتكوَّن الهواء من طينٍ منقًّى في هيئة غاز. والناس بلون الطين، ويرتدون ملابسَ بلون الطين، وقبَّعاتهم الوطنية ما هي إلا فطيرة طين في هذه الهيئة. بغداد هي العاصمة التي يمكن للمرء أن يتوقَّعها لهذه الأرض التي أنعمت عليها السماء. إنها تتوارى في ضبابٍ طيني؛ فعندما تنخفض درجة الحرارة أدنى من ١١٠ درجات فهرنهايت، يشتكي السكان من البرد ويُخرِجون معاطفَهم المصنوعة من الفراء. وهي تشتهر حاليًّا بشيء واحد فقط، هو نوع من الدمامل يستغرق تسعة أشهر ليُشفى منه، ويترك نَدْبة.

يصِفها كريستوفر، الذي يكره المكان أكثرَ مني، بأنها جنةٌ مقارنةً بطهران. في الواقع، لو صدَّقتُ كلَّ ما قاله لي عن بلاد فارس، لاعتبرت مغادرتنا غدًا حكمًا بالنفي. ولكني لا أرى ذلك. لأن كريستوفر مغرم ببلاد فارس. إنه يتحدَّث هكذا مثل رجل صيني مهذَّب، إن سألته عن زوجته، فسوف يجيب بأن العاهرة النحيلة كالفزاعة ما زالت على قيد الحياة، يقصد أن قرينته المحترمة والجميلة تتمتع بصحة جيدة.

يدير آشوريون الفندق، وهم أشخاص صغارُ البنية مثيرون للشفقة، ومشاكسون، وودودون، ولا يزالون يخشون بعض الشيء على حياتهم. يوجد شخص واحد فقط سأتخلَّص منه بتسليمه إلى البغداديين، وهو شابٌّ مُفعَم بالحيوية يُدعى داود (ديفيد)،

تسبَّب في زيادة أسعار جميع السيارات المتجهة إلى طهران، وأشار إلى قوس طيسفون (إيوان كِسرى) بأنه «مشهد جميل يا سيدي، مشهد عالٍ».

يرتفع هذا القوس ١٢ قدمًا ونصف القدم عن الأرض وبامتداد ٨٢ قدمًا. وهو أيضًا من الطين، ولكنه مع ذلك باقٍ منذ أربعة عشر قرنًا. توجد صور تُظهِر جانبَيه وليس جانبًا واحدًا، وكذلك مقدمة القوس. كوحدة واحدة، القِرْميد الذي لم يُحرق جيدًا لونه جميل: أصفر مائل للبياض في خلفية من سماءٍ عادت لزرقتها، بعد أن خرجنا من بغداد. أُصلحَت القاعدة مؤخرًا، ربما للمرة الأولى منذ بنائه.

المتحف هنا خاضع للحراسة، ليس من أجل تأمين كنوز أور الأثرية، ولكن كي لا يلوِّث الزائرون نحاس صناديق العرض بالاتكاء عليها. نظرًا لأنه لا يزيد حجم أيٍّ من المعروضات عن حجم كشتبان، كان من المستحيل رؤية كنوز أور. على الجدار بالخارج، نصب الملك فيصل لوحةً تذكاريةً مهداة إلى جيرترود بيل. مفترضًا أن نية الملك فيصل كانت أن يقرأ الزائرون النقش، تقدَّمتُ نحوه لقراءته. وعندئذٍ صرخ أربعة من رجال الشرطة وسحبوني بعيدًا. سألت مدير المتحف عن سبب ذلك. فقال باقتضاب: «إن كنت تعاني قِصرَ النظر، يمكنك الحصول على تصريح خاص.» مرة أخرى، يا له من لُطف عربي.

تناولنا العشاء مع بيتر سكارليت، الذي حكى صديقه وارد قصة جنازة فيصل. كان يومًا شديدَ الحرارة، وكان زنجيًّا ضخم البنية قد شقَّ طريقه إلى المنطقة المسيَّجة المخصَّصة للوُجَهاء. ولكنه أُبعِد بعد قليل. صاح قائد القوات الإنجليزية: «اللعنة، لقد سلبوني ظِلي.»

كان المال ينتظرني هنا، كما وعد العرَّاف.

الجزء الثاني

بلاد فارس، كرمانشاه (٤٩٠٠ قدم)، ٢٩ سبتمبر: سافرنا لمدة عشرين ساعة أمس. كان الجهد المبذول في الجدال يفوق جهدَ التنقُّل.

هبَّت علينا عاصفةٌ ترابية حارقة على الطريق المؤدي إلى مدينة خانقين. وعبر الظُّلمة أطلَّ خطٌّ من التلال. أمسك كريستوفر بذراعي. وأعلن بطريقةٍ رصينة: «أسوار إيران!» بعد دقيقة، واجهنا منحدرًا صغيرًا، وأصبحنا على أرضٍ مسطَّحة مرة أخرى. كان هذا يحدث كل خمسة أميال، حتى دلَّ اللون الأخضر اللاذع للواحة على ظهور المدينة وحدودها.

وهنا بدَّلنا السيارات؛ لأن بلدَي فارس والعراق يرفض كلٌّ منهما دخول سائقين من البلد الآخر. فيما عدا ذلك، كان استقبالنا بحفاوة؛ فقد أعرب لنا المسئولون الفارسيون عن تعاطفهم معنا إزاء هذا العمل المثير للاشمئزاز المتعلِّق بالأعراف، واحتجزونا ثلاث ساعات. عندما دفعت رسومًا على بعض أفلام التصوير والأدوية، أخذوا المال وعيونهم تتحاشى النظر إليَّ، مثل دوقةٍ تجمع الأموال للأعمال الخيرية.

عَلَّقتُ لكريستوفر على الحالة المهينة التي عليها ملابس الناس: «لماذا يجعلهم الشاه يعتمرون تلك القبَّعات؟»

«صه. يجب ألا تذكر الشاه جهرًا. سمِّه السيد سميث.»

«دائمًا ما أسمِّي موسوليني السيد سميث في إيطاليا.»

«حسنًا، سمِّه السيد براون.»

«لا، ذاك اسم ستالين في روسيا.»

«السيد جونز إذَن.»

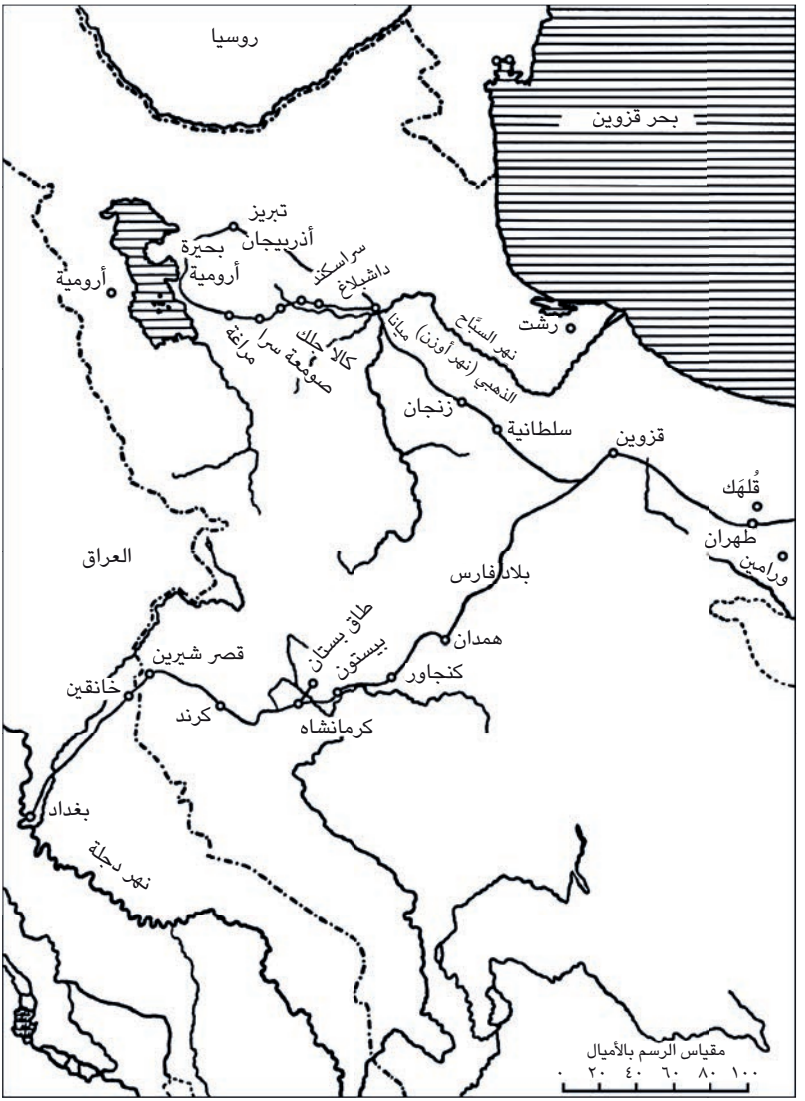

خريطة بلاد فارس.

«ولا اسم جونز يَصلح. لا بد أن يكون من نصيب هتلر بعدما مات بريمو دي ريفيرا. وعلى أي حال، فقد أصبحت هذه الأسماء العادية تختلط عليَّ. من الأفضل أن نُطلِق عليه اسم مارجوريبانكس، إن أردنا أن نتذكَّر مَن نقصد.»

«حسنًا. ومن الأفضل لك أن تستخدمه في الكتابة أيضًا، في حالةِ صادروا يومياتك.»

سأفعل مستقبلًا.

توقَّفنا ساعةً أخرى عند مدينة قصر شيرين، بينما كانت الشرطة تمنحنا تصريحًا إلى طهران. ثم تكشَّفت عظمة إيران بحق. حيث كانت مضاءة من الخلف بفعل الشمس الآخذة في الانخفاض في الأفق، ومن الأمام بالقمر الآخذ في الارتفاع، فتمايلت بانوراما شاسعة من سفوح التلال المستديرة بعيدًا عن الأطلال الساسانية، متلألئةً هنا وهناك بالأضواء الكهرمانية للقرى؛ حتى ارتفعت من مسافةٍ قصية مجموعةٌ هائلة من القمم، فها هي ذي الأسوار الحقيقية أخيرًا. صعودًا وهبوطًا انطلقنا عبر الهواء المنعِش إلى سفوح الجبال، ثم صعودًا أعلى فأعلى إلى مجازة بين قمم متعرِّجة عليها تجمُّعات من أشجار الصَّنَوبر امتزجت بمخطَّط النجوم. على الجانب الآخر كانت توجد مدينة كرند، حيث تناولنا العشاء على أنغام الجداول المائية وصراصير الليل، ونحن نُطِل على حديقة من أشجار الحور المغمورة بضوء القمر، ونلتهم سِلالًا من العنب الحلو المذاق. كان معلَّقًا بالغرفة مطبوعاتٌ تُصوِّر بلاد فارس أنثى راقدة بين ذراعَي مارجوريبانكس، وينظر إليها جمشيد وأرتحشستا وداريوس من أعلى القوس في طيسفون.

طهران (٣٩٠٠ قدم)، ٢ أكتوبر: في كرمانشاه، تخلَّى السائق عن هدوئه. لم يكن يريد أن يقضي الليل في مدينة همدان، بل تمنَّى أن يبيت في مدينة قزوين. لم يستطِع أن يذكر السبب، وأشكُّ أنه كان يعرفه؛ فقد كان مثل طفل يريد دميةً دون أخرى. لوضعِ حدٍّ للجدل، الذي كان قد بدأ يشمل جميع موظفي الفندق، غادرت إلى قرية طاق بستان لتمضية الصباح. وبذلك أصبح من المستحيل علينا أن نذهب أبعدَ من همدان في ذلك اليوم.

لا بد أن أكثر من نحَّات واحد قد عملوا في المغارات في طاق بستان. فالملائكة فوق القوس لها وجوه قبطية، وألبِستها منخفضة ورقيقة كالتي على ميدالية برونزية من عصر النهضة. النحت النافر على الألواح الجانبية داخل القوس أعلى، لكنَّ الألواح نفسها مختلِفة؛ فبينما اللوحة على اليسار مكتملة ومصوغة بإتقان، فإن المقابِلة لها ما زالت غير منتهية، وقد نُحتت في مجموعة من المستويات المسطَّحة التي تبدو كما لو كانت قد تراكمت على الصخر بدلًا من أن تبرُز منه. ثم في الخلف، في تناقضٍ صارخ مع هذه المَشاهد المتحركة،

التي تشبه مشاهدَ سينمائية للمطاردة واللعب، يقف الشكل العملاق لملكٍ على صهوة حِصان في مشهدٍ تعيد قساوته الفارغة للأذهان أحدَ الأنصاب التذكارية الألمانية للحرب. هذا نحتٌ ساساني نموذجي. من الصعب التصديق بأن الفنانين الآخرين كانوا فُرسًا على الإطلاق.

نُحِتت المغارات في قاعدة جرف جبلي ضخم، وصورتها منعكِسة على بحيرةِ تخزين مياه. وبجانبها يوجد بيتُ متعةٍ متهدِّم، كانت مجموعة من السيدات، في هذه اللحظة، يُمضين فيه نزهةً خلوية. اكتملت رومانسية المكان عندما انضم إليهن سيدٌ ذو وجهٍ نَحيلٍ وطويل يرتدي قميصًا متسخًا أطرافه خارج سرواله الواسع، الذي كان أرجوانيًّا فاتحًا من قماش الساتان، وجوربًا قطنيًّا تمسكه حمالاتٌ باللون الأرجواني الفاتح.

تأخَّرنا برهةً في مدينة بيستون، بنقوشها المسمارية الكبيرة المحفورة كصفحات كتاب على صخرة بلون الدم؛ وكذلك في كنجاور، وهو مكان صغير متهدِّم يزخر بحُطام معبد هِلينستي ورهط من الأطفال الذين ألقَوا علينا القِرْميد. في همدان، تجاوزنا مقبرتَي إستير وابن سينا، ولكن زرنا جامباد ألفيان، وهو ضريح سلجوقي من القرن الثاني عشر، كانت ألواحه الجصية غير الملوَّنة، التي انتفخت واخترَقت بفوضى من النمو النباتي الفائض، لا تزال رسمية وثرية مثل فرساي — ربما أكثر ثراءً بالنظر إلى الاقتصاد في الوسائل المستخدمة فيها؛ لأنه عندما تتحقَّق الروعة بإزميل وكومةٍ من الجص بدلًا من ثروات العالم، لا يتبقى إلا روعة التصميم. وهذا أخيرًا يمحو لدى المرء الولع بقصرِ الحمراء وتاج محل فيما يختص بالفن الإسلامي. وقد جئت إلى بلاد فارس للتخلص من ذلك الولع.

كانت نشوة رحلة اليوم جامحة. أخذنا نصعد ونهبط الجبال، ونمرُّ بالمسطحات اللانهائية، نصطدم وننزلق. سلخت الشمس جلودنا. وأوقفت دوامات ترابية ضخمة، تتراقص كالشياطين فوق الصحراء، سيارتنا الشيفروليه المندفِعة وأصابتنا بالاختناق. وفجأةً، من بعيد عبر أحد الوديان، جاء وميض جرة فيروزية اللون متقطِّعًا على الطريق على ظهر حمار. كان مالكه يسير بجواره في رداءٍ أزرقَ باهت. وعندما رأيت الاثنين تائهَين في ذلك الخلاء الحجري الهائل، فهمت السبب في أن اللون الأزرق هو لون بلاد فارس، وأن الكلمة الفارسية لهذا اللون تعني أيضًا الماء.

وصلنا العاصمة مع حلول الليل. ولم يكن ثَمَّة بصيصُ ضوء في الأفق يُنذِر باقترابنا منها. فجأةً أحاطت بنا الأشجار ثم المنازل. وبحلول النهار، أصبحت مكانًا أشبه بالبلقان. ولكن جبال ألبرز، التي تحتل نصف السماء، تمنح أهميةً مفاجئةً للشوارع التي تواجهها.

طهران، ٣ أكتوبر: في النادي الإنجليزي، وجدنا كريفتر، مساعدَ هِرتسفلد في موقع برسبوليس الأثري، منهمِكًا في محادثة مع وادزورث، السكرتير الأول الأمريكي. وكان سرُّهما، الذي كان كلاهما شديدَ التحمُّس لكتْمِه، هو أنه في أثناء غياب هِرتسفلد خارج البلاد، كان كريفتر قد اكتشف عددًا من اللوحات التذكارية الذهبية والفضية التي تؤرخ لتأسيس مدينة برسبوليس على يد داريوس. حسب مواقعها بالاستعانة بالرياضيات التجريدية، ووجدها تقبَع في صناديقَ حجرية عندما حُفرَت الفتحات. على مضض نوعًا ما أرانا صورًا لها، حيث بدت في عينيه لمحةُ غَيرة وتشكُّك أثريين. ويبدو أن هِرتسفلد قد حوَّل موقع برسبوليس الأثري إلى ملكية خاصة له، ومنع أي أحد من تصويره.

بعد ظهيرة هذا اليوم التقيت ميرزا يانتز، وهو سيد مُسنٌّ ضئيل البنية ودَمِث. جلسنا في مكتبه، الذي يُطلُّ على حمَّام سباحة مستدير وحديقة من أزهار الغُرنوقي والبتونيا، التي زرعها بيده. إنه نائب مستعمرة جلفا الأرمينية خارج أصفهان، وقد ترجم قصيدة «القرصان» إلى اللغة الأرمينية؛ لأن ثَمَّة حسًّا وطنيًّا بالاعتزاز ببايرون لاهتمامه بالدير الأرميني في فينيسيا. تحدَّثنا عن الحرب، حيث وضع معظم الفرس أموالهم (حرفيًّا وكذلك مجازيًّا) لدى قوى المحور. ونظرًا لعدم إدراكهم للقوة البحرية، لم يتمكنوا من تخيُّل الضرر الذي كان بإمكان إنجلترا أن تتسبَّب فيه لألمانيا، من على بُعد ٢٠٠ فرسخ. كان ميرزا يانتز أبعدَ نظرًا:

«اعتدتُ أن أحكي للناس القصةَ التالية. كنت مسافرًا ذات مرة من البصرة إلى بغداد، وأقمت بضعة أيام لدى أحد الشيوخ، الذي بذل قصارى جهده في إكرام وفادتي. كان رجلًا ثريًّا، وأعطاني مهرة رمادية جميلة لأركبها، وكانت تتراقص وتقفز، بينما كان هو نفسه يسير بخطًى رصينة بجانبي على ظهر مُهرة سوداء لا تتمتع بالحيوية. فسألته: «لماذا تعطيني هذا الحيوان الجميل بينما اكتفيت لنفسك بهذه المهرة السوداء البطيئة التي تسير ورأسها بين قائمتَيها؟»

قال الشيخ: «هل تظنها بطيئة؟ فلْنَتسابق.»

كنت متقدِّمًا في ربع الميل الأول. ثم نظرت حولي. فإذا بالشيخ يشير بيده هكذا، قائلًا: «استمِر، استمِر.» فتابعت. وبعد قليل، أدركت أن المهرة السوداء كانت تقترب. حفزتُ فرسي. لكن بلا جدوى. فقد تجاوزتني المهرة السوداء، وكانت لا تزال كما بدت بلا روح، ولا يزال رأسها بين قائمتيها.

اعتدت أن أقول للناس إن المهرة الرمادية كانت تمثِّل ألمانيا، وإن المهرة السوداء كانت تمثل إنجلترا.»

قُلهَك (٤٥٠٠ قدم)، ٥ أكتوبر: كان صباحًا خاملًا. الأشجار تُلقي ببقع ظلال على أستار الرواق. وتُرى الجبال والسماء الزرقاء من خلال الأشجار. ويتموَّج جدول من التلال إلى بِركة ذات بلاط أزرق. وموسيقى «أوبرا الناي السحري» تصدح من الجرامافون.

كأننا في شيملا الهندية ولكن في طهران.

وصلت الحقيبة في هذين الأسبوعين من بغداد في عهدة أحد ضباط القوات الجوية، الذي ساعد في إجلاء الآشوريين. قال إنه لو كان هو وزملاؤه الضباط قد تلقَّوا أمرًا بقصف الآشوريين بالقنابل، كما طُرح، لاستقالوا من الخدمة. كانت الجثث تتناثر في المطار الذي هبطوا فيه بالقرب من الموصل، ومعظمها كان قد أُطلقَ عليه النار في الأعضاء التناسلية، واضطر البريطانيون لحرقها. من جهة هبوب الريح من القرية، أتت أيضًا رائحة كريهة مروِّعة، ذكَّرت الضباط الأكبر سنًّا بالحرب. التقطوا صورًا للجثث، ولكنها صودرت عند العودة إلى بغداد، وصدرت الأوامر بالتكتم التام على ما رأوه. كان سخطه عارمًا، كحال أي شخص عندما يتعلَّق الأمر بحفظ ماء وجه بريطانيا بكتمان فظائعها.

على الغداء، قابلنا السيد وايلي، وهو صياد حيوانات كبيرة أمريكي، كان يسعى لاصطياد حمار وحشي بالقرب من أصفهان. دار الحديث حول البَبْر القزويني والفُقْمة القزوينية، والحِصان البري والأسد الفارسي. حيوانات البَبْر والفُقْمات شائعة جدًّا. ويُزعَم أن ألمانيًّا أطلق النار على حصان منذ عامين، ولكن مع الأسف لم يأكل خدمُه لحمَه فقط بل جِلده أيضًا؛ كي لا يراه أحد على الإطلاق. شوهد آخِر أسد في الحرب بالقرب من شوشتر.

بدت الجبال جميلة جدًّا، ونحن نمضي بالسيارة عبر الحدائق والبساتين إلى سفوح التلال الجرداء، واضحة وثابتة كصوت ينادي. وكانت توجد قمَّة ثلجية منفردة في الشرق هي جبل دماوند. هبطت الشمس في الأفق. واستطالت ظلالنا، مندمجةً في ظل واحد ضخم غطَّى السهل بأكمله. كانت التلال الدنيا مغطاة بتلك العلوية، القمم نفسها. كانت أشعة الشمس لا تزال تسقط على جبل دماوند، فبدا جمرةً ورديةً في السماء المظلمة. وبعد ذلك، عندما حوَّلنا وجهة الخيل، عُكس التحوُّل وتكرَّر؛ حيث كانت الشمس قد غربت وراء رُكام من السُّحب، والآن عاودت الظهور تحته. كان دماوند في الظل، بينما كانت سفوح الجبال في الضوء. ارتفع الظل أسرع هذه المرة. وأظلمت سلسلة الجبال. توهَّجت الجمرة الوردية مرة أخرى، لمدة دقيقة واحدة فقط. وخرجت النجوم من مخبئها.

وصلت الأخبار هذا المساء بأن تيمورتاش مات في السجن في الساعة العاشرة في الليلة السابقة بعد أن حُرم من جميع وسائل الراحة، بما في ذلك فِراشه. حتى أنا، الذي كنت في

موسكو أثناء استقباله هناك في عام ١٩٣٢، حزنت لذلك، وأولئك الذين عرفوه وأُعجبوا به باعتباره الوزير ذا السلطة المطلقة تأثَّروا أكثرَ بكثير. لكن العدالة هنا ملَكية وشخصية؛ فمن المحتمل أنه كان سيُركَل حتى الموت علانيةً. يحكم مارجوريبانكس هذا البلد بالخوف، وأقصى درجات الخوف هو الخوف من الحذاء الملكي. يمكن القول إن هذا يُحسَب له في عصر الأسلحة التي تُحيق الموتَ من بعيد.

طهران، ٧ أكتوبر: بغيةَ تسهيل رِحلاتي، زرت أشخاصًا مختلفين، بما في ذلك جام، وزير الداخلية، ومصطفى فاتح، مدير التوزيع في شركة النفط الأنجلو-فارسية، وفرج الله بازل، الاختصاصي في دراسة النقوش. ثم تناولت الشاي مع ميرزا يانتز؛ حيث تبادلنا الحديث بالإنجليزية، واليونانية، والأرمينية، والروسية، والفارسية. كان الضيف الرئيسي هو أمير جانج، أخو ساردار أسد وزير الحرب، وأحد القادة البختياريين الكبار. وكان قد جلب هديةً لابنة ميرزا يانتز، عبارة عن أثاث دمية مُذهَّب ومُنجَّد بالقطيفة. أضفى هذا نشوةً على التجمُّع، وصاح الجميع: «بَها! بَها!»

يبدو شير أحمد، السفير الأفغاني، كنَمِر يلبس ثياب يهودي. قلت: «إذا منحتني الإذن سُموك، آمُل في زيارة أفغانستان.»

«تأمُل في زيارة أفغانستان؟ (هادرًا) «بالطبع» ستزور أفغانستان.»

وفقًا له، يوجد بالفعل طريق من هِرَات إلى مزار شريف.

طهران، ١٠ أكتوبر: يوجد برجُ دفن مُخدَّد في مدينة الري على بُعد حوالي ستة أميال، وجزؤه الأدنى سلجوقي، وآخر في ورامين أبعد منه، وهو أكثر جمالًا ولكنه أقلُّ في القيمة الأثرية. ولهذا البرج سقف، وقد كان يشغله مدمن أفيون رفع نظره عن طعام غدائه الذي كان يطهيه ليخبرنا أنه بيته، وأن عمره ٣٠٠٠ سنة. يرجع المسجد في ورامين إلى القرن الرابع عشر. وهو يشبه من بعيد ديرًا محطَّمًا، مثل دير تينترن على سبيل المثال، غير أن له قبَّة وليس برجًا، تنتصب من طابق متوسط ثُماني أعلى غرفة المحراب المربَّعة في الطرف الغربي. المكان كلُّه مبني بقِرْميد عادي بلون القهوة بالحليب، يتسم بالمتانة والبساطة وحسن التناسب، ويعبِّر عن فكرة المحتوى كما لم تعبِّر عنها عمارة واجهات مبانٍ مغربية وهندية من قبل. بالداخل، يوجد محراب من الجص بالتقنية نفسها المستخدَمة في قبَّة العافية في همدان؛ غير أن التصميمَ، كونه أحدثَ، فظٌّ ومرتبك.

انضم إلينا في المسجد رجلٌ يشبه حمَّال سكة حديدية ضعيفًا، كما كان يعمل معظم الفارسيين في ظل القوانين الحالية الضاغطة للإنفاق. وكان يجثم على معصمه صقرٌ مرقَّط باللونين الرمادي والأبيض، ويرتدي غطاءً جلديًّا. كان قد أخذه من العُش.

تناولنا العشاء مع هانيبال، الذي ينحدر، مثل بوشكين، من سلالة العبد الزنجي للإمبراطور بطرس الأكبر، وهو بذلك قريب لبعض العائلات الملَكية الإنجليزية. بعد هروبه من البلاشفة، أصبح مواطنًا فارسيًّا، ويعيش الآن بنمطٍ أكثر فارسية من الفرس. قادنا خادم يحمل فانوسًا ورقيًّا بارتفاع ثلاث أقدام إلى منزله عبر متاهات البازار القديم. الضيفان الآخران كانا أميرًا قاجاريًّا، ابن فيرمان فيرما، وزوجته، التي نشأت في هونج كونج. ونظرًا لكونهما أكثرَ إنجليزيةً من الإنجليز، فقد كان يربكهما أن عليهما تناوُلَ الطعام على الأرض. كان المنزل شديدَ الصِّغر، لكنَّ برج رياحه المنمنم وفناءه المنخفض منحاه تميُّزًا. هانيبال مشغول بتأسيس مكتبة للفردوسي تكريمًا للذكرى الألفية للشاعر التي تحلُّ العام القادم.

زنجان (٥٥٠٠ قدم)، ١٢ أكتوبر: كنا نحاول، ولا نزال، الوصولَ إلى تبريز بالشاحنة. حتى الآن، لم تَسِر الرحلة كما هو مخطَّط لها. كان من المقرَّر أن تغادر الشاحنة في الساعة الرابعة. وفي الرابعة والنصف، أرسلنا القائمون على المرأب في سيارة أجرة إلى مرأب آخر خارج بوابة قزوين. وفي الخامسة، حاول هذا المرأب أن يصرفنا في حافلة متعطِّلة، مفصِحًا في الوقت نفسه عن أنه لم تكن توجد أي شاحنة على الإطلاق. لذلك، استأجرنا سيارة، ولكننا صمَّمنا قبل الانطلاق أن نجعل المرأب الأول يردُّ إلينا الأموال التي أودعناها لديه. تسبَّب هذا في اضطراب وصخَب. في تلك الأثناء، إحدى الشاحنات قد أصبحت متاحة، وحينئذٍ هدَّد سائق السيارة بإبلاغ الشرطة إذا تركناه. فلم نفعل.

في صباح اليوم التالي في قزوين، استأجرنا سيارةً أخرى، رفض سائقها أن يغلق غطاء السيارة. ومن ثَم عندما هبطت سرعته إلى أربعين ميلًا في الساعة، واصطدم رأسي بقضيب خشبي، نخسته نخسةً حادة في ظهره. توقَّفت السيارة تمامًا. طلبنا منه المواصلة. ففعل بسرعة عشرة أميال في الساعة. طلبنا منه أن يُسرع. ففعل لفترة وجيزة، ثم أبطأ السرعة مرة أخرى.

قال كريستوفر: «أسرع! أسرع!»

فقال السائق: «كيف يمكنني القيادة وأنتما الاثنان تضرباننني؟»

أنا: «هيا!»

فقال السائق: «كيف يمكنني القيادة إذا كنت لا أروق للأغا؟»

كريستوفر: «قُدْ بحذر. نحن لا نَكرهك، ولكننا نكره القيادةَ الخطِرة.»

السائق: «وا حسرتاه! كيف يمكنني القيادة؟ الأغا يكرهني. أيامي مريرة.»

كريستوفر: «الأغا يحبك.»

السائق: «كيف يمكن أن يحبني وقد حطَّمت رأسه؟»

وهكذا لأميال، حتى وصلنا إلى مركز شرطة. هنا توقَّف تمامًا، قائلًا إنه يجب أن يسجِّل شكوى. لم يكن بوسعنا سوى أن نفعل شيئًا واحدًا، وهو أن نشتكي أولًا. قفزنا من السيارة وسِرْنا في اتجاه المركز. أفزع هذا الرجلَ؛ لأنه كان جليًّا أنه إن سعينا في طلب الشرطة بمثل هذه الحماسة فلا بد أنها ستكون في صفِّنا وليس في صفِّه. اقترح أن يواصل الرحلة بدلًا من ذلك. فوافقنا.

كان الحادث تمثيلًا، وتحذيرًا، من الرعب الشديد الذي يشعر به الفرس حتى تجاه التظاهر بالعنف البدني.

ميلًا بعد ميل، تبعنا مسارًا مستقيمًا بين سلاسل جبال متقابلة. لاحت قبَّة السلطانية فوق الصحراء. للوصول إليها، كان علينا أن نقوِّض نظامَ ري كاملًا. وهناك وجدنا بلاد فارس مختلفة. فمع أننا لم نبعد سوى بضعة أميال عن الطريق الرئيسي، حلَّت القلنسوة القديمة التي تشبه الخوذة، التي تظهر في نقوش موقع برسبوليس البارزة، محلَّ القبعة البهلوية الحديثة. كان معظم أبناء القرية يتحدثون اللغة التركية. بعدما تحصَّلنا على سلطانية من خُثارة اللبَن وقطعة من الخبز بحجم خيمة من صالة الشاي، دخلنا الضريح.

أتَمَّ الأمير المغولي أولجايتو بناء هذا المبنى المميز عام ١٣١٣. تستقر قبَّة على شكل بيضة بارتفاع ١٠٠ قدم تقريبًا على مُثمَّن طويل، ويحيط بها سياج من ثماني مآذن تستند على حواجز المُثمَّن عند الأركان. القِرْميد ضاربٌ إلى اللون الوردي. لكن المآذن كانت في الأصل باللون الفيروزي، وكانت الأشكال الثلاثية باللون نفسه، ومحاطة بحصًى، يتلألأ حول قاعدة القبَّة. يقف هذا النصب التذكاري العملاق لإمبراطورية المغول، في مواجهة الصحراء المنبسطة، المنسحقة تحت ثقل الأكواخ الطينية المتناثرة هنا وهناك، شاهدًا على قوة آسيا الوسطى التي أنتجت، تحت حكم السلاجقة والمغول والتيموريين، أروعَ إلهامات العمارة الفارسية. هذه بالطبع هي عمارة واجهات المباني؛ النموذج الذي قامت عليه عمارة تاج محل ومئات الأضرحة الأخرى. ولكنها لا تزال تنبض بالقوة والمضمون، بينما لم تحقِّق العمارة الناشئة عنها سوى المظهر الجمالي. إنها تتمتع بجرأة الابتكار الحقيقي، حيث تخدم الزخارف الفكرة، وتجسِّد النتيجة، التي قد تكون غير مكتملة، انتصارَ الفكرة على القيود التقنية. كثير من العمارة العظيمة من هذا النوع. وهنا يخطر ببالي برونليسكي.

الخان هنا مكتوب عليه «الفندق الكبير — دار البلدية». لم نكن معتمدين اعتمادًا كليًّا عليه، حيث دعانا حسين محمد أنجوراني، الوكيل المحلي لشركة النفط الأنجلو-فارسية،

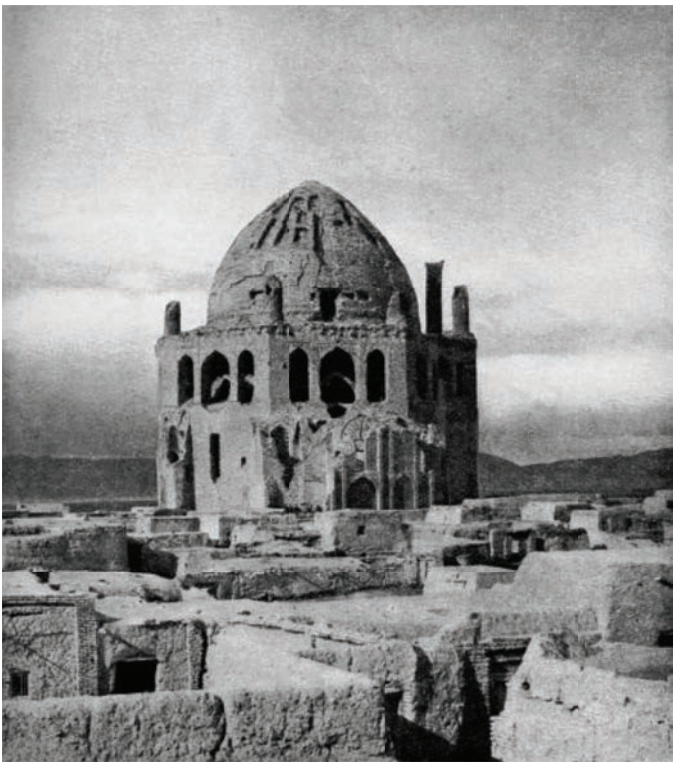

سلطانية: ضريح أولجايتو.

إلى عشاء خفيف. استقبلَنا في غرفة بيضاء طويلة ذات سقف مرسوم ببراعة، حتى الأبواب والنوافذ كانت مكسوَّة بالموسلين الأبيض. وكان الأثاث يتكون من هيكلَي سريرَين من النحاس الأصفر مفروشَين بمساند من الساتان، وحلقة من الأرائك الصلبة المُنجَّدة باللون الأبيض، وأمام كلٍّ منهما وُضعَت طاولة صغيرة مغطَّاة بغطاء باللون الأبيض وعليها أطباق شمام وعنب وحلوى. في منتصف الأرضية، التي كانت مغطَّاة بطبقتَين من السجاد، وُضعَت ثلاثة مصابيح زيتية طويلة غير مظلَّلة. تولَّى خِدمتَنا قهرمان رمادي اللحية يرتدي سترة لامعة مشقوقة الذيل، كان مضيِّفنا يناديه بلقب «أغا».

كانت رسالتنا التعريفية الأولى تقول إننا نرغب في زيارة السلطانية. قال مضيِّفنا إننا إذا عُدنا لهذا الطريق، فسيأخذنا في سيارته. هل ثَمَّة مشكلة في ذلك؟ كان يزور السلطانية كلَّ يوم من أجل العمل أو الترويح عن نفسه. في الواقع، كان يمتلك منزلًا هناك، كان بوسعه استضافتنا فيه. من سذاجتي، كنت أصدِّق هذه المجاملات. لكن كريستوفر كان أكثرَ دراية. بعد وجبة ضخمة، أكلناها بأيادينا، عاد بنا القهرمان إلى مهجعنا الخاوي في الفندق الكبير — دار البلدية.

أجلس في الشارع خارجه، حيث شمس الصباح هي مصدر الدفء المتاح الوحيد. ظهر فجأةً رجلٌ عجوز ومغرور يرتدي التويد ذا المربَّعات ويشبه لويد جورج، وعرَّف نفسه بأنه «رئيس شوسه». هذا يعني قائد طرق، أو بعبارة أخرى مُلاحِظ طرق المنطقة. وقد رافق الرجل الإنجليزي إلى باكو، حيث كان جزاء مساعدته أن دخل سجنًا بلشفيًّا.

تبريز (٤٥٠٠ قدم)، ١٥ أكتوبر: أخيرًا في زنجان استقللنا شاحنةً. بينما كان كريستوفر يلتقط لي صورةً أثناء جلوسي في الخلف، تقدَّم شرطي وقال إن التصوير ممنوع. كان السائق آشوريًّا من مكانٍ قريب من بحيرة أرومية، وكانت تجلس بجانبه معلِّمة آشورية كانت عائدةً من مؤتمر تبشيري في طهران. قدَّمت لنا على سبيل الضيافة شرائحَ من السفرجل. كانا مهتمَّين كثيرًا بمعرفتي بمار شمعون، ونصحاني بألا أقول شيئًا عنه في تبريز، حيث كان يوجد اضطهاد للمسيحيين في ذلك الوقت، وقد أغلقت الشرطة نادي سيدات السيدة كوشران في أرومية. عندما تذكَّرا هذا، أنشدا ترنيمة «قُدني أيها النور العطوف» بانسجام، وأخبرتني المعلِّمة أنها علَّمتها للسائق لتمنعه من أن يغني أغاني السائقين المعتادة. قلت إنني كنت سأُفضِّل أغاني السائقين المعتادة. أضافت أنها قد أقنعته أيضًا بإزالة الخرز الأزرق من فوق غطاء مبرِّد المحرك؛ فقد كان من خرافات «هؤلاء المسلمين». عندما قلت لها إنها كانت خرافاتٍ يمارسها عادةً المسيحيون المنتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية، أصابها الذهول. واعترفتْ بعد ذلك بأن الخرافات أحيانًا ما تجدي نفعًا؛ فقد كان هناك شيطان يُدعى، مثلًا، مِهمِت، وكانت له زوجة من الإنس، والتي تنبَّأَ من خلالها بالحرب في رَدهةِ حميها. أطلقت على نفسها وصف عاملة بالكتاب المقدَّس، وأرادت أن تعرف إن كان معظم الناس في إنجلترا يدخنون أم لا. لم تستطِع أن تفهم لماذا لا يمنع الأطباء التدخين وشرب الكحول، بدلًا من أن يدخِّنوا ويشربوا الكحول هم أنفسهم.

بدأت أتعاطف مع السلطات الفارسية. يؤدي المبشِّرون أعمالًا نبيلة. ولكن بمجرد أن يحوِّلوا أناسًا إلى المسيحية، أو يجدوا سكانًا أصليين مسيحيين، لا يكون نفعهم كبيرًا.

كان كريستوفر، في هذه المرحلة، يقرأ في مؤخرة الشاحنة، حيث كان يجلس بجواره رجل من طهران، وآخر من أصفهان، وبغَّالان، ومساعد السائق.

الطهراني: «ما هذا الكتاب؟»
كريستوفر: «إنه كتاب تاريخ.»
الطهراني: «أي تاريخ؟»
كريستوفر: «تاريخ الروم والبلاد المجاورة، كفارس ومصر وتركيا وبلاد الفرنجة.»
المساعد (وهو يفتح الكتاب)**:** «يا علي! يا لها من أحرف!»
الطهراني: «هل يمكنك قراءته؟»
كريستوفر: «بالطبع. إنها لغتي.»
الطهراني: «اقرأه لنا.»
كريستوفر: «لكنكم لن تتمكنوا من فهم اللغة.»
الأصفهاني: «لا يهم. اقرأ قليلًا.»
البغَّالان: «هيا! هيا!»
كريستوفر: «قد يكون من المفاجئ قليلًا أن بابا روما أقام محكمةً، في قلب فرنسا، صبَّ منها لعناته على المِلك، ولكن سرعان ما ستختفي دهشتنا عندما نُقيِّم تقييمًا عادلًا مِلكًا فرنسيًّا في القرن الحادي عشر.»
الطهراني: «عمَّ يدور ذلك؟»
كريستوفر: «عن البابا.»
الطهراني: «مَن؟ مَن ذلك؟»
كريستوفر: «خليفة الروم.»
البغَّال: «إنه تاريخ خليفة الروم.»
الطهراني: «اصمت! هل هو كتاب جديد؟»
المساعد: «هل هو مليء بالأفكار الطاهرة؟»
كريستوفر: «إنه لا ديني. فالرجل الذي كتبه لا يؤمن بالأنبياء.»
الطهراني: «هل يؤمن بالله؟»
كريستوفر: «ربما. ولكنه يزدري الأنبياء. يقول إن يسوع كان رجلًا عاديًّا («لقي هذا موافقة من الجميع»)، وإن محمدًا كان رجلًا عاديًّا («أحبط هذا الجميع»)، وإن زرادشت كان رجلًا عاديًّا.»

البغَّال (الذي يتحدث التركية ولا يفهم جيدًا): «هل كان يُدعى زرادشت؟»
كريستوفر: «لا، بل جيبون.»
الجميع معًا: «غيبون! غيبون!»
الطهراني: «هل هناك أيُّ دين يقول بأنه لا يوجد إله؟»
كريستوفر: «لا أظن ذلك. لكنهم في أفريقيا يعبدون الأوثان.»
الطهراني: «هل يوجد وثنيون كثيرون في إنجلترا؟»

أدَّى الطريق إلى جبال، حيث قادنا أخدود كبير إلى نهر السبَّاح الذهبي. كان راعيًا، مثل ليندر في الأساطير الإغريقية، الذي اعتاد السباحة عبر النهر لزيارة محبوبته، حتى شيَّدت في النهاية جسرًا رائعًا حقًّا، عبرناه نحن أيضًا. تحرَّك بخفة على طول الطريق بجوارنا قطيعٌ من الغزلان. وأخيرًا، خرجنا إلى مرتفعات أذربيجان، وهو بلد يجتاحه لونٌ بنِّي ضارب إلى الرمادي مثل إسبانيا في فصل الشتاء. مررنا عبر ميانا، الشهيرة بحشرةٍ تلدغ الغرباء فقط، وقضينا الليلة في خانٍ مسافرين منعزل، حيث كان يوجد ذئب مربوط في الفناء. في تبريز طلبت منا الشرطة خمس صور لكلٍّ منا (لم يحصلوا عليها) والمعلومات التالية (التي كانت مكتوبة باللغة الفرنسية):

إشعار

أنا الموقِّع أدناه	روبرت بايرون	كريستوفر سايكس
الجنسية	إنجليزي	إنجليزي
المهنة	رسَّام	فيلسوف
تاريخ الوصول	١٣ أكتوبر	١٣ أكتوبر
بصحبته	زجاجة جِن	كتاب لهنري جيمز ... إلخ.

سِمات تبريز هي مشهدُ جبالٍ ذات لون بنفسجي مخملي، يمكن الوصول إليها عن طريق سفوح ليمونية اللون، ونبيذ أبيض صالح للشرب وبيرة مقرفة، وعدة أميال من البازارات البديعة المقنطرة بالقِرْميد، وحديقة بلدية جديدة بها تمثال برونزي لمارجوريبانكس مرتديًا عباءة. ويوجد مَعْلمان أثريان: أطلال المسجد الأزرق الشهير، المكسو بفُسيفساء القرن الخامس عشر، والحِمى، أو القلعة، وهي جبل من قِرْميد خمري

اللون صغير مرصوص بطريقة فنية شديدة البراعة، ويبدو كما لو كان مسجدًا يومًا ما، ولو أنه كان كذلك، فقد كان من أكبر المساجد التي بُنيت على الإطلاق. اللغة التركية هي اللغة الوحيدة هنا، عدا فيما بين الموظفين. كان التجار أثرياء في السابق، ولكن إيمان مارجوريبانكس في اقتصاد مُخطط قد دمَّرهم.

مراغة (٤٩٠٠ قدم)، ١٦ أكتوبر: مضينا بالسيارة هنا هذا الصباح لمدة أربع ساعات، عبر منطقة ذكَّرَتني بدونيجال. ظهرت من بعيدٍ بحيرة أرومية، على هيئة شريط من اللونين الأزرق والفضي، والجبال خلفها. وقد أعطت أبراج الحمام المربَّعة، المخرَّمة من الأعلى، للقرى مظهرًا حصينًا. في الأرجاء، كانت توجد كروم عنب وأيكات من أشجار السنجق،[١] التي لها أوراق رمادية رفيعة وعناقيد من فاكهة صفراء صغيرة.

مراغة نفسُها ليست جذَّابة. فقد شُقَّت شوارعُ مستقيمة واسعة عبر البازارات القديمة، وسلبتها طابعها. قادنا طفل يتحدَّث الفارسية ذو رموش بطول رموش العُقاب إلى المسئولين المعنيين، الذين بدورهم أرَونا برجَ دفن مضلَّعًا رائعًا يعود للقرن الثاني عشر، وهو معروف بأنه قبر والدة هولاكو وهو مبنيٌّ من قِرْميد برقوقي اللون مرصوص في أنماط ونقوش. كم هو جميل ومدهش أثرُ هذه المادة القديمة الحميمة، التي بدا وكأنها نُقلت من حديقة مطبخ إنجليزي لخدمة النصوص القرآنية، ورُصِّعت بلون أزرقَ زاهٍ. يوجد إفريز كوفي بالداخل، بُطِّنت الجدران أسفله بحُفرٍ لأعشاش الحمام.

فكَّرنا في الركوب من هنا مباشرةً إلى ميانا؛ ومن ثَم نقطع ضلعَي مثلث قمَّته تبريز. سيأخذنا هذا عبر منطقة غير معروفة، غير معروف على الأقل على النطاق المعماري؛ فهي فارغة جدًّا على الخريطة. من الصعب ركوب الخيل هنا. فقد وافقنا على سعر أحد المالكين، الأمر الذي فوجئ به كثيرًا؛ إذ كان قد فقد زوجته مؤخرًا، ولم يكن لديه أحد ليعتني بأطفاله أثناء الرحلة. غير أن ساعة من الجدال قد تغلَّبت على هذا الاعتراض. ولكن بعد ذلك، بعدما رأينا الخيول، استحضرنا هذا الاعتراض بأنفسنا كي نهرب من المساومة. يبحث صاحب النُّزل عن آخرين. نأمُل أن ننطلق مساء غد. فالعادة في هذا البلد أن تنطلق في المساء.

تازه كند (٥٠٠٠ قدم تقريبًا)، ١٧ أكتوبر: لقد بذلتُ قُصارى جُهدي في تهجئة اسم هذا المكان، مع أنه ليس مهمًّا، ويتألَّف من منزل واحد، ويبعُد فرسخًا واحدًا من مراغة. ما سيهمنا الآن هو الفرسخ (فرسخ زينوفون). «استُقر» على أنه أربعة أميال، ولكن في اللغة الدارجة تقع الفراسخ ما بين ثلاثة إلى سبعة أميال.

معاطفنا المصنوعة من جِلد الغنم وأكياس نومنا منتشرة في الغرفة العلوية. وعبر النافذة غير المُزجَّجة، تبدو قمم أشجار الحَوْر وآخرُ وميض لسماء تنذر بقُرب حلول الشتاء

... ارتعاشات لهب عود ثقاب، فانوس يضيء فيُظهِر خشونة الجِدار الطيني؛ النافذة تُعتِم. يجثم الشرطي عباس فوق الموقد، يُسخِّن مكعبًا من الأفيون في مِلقَط. كان قد أعطاني للتو نفَسًا، يشبه في طعمه البطاطس. البغَّال في الركن يُدعى حاجي بابا. لا يزال كريستوفر يُطالِع كتاب جيبون. والدجاج والبصل يغليان في قِدر. وفكَّرت في أننا لو كنا توقَّعنا هذه الرحلة، لربما كنا أحضرنا بعض الطعام، ومبيدات حشرية أيضًا.

كان الموظفون في مراغة قد سمِعوا عن «رصد خانة»، التي تعني «منزل النجوم» أو المرصد، ولكن لم يكن أيٌّ منهم قد رآها من قبل. بناها هولاكو في القرن الثالث عشر، وكانت أرصادها هي آخرَ إسهام للمسلمين في علم الفلك إلى أن عدَّل أولوغ بيك التقويم في بداية القرن الخامس عشر. انطلقنا في رحلتنا مبكرًا، وجابهنا جبلًا ونحن نعدو بالجياد بأقصى سرعة، ووجدنا أنفسنا على نَجدٍ منبسط، حيث يمكن بلوغ عدة روابٍ من جهات الأرض الأربع عن طريق دروبٍ مستقيمة مرصوفة بالحصى تتقاطع في زوايا قائمة. ظننا أن هذه الدروب شُيِّدت لمساعدة الحسابات الفلكية؛ كانت الروابي بقايا مبانٍ. ولكن إذا كان هنا مقصدنا فأين بقية الجمع، العمدة ورئيس الشرطة والحاكم العسكري، الذين كانوا قد سبقونا؟ بينما كان مرافقنا يعدو بالفرس هنا وهناك بحثًا عنهم، وقفنا على حافة النَّجد، مُطِلَّين على امتدادٍ عظيم لمنطقةٍ تُرى فيها بحيرة أرومية من بعيد، ومتوقعين بعض الشيء أن تخرج الكلاب من سِتر بين أشجار الحَوْر عند سفح الجبل. فجأةً عُثِر على الموظفين المفقودين في منتصف الطريق إلى أسفل الجرف عند أقدامنا، وحرفيًّا أسفلنا مباشرةً؛ فعندما نزلنا إليهم، جاعلين الجياد في الصدارة، رأينا أن الصخر قد تجوَّف على شكل نصف دائرة، وأنه في منتصف هذا كان هناك مدخل كهف. ربما كان الأخير في الأصل طبيعيًّا، ولكنه بالتأكيد قد وُسِّع على يد بشر.

داخل الكهف وجدنا مَذبحَين؛ أحدهما مواجهٌ للمدخل صوب الجنوب، والآخر جهة اليمين أو الشرق. كلاهما منحوت من الصخر في موضعه، وقائم فيما يشبه هيكلًا مرتفعًا له قبَّة مدبَّبة. نُحِت محرابٌ غير مستوٍ في الجدار الذي خلف المذبح القائم على اليمين، في الاتجاه المعاكس لمكة. على جانبَي المذبح الخلفي كان يوجد مدخلان لنفقين. هذان النفقان كانا يُفضيان إلى غرفٍ صغيرة، كان على جدرانها قواديسُ لحمل المصابيح، ثم يمتدان، لكنهما كانا مسدودَين بالتراب لدرجةٍ لا تتيح لنا الاستمرار فيهما. تساءلنا عما إذا كانا يومًا ما متصلين بالمرصد أعلاهما، وإن كان الأمر كذلك، فهل كانت الأرصاد تجري في ضوء النهار. يقولون إنه من الممكن رؤية النجوم من قاع بئر عندما تكون الشمس ساطعة.

بينما كنت أصوِّر باطن الكهف، وأفكِّر في أن النتائج لن تبدو مثيرةً لاهتمام الآخرين، سمِع كريستوفر مصادفةً رئيسَ الشرطة وهو يهمس للحاكم العسكري قائلًا: «أتعجَّب من السبب الذي يجعل الحكومة البريطانية تريد صورًا لهذا الكهف.» حسنًا، فليتعجَّب كما يشاء.

سُحبت الخيول، وهي جالسة على أعجازها، على الجرف إلى القرية بالأسفل. انزلقنا خلفَها لنجد فاكهةً وشايًا وشراب العَرَقي في انتظارنا في بيت رئيس الشرطة.

بينما كنا نغادر البلدة هذا المساء، لمحت برجًا آخر يعود للقرن الثاني عشر خارج البوابة، ومجددًا كان مصنوعًا من القِرْميد القديم بلون الفراولة، ولكنه مربَّع، ومُركَّب على أساس من حجارة مُقطَّعة. كان كل جانب من ثلاثة من الجوانب مقسمًا إلى لوحين مقوَّسين، والقِرْميد فيها مرتَّب في أنماطٍ تشبه أنماط قماش التويد. وكانت الأركان ملتفَّة بأعمدة شبة دائرية. على الجانب الرابع، يوجد لوح واحد كبير، مؤطَّر بقطعةٍ مُبيَّتةٍ مقوَّسة، يحيط بمدخلٍ مزيَّن بنقش بخط كوفي وترصيع أزرق. كشف الجزء الداخلي عن قبَّة منخفضة مدعومة بأربعة حاملات قباب عميقة ولكنها شديدة الانخفاض. لم تكن توجد أي حلية هنا، ولم توجد في أي وقت مضى في الواقع؛ فالنِّسب كانت كافية. مثل هذا الكمال التكعيبي الكلاسيكي، الشديد الشاعرية والقوة في الآن نفسه، يكشف للرجل الأوروبي عن عالَم معماري جديد. إنه يتخيَّل أن هذا الطابع من ابتكاره الخاص، بصرف النظر عما يوجد من مَواطنِ جَمالٍ أخرى في البناء الآسيوي. ليس المذهل فقط أن نجده في آسيا، بل بأسلوب معماري مختلِف بالكلية.

صومعة سرا (٥٥٠٠ قدم تقريبًا)، ١٨ أكتوبر: كان عباس والبغَّالون مخدَّرين للغاية بالأفيون هذا الصباح لدرجةٍ تَحُول دون انطلاقهم في الوقت المحدَّد. عندما اشتكينا، ضحِكوا في وجوهنا. في الواقع، أخلاقهم وضيعة؛ وفي بلدٍ يقدِّر الأخلاق تقديرًا فوق العادة، لا حاجة للمزاح حول الأمر. لذلك، عندما بدءوا في هذا المساء الاستقرارَ في غرفتنا، طردتُهم هم والنارجيلة، ووعاء السَّماوَر لتحضير الشاي، وكل شيء. كان كريستوفر قلقًا، وقال إن هذا يتنافى مع العُرف، وأوضح مقصده بقصةٍ حكى فيها أنه ذات مرة، عندما كان مقيمًا مع قائدٍ بختياريٍّ، ورغب في أن يقول شيئًا على انفراد، أفزع مضيِّفه بلا شك عندما اقترح إخراج الخدم من الغرفة. أجبته بأنني أنا أيضًا لي أعراف، وأحدُها ألا يزعجني أحد بتدخين الغليون أو بوجود بغَّالين تحت إمرتي.

ركِبنا الخيول مسافةَ خمسة فراسخ اليوم، لا يسدُّ رمقَنا سوى سلطانية واحدة من خُثارة اللبن ونتعذب من الجلوس على السروج الخشبية. بعد تازه كند بقليل، تقاطع الطريق مع جسرٍ قديم ورفيع، كانت أقواسه الثلاث، التي تتناوب مع قوسين صغيرتين أعلى الدعامات الحجرية، مرة أخرى من قِرْميدٍ أحمر مبهج. صعدنا بعد ذلك إلى مرتفعات متماوجة، كانت واسعة، وجرداء، وكئيبة في الخريف الذي أوشك على الانتهاء. بعض الأجزاء كانت محروثة؛ مما كشف عن تربةٍ بُنية خِصبة، لكن المنطقة كلها كانت صالحة للزراعة، ويمكن أن تمدَّ بالغذاء عددًا من السكان أكبر ممن تمدُّهم. كانت هذه أولى القرى الكبيرة. في وسطها ينتصب لوحٌ حجري ضخم مدعم بمِدَك حجري بدائي، يصنع عليه أهل القرية زيتهم.

نشغل أفضلَ غرفة في منزلِ كبير القرية، وهي التي فوق الإسطبل وتفوح منها رائحته. الجدران مبيَّضة حديثًا، وتوجد مِدفأة حقيقية في أحد الأطراف، وفيما حول الحوائط من الداخل كوات بها أدوات منزلية وأباريق وأحواض وأكواب بيوترية، ويحتوي بعضها على خليط من أوراق ورد عطرية مجفَّفة وأعشاب. لا يوجد أثاث ولكن يوجد سَجَّاد. على طول الكسوة الخشبية للحوائط وُضعَت كومات من مساند وألحفة، مكسوة بقماش قطني من طراز قديم مطبوع بنقشات زهور. قبل الحرب كانت هذه الأقمشة المزهرة تُصنع خصوصًا في روسيا لسوق آسيا الوسطى: يوجد مَسند واحد عليه رسومات لبواخر، وسيارات قديمة ذات محرِّك، وأول طائرة، كلها منقوشة برسوم صغيرة في دوائر من أزهار على خلفية قرمزية اللون. تبدو زاهية ونظيفة. لكنَّ برغوثًا قفز لتوه من يدي، وقضيت الليلة في رعب، ليس عليَّ أنا الذي لم أُلدغ من قبل، ولكن على كريستوفر الذي كانت البراغيث أكثر إزعاجًا له من نكتةٍ من النكات التي تُلقى في المسارح الغنائية.

وصلت سلطانية من الحليب دافئة مباشرةً من البقرة. وفتحنا زجاجة الويسكي تكريمًا لها.

عند التحدث بالفارسية، ينطق أبناء أذربيجان الحرف k كالحرفين ch. بينما ينطقون الحرفين ch كالحرفين ts.

كالا جلك (٥٥٠٠ قدم تقريبًا)، ١٩ أكتوبر: تلمع السُّحب الصغيرة في السماء الزرقاء. نصعد عبر منحدرات سهلة إلى بانوراما من منطقة ريفية تتقلب ما بين أرضٍ محروثة باللونين الأحمر والأسود، وقرًى رمادية مسكونة ذات أبراج صغيرة في حظائرها،

عابرين الجبال البعيدة إلى تلالٍ مخطَّطة باللونين الوردي والليموني، تحدُّها أخيرًا سلسلةٌ تلو أخرى من الجبال المتعرِّجة الأرجوانية. ترافقنا القمم المزدوجة التي تعلو تبريز. وكذلك يفعل سِرب من الفراشات الصفراء. من بعيد بالأسفل يقترب خيَّال. «السلام عليكم.» «وعليكم السلام.» ثم يغادر مع صوت حوافر جواده ونعود وحدنا.

أمسِ أعطى كريستوفر لمضيِّفنا ورقةً نقديةً بقيمة تومانَين ليفكَّها. هذا الصباح، رفض عباس الذي أخذ النقود إرجاعها. سأله كريستوفر: «هل أنت لص؟» فأجاب: «نعم، أنا كذلك.» ثم اشتكى باستياء من الإهانة، قائلًا إن معه ١٠٠٠ تومان في جيبه، وتساءل في الجملة نفسها كيف يمكنه أن يعيش دون هدية من حين لآخر. ازدادت علاقتنا معه، التي كانت باردة بما فيه الكفاية، توترًا عندما حاول سرقة المال الذي دفعناه مقابل استعارة المنزل الذي كنا سنتناول فيه الغداء. رفع سوطه في وجه المالك، الذي كان رجلًا مسنًّا، وكان سيضربه به لولا أنني باعدت بينهما ودعوت عباس بـ «ابن الأب المحروق» (هذا التعبير في الفارسية يُقصَد به أن أبا الشخص لن يدخل الجنة).

ثم كان من المهين أن نكتشف، بينما كنا نمضي ممتطين الخيول بجوار مجرًى مائي مالح عبر وادٍ ساكن ومنعزل، أن كريستوفر قد فقد محفظته وبها مالنا؛ إذ صِرنا الآن معتمدين اعتمادًا كاملًا على عباس في تسول مأوًى مجاني لنا. في تلك اللحظة كان وراءنا، ويقول إنه لا بد أن يزور قريةً منعزلةً، وشككنا في أنه قد وجد المحفظة وأخفاها نهائيًّا. بعد بضع دقائق عاود الالتحاق بنا. فشرحنا المأزق الذي نحن فيه. اغتبط قليلًا، ولكنه أرسل أحد البغَّالَين ليعود للبحث عن المحفظة.

وتعويضًا لنا بعض الشيء، قوبلنا هنا بحفاوة بالغة من قهرمان أحد الأقطاب المحليين، والآن نجلس متكئَين بجوار نيران زكية الرائحة ونلعب البريدج الثنائي. ثَمَّة راحة في صوت غَلَيان وعاء السَّماوَر لإعداد الشاي. أتضرع إلى الرب أن يكون البغَّال قد وُفِّق في مهمته — كان قد دخل لتوه. كلا لم يدخل، في الواقع لم يكن قد انطلق بعد، والآن يريد أن يذهب حاجي بابا معه، مقابل تومان لكل واحد منهما. أعطيتهما تومانَين من التومانات الاثنتَي عشرة المتبقية معي، وها نحن أُولاء في وسط أذربيجان ومعنا ما يزيد قليلًا عن جنيه واحد لنرجع به إلى طهران.

«مرَّ بعض الوقت». وجد كريستوفر المحفظة داخل قميصه. كان قد فات أوان إيقاف البغَّال، لكننا كنا قد أعطينا عباس تومانَين لتعويضه عن شكوكنا، دون أن نُفصِح عن أنهما كانا من أجل ذلك.

أقبلاغ (٥٥٠٠ قدم تقريبًا)، ٢٠ أكتوبر: كان كريستوفر يشعر بالإعياء حين استيقظ، وذلك من أثر البراغيث. عندما رأى القهرمان ذلك، أحضر له قمعًا من العسل الأسود وقال إنه إذا أكل هذا لمدة أربعة أيام، مع الامتناع في الوقت نفسه عن تناول خُثارة اللبن والروجن، وهو الزُّبد العفِن الذي يطهون به كل شيء، فستتجنَّبه البراغيث كما تتجنَّبني. عندما كنا نتناول الإفطار المكوَّن من حليب وبيض بجوار النار، دخل صبي في نحو الرابعة عشرة من عمره بصحبة رجل مُسنٍّ وحاشية من الخَدم. بدا أن هذا كان الإقطاعي، الذي ندين له بكثير من الطعام والرعاية، وأن الرجل المُسن كان عمه. اسمه محمد علي خان، ووصفه مضيِّفنا لليلة بأنه «سيد جميع القرى».

سار البغَّالان عشرين ميلًا في الليل، إلى القرية التي انطلقنا منها، ورجعا. كانا اليوم نشطين كعادتهما، وربما أكثر؛ لأنه لم يكن معهما أي أفيون.

بعدما قطعنا فرسخًا واحدًا وصلنا إلى سراسكند، وهي بلدة قروية بها صالة شاي قديمة من القِرْميد تُضيف عليها فخامة. أحضرنا هنا بعض العنب من أحد المتاجر، والذي كان يبيع أيضًا أقلام رصاص بافارية، ورءوس أقلام حبر من الصلب، وأقمشة مزركشة. وصلنا عصرًا إلى داشبلاغ، واسترحنا بجوار مجرًى مائي لنتأمل المجموعات الصغيرة من المنازل الطينية الرمادية، والأبراج المخروطية المغمورة بروث مجفَّف، والجذوع البيضاء الطويلة للأشجار ذات اللون الأخضر الذهبي أمام التلال الجرداء المخضَّبة بلون وردي.

تقع أقبلاغ في مكانٍ أعلى ومكشوفة جدًّا؛ فسترها الوحيد هو شجرة واحدة شديدة القِصَر تعصف بها الرياح. غربت الشمس وراء القمم المزدوجة. على ضوء فانوس في غرفتنا الحقيرة العديمة النوافذ، أخذت أضع كمَّادات الماء على جبهة كريستوفر؛ إذ كانت لدغات البراغيث قد أصابته بالحمى، وفي الواقع كان بعضها متقرحًا جدًّا حتى إننا وضعنا الويسكي عليها، بدلًا من أي مطهِّر آخر. لحسن الحظ أنه لم يكن شديد الإعياء للدرجة التي تمنعه من الرد على عبارات المجاملة التي ألقاها السيد:

«السلام عليكم.»

«وعليكم السلام.»

«هل حالة سُموك جيدة، بإذن الله؟»

«شكرًا للرب، جيدة بفضل إحسان فخامتكم.»

«كل شيء تأمر به سُموك سيسعى عبدك المحبُّ إلى أدائه. هذا البيت هو بيتك. جُعلتُ فِداك.»

«عمرًا مديدًا لفخامتكم.»

إنه رجل مُسنٌّ يتسم بالوقار، وهو يجلس الجِلسة الرسمية، واضعًا رجليه أسفله، ويداه مخفيتان، وجَفناه مرتخيان، بينما نتمدَّد على البُسُط كأطفالٍ رُضَّع خارجين عن السيطرة. يقول إنه منذ سبع عشرة سنةً جاء إلى هنا أربعة من الروس، وقبل ذلك لم يكونوا قد رأوا إفرنجيًّا، ومنذئذٍ لم يروا واحدًا. يجلس ابنه إسماعيل بجواره، وهو صبي ضعيف البنية كان مريضًا جدًّا منذ بضع سنوات، فذهب أبوه إلى مدينةِ مشهد ليدعو له.

بغرض التداوي كان كريستوفر قد أخذ جرعةً من الأفيون وتناول سلطانيةً من العسل الأسود السائل. هذا أفضل ما بوسعنا فِعله.

زنجان، ٢٢ أكتوبر: «الفندق الكبير – دار البلدية» مجددًا.

أصبح النزول الطويل إلى ميانة مضجرًا أكثرَ فأكثر؛ إذ أبى ذلك المكان أن يظهر. طلب منا صبيٌّ راعٍ يشبه داريوس في ثيابه «بَرديةً»، وكان يقصد الكلمة الروسية التي تعني سيجارة. كثيرًا ما كان الناس يخاطبوننا بالروسية في صالات الشاي على طول الطريق، ولكنه بدا غريبًا أن نسمع ذلك في هذه التلال المنعزلة النائية. كان البغَّالان وعباس يدخِّنون غليون الظهيرة في منزلٍ منعزل مشيَّد من جذوع الأشجار، كان المنزل الوحيد الذي مررنا به في مسافة عشرين ميلًا. عندما ظهرت ميانة للعِيان، أسرعتِ الخيول مع أنها كانت لا تزال على بُعد ساعتين. بعد أن عبرنا مجرى نهرٍ واسع، دخلنا البلدة من جهة الغرب.

بدا وكأننا هبطنا من السماء. حيث تدافع الناس خارجين من عتبات منازلهم. وأحاط بنا حشد من الناس. تحملت الجانب الأكبر من عبء التعامل مع الشرطة المدنية. ذهب كريستوفر إلى شرطة الطرق، التي ينتمي إليها عباس، وعاد بقائدها. كان مرتابًا بشدة.

«هل صورت أيَّ شيء على الطريق؟»

أجاب كريستوفر بلا مبالاة: «أجل، حجرًا قديمًا رائعًا، مِدكًّا في الواقع، في صومعة سرا. حقًّا أيها الأغا عليك الذَّهاب وإلقاء نظرة عليه بنفسك.»

لم يسكن ارتيابُه عندما أكَّد عباس صِدق هذا القول.

كان قد قيل بالطبع للبغَّالين أن يأخذوا من المال أكثرَ مما كان مستحقًّا لهم. أعطاهم كريستوفر إحدى بطاقات الزيارة الفارسية الخاصة به، واقترح عليهم إما أن يضربوا ربَّ عملهم أو أن يشتكوا للقنصل البريطاني في تبريز. قفزنا في شاحنة، ووصلنا هنا في الساعة الواحدة صباحًا، وأُعطينا غرفة التخزين لننام فيها. هذا الصباح قتلتُ ست عشرة حشرة بق، وخمسة براغيث، وقملة، في كيس نومي.

كريستوفر في حالة يُرثى لها. فرِجلاه متورِّمتان إلى الرُّكبة وتغطيهما نافطات (بُثور مائية). حجزنا مقاعد في سيارة ستغادر من هنا عصر اليوم، ومن المقرَّر أن تصل طهران عند منتصف الليل.

هوامش

(١) هكذا يسميها الأتراك المحليون، بالفارسية: سينجيد، وهي قريبة لشجرة الغُبَيراء الإنجليزية.

الجزء الثالث

طهران، ٢٥ أكتوبر: تقول برقية من رتر، الذي كان ينتظرني، إن الفحَّامين كانوا يغادرون بيروت في يوم الحادي والعشرين. وحيث إن هذه البرقية أُرسلَت قبل أسبوع من يوم الحادي والعشرين، فما زال لا يوجد دليل على أنهم قد وصلوا إلى مارسيليا. أعتقد الآن أن عليَّ الانتظار هنا حتى يصلوا، أو حتى أسمع أنهم لن يصلوا أبدًا. لكنها مضيعة موجعة للوقت عندما يكون الشتاء وشيكًا.

إننا نعيش في كوك دور، هو نُزُل يملكه السيد والسيدة بيترو، ويعجُّ بحيواناتهما الأليفة. كان بيترو طاهيًا لدى السفير الياباني، وبدأ حياته المهنية صبيَّ طبَّاخ لدى اللورد ديربي في باريس. عائلة دي باث موجودة هنا أيضًا، برفقة كاراجوزلو، كلب الرعي الخاص بهم.

ذهب كريستوفر إلى دار الرعاية، حيث ضُمِّدت ساقاه بضِمادات جبسية. يجب عدم تحريكها لمدة عشرة أيام، وحتى حينئذٍ قد تستغرق القروح شهرًا قبل أن تلتئم. إن براغيث أذربيجان عدوٌّ مريع.

ذهبت إلى جُلِستان، حيث يعقد الشاه الجلسات العامة، في مكانٍ خيالي يحوي بلاطًا عجيبًا من القرن التاسع عشر وهوابطَ من زجاج مصقول. عرش الطاووس ملائم جدًّا لمحيط كهذا، غير أن النقش البارز المرصَّع والمطلي لأسدٍ أسفل المقعد يبدو قديمًا بما يكفي لأن يكون قد شكَّل جزءًا من العرش الأصلي الذي كان في دلهي. يوجد عرشٌ آخر، جلبه القاجاريون من شيراز، وهو محفوظ في نوع من قاعات الدُّربار (بلاط ملكي بالفارسية) المفتوحة على الحديقة. يأخذ هذا العرش شكل منصة قائمة على تماثيل، ومحفورة من

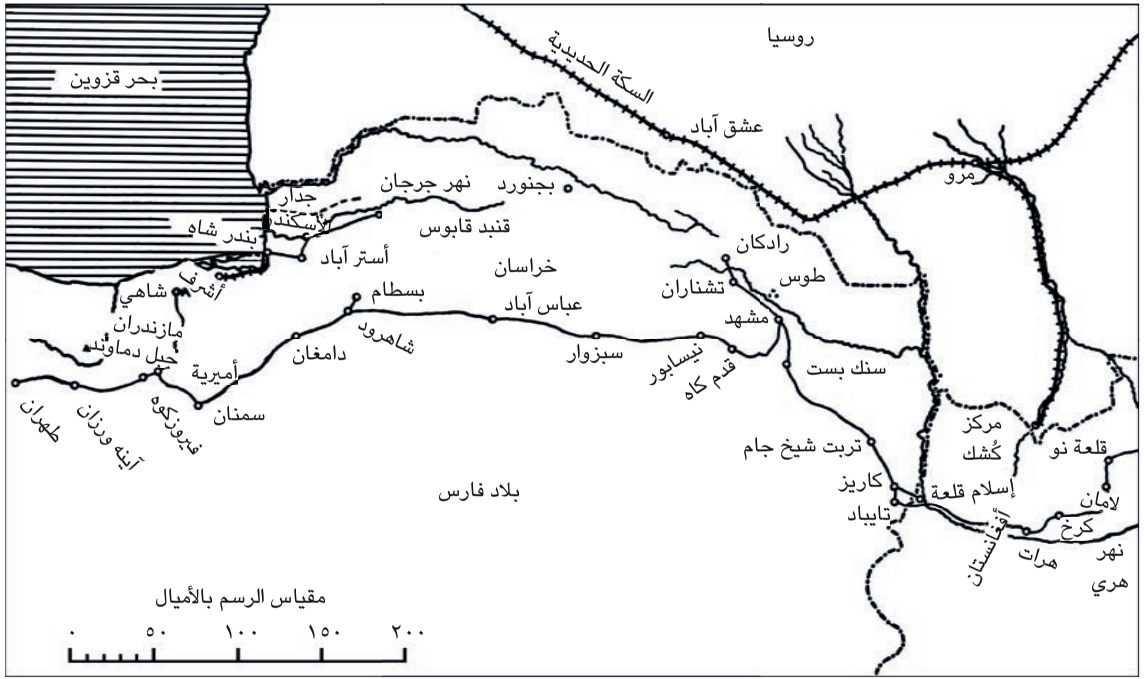

خريطة شمال بلاد فارس.

رخام أو حجر صابوني شبه شفَّاف بالألوان الأصفر والرمادي والأخضر، ومُذهَّبة في بعض المواضع. على المنصة، أمام كرسي الشاه، توجد بِركة ماء صغيرة.

طهران، ٦ نوفمبر: ما زلنا هنا.

لم يصل خبرٌ من الفحَّامين. غير أن آخر مرسال من بغداد جلب شائعةً تقول إن العربات قد تعطَّلت أخيرًا. بينما تقول قصاصة من صحيفة «ذا تايمز» إن الكولونيل نويل قد انطلق من لندن إلى الهند في سيارة رولز رويس تعمل بجهاز الفحم نفسه. لا بد أنه قد طالَع خبر الرحيل الأول للحملة في صحيفة «ذا تايمز»، وظن أنه إثبات كافٍ على سلامة الاختراع. حظًّا سعيدًا له!

في حالة من اليأس، كِدت أشرع وحدي في رحلتي إلى أفغانستان منذ يومين. وتخطيت ذلك بشِقِّ الأنفُس.

عرَّفني وادسورث، القائمُ بالأعمال الأمريكي، بفاركوهارسون. رأيت رجلًا ذا ملامحَ غير جذَّابة، بفكَّين بارزين هزيلين، وشعرٍ نامٍ إلى موضع على قصبة أنفه. ومن فمه صدرت نغمة أنين. ومع ذلك ارتأيت أنه يجب على المرء مسايرة الأمور. الآن بعد أن أصبح كريستوفر طريحَ الفراش، سيكون من الصعب أن أجد أحدًا آخر لأسافر معه.

أنا: «سمعت أنك تفكِّر في الذَّهاب إلى أفغانستان. ربما يمكِننا أن نترافق، إن كنتَ حقًّا ...»

فاركوهارسون: «في الواقع يجب أن أوضِّح لك بادئ ذي بدء أنني هنا في رحلةٍ عاجلة «جدًّا» (بنطقه الطريف لكلمة جدًّا). لقد قضيت بالفعل يومين في طهران. يقولون لي إنني يجب أن أرى عرش الطاووس، أيًّا ما كان. لا أعرف إن كنت متحمسًا جدًّا لرؤيته. بصراحة لست مهتمًّا برؤية أشياء. أنا مهتم بالتاريخ. أنا مهتم بالحرية. حتى في أمريكا، لم تعُدِ الحرية كما كانت. أتمنَّى أن تستوعب بالطبع أن وقتي مضغوط «جدًّا». لم يكن والداي متشوقَين أن أذهب في هذه الرحلة. فقد أسَّس والدي مؤخرًا شركة إعلانات في ممفيس، وقال إنه يأمُل أن أعود للديار بحلول أعياد الميلاد. ربما سأبقى حتى يناير. يعتمد الأمر على الكيفية التي ستسير بها الأمور. لدينا الرحلة الجنوبية، التي تتضمَّن قضاء يوم في أصفهان، وآخر في شيراز. ولدينا تبريز. وأفغانستان. في الواقع، إن أمكن، أود أن أذهب إلى أفغانستان. خُططي ليست ثابتة. لم أكن متأكدًا حتى، عندما غادرت البلاد، أنني سآتي إلى بلاد فارس. قال لي الناس في الولايات المتحدة إنها خطِرة. ويقول الناس هنا بالأمر

نفسه عن أفغانستان. ربما يكونون على حق. أشكُّ في ذلك. لقد سافرت كثيرًا. لا توجد دولة أوروبية لم أزُرها، بما في ذلك أيسلندا، وباستثناء روسيا. وقد نِمت ذات مرة في مصرف مياه في ألبانيا. بالطبع لم يكن ذلك صعبًا «جدًّا»، ومع ذلك تحدَّثت عنه بعدها في ممفيس كثيرًا. لذلك، إن أمكن، أودُّ الذهاب إلى أفغانستان. ولكن لا يسعني سوى القيام برحلة سريعة «جدًّا». ربما نصل إلى كابول، وربما لا. إنْ فعلنا ذلك، فربما أستأجر طائرةً للعودة إلى هنا. لست متشوقًا لرؤية الهند حاليًّا. إنها مكان كبير وأنا أدَّخره لخريفٍ آخر. قضيت بالفعل يومين في طهران. وقد كان هذان اليومان مشحونين في الأساس بأحداثٍ اجتماعية. لقد استمتعت بهما. غير أن هذا ليس ما أتيت من أجله. أنا هنا، كما تعلم، للقيام برحلة سريعة «جدًّا». الآن، إذا أمكن الذهاب إلى أفغانستان، أود الانطلاق غدًا. أعطاني السيد وادسورث، وهو من ممفيس أيضًا، خطابًا للسفير الأفغاني. عندما أضعته أعطاني واحدًا آخر. لقد مررتُ هذا الصباح، لكن السفير لم يتمكن من مقابلتي. فقد كان معه بعض السيدات. قابلت سكرتيرًا بدلًا منه، ولكنه لم يكن يتحدث الإنجليزية، ولغتي الفرنسية لا تتعدى ما تعلمته في الكلية؛ لذلك لم نخُض في حديث مطول «جدًّا». ربما أحصل على التأشيرة، وربما لا. أيًّا كان الأمر، أود أن ننطلق صباح الغد. فكما تعلم، أنا هنا في رحلةٍ سريعة «جدًّا».»

أنا: «كنت سأقترح أنه إذا كنت تريد صحبة، فربما آتي معك وأشاركك النفقات. سيُناسبني ذلك؛ لأنني لا أستطيع تحمُّل تكلفة استئجار سيارة وحدي.»

فاركوهارسون: «يجب أن أعترف أنني لا أعاني تحديدًا صعوبةً مالية. وفي الوقت نفسه، أعمل كشأن الجميع في الولايات المتحدة. الأمر يختلف عندكم في أوروبا. ولكن هناك، ليس لدينا طبقة مرفَّهة. فالكل يعمل، حتى إن لم يكن مضطرًّا لذلك. فستتأذى اجتماعيًّا إن لم تعمل. لقد ادخرت أربعة آلاف دولار لهذه الرحلة. ولكن هذا لا يعني أنني متلهِّف كثيرًا لإهدار المال. أتوقَّع أنه يمكنني «تحمُّل» نفقات الذهاب إلى أفغانستان إن كان بوسعي أن أوفِّر الوقت لذلك. فكما تعلم، أنا هنا في رحلة سريعة «جدًّا».»

أنا: «إذا كان بإمكانك أن تخبرني بدقةٍ كم تريد أن تقضي في الرحلة، فربما يمكننا التخطيط للأمر.»

فاركوهارسون: «حسب الظروف.» (يكرِّر كلَّ ما سبق أن قاله بإسهاب أكثر.)

في النهاية ذهبت بنفسي إلى السفارة الأفغانية، لأرى إن كنت سأستطيع مساعدة فاركوهارسون في طلبه للحصول على التأشيرة. في نفس الوقت، رتَّبنا أن نلتقي في اليوم

التالي. جاء إلى كوك دور بينما كنت أنا وكريستوفر نتناول الغداء مع هِرتسفلد، الذي كان قد عاد لتوه من أوروبا.

فاركوهارسون (بأنفاسٍ لاهثة، وهو يتبختر عابرًا غرفة الطعام): «أعتقد أن خُططي قد اتخذت منحًى أفضل. لم أحصل على التأشيرة بعد. ولكن أظن أنني سأحصل عليها. الآن، ثَمَّة أمرٌ أو أمران أنا متلهِّف «جدًّا» لأن أناقشهما معك ...»

أنا: «هل لي أن أعرِّفك على البروفيسور هِرتسفلد؟»

فاركوهارسون: «... أنا سعيد «جدًّا» بمقابلتك، يا سيدي. كما تعلم، أنا هنا في رحلة سريعة «جدًّا»، وكنت سأقول ...»

كريستوفر: «ألن تجلس؟»

فاركوهارسون: «كنت سأقول، بادئ ذي بدء، إنني متشوق جدًّا لأن ننطلق صباح غد إن أمكن. بالطبع لن يكون ذلك ممكنًا. ولكن إن كان كذلك، فتلك خطتي.»

هِرتسفلد (محاولًا تبديد الملل): «أرى أن لديك ثعلبًا مروَّضًا في الفناء هنا.»

كريستوفر: «كان يوجد أيضًا خنزير بري. لكنه قُتل لأنه كان يذهب إلى أسرة الزبائن وهم نيام. لم تتمكن السيدة بيترو من استيعاب الأمر، وتساءلت عن سببِ انزعاجهم إن كان كلُّ ما يريده هو حكُّ بطنِه. لكنهم قتلوه، وكان ذلك نهاية الأمر.»

أنا: «يذهب الثعلب للأسِرَّة أيضًا ويبلِّلها.»

فاركوهارسون: «بالطبع هذا مُسلٍّ جدًّا، وإن كان يؤسفني أن أقول إنني لم أفهم المزحة. الآن، ثَمَّة أمر أو أمران أنا متلهِّف «جدًّا» لأن أناقشهما معك.»

هِرتسفلد: «لديَّ قنفذ في برسبوليس. إنه مستأنس جدًّا. يغضب إذا تأخَّر الشاي دقيقةً واحدة، وتقف أشواكه، ماذا تُسمونها، ريشاته.»

فاركوهارسون: «ثَمة أمر أو أمران أنا متلهِّف «جدًّا» ...»

هِرتسفلد: «وهو أيضًا يستخدم دورة المياه كالبشر. ويكون عليَّ انتظاره كل صباح. جميعنا علينا انتظاره.»

فاركوهارسون (بفتور): «ذلك مثير للاهتمام للغاية، مع أنه يؤسفني أن أقول إنني لم أفهم الأمر جيدًا. والآن ثَمَّة أمر أو أمران ...»

أنا: «من الأفضل أن نذهب إلى غرفتي.» (نذهب بالفعل.)

فاركوهارسون: «ثَمَّة أمر أو أمران أنا متلهِّف «جدًّا» لأن أناقشهما معك. أريد أن أوضِّح أنني إذا ذهبت إلى أفغانستان، فسيكون عليَّ القيام برحلة سريعة «جدًّا». الآن، أريد

الحديث بصراحة كبيرة. أنت لا تعرفني وأنا لا أعرفك. أظن أننا سنكون على وفاق. آمُل ذلك. ولكن يجب أن نحاول توضيح الأمور مسبقًا. لقد دوَّنت بعض النقاط على قصاصة، وسأقرؤها عليك فحسب. أول تلك النقاط أسميتها العلاقات الشخصية. لقد سافرت عدد مرات لا يُستهان به. ومن ثَم أعلم أن السفر يُظهر أسوأ ما في البشر. على سبيل المثال، لديَّ أخ في ممفيس. وهو مُولَع بالموسيقى جدًّا. وأنا لست مولعًا بالموسيقى. كنا معًا في باريس. بعد العشاء كان يذهب لحفل موسيقى. ولم أكن أذهب. أنا أحب أخي، ولكن مع ذلك من المرجَّح أن تنشأ بعض خلافات أكيدة جدًّا من هذا القبيل. أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفني. قد نواجه صعوبات، فربما نمرض. وفي المرض، لا يمكننا أن نتوقَّع أن نكون مبتهجين. وإنما أظن أنه علينا أن نتذكَّر مسألة العلاقات الشخصية هذه. النقطة الثانية أسميتها السياسة. سأتحدَّث بصراحة كبيرة «جدًّا». وقتي مضغوط، كما تعلم، وإذا ذهبنا إلى أفغانستان معًا، كما آمُل أن نفعل، أريد أن أوضح أنه يجب أن تكون لديَّ السيطرة على هذه الرحلة. لذلك أطلقت على النقطة الثانية اسم السياسة. إذا قررتُ أنني لا أريد أن نذهب إلى أي مكان، فعندئذٍ لن نتمكَّن من الذهاب إليه. سأفعل ما في وُسعي لتلبية رغباتك. سأحاول أن أكون عادلًا. أظن أنني سأكون عادلًا. السيد وادسورث، الذي ينتمي هو الآخر إلى ممفيس، يعرف عائلتي، وأظن أنه سيخبرك أنني غالبًا ما أكون عادلًا. ولكن يجب أن أكون القائد سياسيًّا. النقطة الثالثة هي الأمور المالية. نظرًا لأن لي سلطةً كبيرة على هذه الرحلة، فأنا مستعِد لدفعِ ما يزيد قليلًا على نصف ثَمن استئجار السيارة. ولكنك تدرك أن وقتي مضغوط، وعليَّ أن أقوم برحلة سريعة «جدًّا»، ومن المحتمل أنني قد أذهب مباشرةً إلى الهند وآخذ قاربًا من هناك. الآن أعي مما قلتَ أنك تواجه صعوبةً مالية. ولا يمكنني أن أترك رفيق سفر عالقًا في الهند. لذلك، قبل أن نشرع في السفر يجب أن أضمن أن لديك المال الكافي للعودة إلى بلاد فارس، ويجب أن أرى الأوراق المالية التي بالفعل بحوزتك ...»

أنا: «ماذا؟»

فاركوهارسون: «يجب أن أرى الأوراق المالية التي بالفعل بحوزتك ...»

أنا: «إلى اللقاء.»

فاركوهارسون: «... قبل أن تغادر، كي يكون بوسعي أن أتأكد تمامًا من أنه يمكنك أن تتدبَّر أمرَ نفسك في حال ...»

أنا: ««اخرج»، إن لم تكن أصمَّ.»

لاذَ فاركوهارسون بالفِرار. وفي طريق خروجه، هُرع إلى هِرتسفلد وكريستوفر، وصافحهما بحرارة. «أنا سعيد جدًّا بمقابلتكما. وداعًا. يجب أن أرحل. فكما تعلمان، عليَّ القيام برحلة سريعة «جدًّا» ...»

فعل ذلك. وكنت في عَقِبه. ليس لأنني كنت سألمسه دون قفازاتٍ مطاطية وزجاجة مطهِّر. ولكن كان من الميسور تهديده. فقد رأيته يرتدي ثيابَه في اليوم السابق، ولاحظت ضعفًا كبيرًا «جدًّا» في النمو العضلي.

طهران، ٩ نوفمبر: ما زلت هنا.

اغتيل المِلك نادر شاه في كابول.

وصلَت البنك في الصباح إحدى شائعات البازار، وكان مفادُها أن غازي مِلك العراق قد مات. سمعت المفوضية بالحقيقة في الساعة الواحدة. وأكَّدتها وكالةُ رويترز في المساء. كانت حكومة الهند في حالةٍ هستيرية. لا توجد أنباء على الإطلاق من أفغانستان نفسها. ولكن سواءٌ حدث اضطراب أم لا، حدثٌ كهذا سيجعل رحلتي أصعب؛ هذا إن استطعت الشروع فيها من الأساس.

أتى أحد القادة البختياريين، وهو صديقٌ قديم لكريستوفر، لتناول العشاء معنا في غرفةٍ خاصة. طالبنا بالتكتُّم لأن التواصل مع الأجانب يشكِّل خطرًا على شخصٍ ورِث منصبَ خان قبيلة. في الواقع، يتحفظ مارجوريبانكس على جميع هؤلاء الزعماء في نوع من الأَسر غير الرسمي. يمكنهم العيش في طهران وتبذير الأموال هناك. ولكن لا يمكنهم الرجوع إلى منطقتهم البختيارية. مارجوريبانكس في رعب من القبائل، ويحاول كسر شوكتها بتوطينها في قرًى تحت سيطرة الشرطة وحرمانها من قادتهم. كثيرًا ما كانت تُنجِب ملوكًا في الماضي.

تحدَّث ضيفنا بتوجُّس من المستقبل. وقال إنه كان مستسلمًا للأمر. لطالما كانت بلاد فارس على هذا الحال. والشيء الوحيد الذي يمكن فِعله هو التحلي بالصبر حتى يموت الطاغية.

طهران، ١١ نوفمبر: السبت. ما زلت هنا.

قرَّرت المغادرة يوم الثلاثاء. يوم الإثنين، وجدت سيارةً من نوع موريس معروضة للبيع بسعر ٣٠ جنيهًا إسترلينيًّا. بدت صفقةً جيدة. في الواقع، تصوَّرت حقًّا أنها ستمكِّنني من المغادرة في اليوم التالي.

غير أن تسلسُل الأحداث، الذي بدأ بعد ذلك، مِن تملُّك السيارة، والحصول على رخصة لقيادتها، والحصول على إذْن بالإقامة في بلاد فارس بأي شكل من الأشكال، والحصول

على إذْن بالذَّهاب إلى مدينة مشهد، والحصول على خطاب إلى حاكم مشهد، والحصول على خطاباتٍ أخرى موجَّهة إلى حكام المناطق التي سأمرُّ بها في طريقي، أضاع أربعة أيام. قيل عني إنني «متمرِّد على القانون»؛ لأنه لم يكن معي بطاقة هوية. وللحصول على واحدة، زوَّدتُ سجلات الدولة بسِر مكان ميلاد أمي، في ثلاث نسخ. في تلك الأثناء، كان مالك السيارة قد غادر طهران، مانحًا توكيلًا لمحامٍ طاعن في السن يرتدي مِعطفًا يصل إلى أسفل الركبة من التويد الوردي. أُبرِمت صفقة، وصُدِّق رسميًّا على التوقيعات، لكن الشرطة رفضت تسجيلَ المعاملة، فمع أن التوكيل الممنوح للمحامي امتدَّ ليشمل جميعَ ممتلكات موكِّله، فإنه لم يَرِد ذِكرُ سيارة موريس في قائمة تلك الممتلكات. أُبطل هذا القرار، على إثر التماس ضابطِ شرطة ذي رتبةٍ أعلى، أخبر مرءوسَه بالحقيقة عبْر الهاتف. ولكن عندما رجعنا إلى قسم الشرطة الآخر، على بُعد ٣٠٠ ياردة، لم يكن لديهم أي علم بذلك. وسئلت الأقسام المجاورة إن كانت قد وصلتها الرسالة. في النهاية، تذكَّر أحدٌ ما أن الشخص الذي لا بد أن يكون قد تلقَّى المكالمة الهاتفية قد خرج. أنعم علينا الرب؛ إذ قابلناه في الشارع وتبِعناه إلى مكتبه. أزعجه هذا. قال إنه لن يفعل شيئًا دون نسخة من التوكيل. وطلب منا أن نتركه وشأنه حتى تكون جاهزة. غادر المحامي وهو يعرج لشراء ورقة فارغة. لجأنا نحن، ابن المالك وصاحب المرأب وأنا، إلى رصيف الميدان الرئيسي، وجلسنا القرفصاء حول الكاتب المسن العبوس بينما كانت نظارته ساقطة عن أنفه، وقلمه يُخرِّم الورقة حتى بدت مثل قالب رسم. لم يكن قد انتهى من كتابةِ جملةٍ واحدة حين طلبت منا الشرطة أن نمضي من هذا المكان، ولم يكن قد شرع في جملةٍ أخرى حين طالبتنا بذلك ثانيةً. مثل مستعمرة ضفادع حائرة، تحرَّكنا مسرِعين في أنحاء الميدان، مدوِّنين كلمة خاطفة هنا وهناك، بينما كان الغسق يزداد إعتامًا. عندما قُدمت النسخة، تعيَّن نسْخها مرة أخرى، في المكتب. كان الحال في الميدان أفضل من هذا؛ فقد انقطعت الكهرباء في المكتب، وكان يجب إشعال أعواد الثقاب بكميات جعلت أناملنا تحترق. ضحكت، وضحك الآخرون، كما ضحك الشرطي كالمجنون، ولكن أصبح جادًّا فجأة، وقال إن شهادة الملكية لا يمكن مع ذلك أن تكون جاهزة إلا بعد ثلاثة أيام. ولكن ساعة من الجدال أسفرت عن وعد بأن تكون جاهزة في صباح اليوم التالي. في صباح اليوم التالي ذهبت بحثًا عنها، ومجددًا قالوا لي بعد ثلاثة أيام. ولكن حينئذٍ، نظرًا لأنني كنت وحدي، كانت لديَّ ميزة أن أتحدث الفارسية بما يكفي لأن أقول ما أريد، ولكن ليس بما يكفي لفهم الرفض. ذهبنا مرةً أخرى عبر الشارع في حشد إلى الضابط. هُرع الرجال من غرفة إلى أخرى. ودمدم الهاتف. وأُصدِر المستند. دعوني

أُضِفْ أن كل هذا لم يكن سوى واحد على عشرة، مجرد عينة، مما لاقيته خلال هذه الأيام الأربعة الأخيرة.

تاريخ صنْع السيارة هو عام ١٩٢٦، وكان محرِّكها يحتاج إلى بعض العناية. بعد اختبارها أمس، اقترحت أن ننطلق في السادسة من صباح اليوم. ولكن في نهاية الاختبار، كانت البطارية قد تعطَّلت. سأغادر في منتصف اليوم، وآمُل أن أصل أميرية الليلة، حيث توجد أسوأ الممرات الجبلية لكنني سأتجاوزها.

وصلت مجموعة نويل ليلة أمس في سيارتين رولز رويس. تخلَّصوا من جهاز الفحم في دوفر. يقولون إن الفحَّامين الأصليين قضَوا خمس ليالٍ في الصحراء بين دمشق وبغداد، وكسروا طرفين كبيرين لعمودَي توصيل في المحرِّك، وجارٍ إصلاحهما الآن. ما زلت غير متأكد من مجيئهم إلى هنا. ومن المستحيل الانتظار اعتمادًا على الحظ. فقد تُغلَق الممرَّات الجبلية في أي يوم بعد اليوم الخامس عشر من الشهر.

آينه ورزان (٥٠٠٠ قدم تقريبًا)، لاحقًا في الساعة ٧:٣٠ مساءً: تعطَّل محور الدوران الخلفي للسيارة، على مسافة ستة أميال من طهران.

صاح الشرطي عند بوابة المدينة: «إلى خراسان! إلى خراسان!» شعرت ببهجةٍ رائعة والسيارة تتقدَّم عبر ممرات البُرز محدِثةً ضجةً وصخبًا. أثناء الصعود والهبوط، كان المحرِّك دائمًا على تُرس النقلة الأولى؛ فهذا وحده يمكنه أن يحمينا من الإسراع، للخلف أو للأمام كما يقتضي الحال، فوق المنعطف الحاد الأخير أو التالي.

دفع سبعة من الفلاحين، وهم ينشدون، السيارة صعودًا إلى سقيفة في هذه القرية. الخسارة فادحة. لكنني لن أعود إلى طهران.

شاهرود (٤٤٠٠ قدم)، ١٣ نوفمبر: وصلت حافلة في الصباح التالي إلى آينه ورزان، وكانت ممتلئة بحجيج من سيدات في طريقهن إلى مشهد. أيقظتني ثرثرتهن في الفناء بالأسفل. بعد خمس دقائق، كنت بجوار السائق، وكانت أمتعتي أسفل السيدات.

من الممر الجبلي فوق أميرية، نظرنا خلفنا إلى صفٍّ مرتفع من القمم، سلاسل، ونتوءات الشكل المخروطي الأبيض لجبل دماوند في عَنان السماء، وأمامنا إلى سهلٍ لا حدَّ له، حيث تتموج الجبال إلى أعلى وتنحسر كموجة مد وجزر، معتِمة هنا ومشرِقة هناك، بينما تبِعت الظلال وسطوع الشمس سادتهما السُّحب عبر ساحة اليابسة. عرَّشت أشجار الخريف صفراء الأوراق على أهل القرية المنعزلين. كل مكان آخر كان عبارة عن صحراء؛ صحراء شرق بلاد فارس الصخرية السوداء اللامعة. في مدينة سمنان، بينما كانت السيدات يشربن

الشاي في خان مسافرين من القِرْميد، سمعت عن مئذنة قديمة، وعثرت عليها قبل أن تعثر عليَّ الشرطة. عندما عثرت عليَّ ذقتُ علقمًا، كما يقولون؛ لأنني لن أتمكن من المكوث أكثرَ من ذلك في مدينتهم الجميلة، ومضينا بالسيارة مبتعدين نحو الغسق. قال السائق، الذي كان زنجيًّا، عارضًا سعرًا نمَّ عن مودة: «تعالَ معنا إلى مشهد.» بعناد، ترجَّلت في مدينة دامغان.

يوجد في ذلك المكان بُرجا دفنٍ دائريان، عليهما كتابات منقوشة، ومؤرَّخان بأنهما بُنيا في القرن الحادي عشر، وهما مشيَّدان بقِرْميد رفيع بلون القهوة بالحليب لكنه ليس مُملَّطًا بإحكام. يوجد مسجد مهدَّم أقدم منهما، يُعرف باسم تاريخ خانة أو «بيت التاريخ»؛ وتستحضر أعمدته الدائرية القصيرة إلى الذاكرة كنيسةً في قريةٍ إنجليزيةٍ من حِقبة النورمان، ولا بد أن هذه المباني قد ورِثت عمارتها الرومانسكية غير المتوقعة من التراث الساساني. فقد استمدت العمارة الإسلامية كلها من هذا التراث بمجرد أن غزا الإسلام بلاد فارس. ولكن من المثير للاهتمام أن ترى العمارة وقد بدأت في تلك الصورة الأولية، قبل أن تكتسب قيمتها الفنية.

بدأ أفراد الشرطة، الودودون، يصابون بالإغماء من فرط الجوع عندما تركتهم بالخارج إلى ما بعد وقتِ غدائهم. في ساعة متأخرة من العصر، أقبلت شاحنة من الغرب، ودفعوني إليها؛ إذ كانت أملهم الوحيد في أن يحصلوا على وجبة في ذلك اليوم. وصلنا شاهرود في الساعة الثامنة، ومن المقرَّر أن نغادر في منتصف الليل.

أبى ذلك البنَّاء الباهر، خان المسافرين الفارسي، أن تطيح به وسائلُ النقل الحديثة. المرائب في كل مكان بالتأكيد. ولكنهم يعيدون إنتاج التصميم القديم. وهذا يتكوَّن من ساحةٍ رباعية الزوايا، في حجم كلية أكسفورد، ومحصَّن بأبوابٍ ضخمة. بالقرب من الأبواب، بجوار المدخل المقوَّس، توجد غرفٌ لطهي الطعام، وتناوله، والنوم الجماعي، والمعاملات التجارية. وحول الجوانب الثلاثة الأخرى، توجد صفوف من غرف صغيرة، تشبه قلايات الرهبان، وأماكن إيواء للخيل والسيارات. تختلف مستويات وسائل الراحة. فهنا، في مرأب ماسيس، لديَّ سرير بزنبرك، وسجادة، وموقد؛ وقد أكلت دجاجةً غضة، وأتبعتها ببعض العنب الحلو المذاق. لم يكن يوجد أي أثاث على الإطلاق في دامغان، وكان الطعام كُتلًا من الأرز البارد.

نيسابور (٤٠٠٠ قدم)، ١٤ نوفمبر: يمكن للمرء أن يصبح خبيرًا في أي شيء. لم يكن في بلاد فارس كلها من قبلُ شاحنة كالتي ركبتها من دامغان؛ فقد كانت من نوع ريو سبيد واجون وجديدة تمامًا، وقادرة في رحلتها الأولى على قطع خمسة وثلاثين ميلًا

في الساعة على الأرض المستوية، بعجلات مزدوجة، ومبرِّد محرِّك قوي، وإنارة في مقصورة السائق. يسجِّل محمود وإسماعيل وقتًا قياسيًّا من طهران إلى الحدود الهندية. يسألونني عن صحتي كل خمس دقائق، ويريدان أن أذهب إلى دوزداب مباشرةً معهما.

اخترق الفجر الليلة العاصفة الممطرة كابتسامة مِن على حبل المشنقة. تناولت بعض الجبن، والجانب الآخر من صدر الدجاجة التي قُدِّمَت لي في شاهرود. لاحت شجرتا صفصاف قصيرتان وصالة شاي في الصحراء الكثيرة الضباب. دخل محمود وإسماعيل لإلقاء التحية على رفقاء الطريق الآخرين. غفوت حيث كنت جالسًا.

في مدينة عباس آباد تجمَّعنا حول النار، بينما كان أهل المكان يحاولون أن يبيعوا لنا الخبز ومباسم السجائر والنرد المصنوع من حجر رمادي مخضَّر ناعم. كانوا يرتدون قمصانًا روسية قرمزية، وهم ينحدرون من المستعمرين الجورجيين الذين وطَّنهم هنا شاه عباس. ثم تابعنا المضي، في مواجهة الرياح والأمطار، عبر الأراضي الجبلية الرمادية القاحلة. تتحرك السُّحب الرمادية الشبيهة بمناطيد زِبلين مسرعةً على ارتفاع منخفِض. والقرى القليلة الرمادية خاوية من الناس. محتشدةً حول قلاعها الخرِبة، تتلاشى في المطر تلك الأشكال القديمة، القبَّة الشبيهة بخلية النحل والزقُّورة (الزقُّورات، التي يقع معظمها في بلاد ما بين النهرين، هي عبارة عن معابد مدرجة كانت تُبنى في سوريا والعراق ثم إيران). وهي تتلاشى على هذا النحو منذ فجر التاريخ؛ وعندما يأتي الصيف، ستنهض من جديد بقِرْميد طيني جديد حتى يغلِق كتاب التاريخ صحائفه. تمضي تيارت في سيلٍ أرجواني عبر الطرق ذات الجدران إلى الحقول، وخارجًا إلى الصحراء. المسار نفسه يصبح مجرًى مائيًّا. في إحدى الليالي، فقدت أشجار الحَوْر أوراقها، بينما احتفظت أشجار الدُّلْب بأوراقها ليومٍ آخر. تتمايل صفوف من الجِمال بمحاذاتنا، حيث يجلجل جرس الجمل وهو آتٍ، وعندما يجلجل مرة أخرى يكون قد اختفى. يمضي الرعاة بأرديتهم الفضفاضة البيضاء في طريقٍ متعرجٍ عبر العاصفة وراء القطعان التي ترعى على الحصى. تعلن الخيام السوداء وقبَّعات الصوف السوداء عن وجود التُّركمان واقتراب آسيا الوسطى. إذَن، هذا هو الطريق الذهبي. منذ ثمانية قرون، شهدت مئذنة خسروجرد رحلات التجار كما تشهد الآن مرورنا. تقع سبزوار على بُعد ميلين. يُقدِّم خان المسافرين الكباب وخُثارة اللبن والرمان وزجاجة من نبيذ الكلاريت المحلي.

بُعَيد حلول الظلام، انطفأت أنوار الشاحنة. ولم يكن مع مُحطِّمَي الرقم القياسي الضعيفَين، محمود وإسماعيل، عود ثقاب ولا فتيل. كان معي الاثنان، ولكن لم يكن من السهل إصلاح العُطل، وبدلًا من الوصول إلى مشهد، كان علينا أن ننصب خيامنا هنا.

يا للهول، إنه مسقط رأس عمر الخيَّام.

مشهد (٣١٠٠ قدم)، ١٦ نوفمبر: تبلغ المسافة من نيسابور إلى مشهد تسعين ميلًا. افترضتُ أنني سأكون هنا بحلول الظهر.

لكن شاحِنتي السبيد واجون الجميلة لن تتمكَّن من الذهاب، ولم أتمكَّن من إيجاد مقعد في حافلة حجاج بريطانية من طراز بيدفورد إلا في الساعة التاسعة. في قدم كاه، على بُعد ستة عشر ميلًا على الطريق، توقَّف السائق بلطف بينما مشيت إلى الضريح. بُني هذا المُثمَّن الصغير الجميل، الذي تعلوه قبَّة بصلية الشكل، في منتصف القرن السابع عشر، وهو يُخلِّد ذكرى مكانٍ استراح فيه الإمام الرضا. ويقوم على منصةٍ أسفل جُرف صخري، تحيط بها أشجار الصَّنَوبر المظلية الطويلة والمجاري المائية المترقرقة. سقطت أشعة الشمس على البلاطات، التي تلألأت بالألوان الأزرق والوردي والأصفر في مقابلة الاخضرار الداكن لأوراق الأشجار والسماء المكفهرَّة. سأل سيدٌ مُلتحٍ يرتدي عمامةً سوداءَ أن نعطيه مالًا. واقترب الرجل الأعرج الأعمى، وهو يتقافز ويطرق بعكازه على الأرض، بسرعة مروِّعة. ففررت عائدًا إلى الحافلة.

كانت تلك العربة تحمل ضعف العدد المناسب لها أن تحمله من الركَّاب، بالإضافة إلى أمتعتهم. مبتهجًا بفكرة اقتراب رحلته من نهايتها، اندفع السائق بالعربة ينزل التل بسرعة أربعين ميلًا في الساعة، مترنحًا عبر قاع مجرًى مائي، وبعدما كان قد ارتفع لتوه على المنحدر المقابل، أذهلني أن أرى العجلة الأمامية المخلوعة تجري للخلف تجاهي، وتسحق درجةَ الصعود الجانبية، وتهرُب إلى الصحراء. سأل السائق ممتعضًا: «هل أنت إنجليزي؟ انظر إلى ذلك.» كان ثَمَّة كسر بمقدار بوصة في الفولاذ البريطاني.

استغرق الأمر ساعةً ونصفًا لتركيب مفصلة أخرى. احتشد الحجيج وهم يولُّون ظهورهم للريح، الرجال متدثِّرون بجلود الغنم الصفراء، والنساء محتجباتٌ بستائر سوداء. نالت ثلاث دجاجات، كانت مربوطة إحداها بالأخرى من أرجلها، حريةً مؤقتةً. لكن قرقرتها دلَّت على أملٍ ضعيف. عندما انطلقنا مرةً أخرى، كان يتملك السائقَ شعورٌ بالشلل نابع من الحذر. واصل السير بالعربة بسرعة خمسة أميال في الساعة، متوقِّفًا عند كل خانٍ مسافرين لإنعاش أعصابه بتناول الشاي، حتى وصلنا أخيرًا إلى ممرٍّ صغير ومشهد جديد.

أحاطت بالأفق صفوفٌ من الجبال المضاءة بالنار. وكان الليل وسُحبٌ متموِّجة يتقدمان من جهة الشرق. بالأسفل في السهل، دلَّت غشاوة من دخان وأشجار ومنازل على ظهور مشهد؛ المدينة المقدَّسة لدى الشيعة. ومضت قبَّةٌ ذهبية، ولاحت قبَّة زرقاء، من الضباب الخريفي البارد. قرنًا بعد قرن، منذ دُفِن الإمام الرضا بجوار الخليفة هارون الرشيد، كان هذا المشهد ينعِش أنظار الحجيج والتجار والجيوش والملوك والمسافرين الذين أعياهم مرأى الصحراء؛ ليصبح الأمل الأخير لعشرات من الركاب الحانقين في حافلة معطوبة.

ميَّز عدد من الركائم الموقعَ المقدَّس. نزل الحجيج الذكور للصلاة، مُولِّين ظهورهم لمشهد ووجوههم لمكة. ونزل السائق لجمعِ أُجرته، ونظرًا لأن الأزواج كانوا مشغولين، فبحكم الضرورة توجَّه نحو زوجاتهم. صدرت صيحةُ اعتراض، تعالت في غضب واستمرار حتى بلغت ذروتها، فنسفت لحظةَ تقديم الشكر. واصل الأزواج الأتقياء صلاتهم، وهم يضربون جبهاتهم في الركائم، ويجرحون أقدامهم المرتدية الجوارب، ويجيشون بالتنهُّدات رافعِين الأنظارَ تتَّجه أعينهم نحو السماء، في عزمهم على تأخير الحساب الذي لا مفرَّ منه. تقافز السائق ومساعده حول الحافلة، يصدُّهم المحتالون المُقَلنَسون في قفصهم المصنوع من الأسلاك. واحدًا تلو الآخر حاول الأزواج الإفلات عائدين إلى أماكنهم خفية. وواحدًا تلو الآخر أمسك بهم السائقون. وأبدى كلٌّ منهم اعتراضه لمدة ربع ساعة كاملة. ولكن ثلاثة فقط رفضوا في النهاية أن يدفعوا، وهؤلاء طُردوا من المجموعة باللكمات والركلات، وهم يزمجرون ويسبون. يقودهم منافق متذمِّر، أنشط المتعصبين، الذي كان يجلس بجواري في المقعد الأمامي بالحافلة، انطلقوا مبتعدين ينزلون التل في هرولة متعثِّرة.

لم تكن الحافلة قد بدأت في اتباعهم حتى بدأت النساء في الخلف تُحدِث صخبًا مضاعفًا. بقبضات أيديهن وأدواتهن المنزلية، كِدن يحطِّمن الفاصل الخشبي الرفيع الذي يفصلهن عن السائق وعني. توقَّفنا مرةً أخرى. أسقطت النساء السليطات الحانقات حجابهن، وطالبنني باستعادة رجالهن الثلاثة. بحلول ذلك الوقت، لم يكن يهمني سوى أن أصل إلى فندقٍ قبل حلول الظلام. قلت للسائق: «إما أن تُعيد الرجال أو أن تواصل السير. ستخسر أُجرتي أنا أيضًا إن بقينا هنا أكثر من ذلك.» رجحتْ هذه الحُجة. لحِق بالرجال، الذين كانوا لا يزالون يركضون على الطريق، ودعاهم للعودة. لكنهم رفضوا. متراجعين إلى الأخدود، رفضوا رفضًا قاطعًا محاباة الوحش الذي دنَّس أكثرَ لحظات حياتهم قدسية. مجددًا أخذتِ النساء يصرخن ويَطرقن. ومجددًا تصدَّع الفاصل. بل بدأت الحافلة بأكملها

تصدِر صريرًا. صرخت ضاربًا بقدمي بقوة حتى علقت ألواح الأرضية بالفرامل: «امضِ!» قفز السائق خارجًا وأمسك بالفارِّين، وضربهم حتى تأوَّهوا يطلبون الرحمة، وجرَّهم عائدًا بهم إلى الحافلة. حاول المنافق العودةَ إلى مكانه القديم في المقدمة، بجواري. ولكن الآن جاء دوري كي يجنَّ جنوني. قلت إنه لن يجلس بالقرب مني. ردَّا على ذلك، أمسك بيدي وضغط عليها حتى ملأتها لِحيته الشائكة التي تقطر لعابًا برذاذ من القبلات. دفعته دفعةً جعلته يتمدَّد على الأرض، بينما وثبت إلى الناحية الأخرى، قائلًا للسائق الذي أصبح الآن مبللًا ومتعبًا وحزينًا، إنني بدلًا من المزيد من المعاناة في التواصل مع الرجل، سأسير إلى مشهد على قدميَّ وأحتفظ بما أَدين له به في جيبي. عندئذٍ، حوَّلت النساء سِبابَهن إلى المنافق. نُقِل الرجل الفظُّ المتذلل إلى الخلف. وانطلقنا إلى المدينة المقدَّسة بسرعة من شأنها تحطيم عربة مدفع.

تبادلت أنا والسائق النظرات. وضحكنا.

مشهد، ١٧ نوفمبر: استحوذ الضريح على المدينة. احتشد التُّركمان والكازاخ والأفغان والطاجيك والهزارة في الطرق المؤدية إليه، مختلطين بالحشد الكالح من الفرس المتشبِّهين بالأوروبيين. الشرطة وَجِلة من هؤلاء المتعصبين؛ ولذلك لا يزال الوصول إلى الضريح محظورًا على الكفار، على الرغم من السياسة الرسمية المناهضة لرجال الدين التي تقضي بفتح المساجد في جميع الأماكن الأخرى. قال الرجل في الفندق: «إن كنت حقًّا تريد الدخول، يمكنك استعارة قبَّعتي. ذلك كلُّ ما تحتاج إليه.» نظرت باشمئزاز إلى ذلك الرمز البالي لحكم مارجوريبانكس، الذي كان تقليدًا ممسوخًا لقبَّعة العسكرية الفرنسية، واستخلصت أنه لن يُمرَّر جمعٌ من ذوي العيون الزرقاء والشارب الفاتح اللون.

منذ وقتٍ ليس ببعيد، زار مارجوريبانكس سيستانَ لأول مرة. ولإرضاء ولَعِه بالتخطيط الحديث للشوارع، بَنت السلطات المحلية المرتعِبة مدينةً جديدة بالكامل، على طراز بوتيمكين؛ حيث لا تحيط الجدران، التي تزينها الكهرباء، بشيء سوى الحقول. سبقته بيوم شاحنةٌ تحمل ملابسَ للأطفال. وفي اليوم التالي، تجمَّع أطفال المدرسة مرتدين ثيابًا كثياب رياض أطفال فرنسية. وصل الملك، وتوقَّف طويلًا بما يكفي لطرد مدير المدرسة؛ لأن الأطفال كانوا يرتدون الملابس بالمقلوب، ثم تابع مضيه؛ ولكن ليس قبل أن تُخلع الملابس عن الأطفال وتُحزم ثانيةً في الشاحنة لتسبقه إلى المكان التالي. لا تزال فارس بلاد «حاجي بابا».

وصلت مجموعة نويل أمس. حجزتُ مقعدًا إلى هِرَات في شاحنة أفغانية مرسوم عليها وُرودٌ في كل مكان. نطمح في أن تغادر بعد غد.

مشهد، ١٨ نوفمبر: كانت طوس، موطن الفردوسي، موجودةً قبل مشهد، التي نشأت حول رُفات الإمام الرضا. تقع طوس على بُعد ثمانية عشر ميلًا جهة الشمال الغربي، مباشرةً على الطريق غير الممهَّدة إلى عشق آباد على الحدود الروسية.

تشي التلال والحيود بالخطوط العريضة للمدينة القديمة. ويمتد جسرٌ عتيق من ثماني أقواس عبر النهر. وينتصب ضريح مقبَّب ضخم، قِرْميده بلون أوراق الورود الميتة، قُبالة الجبال الزرقاء. لا أحد يعرف مَن المدفون فيه وإن كان بناءً على تشابهه مع ضريح السلطان سنجر في مَرْو، يبدو أنه بُني في القرن الثاني عشر. وهو الأثر الوحيد الباقي من أمجاد طوس.

على أي حال، سيشهد العام القادم الذكرى الألفية لمولد الفردوسي. سمِع الأجانب بالفردوسي. ولا يقدِّرونه إلا بقدرِ ما يمكن لشاعر أن يُقدَّر من قِبَل أشخاص لم يقرءوا له من قبل. لذلك، فمن المتوقَّع أن إشاداتهم لن تمتدح عمله بقدرِ ما ستمتدح جنسيته. هذا على الأقل ما يأمُله الفُرس. أُعلن بالفعل عن برنامج للاحتفالات. حيث ترسل الحكومات التي تشترك في حدودها أو في مصالحَ أخرى مع بلاد فارس وفودًا لتذكرة مارجوريبانكس بأنه بينما كان مواطنوه يصنعون الملاحم كان مواطنوهم يضعون صِباغ النيلة. وسيذكرون أن هذه المقارنة غير ملائمة في وقتنا الحاضر. فالسكة الحديدية الجديدة لجلالته، وعدالته التي تتَّسم بالنزاهة والشفافية، وولعه بالبذلات اليومية، كل ذلك يعطي الأمل لعالمٍ غافل. في الواقع، لقد حافظ الشاه رضا بهلوي على مكانة الفردوسي.

ستصبح طوس، التي اعتراها صمتٌ طويل بين الجبال والصحراء، مسرح هذه الأقاويل العطرة. وسيُزاح الستار من على نصب تذكاري مقام في الموقع المحتمل تقريبًا أن يكون به قبر الشاعر. هذا الشيء، الذي انتهى بناؤه تقريبًا، كان مفاجأةً سارَّة. حيث يقف مخروطٌ مربَّع، سيُغطَّى بحجارة بيضاء، على دَرَجٍ واسع. وأمامه توجد بِركة ممتدة، تحيطها صفوفٌ من الأشجار، ويُشير إليها زوج من السرادقات الكلاسيكية. بالنظر لحدود الذوق الشرقي في مواجهة المفهوم الغربي، فإن التصميم يستحق التقدير. الجزء الغربي منه، النصب التذكاري، هو أبسط ما يمكن؛ والجزء الفارسي، الحديقة، جميل كالعادة، والاثنان مندمجان بنِسب جيدة. عندما تنتهي الاحتفالات، ولا يُسمَع سوى صوت جلجلة أجراس الماعز، ربما يجد محبُّو الفردوسي سكينةً ممتزجةً بالعرفان في هذا الضريح المتواضع.

أُقيمت حفلة شاي في القنصلية عصر اليوم، وتبِعتها ألعاب. وقدَّم رئيس الشرطة، الذي بدا كمنفِّذ أحكام الإعدام، وربما هو كذلك بالفعل، عرضًا عجيبًا وهو مربوط من ذراعه

بسيدة مبشِّرة أمريكية في منافسة للعثور على شيءٍ مخفي. قابلت السيد دونالدسون، رئيس البعثة الأمريكية، الذي بدلًا من، أو ربما إلى جانب، الانشغال بأمر المتحولين عن الدِّين، نشر كتابًا عن العقيدة الشيعية.

تقول برقية من طهران إن الفحَّامين قد وصلوا، وإنهم آتون إلى هنا بمجرد أن تفرِج الجمارك عن أسلحتهم. ليس من المنطقي أن أنتظرهم. يجب أن نلتقي في مزار شريف إن كنا سنلتقي من الأساس. حتى في الوقت الحالي، ربما يكون الطريق مغلقًا بفعل الثلوج.

يرى نويل الآن أنه سيحاول أن يحصل على تأشيرات لأفغانستان أيضًا.

أفغانستان: هِرَات (٣٠٠٠ قدم)، ٢١ نوفمبر: حصل نويل على تأشيرات وأحضرني إلى هنا، أو بالأحرى أحضرته أنا. بعد أن قاد طوال الطريق من لندن، كان سعيدًا بإعطاء عجلةِ القيادة لشخصٍ آخر. وغادر عصر اليوم متخذًا الطريقَ الجنوبي المؤدي إلى قندهار.

ولكن لموظفي القنصلية الروسية، الذين يعيشون حياة السجناء، أنا الأوروبي الوحيد في المكان، وأتعامل بأفضل سلوك لديَّ؛ فتحديق العامة يتطلب ذلك. يرافقني في الفندق ثلاثة من الهنود البارسيين الذين يجوبون العالم على الدرَّاجات، وقد أتَوا من مزار شريف عبر الطريق الجديد الذي افتُتح هذا الصيف. وقد قابلوا في طريقهم العديد من الروس الذين هربوا عبر نهر أوكسوس، وكانوا يتقدَّمون تحت الحراسة إلى تركستان الصينية عبر طريق واخان-بامير. أحد هؤلاء كان صحفيًّا، أعطاهم رسالةً يصف فيها معاناته. كان حذاؤه مثقوبًا بالفعل، لكنه كان ينوي المشي إلى بكين.

هِرَات لها وزير خارجيتها الذي يُعرَف باسم مدير الخارجية، ويقول إنني إذا تمكَّنت من إيجاد وسيلة نقل، فربما أتابع طريقي إلى تركستان. أجريت أيضًا مقابلة مع الحاكم، عبد الرحمن خان، وهو رجل مسن وسيم يرتدي قبَّعة أستراخان سوداء طويلة، وله شارب رمادي يشبه شارب هيندنبرج. وهو أيضًا يمنحني إذنًا للذهاب إلى حيث أشاء، وسوف يزوِّدني برسائلَ للسلطات في الطريق.

لاحقًا زرتُ منتظم (مدير) التلغراف، الذي يتحدَّث الإنجليزية.

سأل فجأة، وهو يلقي نظرةً سريعةً من النافذة ليتأكد من أنه لا يوجد أحد في الجوار: «أين أمان الله خان؟»

«في روما، على ما أظن.»

«هل سيعود؟»

«لا بد أنك تعرف أفضل مني.»

«أنا لا أعرف شيئًا.»

«أخوه، عناية الله، في طهران الآن.»

اعتدل المنتظِم في جلسته. وقال: «متى وصل؟»

«إنه يعيش هناك.»

«وماذا يفعل؟»

«يلعب الجولف. إن لعبَه سيئ حتى إن الدبلوماسيين الأجانب يتجنَّبونه. ولكن ما إن علموا باغتيال الملك نادر خان، حتى اتصلوا جميعًا به ودعوه للعب.»

هزَّ المنتظِم رأسه ردًّا على هذه المعلومة الشريرة. وسأل: «ما هو الجولف؟»

اتصل سيدٌ من البلدية هذا المساء ليطمئنَّ على راحتي. فصرَّحت بأنني سأكون مرتاحًا إذا كان يوجد زجاج على نوافذ غرفتي. يدير الفندق السيد محمود، وهو يشبه قبيلة أفريدي في مظهره، وكان يعمل في فندق في كراتشي. أطلعني على سجل زائريه، ومنه رأيت أن جراف فون باسفيتز، القنصل الألماني في كلكتا، مكث هنا في أغسطس في طريقِ عودته من الإجازة. هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عنه منذ عام ١٩٢٩.

هِرَات، ٢٢ نوفمبر: تقع هِرَات في سهلٍ مزروعٍ طويل يمتد شرقًا وغربًا، ويبعُد ثلاثة أميال من نهر هري في الجنوب، ويبعُد نفس المسافة عن آخر نتوء صخري لجبال باروباميسوس في الشمال. وتوجد بلدتان. القديمة عبارة عن متاهة من الشوارع الضيقة المتعرِّجة المحاطة بأسوارٍ مربَّعة، ومقسَّمة قطريًّا بواسطة نفق البازار الرئيسي الذي يبلغ طوله ميلين؛ وفي الشمال توجد القلعة، وهي حصن مهيب من العصور الوسطى مَبنيٌّ على تلة، ومنها يُهيمِن على السهل المحيط. وقُبالة ذلك تقع البلدة الجديدة، التي تتألَّف من شارع واحد واسع يؤدي شمالًا من مدخل البازار، وشارع مماثل يتقاطع معه في زاوية قائمة. تصطفُّ في هذين الشارعين متاجرُ ذات واجهات مفتوحة. وتعلوها أبراج الطابق الثاني للفندق، الواقع وسط دكاكين النحَّاسين الذين يُثني صوتُ طرْقهم بين الفجر والغروب الضيوفَ عن الكسل. إذا تابعنا المضي إلى مفترق الطرق فسنجد مكتب تذاكر الشاحنات؛ حيث يتجمَّع الركَّاب يوميًّا بين حزْم البضائع وحاويات البنزين الروسي في الصناديق الخشبية.

مستغرقًا في تأمُّل التباين مع بلاد فارس، أبادل الناسَ تحديقهم. إن مظهر الفارسي العادي، الذي يرتدي ملابسه وفقًا لقوانين مارجوريبانكس الضاغطة للإنفاق، لهو وصمةٌ في حقِّ الكرامة الإنسانية؛ فالمرء يظن أنه من المستحيل أن يكون هذا السِّرب الهجين الرث

هو حقًّا العِرق الذي حبَّب أعدادًا لا تُحصى من المسافرين فيه بأخلاقه وحدائقه وفروسيته وحبه للأدب. لا يزال جليًّا كيف يُحبب الأفغان الآخرين فيهم. فأولًا، تؤهِّلهم ملابسهم وطريقة سيرهم بما يكفي لذلك. يرتدي قِلةٌ، وهم المسئولون، بذلات أوروبية تعلوها قبَّعة أنيقة من جلد الحَمَل. وكذلك يرتدي سكان المدينة أحيانًا صدريةً على الطراز الفيكتوري، أو السترة المشقوقة الذيل ذات الياقة العالية في حالة الهنود المسلمين. لكن هذه الأشياء المستوردة، عندما تكون مصحوبة بعمامة كبيرة بقدرِ كومة من أغطية السرير، وعباءة من بطانية مبرقشة، وسروال أبيض فضفاض واسع عند الوَرِك وضيق بالأسفل وصولًا إلى حذاء مطرَّز بالذهب على شكل جندول، يكون لها بهجة غريبة، مثل شالٍ هندي في دار الأوبرا. هذه هي الموضة الجنوبية، التي يفضِّلها الأفغان الأصليون. أما الطاجيك، أو العنصر الفارسي، فيفضِّلون ثياب تركستان المبطَّنة. ويرتدي التركمان أحذيةً سوداء عالية، ومعاطفَ حمراء طويلة، وقبَّعاتٍ طويلة من خصلات شعر الماعز الأسود الحريري. والزي الأكثر تميزًا هو زي سكان المرتفعات المجاورة، الذين يتجوَّلون في الشوارع مرتدين معاطفَ من السيرج الأبيض المتيبِّس، بأكمام زائفة تتدلى كما لو كانت أجنحة تصل إلى الرُّكبة من الخلف، ومثقوبة بأنماط كالمرسام. بين الحين والآخر، يمرُّ عبْر المشهدِ ما يشبه خلية نحل من قماش الكاليكو بنافذة في الأعلى. هذه امرأة.

يمشي الرجال الذين أعيُنهم كأعيُن الصقور وأنوفُهم كمناقير النسور في ثيابهم المحاكة الفضفاضة الداكنة يتمايلون عبر البازار المظلم بثقةٍ غير مبالية. ويحملون البنادق في ذهابهم للتسوُّق كما يحمل اللندنيون المظلات. هذه الضراوة مصطنَعة بعض الشيء. فقد تكون البنادق معطوبة. وبنيتهم ليست مثارَ إعجاب في الزي الرسمي الضيق للجنود. حتى توهُّج العيون غالبًا ما يرجع لمواد التجميل. لكنه تقليد؛ ففي بلدٍ يسري فيه القانون سريانًا متذبذبًا، فإن مجرَّد الظهور بمظهرٍ ينمُّ عن القوة يجعل المرء يكسِب نصف المعركة في المعاملات اليومية. قد يكون تقليدًا مزعجًا من وجهةِ نظرِ الحكومة. لكنه حافظ على الأقل على رباطة جأش الناس وإيمانهم بأنفسهم. ويتوقَّعون أن يلتزم الرجل الأوروبي بمعاييرهم، لا أن يلتزموا هم بمعاييره، وهي حقيقة اتضحت لي هذا الصباح عندما حاولت شراء بعض العَرَقي؛ فلا يمكن الحصول على قطرة واحدة من الكحول في البلدة بأكملها. هنا تظهر آسيا أخيرًا دون أدنى عقدة نقص. تقول القصة إن أمان الله تفاخَر أمام مارجوريبانكس بأنه سوف يُفرنِج أفغانستان أسرع من قدرة مارجوريبانكس على أن يُفرنِج بلاد فارس. كانت هذه نهاية أمان الله، وقد تُشكِّل التصريحات المماثلة على المدى الطويل نهايةَ خلفائه.

عند الاقتراب من هِرَات، يستمر الطريق من بلاد فارس قريبًا من سفوح الجبال حتى يتلاقى مع الطريق القادم من كُشك؛ حيث ينعطف إلى أسفل التل باتجاه البلدة. وصلنا في ليلةٍ مظلِمة ولكنها مضاءة بالنجوم. هذا النوع من الليالي دائمًا ما يكون مُفعَمًا بالغموض؛ ففي منطقةٍ غير معروفة، بعد مرأى حرس الحدود الشرسين، أحدثت في داخلي حماسة لم أشعر بها إلا نادرًا. فجأة يمرُّ الطريق بمجموعة من المداخن العملاقة، التي انتظمت خطوطُها العريضة السوداء من جديد أمام النجوم أثناء مرورنا. للحظةٍ أصابني الذهول؛ فقد كنت أتوقَّع أن أرى أي شيء على وجه الأرض، إلا مصنعًا؛ حتى ظهرت، متضائلةً أمام هذه الجذوع الضخمة، صورةٌ ظليةٌ لقبَّة مكسورة، ومضلَّعة بشكل غريب، مثل شمَّامة. قلت في نفسي إنه لا توجد قبَّة مثل تلك يعرفها أيُّ أحد سوى قبَّة واحدة في العالم، وهي قبَّة قبر تيمورلنك في سمرقند. ومن ثَم، لا بد أن تكون هذه المداخن مآذن. ذهبت إلى الفراش كطفل في عشية عيد الميلاد، لا يسعه انتظار الصباح.

يأتي الصباح. وعندما أخرج إلى سطحٍ مجاور للفندق، أرى سبعة أعمدة بلونٍ أزرقَ سماوي ترتفع من الحقول الجرداء المقابلة للجبال الناعمة المزيَّنة بالخلنج. أسفل كلٍّ منها، يُلقي الفَجر ضوءًا ذهبيًّا خافتًا. وفي وسطها تلمع قبَّة زرقاء على شكل شمَّامة قُضِمَت من أعلاها. جمالها أكثر من مجرد جمال تصويري يعتمد على الضوء أو المشهد الطبيعي. وبالنظر من كَثَب، تُسهم كل بلاطة، وكل زهرة، وكل بَتلة من الفسيفساء بتميزها في المشهد ككلٍّ. حتى حينما تكون خرابًا، تنبئ تلك العمارة بعصر ذهبي. هل نسيه التاريخ؟

ليس تمامًا. اشتهرت مُنمنمات هِرَات في القرن الخامس عشر، سواء بذاتها أو باعتبارها مصدرًا للرسم الفارسي والمغولي بعد ذلك. لكن الحياة والرجال الذين صنعوها، وهذه المباني أيضًا، ليس لها مكانة عظيمة في ذاكرة العالم.

والسبب هو أن هِرَات تقع في أفغانستان؛ بينما لسمرقند، عاصمة تيمورلنك، وليس التيموريين، سكة حديدية تؤدي إليها. حتى حرفيًّا أيام قليلة ماضية، لم يكن من الممكن الوصول إلى أفغانستان. بينما اجتذبت سمرقند، على مدى الخمسين عامًا الماضية، العلماء والرسَّامين والمصوِّرين. لذلك يُنظر إلى نطاق النهضة التيمورية على أنه سمرقند وبلاد ما وراء النهر، في حين أن عاصمتها الفعلية، وهي هِرَات، لا تزال مجرد اسم وشبح. الآن، انعكس الموقف. فقد أغلق الروس تركستان. وفتح الأفغان بلادهم. وتأتي الفرصة لإصلاح التوازن. أثناء سيري في الطريق المؤدي إلى المآذن، أشعر بما قد يشعر به أي شخص يعثر مصادفةً على كتب ليفي المفقودة أو على لوحةٍ غير معروفة من لوحات بوتيتشيلي. أظن

أنه من المستحيل إيصال مثل هذا الشعور. التيموريون بعيدون للغاية عن أن يفكِّر فيهم معظم الناس برومانسية. لكن هذا يمثِّل لي مكافأة رحلتي.

ومع ذلك، كان هؤلاء الميديتشيون الشرقيون عِرقًا استثنائيًّا. باستثناء شاه رُخ، ابن تيمورلنك، وباستثناء بابر الذي غزا الهند، فقد ضحَّوا بالأمن العام من أجل الطموحات الخاصة؛ وبقي كلٌّ منهم، في السياسة، كما كان تيمور نفسه، قاطع طريق يبحث عن مملكة. لقد حرَّر تيمور، بتأسيسه إمبراطوريةً بهذا الدافع، أوكسيانا من البدو الرُّحَّل وأدخل أتراك آسيا الوسطى في فلك الحضارة الفارسية. وبالدافع نفسه، نقض المتحدرون منه هذا العمل ودمَّروا أنفسهم. فلم يعترفوا بأي قانون لوراثة العرش. فقتلوا أبناء عمومتهم وتفاخروا فيما بينهم بقتلهم لآبائهم. وواحدًا تلو الآخر ماتوا من السُّكْر. ولكن إذا كانت المتعة هي الهدف من حياة هؤلاء الأمراء، فقد اعتقدوا أن الفنون هي أعلى أشكال المتعة، وقد حذا رعاياهم حذوَهم؛ فلِكَي تكون رجلًا نبيلًا، يجب أن تكون على الأقل داعمًا للفنون إن لم تكن فنَّانًا. عندما يكتب الوزير الشهير علي شير النوائي أنه كثيرًا ما يقتبس من شاه رُخ مع أنه لم يكتب الشعر، فثَمَّة نبرة اندهاش في الجزء الأول من عبارته. فقد اتسم ذوقهم بالإبداع. وقد أرسلوا إلى الصين بحثًا عن أفكار جديدة في فن الرسم. ولم يكتفوا بالفارسية الكلاسيكية، فكتبوا باللغة التركية أيضًا، وهي وسيلةُ تعبير أكثر فاعلية، مثلما فعل دانتي عندما لم يكتفِ باللاتينية فكتب بالإيطالية. وكان من بين مواهب العصر تلك القدرة الغريزية على سرد تفاصيل السيرة الذاتية. مع أن التسلسل الزمني للسيرة لا أساس له، فهو سردٌ مِملٌّ لمؤامرات وحرب أهلية، فإن الشخصيات نابضة بالحياة. إذ تتوافق شخصياتها مع ما لدينا من معلومات. فنحن نعرف في كثير من الأحيان، من وصف الشخصيات، هيئاتهم وملابسهم وكيفية جِلستهم. والآثار التي بنوها لها انطباع مماثل. إذ إن لها خاصية شخصية تُنبئنا عن تلك الظاهرة النادرة في التاريخ الإسلامي، وهي عصر الإنسانية.

إذا حكمنا عليها بالمعايير الأوروبية، نجد أنها كانت إنسانية محدودة. كنهضتنا نشأت النهضة التيمورية في القرن الخامس عشر، وتَدين في مسارها لرعاية الأمراء، وقد سبقت ظهور الدول القومية. لكنَّ الحركتين تختلفان في جانب واحد. فبينما كانت النهضة الأوروبية إلى حد كبير ردَّ فعلٍ لصالح العقل في مواجهة الإيمان، اقترنت النهضة التيمورية بترسيخٍ جديد لقوة الإيمان. كان أتراك آسيا الوسطى قد فقدوا بالفعل الاتصالَ بالمادية الصينية، وكان تيمور هو مَن قادهم نحو قبول الإسلام، ليس فقط كدين؛ لأن ذلك كان

قد تحقَّق بالفعل، ولكن كأساس للمؤسسات الاجتماعية. على أي حال، لا ينساق الأتراك كثيرًا وراء التأويلات الفكرية. وقد اهتمَّ المنحدرون من سلالة تيمور، في تحويلهم لتدفُّق الثقافة الفارسية إلى متعتهم الخاصة، بمُتَع هذا العالم، وليس العالم الآخر. فقد تركوا مسألةَ الهدف من الحياة للقديسين واللاهوتيين، الذين أغدقوا عليهم في حياتهم وأحيوا ذكراهم بعد موتهم. لكنهم في تعاملهم معها، داخل إطار الدين الإسلامي كانوا يتبعون حسَّهم السليم، دون تحيُّز أو عاطفة إلا لصالح الفهم العقلاني.

وقد حُفظت جودة العقل الناتجة عن ذلك في مذكرات بابر، التي كُتبت باللغة التركية في بداية القرن السادس عشر وتُرجِمَت مرتين إلى اللغة الإنجليزية. حيث تصوِّر رجلًا منشغلًا بالمتَع اليومية، والمحادثات، والملابس، والوجوه، والحفلات، والموسيقى، والمنازل، والحدائق، بقدرِ انشغاله بفقدان إمارة في أوكسيانا والاستحواذ على إمبراطورية في الهند؛ ومهتمًّا بالطبيعة بقدرِ اهتمامه بالسياسة، وأيضًا يسجِّل ملاحظات عن حقائقَ مثل المسافة التي تسبحها الضفادع الهندية؛ وصادقًا في الحديث عن نفسه بقدرِ صِدقه في الحديث عن الآخرين، بحيث ترك في تصويره لنفسه — المتسم بالصدقِ حتى إن المرء يكاد يسمعه يتحدث في النص المترجَم — صورةً لنسله بالكامل. وإذا كان قد وُلِد في الجيل السادس بعد تيمور، فلم يغزُ الهند ويصبح أول مغولي إلا في نهاية حياته. ولكن حتى هذا لم يحتلَّ سوى المرتبة الثانية بين أفضل إنجازاته بعدما كان قد أمضى ثلاثين عامًا في محاولةِ إعادةِ توطيد نفسه في أوكسيانا. ولكن بصفته رجلًا كان يتمتَّع بحسٍّ تذوُّق، فقد فعل ما في وسعه لجعل الحياة محتمَلة في بلدٍ كريه للغاية، وتُظهر تعليقاته عليه المعاييرَ التي كان يطمح إليها. كان يرى أن الهنود قبيحون، وأن محادثاتهم فارغة، وثمارهم بلا طعم، وحيواناتهم سيئة التنشئة، وقال: «في الحِرف اليدوية والأعمال هناك، ليس ثَمَّة شكل ولا تناسق ولا أسلوب ولا جودة ... ففي بنائهم لمبانيهم لا يراعون الجَمَال، ولا المناخ، ولا المظهر، ولا التناسق.» وعاب على عاداتهم كما عاب ماكولاي على تعلُّمهم، أو كما عاب جيبون على البيزنطيين، في ضوء التراث الكلاسيكي. وبما أن هذا التراث قد أُبطل في أي مكان آخر، بعد غزو الأوزبك لأوكسيانا وهِرَات، فقد شرع في غرسه من جديد. لقد غيَّر هو وخلفاؤه وجْهَ الهند. إذ أعطوها لغةَ تواصُل مشترك، ومدرسة جديدة في الرسم، وعمارةً جديدة. لقد أعادوا إحياء نظرية الوحدة الهندية التي أصبحت فيما بعدُ أساسَ الحكم البريطاني. تُوفِّي آخر إمبراطور منهم في المنفى في رانجون سنة ١٨٦٢ ليُفسِح المجال للملكة فيكتوريا. وما زال نسلُ تيمور موجودًا حتى يومنا هذا، في فقر وكبرياء، وسط متاهات دلهي.

كي أعود إلى فندقي في بازار النحَّاسين، حيث تشغل مذكرات بابر، من ترجمة السيدة بيفريدج، الطاولة، وأشغل أنا الأرض في فندقي البائس. تقع هِرَات في منتصف الطريق بين نصفَي إمبراطورية تيمور، بلاد فارس وأوكسيانا؛ ومن بين الطريقين اللذين يربطان بينهما، تسيطر على الطريق الأسهل الذي سأسلكه؛ لأن الطريق الآخر، عبر مرو، عبارة عن صحراء جدباء. لذلك، كان من الأنسب جغرافيًّا أن تكون العاصمة وليس سمرقند؛ وعند وفاة تيمور، سنة ١٤٠٥، جعلها شاه رُخ كذلك. فأصبحت الحاضرة السياسية والثقافية والتجارية لآسيا الوسطى. وأتت إليها البعثات الدبلوماسية من القاهرة والقسطنطينية وبكين، ويقدِّم بريتشنيدر في كتابه «أبحاث في العصور الوسطى من مصادر شرق آسيوية» أوصافًا صينية لها. بعد مدة عشرين عامًا من الارتباك أعقبت وفاة شاه رُخ سنة ١٤٤٧، استولى عليها حسين بايقرا، سليل ابن تيمور عمر شيخ. وأحَلَّ فيها سلامًا استمرَّ أربعين عامًا أخرى. كان هذا أكثرَ الفصول حيويةً في تلك النهضة، حيث كان مير خواند وخواند مير يكتبان قصصهما، والجامي يغني، وبهزاد يرسم، وكان علي شير النوائي بطلَ الأدب التركي. كانت هِرَات هذه الحِقبة، حين كان الأوزبك متقدمين في مسيرتهم وكانت سمرقند قد سقطت بالفعل، هي التي شهدها بابر في شبابه. يتذكَّر بعد ذلك قائلًا: «لم يكن في العالم الصالح للسكنى بأكمله مدينةٌ تضاهي هِرَات تحت حكم السلطان حسين ميرزا ... كانت خراسان، وهِرَات في المقام الأول، مليئة بالرجال المثقفين المنقطعي النظير. فمهما كان العمل الذي كان يضطلع به الرجل، كان يهدف ويطمح إلى الإتقان فيه حدَّ الكمال.»

كان بابر هنا لمدة ثلاثة أسابيع في خريف عام ١٥٠٦. وربما يكون قد عايش نفس الطقس الحالي: الأيام التي يزداد فيها النهار المنعش المشمس قِصرًا وبرودة. كل يوم كان يخرج ممتطيًا جواده لمشاهدة المعالم. هذا الصباح سرتُ على خُطاه، ونظرت إلى المباني التي نظر إليها. لم يبقَ منها الكثير. سبع مآذن وضريح محطَّم، هي كل ما يمكنني تصويره عن تلك الحِقبة. لكن تاريخها يمدُّنا بالباقي؛ ولهذا يجب أن ألجأ لاحقًا إلى الكُتاب والجنود وعلماء الآثار. اثنان تحديدًا قد وجَّها فضولي إلى هذا المكان.

وكان ثَمَّة فاصل زمني طويل سبقَ مجيئهم؛ لأن شمس النهضة التيمورية غربت سنة ١٥٠٧، عندما سقطت هِرَات في أيدي الأوزبك. وإذ أدرك بابر أنها ستسقط، نأى بنفسه وفرَّج عن استيائه بأن سرد أن زعيمهم، الشيباني، كان شديد الفخر بثقافته، حتى إنه حاول تصحيح رسومات بهزاد. بعد ثلاث سنوات، استولى عليها شاه إسماعيل، وانضمَّت إلى بلاد فارس الجديدة التي أنشأها. تزداد الظُّلمة شدةً. يستقبل وميضٌ أخيرٌ

للرونق القديم وصول همايون، ابن بابر، في طريقه من الهند لزيارة الشاه طهماسب في أصفهان عام ١٥٤٤. بعد ثلاثمائة سنة، يُرفع الستار عن شذرات من إمبراطورية نادر شاه والرحالة العسكريين في القرن التاسع عشر.

زار بضعة ضباط بريطانيون هِرَات في أوائل ذلك القرن. وقد نظَّم أحدهم، وهو إلدرد بوتينجر، دفاعات المدينة في مواجهة الجيش الفارسي سنة ١٨٣٨، وأصبح بطلَ إحدى روايات مود دَيفَر؛ وهي ليست سيئة أيضًا إذا كنت تحب مدرسةَ فلورا آني ستيل في الرواية. واحد آخر منهم كان بيرنز، الذي اغتيل بعد ذلك في كابول، والذي نشر سكرتيره الهندي، موهان لال، مذكرةً عن الآثار في «دورية جمعية البنغال الآسيوية» لعام ١٨٣٤. كان يوجد أيضًا فيرير، وهو جندي فرنسي ثري، قام بمحاولتين في عام ١٨٤٥ للوصول إلى كابول متخفيًا وأُعيد أدراجه في النهاية. هو أيضًا يجلس على طاولتي، مع أن ثِقل الكِتاب لم يكن يستحق الإرباك. ثم في منتصف القرن جاء باحثان، المجري فمبيري والروسي خانيكوف. لطالما كان هناك شكٌّ في مصداقية رحلة خانيكوف إلى بخارى، وبالتأكيد لا يحتوي وصفه لهِرَات على شيء لا يمكنه التقاطه من ضباط مثل كونولي وأبوت. ويكاد خانيكوف أن يكون مخيِّبًا للآمال بالقدر نفسه. فمع أنه كان في هِرَات طَوال شتاء كامل، فإنَّ سرده في «الدورية الآسيوية» لعام ١٨٦٠ لا يحتوي إلا على بعض النقوش ومخطَّط.

في عام ١٨٨٥، تهبُّ القوات المسلحة للإنقاذ في النهاية. وكان الجنود الروس يحتشدون على الحدود الشمالية الغربية لأفغانستان، ولم تتمكَّن حكومة الهند من إيقافهم لأنها لم تكن تعرف هي أو الأفغان أين تقع الحدود. وقد رُتِّبت لجنةٌ مشتركة بين القوتين لتسوية النزاع، كان مؤرِّخاها، على الجانب الإنجليزي، أخوين، هما إيه سي وسي إيه يات. وبسفرهما عبر ما كان في ذلك الوقت بلدًا غير معروف تقريبًا، سردا كل شيء بدقة عسكرية، وقد خصَّص الأخير فصلًا للحديث عن العصور القديمة لهِرَات كما لو كانت مدفع ميدان جديد، مع أنه لم يكن مدركًا على الإطلاق لجمالها. إنه أول مرجعَيَّ الرئيسيين، وقد نقلته من فوق الطاولة إلى حجْري.

والثاني هو جندي أيضًا، إن أمكن أن تنطبق التسمية على رجلٍ يحاول شنَّ حرب بمفرده. في خريف ١٩١٤، تجمَّعت مجموعةٌ صغيرة من الألمان في القسطنطينية في طريقهم لإزعاج البريطانيين في آسيا. أقام بعضهم في بلاد فارس، وكان من بينهم فاسمس، بطل كريستوفر. تابع بعضهم طريقَه إلى أفغانستان، وقد تأكَّد نجاح هؤلاء بهجوم أمان الله على الهند في عام ١٩١٩؛ أي في عامٍ متأخر جدًّا. ومن بين هؤلاء كان الهِر أوسكار فون نيدرماير.

في عام ١٩٢٤، نُشرت صوره المأخوذة للبلاد على هيئة كتاب مصوَّر. وقد أسهم فيه البروفيسور إرنست دييز بتمهيدٍ حدَّد وأرَّخ فيه لمعظم المباني هنا، بجمع صور نيدرماير مع إشارات تاريخية وإشارات لرحَّالين. تجمعني بدييز معرفة قديمة؛ فقد انطلقت من طهران ومعي كتابه «المعالم المعمارية لشوراسان»، وهو كتاب ضخم من حجم قطع الربع، والذي يُرجَّح أن وزنه هو الذي كسر محور دوران السيارة الموريس. أما نيدرماير، فلم أكن أعرفه. ولحسن الحظ وجدت كتابه في القنصلية بمدينة مشهد، عندما طُلب مني ترْك كتاب دييز الآخر خشيةَ أن يُعرِّض سيارة نويل الرولز رويس للمصير نفسه.

كفى حديثًا عن هذا الآن. أتى الطبيب المحلي لزيارتي.

كان بنجابيًّا ودودًا، ويعمل في الخدمة الطبية الأفغانية. أتى من أجل معرفة الأخبار ولممارسة اللغة الإنجليزية. أخبرته عن مقابلتي مع الحاكم معلِّقًا بأنه كان من السارِّ الفِرار من الشكوك الفارسية إلى هذه الأجواء الأكثر حرية.

«إنك ترتكب خطأً كبيرًا يا سيدي، عندما تظن أنه لا توجد شكوك هنا. فالشكوك في كل مكان. أقول لك يا سيدي، لا يمكن مقارنة بلاد فارس بأفغانستان في هذا الشأن. ففي الوقت الحالي، يقيم عشرون أجنبيًّا في هذه المدينة، وهم من الهنود والروس. وما يقرب من مائة وعشرين عميلًا مكلَّفون بمراقبتهم. هل تظن أنهم لا يراقبونك؟ إنهم يراقبونك في الطابق السفلي الآن. إنني أراهم. وهم يروننني. إنهم يراقبونني طوال الوقت. وسيُصدِرون التقارير على الفور بأنني صعدت إلى غرفتك. أتوقَّع أن الروس أيضًا يراقبونك. فلا شك في أن الفضولَ ينتابهم حول تحرُّكاتك هنا. إنهم متداخلون في كل شيء هنا. أقول لك بثقةٍ إنهم يتحكَّمون في مكتب البريد. في بداية هذا العام، كتبت خطابًا إلى قريب لي في إنجلترا، أشرت فيه بالمصادفة إلى السكة الحديدية الروسية في كُشك والمسافة التي تبعُدها عن هنا. أجل، لا تبعُد سوى ثمانين ميلًا. وفي المرة التالية التي زرت فيها القنصلية الروسية، زيارة مهنية بالطبع، قالوا لي صراحةً: «لماذا تفصح عن معلومة كهذه؟ لا شأن لك بهذا.» لم يتظاهروا بإخفاءِ حقيقةِ أنهم قد قرءوا خطابي. ولذلك، لم أكتب أيَّ خطابات منذ ذلك الحين على الإطلاق.

إنه وقت سيِّئ لتكون فيه هنا في أفغانستان يا سيدي. ستشبُّ قلاقلُ الآن بعدما قُتل الملك نادر شاه. في غضون شهر ستكون ثَمَّة مشكلة. أو ربما في الربيع عندما يمكن للقبائل الحركة بشكلٍ أفضل في الجبال. ولكني أظن أن هذا سيحدث في غضون شهر واحد. افعل ما تريد فعله هنا يا سيدي بسرعة. وشاهد ما تريد مشاهدته. ثم غادر بخطًى سريعة.

سأرحل الآن. عندما أستطيع تدبير أمر شاحنة، سأذهب أنا وعائلتي. سنذهب إلى قندهار، ثم إلى موطني في لاهور. هذا بلد سيئ يا سيدي. آمُل ألا أرجع إليه مطلقًا.»

هِرَات، ٢٣ نوفمبر: مستعينًا بتوجيهات مُرشديَّ، مشيت إلى شمال الطرق الأربعة للمدينة الجديدة في اتجاه تلة عملاقة، بطول ٦٠٠ ياردة تقريبًا، بدت اصطناعية، ولا بد أنها تشبه، من جميع الجوانب، التلالَ في منطقة بَلْخ. ومنها يمكن للمرء التسلُّق إلى جدارٍ آخر، هو متراس خارج دفاعات المدينة، واستطلاع تضاريس المُصلَّى. هذا هو الاسم الشائع الذي تُعرف به المساحة كلها التي تشمل المآذن السبع والضريح. ولكنها في الحقيقة كانت جزءًا من مبانٍ متفرقة بُنيت في أوقاتٍ مختلفة: بعضها في عهد شاه رُخ، وأحدها في عهد حسين بايقرا.

يبلغ ارتفاع جميع المآذن ما بين ١٠٠ و١٣٠ قدمًا. وتميل بزوايا مختلفة؛ فقِممها مكسورة، وقواعدها ملتوية ومتآكلة. كما تبلغ أبعد مسافة فيما بين اثنتين منها، وهما الممتدتان من غرب الجنوب الغربي إلى شرق الشمال الشرقي، حوالي ربع ميل. والمئذنتان ناحية الغرب أكثرُ سُمكًا من الأخريات، ولكن بكل واحدة منهما شرفة مثل المآذن الأربع ناحية الشرق. أما المئذنة التي في المنتصف، التي تقف وحدها، فبها شرفتان. ويقع الضريح بين المئذنتين اللتين في الغرب، ولكن شمالهما. لا يتعدَّى ارتفاعه نصف ارتفاعهما، لكنه يبدو أقل من ذلك من مسافة بعيدة.

لهذا الصف من الأبراج الزرقاء المرتفعة عشوائيًّا من ترقيع من الحقول البنية والبساتين الصفراء مظهرٌ غير طبيعي للغاية. كان من عادة ملوك الإسلام في المراحل الأولى بناءُ المآذن المنعزلة، فرادى أو أزواجًا؛ كي تكون شاهدًا على قطب منار بالقرب من دلهي وقاعدة لأتباعه. غير أن هذا لم يتوسَّع إلا في القرن الخامس عشر، ولم يصل قط إلى حدِّ سبع. ومع ذلك، يمكن للمرء أن يلاحظ من داخل هذه المآذن؛ حيث لا توجد بلاطات على الإطلاق من ارتفاع بضع وأربعين قدمًا من الأرض، أنها في الأصل كانت متصلة بجدران أو أقواس، ولا بد أنها قد كانت تشكِّل جزءًا من سلسلة من المساجد أو المدارس. ما الذي حدث لهذه المباني؟ أشياء بهذا الحجم قد تسقط، ولكنها تخلِّف وراءها بعض الأطلال. فهي لا تختفي من تلقاء نفسها دون أن تترك أثرًا أو خيطًا وراءها، كما حدث في حالة هذه المباني.

إنها قصة مأساوية. حتى إن يات، الذي رآها تحدُث، أبدى تنهيدةً لا تليق بالجنود. اعتبر فيرير هذه المباني، التي دُمِّرت فيما بعد، هي الأجمل في آسيا. يتفق الرحَّالة الآخرون

بشأن جمالها الفريد، وتألُّق فُسيفسائها وروعة نقوشها المُذهَّبة. ويتحدث كونولي، إن لم تخُنِّي الذاكرة، عن ثلاثين مئذنة. في الواقع، مع مراعاة الفرق بين النثر الإنجليزي والفارسي، فإنَّ وصفه يشبه وصفَ خواند مير للمباني في أوجِها.

في سبعينيات وثمانينيات القرن، كانت هِرَات على ألسنةِ الإنجليز بلا انقطاع. حتى إنها ظهرت بغتةً في خطابات الملكة فيكتوريا. لو كان الروس قد استولوا عليها، كما كانوا يتوقَّعون، لكانوا قد أخذوا طريق قندهار المنخفِض لإنشاء سكة حديدية إلى الحدود الهندية. في عام ١٨٨٥، وقعت حادثة بانجدة. ومع أنَّ سانت بطرسبرج، عاصمة روسيا القيصرية، كانت قد وافقت بالفعل على لجنة ترسيم الحدود المشتركة، فإن القوات الروسية هاجمت الأفغان جنوبَ شرق مرو وأجبرتهم على الانسحاب. كان من المتوقَّع حدوث تقدُّم في هِرَات في أي يوم، وقد بعث الأمير عبد الرحمن الأوامرَ بأن توضع المدينة في حالة دفاع. كان الروس سيقتربون من جهة الشمال. ومن ثَم كان لا بد من هدم جميع المباني التي ستؤمِّن لهم تغطيةً في هذه الجهة من المدينة. كان ضباط الجيش الهندي قد أخذوا ينصحون بهذه التدابير لأعوام. أظن أن هذا الأمر بعينه كان بإيعازٍ بريطاني؛ وإن كان لا بد للدليل على ذلك أن ينتظر حتى تفصح سجلات دلهي الأرشيفية ووزارة الحربية عن أسرارهما. على أي حال، فإن أعظم منتجات العمارة الإسلامية في القرن الخامس عشر، التي نجت من بربرية أربعة قرون، قد سُويت بالأرض الآن على مرأًى من المفوضين الإنجليز وبموافقتهم. نجا من ذلك تسع مآذن والضريح.

وحتى هذا النقش على شاهد الضريح معرَّض للخطر. اختفت مئذنتان بالفعل منذ كان نيدرماير هنا. فقد سقطتا خلال زلزال سنة ١٩٣١، الذي دمَّر أيضًا ضريحًا مقبَّبًا آخر كان قد صوَّره فوتوغرافيًّا. رأيت موقِعَه أمسِ، بالقرب من مفترق الطرق إلى كُشك والحدود الفارسية، صار كومةً من الانقاض. ما لم تُجرَ إصلاحات وتُعزَّز الأساسات، فسرعان ما ستصبح الآثار الأخرى أنقاضًا.

ومع ذلك، يتبقَّى منها ما يكفي، وتوجد معلومات كافية لبيان الوضع الذي كانت عليه المباني حتى عام ١٨٨٥.

كانت المئذنتان اللتان سقطتا في السنة قبل الماضية زوجًا للمئذنتين العريضتين جهة الغرب. وكانت المآذن الأربع معًا تحدِّد أركان أحد المساجد. كان هذا هو المصلى الفعلي. ووفقًا لنقشٍ على إحدى المآذن، التي صوَّرها نيدرماير، والتي لا بد أنها قد انهارت في الزلزال، أنه بنَتْها جوهر شاد بيجوم، زوجة شاه رُخ، ابن تيمورلنك، على نفقتها الخاصة،

بين عامَي ١٤١٧ و١٤٣٧. وأغلب الظن أن المعماري الذي بناها هو قَوَّام الدين شيرازي، الذي عمل لدى شاه رُخ بتلك الصفة خلال الجزء الأكبر من عهده، وقد ذكره المؤرخ دولت شاه باعتباره أحد المصابيح الأربعة العظيمة لبلاطه.

يقول دييز، الذي يعرف الموضوع بقدرِ ما يعرفه أي أحد، وليس عبدًا لعواطف رحلته مثلي، إن هذه المآذن مزخرفة «بروعة حكاية خيالية وذوق رفيع» (“Märchenhafter Pracht and Subtilem Geschmack”) ولا نظير لها في العمارة الإسلامية. إنه يتحدث وفق ما رآه في الصور الفوتوغرافية فقط. ولكن لا يمكن لأي صورة أو وصف أن ينقل لونها الذي يشبه لونَ العنبِ الأزرق ذا الإشراقة باللون الأزرق السماوي، أو تلافيفها المعقَّدة التي تجعلها عميقةً ومتألقةً للغاية. في القواعد، المدعمة جوانبها الثمانية بألواح رخامية بيضاء عليها نقوش منحوتة بالخط الكوفي الباروكي، بالألوان الأصفر، والأبيض، والأخضر الزيتوني، والأحمر الصدئ الممتزج بخطين أزرقين في متاهة من الأزهار، والفسيفساء، والنصوص في جمال الأنماط التي تُرسم على فناجين الشاي. والأعمدة بالأعلى مغطاة بمعينات صغيرة ألماسية الشكل مملوءة بالأزهار، ولكنها لا تزال في الأغلب بلون العنب الأزرق. كلٌّ منها يحدُّه خزف أبيض بنقش بارز بحيث يبدو الجزء العلوي من كل مئذنة ملفوفًا في شبكة لامعة.

من ناحية الزخرفة، المآذن عمومًا هي الأجزاء الأقل تعقيدًا في أي مبنًى. وسواء كانت الفسيفساء في باقي أجزاء المصلَّى تفوق ما بقي إلى يومنا هذا أو تكافئه، فلم يوجد مسجد كهذا، لا قبله ولا بعده.

ولكني لا أعلم. بَنتْ جوهر شاد مسجدًا آخَر، داخل الضريح في مدينة مشهد. ولا يزال هذا المسجد سليمًا. لا بد أن أراه بطريقةٍ ما إذا رجعت من هذا الطريق.

بإمعان النظر في التفاصيل، أجد أن زخرفة الضريح أدنى من تلك التي في المئذنتين. طبلة القبَّة مطوَّقة بألواح طويلة مملوءة بسداسيات من الفسيفساء الأرجوانية الفاتحة ممزوجة مع مثلثات جصية بارزة. أما القبَّة نفسُها ففيروزية اللون، والدعامات، كتلك التي في ضريح تيمور بسمرقند، متناثر عليها أشكال ألماسية باللونين الأسود والأبيض. كل دعامة يتحدَّب ثلاثة أرباعها فوق القبَّة وفي سُمك أنبوب أرغن بطول ٦٤ قدمًا. والجدران بالأسفل خالية إلا من قليل من القِرْميد المزجَّج، وتجويف غريب ذي ثلاث نوافذ يُذكِّر المرء بفيلا في ضاحية كلافَم. لكن جودة كل عنصر من هذه العناصر منفردًا، ولو كانت رديئة في بعض الأحيان، ترفع من شأنها دقَّة النِّسب وصلابة الفكرة ككلٍّ. يمكن لقلة من المنشآت المعمارية أن تضاهي قبَّة مضلَّعة من أجل تباهٍ تذكاري أعمى.

يبدو أن هذا أيضًا كان من أعمال جوهر شاد. يتحدَّث بابر عن مبانيها الثلاثة: مسجدها الذي هو المصلَّى، ومدرستها أو كليتها، وضريحها. ويذكر خواند مير مراتٍ عدةً أن الضريح كان داخل المدرسة. وقد دُفنت بالتأكيد في الضريح؛ ذكريات النقش على شاهد قبرها. وذكر أيضًا تلك النقوش التي على شواهد القبور الخمسة الأخرى، والتي كانت كلها لأمراء تيموريين. وقد ذكر خانيكوف قبل ذلك بخمسة وعشرين عامًا تسعة قبور إجمالًا. الآن يوجد ثلاثة فقط، من حجر أسود غير لامع، على شكل صناديق مستطيلة منحوت عليها تصاميم أزهار. أحدها أصغر من الاثنين الآخرين.

وبعد ذلك، شرقَ الضريح، تقف المئذنة المنعزلة بشرفتيها. إن أصلها يحيِّرني. فزخارفها من المعينات الزرقاء المرصَّعة بالأزهار، لكنها مفصولة بِقِرْميد بسيط، لا يُقارَن بزخارف مآذن المصلى. ربما كانت جزءًا من مدرسة جوهر شاد. ومن البديهي أن تكون المدرسة أكثرَ بساطة من المسجد. يتحدَّث بابر كما لو كانت المدرسة والمسجد والضريح كلها متقاربة مكانيًّا.

ينتابني بعض الفضول حيالَ جوهر شاد، ليس من أجل تقواها المتمثِّلة في هِباتها للمؤسسات الدينية، ولكن لكونها امرأة ذات سليقة فنية. فإما أن تكون قد امتلكت هذه السليقة، أو أنها كانت تعرف كيف توظِّف مَن كانوا يتمتَّعون بها. يُظهِر هذا ما كان لديها من شخصية. فضلًا عن ذلك، فقد كانت ثرية. والذوق، والشخصية، والثراء يعنون القوة، ومن غير الشائع رؤيةُ النساء القويات، بعيدًا عن الفاتنات، في التاريخ الإسلامي.

ظلَّت أربع مآذن بالقرب من الجسر فوق القناة المتعرِّجة. وهي أيضًا مطوَّقة بشبكة بيضاء، ولكن زُرقتها أكثر لمعانًا من زرقة مآذن المصلى، بحيث تبدو من قريب كما لو كان المرء قد رأى السماء عبر شبكة من الشَّعر اللامع، وكما لو كانت قد زُرعت فجأةً بالأزهار. وهي تحدِّد أركان مدرسة السلطان حسين بايقرا، الذي حكم هِرَات من عام ١٤٦٩ إلى عام ١٥٠٦. ويقع في الجوار شاهد قبر جَده، الذي يشبه الضريح، ولكنه يُعرف بحجر الأقلام السبعة بسبب غزارة النقش عليه، ولا يزال يحظى بالتبجيل الذي تحظى به الأضرحة الشهيرة.

يعكس الجَمال الشاعري والأقل فخامة لهذه المآذن العهدَ الذي بُنيت فيه. وعلى عكس جوهر شاد، فإن حسين بايقرا أكثر من مجرد اسم. فهيئته على الأقل مألوفة. فقد رسمه بِهزاد. ووصفه بابر كما وصف مُتَعه أيضًا. كانت له عينان مائلتان، ولحية بيضاء، وخَصر نحيل. وكانت ملابسه باللونين الأحمر والأخضر. وعادةً ما كان يرتدي قَلنْسوة من جِلد

الحمَل. ولكن في أيام الأعياد «كان يضع في بعض الأحيان عمامة من ثلاث طبقات، بلفَّات عريضة وغير مُحكَمة، ويغرز فيها ريشةَ طائر بَلَشون، وهكذا يذهب للصلوات». كان هذا أقل ما يمكنه فعله؛ إذ قُرب نهاية حياته أعاقه الروماتيزم إعاقةً شديدة حتى إنه لم يتمكَّن من أداء الصلاة كما ينبغي. وكحال الأشخاص الصِّغار البنية، كان يستمتع بإطلاق الحمَام للطيران، وتوفيق ديكة القتال وأكباش القتال. كان أيضًا شاعرًا، ولكنه نشر أبياته دون الكشف عن هويته. عند مقابلته، كنت تجده بشوشًا ودَمِثًا، غير أنه كان غير معتدل في طبعِه وعاليَ الصوت. وقد كان نَهِمًا في الحب، العفيف منه والصريح. فقد كان لديه عدد لا حصر له من المحظيات والأبناء، الذين أفسدوا سلام الدولة وسلام شيخوخته. ونتيجةً لذلك، فإن «ما حدث مع أبنائه والجنود ومع المدينة كان أن الجميع قد تمادَوا في الرذيلة والمُتعة».

لم يكن بابر متزمتًا. لكن الحفلات التي كانت تُقام في هِرَات دفعته إلى السُّكْر. وفي شرحه لكيفية حدوث هذا يكشف، لأول مرة في حياته، عن تأثير مثل هذه الأجواء على اتزان شاب. ومع ذلك، باستحضار الماضي في هِرَات عندما أصبح هو نفسه عظيمًا، نجده لا يزال يكتب بتوقير كحال شخصٍ شهِد عصرًا عظيمًا، وبعدما تعلَّم كيف يعيش، رأى ذلك العصر يتلاشى، حاله في ذلك كحال تاليران. كانت النزعة الإنسانية لذلك العصر أُسوته في الحياة. كان إنجازه في التاريخ هو إعادة غرسها، وترك ذرية تحافظ عليها، وسط ثورات البغي وجموع هندوستان الفظة.

يخبرني مدير الخارجية أن شاحنةً ستغادر إلى أندخوي في غضون أربعة أيام. هذا سيعني أن علينا إيجادَ شاحنة أخرى من هناك للذهاب إلى مزار شريف. ويضيف أن الطريق من تركستان إلى كابول ممتاز، وأن شاحنات البريد ما زالت تعمل.

أعطاني البنك الإمبراطوري في بلاد فارس في مدينة مشهد سنداتٍ بالروبية على فرعه في بومباي لأستخدمها في أفغانستان. ذهبت هذا الصباح لصرف أحدها لدى شركة أشرمي، وهي الشركة التجارية الحكومية المنشأة حديثًا. لم يستطِع أحد في المكتب قراءة السَّند أو حتى أرقامه. ولكنهم اعتمدوا على قولي بأنه بقيمة ١٠٠ روبية، وبعد أن اكتشفوا، بتوارد الخواطر على ما يبدو، السعر الحالي للصرف في قندهار، أحصوا ٦٧٢ عملة فضية حجمُ كلٍّ منها كحجم الشلن. أخذتُ هذه العملات في كيسين، ومشيت بتثاقل عبر الحشد في البازار كمليونير في فيلم رسوم متحركة.

هرات: التأثير الصيني في جازار جاه ١٤٢٨.

هِرَات، ٢٤ نوفمبر: شكُّ العامة ظَهر في العلن اليوم.

كنت قد ذكرت قلعة اختيار الدين شمال أسوار المدينة. بناها في الأصل ملوك آل كرت في القرن الرابع عشر، على ما يبدو عندما تخلَّوا عن ولائهم للمغول. غير أن إحياء النزعة الوطنية الفارسية الذي أظهره هذا الفعل كان قصير الأجل. في نهاية القرن، تدفَّقت موجةٌ أخرى من آسيا الوسطى؛ فدمَّرت جيوش تيمور آل كرت وكذلك قلعتهم. وفي وقت لاحق، وجد شاه رُخ أنه بحاجة إلى قلعة. ففي عام ١٤١٥، كلَّف ٧٠٠٠ رجل بالعمل على إعادة بناء القلعة القديمة، وقد تمحور التاريخ السياسي لِهرَات حولها منذ ذلك الحين. وهي الآن قاعدة رئيس الأركان وثُكنة عسكرية.

تتألَّف واجهتها الشمالية من متراس ضخم بطول ربع ميل تقريبًا، ويتحدَّب عند مسافات متباعدة في شكل أبراج نصف دائرية يتخذ جزؤها في أقصى الغرب نمطًا من قِرْميد أزرقَ مرصوص على سطحها الطيني: في مزج غير معتاد للمواد ينمُّ عن أن هذا البرج، إن وُجِد، قد يعود تاريخه إلى حِقبة ترميم شاه رُخ للقلعة. عندما عاينتها، عُدت إلى الركن الأبعد لساحة العروض ذات الجدران التي تفصل القلعة عن المدينة الجديدة؛ وذلك لألتقط لها صورة فوتوغرافية. قادني هذا إلى موضعٍ قريب من مرأب مدفعية يحوي ما يقرب من عشرين مدفعًا، والذي قد يخطئ المرء ويظنه من بعيد مكبًّا لعربات الأطفال المفكَّكة. عُدت بعد ذلك إلى الفندق لآخذ بعض الطباشير كي أنسخ به النقش الكوفي الموجود أسفل البرج. وفي الوقت نفسه، غادر الرجل المُسن، الذي كلَّفه مدير الخارجية بالاعتناء بي، ليتناول غداءه.

عندما عاد، قلت إننا يجب أن نرجع إلى القلعة من أجل النقش. أجاب بأن ساحة العروض كانت مغلقة.

«هل قلت مغلقة؟ لقد كنا هناك منذ ساعة.»

«أجل، كنا هناك، ولكنها الآن مغلقة.»

«حسنًا، سنذهب غدًا بدلًا من ذلك.»

«ستكون مغلقة في الغد أيضًا.»

«في تلك الحالة سأذهب في الحال.»

وانطلقت بخطًى حثيثة، بينما تقدَّم الرجل المُسن بتثاقلٍ خلفي محتجًّا. كما توقَّعت، كانت بوابة ساحة العروض لا تزال مفتوحة على مصراعيها. ولكن على إثرِ همسة أصدرها مرافقي، أمسك بي الحارس وأخرجني. جادلته قائلًا إن الحاكم نفسَه أخبرني أنه بإمكاني زيارة القلعة. قال الرجل المُسن إن هذا لا يهم؛ فهذه كانت أوامر مدير صاحب (السيد المدير).

عندما رجعت إلى الفندق، وجدت الطبيب. كان في طريقة إلى القلعة لمقابلة رئيس الأركان. ثم رجع بعد نصف ساعة ومعه ضابط قال إن رئيس الأركان لم يرَ ما يمنع نسخي للنقش. وقال إنه سيرافقني.

تحاشيت الآن النظر إلى مرأب المدفعية كي لا أحرجه. لكن ولَعي لاحقه بشغف. احتفظت بسر وجود تسليح هائل قادر على مقاومة أو تعجيل تقدُّم الجيش السوفيتي في الهند، وهو الأسوأ. تخيلت نفسي وأنا أحصل على وسام صليب فيكتوريا، وربما على مقعد في مجلس الوزراء، إذا بلَّغت عن وجوده.

كان من الشائق، بناءً على خبرتي الشخصية، اكتشافُ الكيفية التي يجد بها الجواسيس عملهم.

يوجد صفٌّ من عربات الأجرة خارج ساحة العروض. وعندما خرجنا، تقدَّم حصانان شابَّان، لا يسحبان عربةً خفيفة، ولكن عربة زرقاء ضخمة بأربع عجلات مزيَّنة بالشعار الملكي لبلاد فارس ومبطَّنة من الداخل بساتانٍ سماوي اللون. جلست أنا والرجل المُسن في هذه العربة، ومضينا بها إلى ضريح جازار جاه، القائم على أول منحدرات جبلية إلى شمال شرق المدينة.

يذهب الجميع إلى جازار جاه. فقد ذهب بابر. وذهب همايون. وقد حسَّن شاه عباس إمدادات المياه. ولا يزال المكان هو المنتجَع المفضَّل لأهل هِرَات ومصدر فخرهم الأكبر أمام الزائرين. توجد ثلاثة مرافق. يحتوي الأول على أيكة من أشجار الصَّنَوبر المظلية ومقصورة بعشر أضلع من طابقين للنزهات. وتحيط بالثاني مبانٍ غير منتظمة؛ وفي الوسط توجد بِركة تظلِّلها شجيرات التوت والورد. والثالث مستطيلي الشكل وممتلئ عن آخره بالقبور، ومن بينها قبر الأمير دوست محمد. وعند الطرف الأبعد ينتصب قوسٌ طويل في جدار بارتفاع ثمانين قدمًا، ويُسمى إيوانًا بالمعنى الدقيق للكلمة، وتُظهِر فُسيفساؤه الداخلية تأثرًا بالعمارة الصينية. أمام هذا، وتحت شجرة بلوطٍ أخضر عجوز، يقع قبر الولي. على شاهد القبر، المصنوع من الرخام الأبيض، منقوش تاريخه، والذي أضيفت له أساطير.

مات خواجة عبد الله الأنصاري سنة ١٠٨٨ في الرابعة والثمانين من عمره، وذلك على إثر إلقاء بعض الصِّبية الحجارة عليه أثناء تكفيره عن ذنوبه. يتعاطف المرء مع أولئك الصِّبية؛ فقد كان حتى بين الأولياء شخص مملٌّ للغاية. تكلَّم في المهد، بدأ الوعظ في سن الرابعة عشرة؛ وأثناء حياته حافظ على صلته بالشيوخ المجاذيب، وحفظ ١٠٠ ألف بيت عن ظهر قلب (ويقول البعض مليونًا ومائتَي ألف بيت)، وألَّف أكثر من ذلك بكثير. وقد كان مولعًا بالقطط. ابتدع شاه رُخ وقفًا خاصًّا له، وأعاد بناء الضريح في شكله الحالي في عام ١٤٢٨. كانت هذه فترة البعثات الصينية، وهو ما قد يُفسِّر الأنماط الموجودة في الإيوان. وقد دُفن هنا في وقتٍ لاحق من ذلك القرن بعض التيموريين الأقل شأنًا، والذين لم يكن لهم مكان في الضريح. ذكر خانيكوف خمسًا من مقابرهم، بما في ذلك مقبرة محمد المظفَّر، أخو حسين بايقرا، الذي يخبر نقش قبره، الذي خالف العبارات الجنائزية المبتذلة، الأجيالَ القادمة بأنه قُتل على يد قريبه محمد، ابن بايسنقر. ووجدت في الحُجيرات الموازية للأروقة المقنطرة الجانبية مقبرةً ملكية من حجرٍ أسود، على ثلاثة أسطح مختلفة، أفضل من حجر الأقلام السبعة، وحتى بنقوش أفضل. لم أتمكن من التعرف على بقية المقابر.

في الركن الجنوبي الشرقي للفناء الأوسط، توجد مقصورة مزيَّنة من الداخل برسوم أزهارٍ ذهبية على أرضية من اللازورد. وقد ذكر فيرير أن هذه الرسومات مرفقة بتوقيع جيرالدي، وهو رسام إيطالي وظَّفه شاه عباس. مرة أخرى، لم أتمكَّن من العثور على هذا التوقيع.

في طريق العودة، توقَّفت العربة عند تخت سفر، وتعني «أريكة المسافر»، وهي حديقة مدرَّجة خرِبة تمامًا، ازدادت كآبةُ أجوائها الكئيبة بطبيعتها مع اقتراب فترةٍ ما بعد الظهيرة ليومٍ خريفي والصافرة الأولى للريح الليلية. ومن الخوان الفارغ بالأعلى، ينزل صفٌّ من البِرك والمجاري المائية من مصطبة لأخرى. بُنيت حديقة زينة حسين بايقرا هذه بالسخرة؛ لأنه عندما كان أتباعه يتجاوزون حتى الحدود العريضة التي وضعها لما هو مسموح به أخلاقيًّا، كان عليهم المساعدة في إنشاء حديقة السلطان بدلًا من الذهاب للسِّجن. وحتى القرن الماضي، كانت توجد مقصورة هنا، وكانت المياه لا تزال جارية؛ حيث يذكر موهان لال نافورةً كبيرة، «يصل ارتفاع سهام مياهها إلى قمة المبنى». يا لها من عبارة! لكن موهان لال، مع اعتذاره عن مستوى لغته الإنجليزية لمحرِّر «دورية البنغال»، كان أحيانًا يكتب بشكل جيد جدًّا. كان من الصعب عليه تحسينُ وصف ور محمد، الذي صار لاحقًا حاكم هِرَات؛ حيث قال: «إنه أمير حزين وضعيف، إنه يثير شفقة البشرية.»

وصل إلى هنا رجلٌ مَجري. وكان قد قضى لتوه شهرًا في مستشفى قندهار، ولا تزال مَعدته معتلَّة فلا يستطيع تناول الطعام. في الواقع، لقد كان يتضور جوعًا. أعطيته بعض الحساء والأوفالتين (مشروب مسحوق الشعير)، الأمر الذي أبهجه وجعله يتحدَّث بلغة فرنسية سيئة.

«لقد أمضيت خمس سنوات في الأسفار، يا سيدي. وسأظل أسافر خمس سنوات أخرى. وبعد ذلك ربما سأكتب شيئًا.»

«أتحب السفر؟»

«مَن الذي يمكن أن يحب السفر في آسيا، يا سيدي؟ لقد تلقيتُ تعليمًا جيدًا. ماذا كان والداي سيقولان لو كانا قد رأياني في مكان كهذا؟ إنها ليست مثل أوروبا. بيروت تشبه أوروبا. يمكنني تحمُّل بيروت. لكن هذا البلد، وهؤلاء الناس ... الأشياء التي رأيتها! لا يمكنني إخبارك بها. لا أستطيع. آآآآآه!» ودفن رأسه بين راحتيه، وقد غلبه الانفعال عندما تذكَّر تلك الأشياء.

قلت وأنا أربِّت عليه برفق: «تعالَ يا سيدي، أفضِ إليَّ بهذه التجارب المريعة. ستشعر بتحسُّن حيالها عندما تفعل.»

«لست يا سيدي من النوع الذي يظن نفسَه أفضل من بقية البشر. فأنا حقًّا لست أفضل من الآخرين. بل ربما أكون أسوأ منهم. ولكن هؤلاء الناس، هؤلاء الأفغان، ليسوا بشرًا. إنهم كلاب، متوحشون. إنهم أدنى من الحيوانات.»

«ولكن لماذا تقول ذلك؟»

«ألا ترى السبب يا سيدي؟ أليس لديك عينان؟ انظر إلى أولئك الرجال هناك. ألا يأكلون بأيديهم؟ «بأيديهم»! إنه أمرٌ مروع. أقول لك يا سيدي إنني رأيت في إحدى القرى رجلًا مجنونًا، وقد كان عريانًا ... عريانًا.»

صمتَ برهة. ثم سألني بنبرة رصينة: «أتعرف إسطنبول يا سيدي؟»

«أجل.»

«لقد عشتُ في إسطنبول لمدة عام، وأقول لك يا سيدي إنها جحيم لا سبيل للخروج منه.»

«حقًّا. ولكن، بما أنك هنا، فهل وجدت سبيلًا للخروج؟»

«أجلْ يا سيدي، حمدًا للرب.»

هِرَات، ٢٥ نوفمبر: كان عليَّ أن أغادر اليوم.

أمطرت السماء في الليل ولا تزال تمطر هذا الصباح. ومع ذلك، حزمتُ أمتعتي وجلست في غرفتي حتى الساعة الثانية عشرة، عندما كان الرأي السائد أن الشاحنة لن تنطلق. بعدما أفرغت أمتعتي، ذهبت إلى مسجد الجمعة.

مسجد الجمعة يُقصد به المسجد الذي تُقام فيه صلاة الجمعة. في كل مدينة يوجد واحد. وهو يعادل كنيسة أبرشية أو كاتدرائية حضرية حسب حجم المكان، وعادةً ما يكون المبنى الأقدم وغالبًا ما يكون الأكبر في المنطقة. وكما هو الحال في مدينة أوروبية، لا يزال ديرها أو كاتدرائيتها تُظهِر معالم العصور الوسطى، بينما تغيَّرت الأديرة والكاتدرائيات الأخرى بمرور الوقت، فإن هذا المسجد القديم الكئيب داخل الأسوار في هِرَات يجأر بالشكوى من ملازمته منذ عهد بعيد لأبهة التيموريين الفارغة في الضواحي. وقد نمت عظمة هذا التجمُّع بين ليلة وضحاها؛ حيث يحتفلون بذكرى أشخاص متفردين؛ ازدهروا وتلاشَوا. كان مسجد الجمعة قديمًا وخرِبًا قبل أن يسمع أحدٌ عن التيموريين. إنه أقل دمارًا الآن بعدما لم يَعُد أحد يسمع بهم. طوال سبعة قرون، صلَّى فيه أهل هِرَات. ولا يزالون على هذا الحال، وتاريخه هو تاريخهم.

خرجت من المتاهات الكئيبة للمدينة القديمة إلى فِناءٍ مُعبَّد بطول ١٠٠ ياردة وعرض ٦٥ ياردة. يوجد أربعة إيوانات، وهي أروقة مقنطرة مفتوحة الواجهة، تقطع الأركان

الأربعة ذات الأروقة. يرافق الإيوانَ الرئيسي، جهة الغرب، بُرجان هائلان بقُبَيبتين زرقاوين. وفيما عدا هاتين القُبَيبتين، وشجرة صنوبر مظلية مائلة في الركن، لا توجد ألوان؛ فقط قِرْميد مبيض سيئ وقِطَع مكسَّرة صغيرة من الفسيفساء. تعكس بِركة مربَّعة صورة مُلَّا وتلاميذه، الذين يمرُّون وقد ارتدَوا جميعًا ثيابًا بيضاء. يُضفي الصمت وضوء الشمس سكينةً على الرصيف المتآكل. كانت سكينةً أرغب فيها. اللعنة على الشاحنة وعلى شكوكي بشأن الرحلة. فقد نسيتها.

شُيِّد المسجد في عام ١٢٠٠ على يد غياث الدين بن سام، من سلالة الغوريين، الذي جعل هِرَات عاصمته بعد تفكُّك الإمبراطورية الغزنوية، وقد أُحيِيَت ذكراه في النقش السفلي لمبنى قطب منار في دلهي. وهو أيضًا مَن أنشأ الأروقة المقنطرة، وهي أروقة متقاطعة لها عشر أقواس مدبَّبة أو أكثر؛ وأظن أنه يوجد أيضًا نقش كوفي في قِرْميد مزخرف على قوس في الركن الشمالي الشرقي؛ مما يعطي فكرةً عما كانت عليه الزخرفة الأصلية. بجوار هذا يقع ضريح غياث الدين، وهو ملحق مربَّع بالمسجد، انهارت قبَّته تمامًا. توجد قبور وسط الأنقاض، ولكنها بلا حجارة أو نقوش.

ظلَّ هذا هو الضريح الملكي حتى أتى التيموريون. فقد دُفن هنا حكام سلالة آل كرت، وأعادوا في القرن الرابع عشر لصْق الجدران، ونحتوا على السطح خربشات ليبدو كبناء قِرْميدي قديم. وضعوا أيضًا نقشًا حول الجزء الداخلي من الإيوان الرئيسي، مستخدمين خطًّا كوفيًّا متداخلًا دقيقًا، يبدو أنهم قد استعاروه من غزنة في نوبةٍ أخرى من الشغف الواعي بالآثار.

خلف الإيوان الرئيسي، كما هو متوقَّع، كان يوجد محراب، أصبح غير آمن، وهدَمه علي شير النوائي سنة ١٤٩٨. بعد الأمراء أنفسهم، كان علي شير مثال النهضة التيمورية في أخلاقه وأفعاله على حدٍّ سواء. كان قد وقف بجوار حسين بايقرا في بداية حياته، وصنع ثروته معه. ولكن لأنه لم يكن له زوجة أو أولاد يحفزون طموحه، اعتزل السلطة من أجل الفنون. يقول بابر: «لا يُعرف داعم أو نصير مثله لأصحاب المواهب والمهارات، ولم يُسمع بظهورِ أحد مثله.» أنقَذَ علي شير حسين بايقرا من اتِّباع المذهب الشيعي، بل يتبيَّن من احتقاره للتنجيم والخرافات أنه كان رجلًا ذا تفكير عقلاني. وقد كرَّس ثروته للأشغال العامة. ففي خراسان وحدَها بنى ٣٧٠ مسجدًا، ومدرسةً، وخانًا للمسافرين، ومستشفًى، وقاعةَ قراءة، وجسرًا. جمع مكتبةً ضخمةً وضعها تحت تصرُّف المؤرِّخ مير خواند. يضيف بابر: «في الموسيقى أيضًا، ألَّف بعض الأشياء الجيدة، وبعض الألحان

والمقدمات الموسيقية الممتازة.» كان أهل هِرَات يُكنُّون له تقديرًا كبيرًا حتى إن الابتكارات التِّجارية سُمِّيت تيمُّنًا باسمه، بما في ذلك سَرْج ومنديل جديدان، مثلما سُمي نوعٌ من البسكويت تيمُّنًا باسم جاريبالدي. ويذكر له العلماء مناصرته للغة التركية باعتبارها وسيطًا أدبيًّا، ودفاعه عنها أمام ازدراء الفُرس لها. تُوفي في عام ١٥٠١. وبعد وفاته بخمس سنوات، أقام بابر في منزله.

عندما رأى قُرب نهاية حياته الدَّمار الذي أصبح عليه مسجد الجمعة، وانطلاقًا من وعيه بأهميته التاريخية، أخذ الإذن من السلطان بترميمه. نُفِّذ العمل بسرعة محمومة، وقد أشرف عليه بنفسه، كما شمَّر عن ردائه وأمسك بالمجراف. وقد أضيف أعلى الأروقة المقنطرة جدارٌ ساتر، ذو ثقوب على شكل أقواس مطابقة للأقواس بالأسفل؛ وغُطي سطح الاثنين، الذي كان يواجه الفناء، بطبقة من الفسيفساء. على الأقل كانت تلك هي الخطة. لكنها لم تكتمل قط، وظلَّ الركن الجنوبي الغربي فقط من المسجد سليمًا. بُني محراب آخر، وزُيِّن، حسبما قال خواند مير، بتصاميم صينية. ولكنه اختفى بالكامل.

يوجد أثرٌ تيموري آخرُ باقٍ في المسجد، وهو قِدرٌ برونزي قُطرُه حوالي أربع أقدام مغطًّى بزخارف أرابيسك ونقوش بارزة. صُنِع قِدر مماثل بأمر من تيمورلنك لمسجد حضرة يسوي في مدينة تركستان حيث لا يزال موجودًا هناك.[1] ويرِد ذِكر القِدر الموجود في هِرَات، والمحفوظ في خِزانة على دَرَج الإيوان الرئيسي، في أوصاف البعثات الدبلوماسية الصينية.

في يوم الجمعة ٢١ فبراير من عام ١٤٢٧، تعرَّض شاه رُخ لمحاولة اغتيال في هذا المسجد، وكان فِراره منها إنقاذًا للإمبراطورية لمدة عشرين سنة أخرى. مؤخَّرًا شهِد اليوم نفسه من أيام الأسبوع والمكان نفسه إحباطًا لمؤامرة أخرى للإطاحة بالحكومة الحالية.

منذ يومين نشر مسئولون من القنصلية الروسية إشاعةً في البازار مفادُها أن المِلك الجديد قد اغتيل مثل القديم؛ إذ كان غرضهم هو إثارة البلبلة لصالحِ أمان الله. ولم يضعوا حسابًا للحاكم، الذي يمقت أمان الله، والذي يحترمه الجنود لإخماده تمرُّدًا في صالحه العام الماضي. لا شك في أن الروس ظنوا أنهم إن رموا طُعمهم عصر يوم الخميس، فإن الناس سيكون لديهم الوقت لابتلاعه يوم الجمعة. كما تبيَّن، فقد ابتلعوا طُعم الحاكم بدلًا من ذلك. فقد خاطب عبد الرحيم خان نفسُه الحشدَ في مسجد صلاة الجمعة، وأنكر الشائعة، وأكَّد لهم المحافظةَ على النظام مهما يكن من أمر. أحبطهم الإعلان الأخير. فلم يكن يعنيهم الملك، بل كانوا يتطلعون لعمل من أعمال الشغب يمكنهم من خلاله مباشرةُ نزاعاتهم ونهب التجار الشيعة. والآن تأجَّل هذا الحُلم السعيد حتى فصل الربيع.

عصر هذا اليوم، ركض سِرب من الأطفال المعمَّمين إلى غرفتي، ومع أحدهم مطرقة، ومع آخر مسمار، ومع آخر إزميل، ووضعوا بعض الزجاج بالنافذة. ودِدتُ لو أنهم كانوا قد جاءوا قبل ذلك. فالشاحنة ستنطلق غدًا بالتأكيد إذا ظلَّ الطقس جيدًا.

وصلت رسالةٌ من الرجل المجري يقول فيها إنه مريض. ليلةَ أمس كان شاحبًا كالشبح. الآن وجدته متوردًا من أثر الحُمى وفي حالة إعياء. لم يكن يحميه من برودة الأرضية سوى حصيرةٍ صغيرة، وكان غطاؤه الوحيد سجادةً صغيرة بالية. داويته قدرَ استطاعتي، وأعطيته بطانية، وقلت له إن الطبيب يجب أن يراه. بعد نصف ساعة من الجِدال في المطبخ، أُرسِل في طلب الطبيب. وجاء الرد بأنه نائم. فذهبت إليه بنفسي، وشققت طريقي إلى منزله وأنا متخوِّف بعض الشيء من أن تكون نساؤه حاسرات الرءوس، وأقنعته أن يأتي. شخَّص الحُمى بأنها ملاريا، وقال إن المريض يجب أن يذهب إلى المستشفى، فنعته المريضُ بالهندي الأحمق، وقال إنه لن يذهب إلى المستشفى. بعد ثلاث ساعات جاء رجلٌ لأخذه إلى المستشفى. في الوقت نفسه، وصلت الأوامر من مدير الخارجية بأنه يجب ألا يذهب إلى المستشفى إلا بعد أن يكتب الطبيب مذكرةً رسميةً يطلب فيها الإذن بدخوله المستشفى. أرسلت تابعي المسنَّ لجلبِ هذه المذكِّرة. ثم دخل أحد الأتراك ليقول إنه بما أن مدير الخارجية قد ترك مكتبه بالفعل، فلن تصدر أيُّ أوامر بدخول المستشفى حتى الغد. فتخليت عن الأمر.

يقول البارسيون إن الرجل المجري ليس معه نقود على الإطلاق، وأنه يتعيَّن على السلطات الأفغانية أن تُطعمه وتنقله على نفقتها. إنه بالتأكيد من النوع الذي يعضُّ اليد التي تُمد له بالعون. ومن الواضح أن المفوَّضية البريطانية في كابول رفضت إعطاءه تأشيرةً للهند، وهم محقُّون تمامًا في ذلك في رأي البارسيين، الذين لم يكونوا شديدي الوطنية إلا أنهم لا يقبَلون «الفقراء من أصحاب البشرة البيضاء». تركت له عُلبة من مكعَّبات الحساء وبعض الجبن الكريمي لمساعدته في رحلة عودته إلى مشهد.

لجهلي بالكلمة الفارسية التي تعني قربةَ الماء الساخن، ضحِك كلُّ مَن في المطبخ عليَّ الليلة عندما طلبت منهم الخانم («زوجتي» بالفارسية).

هِرَات، ٢٦ نوفمبر: بزغ الفجر بسماء صافية وطقس دافئ، في يومٍ مثالي لهذا الوقت من العام. في الساعة التاسعة، قابلت سائق الشاحنة، الذي قال إننا سننطلق في الساعة الحادية عشرة. في الحادية عشرة، كانت الشاحنة تُعبَّأ بأوعية البنزين، وطلب مني مساعد السائق أن أكون مستعدًّا في الساعة الواحدة. وعندما أنزلت أمتعتي في الساعة الواحدة،

عِلمت أننا لن نغادر اليوم. ذهب الرُّكاب الآخرون جميعهم إلى قراهم أمس، بسبب المطر، ولم يظهروا ثانيةً.

ونظرًا لأنني على الأرجح سأمكث هنا بقيةَ حياتي (التي لن تدوم طويلًا بهذا المنوال)، فقد طلبت تنظيف غرفتي. حريٌّ بي أن أصفها، بل أن أصف الفندق بأكمله. في الطابق السفلي توجد ثلاث غرف كبيرة بواجهات زجاجية تُطل على الشارع. الغرفة الأولى هي المطبخ، ويتبين ذلك من بِركة من الدماء ورأس ديك مقطوع على الرصيف. الغرفتان الثانية والثالثة ممتلئتان بطاولاتٍ ذات أسطح رخامية، ومعلَّق على جدرانهما لوحات لمشاهد أوروبية رسمَها على الزجاج هنديٌّ على دراية بالأعداد الأولى لمجلة «ذا إلستراتيد لندن نيوز». هنا أيضًا يوجد مكتب السيد محمود، وجرامافون في خِزانةٍ ذات قوائم من بومباي، وكومة من السجلات الهندية. ويلاصق المطبخَ بيتُ درج خارجي يقود لأعلى إلى ممرٍّ طويل تضيئه نوافذ السقف، وبه غرف على الجانبين. غرفتي في الخلف، في موضع يجنِّبها بعضًا من جلبة النحَّاسين، وهي عبارة عن صندوق مربَّع، بسقفٍ ذي أعمدة عارية وألواح خشبية، وجدران بيضاء، ووزرة بلونٍ أزرق سماوي. الأرضية مكسوَّة بالبلاط، الذي تنضح فلقاته بغيمة من الأتربة والقش، ونصفه مغطًّى بسجادة، ونصفها الآخر بملاءات سريري وأغطية مقاومة للماء. أما الأثاث، فهو كرسيًّا ويندسور وطاولة مكسوة بقماش أمريكي أبيض. على الطاولة تقف زهرية ذات أشكال حلزونية بالأزرق والأبيض ومزينة بوردة زجاجية وردية — من ذلك النوع الذي تربحه في لعبة رمي الأطواق — وضع فيها السيد محمود باقةً دائرية مشدودة من الأقحوان الأصفر تحيط بحلقة من باقة أخرى بلون أحمر مائل إلى لون الشوكولاتة تحيط بمركز يحتوي على أقاحيَّ ذاتِ قلب أصفر. ويوجد حوض من البيوتر وإبريق أنيق يمكِّنانني من الاغتسال على الجزء العاري من الأرضية. يتألَّف فراشي من حقيبةِ نومٍ خضراء، ومعطف أصفر من جِلد الغنم، ولحافٍ أفغاني من قماشٍ أرجواني مزهر. بجواره وُضِع مصباحي، وكتاب لبوزويل، وساعتي، وسجائري، وطبق من العنب، على نحوٍ مريح فوق حقيبةٍ للأوراق. ولا تزال الخانُم (قربة الماء الساخن) في انتظارِ ملئها. دقوا لي مسمارًا لتعليق رابطات عنقي، وآخر لقبَّعتي، وثالث لمرآتي. لو لم يكن الباب والنافذة متقابلين، ولو أمكن إيصاد الباب، وكانت الألواح الزجاجية للنافذة كاملة، لكنت مرتاحًا بما يكفي. لكن تيار الهواء يشبه عاصفةً في البحر. وكلُّ ما يخرج من النافذة يذهب إلى حديقة البلدية.

حبست أنفاسي من الخوف توًّا عندما خرجت إلى الممر المضاء بنور القمر. كانت أربع بنادق موجَّهة إلى معدتي، يصوبها أربعة أشخاص كالأشباح في عباءات بيضاء، كانوا

جاثمين في الغرفة المقابلة. كان بإمكاني أن أرى بريق عيونهم في الظلام أسفل عمائمهم البيضاء الباهتة. وكان أربعة آخرون يديرون ظهورهم لي وبنادقهم موجَّهة خارج النافذة. لا شك في أنها كانت صُحبة مسائية سارَّة للغاية. لكن منتظم التلغراف كان ينعِق كالغراب مجدَّدًا هذا الصباح حول الإضرابات القادمة، وتساءلت للحظة عما إذا كان أمان الله قد وصل بالفعل.

يوجد أثرٌ واحد هنا أقدمُ حتى من مسجد الجمعة. كتب المقدسي في القرن العاشر يصف جسرَ مالان، قائلًا إن مَن بناه كان أحد المجوس. وقد حمل لألف سنة حركة السير من الهند وإليها فوق نهر هري. اليوم لا يزال يشتمل على ٢٦ قوسًا — فقد كانت ٢٨ في عصر خواند مير — وحيزٍ يسَع شاحنتين متجاورتين. الأقواس مختلفة الأشكال، ونظرًا لأنه من المعتاد أن ينهار واحد أو اثنان منها كلَّ عام في فيضانات الربيع، وجبت إعادة بناء الجسر عدة مرات. لكن الدعائم ترتكز على الأرجح على أساسات قديمة.

المدينة جديرة بالمشاهدة من الجنوب. في أثناء رجوعنا من النهر في عربةِ الخيول الزرقاء، أظهرت شرفاتها المفرجة بلونها الرمادي القاتم أرضًا منبسطةً وقرًى كما لو كانت البشرية لم تعرف المدافع بعدُ. توجد ثلاثة جدران. يبلغ ارتفاعُ أعلاها ثمانين قدمًا، ويحميه صفٌّ من الأبراج. وتتخلل الاثنين الآخرين شبكةٌ من المنافذ. أسفلهما يقع خندق مائي واسع ينمو عليه الخيزران. تمتلك القسطنطينية النظام نفسه في الجانب البري، فيما عدا أن البناء هناك من الحجر، وهنا من الطين.

على الطريق الممتد بحذاء الخندق المائي قابلنا ثلاثة رجال يتنزَّهون خلف مهرٍ عالي الخطوات. كانوا جالسين واحدًا فوق الآخر في عربة صغيرة بنية اللون، كانت تعجُّ بأسلحةٍ تكفي لأن تملأ قاعةً بارونية.

كَرُخ (٤٤٠٠ قدم)، ٢٨ نوفمبر: بدلًا من حَزْم الأمتعة هذا الصباح، جلست أقرأ. نجحت الخدعة؛ فقد تحرَّكت الشاحنة في الساعة الواحدة. وكدت أُفوِّتها.

يمضي طريق فسيح مرصوف بالحصباء في اتجاه الشرق لأعلى إلى وادي نهر هري، في طريقه عبْر الجبال إلى باميان، غير أنه لم يصل إلى هناك بعدُ. على هذا بثلاثة عشر ميلًا، عند قرية بلا بين، انعطفنا في مسار ضيق إلى الشمال. صرخ الركَّاب في فوضى: «را تركستان، را تركستان.» الطريق إلى تركستان! بدا أن الأمر أروع من أن يُصدَّق.

تضمَّنت الأميال العشرون التالية تَكرار عبور نهر في إفجيج، اتضح من تدرُّجاته، أو بالأحرى من عدم تدرُّجه، أن السيارة من شأنها أن تكون بكفاءةِ بغلٍ إذا قادها

سائقها بجرأة ومهارة. توقَّفنا في الساعة الثالثة والنصف لتمضية الليل. كان يوجد بالقرب من الطريق ضريح، تغطِّيه أيكةٌ من أشجار الصَّنوبر المظلية ذكَّرتني رائحتها بالمشجَّر الصنوبري في رافينا. كم تبقى ذكريات إيطاليا حية! ربما كنت سأصبح طبيب أسنان أو شخصية عامة لولا وقوع عينيَّ لأول مرة على عالَم أكبر. الساحة الداخلية مزروعة بنوع واحد من الأشجار؛ يسمونه «هورهوجو». أعلى هذه الجادَّة توجد قوس متواضعة ومضَت قُبَيباتها القصديرية ترحيبًا بنا من بعيد. هذا شاهد على قبر شيخ الإسلام الذي قُتل — أو ضُرِب عنقُه كما يقولون — في أثناء قتاله للفُرس سنة ١٨٠٧. شيَّد ابنُه أبو القاسم الضريح وزرع الأشجار تخليدًا لذكراه.

تفصل مجموعة من المباني بين الفناءين، حيث خُصِّصت لنا فيها غرفة في الطابق العلوي. انتهز الركَّاب الآخرون، الذين هم من الجنود، هذه الفرصة لتبديل ملابسهم العسكرية بعمائم ومعاطف طويلة وسراويل فضفاضة. ومنزعجًا من وابل لفافات الساق والسترات العسكرية، نأيتُ بفرش نومي إلى إحدى الشُّرفات، وكنت أبسطه عندما دخلت الفناء بالأسفل حشد من سادةٍ مكتنزين في منتصف العمر. خلعوا عباءاتهم وعمائمهم، وتوقَّفوا أمام شجرةٍ متصدعة، وحاول كل واحد منهم في دوره أن يحشر نفسه خلالها. قيل لي إن مَن نجحوا في ذلك قد ينالون الخلاص في الآخرة. وكان قلةٌ فقط مَن ينجحون في ذلك.

همس حارس البوابة عندما ذهبوا قائلًا: «هل معك بعض من شراب العَرَقي؟»

قادني عبر الجادَّة إلى المقبرة. وبينما كنت واقفًا على سطح القوس أراقب طيور الكركي تحوم فوقي ووميضًا ضاربًا إلى الحمرة يخيِّم على أفق الجبال المغطاة بالثلوج، بدأت تقترب مسيرة أخرى من الرجال المكتنزين أيضًا. تقدَّمها شخص مهيب يَلبَس حذاءً طويلًا أسود، وعباءة خضراء مبطَّنة، وتبرز أسفل عمامته الكبيرة لحيةٌ بيضاء أفقية على صدرٍ ضخم كصدر حمامة نفاخة. أوضح حارس البوابة بتفضُّل: «يأتي «حضرت صاحب» لتحيةِ سيادتكم أيها الرحَّالة الإفرنجي.»

استهللت الحديث بتأدُّب: «ما أكبر السَّمك الذي لديك بالبِركة في الأسفل.»

ردَّ حضرت صاحب باستخفاف: «تلك! يجب أن ترى السَّمك الذي في المدرسة.»

قام الناس وانحنَوا في أثناء مشينا في مسيرتنا إلى مدرسة القرية. أسفل شرفةٍ معلَّق عليها نصوص من القرآن جلس مُلَّا في دائرة من الصبية الصغار الذين كانوا يردِّدون دروسهم على مسامعه. تبعثرت أشجار الصفصاف ومجموعاتٌ أخرى حول بِركة مربَّعة.

طلب حضرت صاحب خبزًا وألقاه في الماء. اندفع سربٌ من البط إليه، ولكنَّ سربًا من أسماك الشبوط الشديدة الضخامة ارتفع إلى السطح وتغلَّب عليه. ومضى البط جائعًا.

ألقت جذوع أشجار الصنوبر ظلالًا طويلة عبْر الطريق المُقمِر. وحرَّكت نسمةٌ الشعلةَ داخل مصباح الكيروسين. نور محمد، وهو جندي التصق بي، نائم في ركنٍ من الشرفة. رأسه فوق بندقيته المصوَّبة نحو أنفي. كنا قد تناولنا وليمةً لتوِّنا؛ فقد عاد حضرت صاحب بعد العشاء تتقدَّمه صينية من البيوتر عليها مكسرات ورمان. وتبِعه الشاي في سلطانيات وليس أكوابًا، وهو ما جعلني أشعر بالقرب من الصين.

سأل حضرت صاحب: «أي حكومة تتبع؟»

«حكومة إنجليستان.»

«إنجليستان؟ ما هذه؟»

«إنها تمامًا مثل هندوستان.»

«هل إنجليستان جزء من هندوستان؟»

«نعم.»

ثَمَّة قافلة آتية على الطريق. بوم، بوم، يعمُّ الليلَ رنين جرس الجمل. يعلو صوت الأجراس الثلاثية رغم شخير نور محمد. أرسم بقلمي بعض العلامات دون تفكير. حان وقت النوم.

قلعة نو (٢٩٠٠ قدم)، ٣٠ نوفمبر: وصلنا هنا في الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم وتوقَّفنا لأخذ قسط من الراحة.

استمر الطريق من كرخ فوق أرضٍ ذات أعشاب متموِّجة يشقُّها نهر في واديه. مرَّت قبيلة من الكازاخ، أناس بوجوه سمينة يمتطون خيولًا وحميرًا وثيرانًا. وبجوار خان مسافرين منعزل، حملت لنا شاحنتان في طريقهما من أندخوي أخبارًا عن الطريق، لم يكن مُطَمئنًا. وأخيرًا، قادنا النهر، الذي تضاءل الآن وصار جدولًا، إلى واحد من تلك الوديان المتعرِّجة التي لا نهاية لها؛ حيث تبرُز نتوءات على كلا الجانبين بالتعاقب، على غرار عجلات التروس. بعد عشرين ميلًا، تركنا هذا متجهين لأعلى نحو الشمال. عندما وصلنا إلى خط الثلج، توقَّفت الشاحنة بينما دارت العجلات كخافقات البيض.

كنا مستعدين جيدًا. فسرعان ما استُخدمَت مجموعات من السلاسل، وثلاثة مجارف، ومعول، وحبال متينة لمنع الشاحنة من السقوط من فوق الحافة. استغرق المِيل التالي أربع ساعات. حفر البعض، وأمسك البعض الآخر بالحبال بإحكام، وألقى البعض فروعًا من

عشب برائحة النعناع كما لو كانوا يلقونها أمام حمار المسيح المُخلِّص. كان النهار قد شارف على الانتهاء عندما قادنا تدفُّق متعرِّج وهتافات إلى المنخفض المحدب الضيق لممر ساوزاك (سابازاك) الجبلي.

على بُعد خمسين ميلًا عبْر ضوء الغروب وقفت أسوار الأرض الموعودة: باند تركستان، وهي جدار جبلي قمَّته مسطَّحة يمتد في اتجاه هِندوكوش. طفَت قِطَع من سُحبٍ ذهبية في السماء المنذِرة بهبوب عاصفة. كانت حِزم وأبراج من الصخر الأحمر العاري تُحصِّن الممرَّ الجبلي. وأنبأت أشجار العرعر، التي تقف كغفراء مُعَنفين وحيدين، وتتلاقى في الغابة على الروابي البعيدة بالأسفل، عن رطوبة واجهته الشمالية.

تلك الرطوبة كانت هي ما يثبط عزيمتنا. تحت الثلج، وبعدما كنا قد تركناه خلفنا، كان الطريق زلقًا كالفازلين، وشديد الانحدار كسكةٍ حديدية شاهقة، وغالبًا لا يزيد عرضه ولو بياردة واحدة عن قاعدة عجلات الشاحنة. عبثًا قطعنا أغصانًا، وتشبَّثنا بالحبال، وكوَّمنا الصخور في المنعطفات الحادة. شقَّت الشاحنة طريقها غير مباليةٍ بفرامل أو عجلة قيادة، مترنِّحةً بانحراف على الجلاميد، وإطاراتها معلَّقة في الفراغ، تُقذَف من جُرف لآخر، بينما نتعثَّر خلفها عبر الغسق والثلج المذاب الشديد البرودة. حيَّانا أحدُ الرعاة من الأسفل. بجواره، في ضوء القمر، كانت شاحنة أخرى جاثمة على الأرض وعجلاتها في الهواء. بحلول ذلك الوقت، كانت أضواؤنا تخفت. عندما وصلنا أخيرًا للمنحدرات المفتوحة، لم يتمكَّن السائق من القيادة، ولم نتمكن من السير أبعدَ من ذلك.

بعدما اختار الجنود ممرًّا ضيقًا، كان يضغط الرياح بضراوة، أوقدوا نارًا. لم يكن لدينا ما نطهيه، والأسوأ من ذلك أنه لم يكن لدينا ماء. لقد كنت ظمآنَ منذ الصباح، والآن شربت مخزونًا من الطين الأبيض، والثلج المذاب، والزيت، كان محفوظًا في صفيحة بنزين من أجل مبرِّد المحرِّك. سطع القمر، وكان الطريق وعرًا، وحملت الرياح بطانيتي بعيدًا، وظل الجنود بخطًى متثاقلة ذهابًا وإيابًا يحرسون المكان ويغنون لطمأنة أنفسهم. كنت أتحسَّر على هذه العقبات التي تعيقني عن النوم عندما وجدت نفسي فجأةً وقد استيقظت في ضوء النهار، بعدما نِمت عشر ساعات.

لم تكن القرية التي كنا نأمُل أن نصل إليها في تلك الليلة تبعُد سوى مسافة ربع ساعة. عندئذٍ وجدنا شاحنتين أخريين من أندخوي. كان ركَّابهما من اليهود الذي حسِبتهم، من وجوههم البيضاوية، وملامحهم الرقيقة، وقبَّعاتهم المخروطية الشكل الممتلئة بالفرو، من أهل بخارى. كانوا قد ناموا هم أيضًا في العراء. غير أن مشكلتهم كانت أكبر من ذلك، كان

نزوحًا جماعيًّا من نوعٍ ما؛ أشار لي العديد من النساء جانبًا وشرعن في الغمغمة بالروسية. عندما أخبرتهن بأنني لا أفهم هذه اللغة، تشكَّكن مُشيراتٍ إلى شعري الأشقر باعتباره دليلًا على أنني لا بد أن أكون روسيًّا. ولكن روايتنا عن الممر الجبلي أخمدت حديثهن ليصير ارتباكًا مثيرًا للشفقة. تمسَّكت الأمهات بأطفالهن، وكان الرجال الطاعنون في السن يرتجفون ويئنُّون، وهم يمشِّطون لحاهم بأظافر متسِخة. بعد ذلك، قابلنا شاحنتين أُخريين تحملان مزيدًا من اليهود، كانتا تسيران بسرعة متهوِّرة.

قلعة نو، أو «القلعة الجديدة»، هي بلدة سوق صغيرة يقطنها حوالي ٢٠٠٠ نسمة. وفي نهاية شارعها العريض الوحيد، وجدت الحاكم جالسًا في حديقة خرِبة، بينما كان حصانه، الذي كان فحلًا رماديًّا بارتفاع خمسة عشر شِبرًا تقريبًا، يطأ حوض الأزهار المُهمَل. عندما رأى الخِطاب الذي حملتُه من مدير الخارجية في هِرَات، خصَّص لي غرفةً مُطلَّة على الشارع؛ حيث استمر نور محمد في مرافقتي. قال: «لا تهتمَّ بسعر الدجاج، فأنت ضيف هنا.» هذا كرمٌ ولطفٌ منه، لكنه منعني من شراء دجاجتين، أحتاج إلى إحداهما لرحلة الغد.

عصر هذا اليوم مشيت أنا ونور محمد ميلًا ونصفًا عائدَين عبر الطريق الذي كنا قد أتينا منه لمشاهدة بعض الكهوف في سفح التل. أسفلها مباشرةً، أصابني دوار، وكان عليَّ أن أنزل قبل أن أُترك وحيدًا. أكمل نور محمد رحلة الاستكشاف، وأكَّد لي أن الكهوف لا تحتوي على رسومات أو نقوش.

للتوِّ جاء سكرتير الحاكم، الذي كان متدثرًا بعباءة أرجوانية مبطَّنة بالصوف ويحمل مشعلًا كهربائيًّا، وكتب جملة طويلة في هذه المفكرة، عما وصفه بالتشرُّف باستخدامه قلم الحبر السائل الخاص بي.

قلعة نو، ١ ديسمبر: يوم آخر من أيام الراحة، لكن ليس سارًّا جدًّا. ثارت عاصفة في الليل، وهبَّت بقوةٍ كبيرة جعلت البابَين على الجانبَين المتقابلَين للغرفة ينفتحان على مصراعَيهما بعنف وارتطام، وكِدت أنجرف من على الأرضية. وبعدما استيقظت هكذا، وجدت أنني أشعر باعتلال. لا توجد «دورات مياه عامة» في هذا المبنى، وإنما يستخدم الرجال والحيوانات على حدٍّ سواء الفناءَ الخلفي. عندما وصلت إلى بيت الدرج الخارجي، انزلقت. وانطفأ نور الفانوس، وطار عن جسدي كسائي الوحيد، الذي كان معطفًا مشمَّعًا، ووجدت نفسي مستلقيًا عاريًا في مرقد من الثلج والروث الذي التصق بجسمي في الصقيع. للحظة أُصبتُ بدُوار أعجزني عن الحركة. كان شيءٌ ما قد انكسر، وكان عليَّ تحسُّسه

لمعرفةِ ما إذا كان جمجمتي أم درجة السُّلم السفلية. عندما وجدت أنها درجة السلم، عَلَت ضحكتي.

كان الجليد ينهمر بغزارةٍ الآن، ولا يمكننا الانطلاق في رحلتنا.

أرسل سكرتير الحاكم رسالةً هذا الصباح يخبرني فيها، بعد إطناب طويل، بأنه يريدني أن أعطيه قلمي هديةً. ولكني امتنعت. فأتى في وقتٍ لاحق ليطلبه بنفسه. عندما رأيت أنه عليَّ أن أعطيه شيئًا، أجلسته ورسمت له صورة شخصية بالألوان. لفت انتباهي إلى العباءة المبطَّنة بالصوف، التي رسمتها بعناية مُتقَنة. أرضاه هذا.

رجع جميع اليهود؛ إذ بلغت حمولات الشاحنات الأربع أكثر من ستين شخصًا. عِلاوةً على ذلك، وصلت مجموعة من التركمان الذين كانت نساؤهم يرتدين أغطيةَ رأس طويلة حمراء تتدلى منها صفائح من فضة مذهَّبة مرصَّعة بالعقيق الأحمر. وبسبب هذا التدفُّق، يوجد نقص في الغداء. ولا يوجد وقود. وإذ لا يمكنني إضاءة الغرفة إلا بفتح الأبواب، فعليَّ أن أتدفأ بارتداء جميع ملابسي والبقاء في السرير. تبيع المحال السجائر الروسية وحبر سوان إنك اللذين لا يريح أيٌّ منهما في الاستخدام. غير أني اشتريت بعض الجوارب المحاكة يدويًّا، والتي يمكنها مقاومة برد القطب الشمالي.

قلعة نو، ٢ ديسمبر: يقول الناس هنا حاليًّا إنه حتى إن وصلنا إلى تركستان، فإن الطريق إلى كابول سيكون مغطًّى بالثلوج. كان من المفترَض أن ألاحظ هذا من المرتفعات التي على الخريطة. تستغرق الرحلة شهرًا على ظهور الخيل، وأظن أنها تستلزم مالًا ومعداتٍ تفوق ما لديَّ. أنا قلِق أيضًا من فكرة ألا أستطيع إرسال برقية للوطن بمناسبة عيد الميلاد المجيد. في هذه الأثناء، استمر الثلج في السقوط، وأرسلوا إلى هِرَات طلبًا للخيول، لإحضار اليهود. ربما ينبغي أن أعود معهم.

حتى نور محمد أصابه الإحباط. وهو يصلي بلا انقطاع، وإذا تصادف ومررتُ أمامه، كان يسجد فوقي.

قلعة نو، ٣ ديسمبر: تحوَّل الإسهال إلى زحار. لا بد أن أعود.

قد يكون جُبنًا. أُفضِّل أن أطلق عليه فِطنة. على كل حال، يضيع الفارق وسط خيبة الأمل. ومع ذلك، اكتشفت أنه يمكن القيام بالرحلة، الأمر الذي لم يكن يعرفه أحد من قبل.

أصبح الطقس صافيًا، وهو ما يُصعِّب عليَّ القرار الذي اتخذته. حتى لا يزيد الإسهال، أخذت جرعة كبيرة من الويسكي وزرت الحاكم مبكرًا. وجدته في خلوة، جالسًا القرفصاء بجوار موقد في نهاية غرفة طويلة. تحسَّس نبضي، وقال إنني لست مريضًا، وإنه حتى

لو كنت كذلك، فإنه يجب عليه أن يتصل هاتفيًّا بهِرَات قبل أن يستطيع إعطائي تصريحًا بالذهاب. كان الهاتف في ذلك الوقت معطَّلًا، وعلى أي حال لم تكن توجد خيول. وصلت هذا المساء رسالةٌ مفادُها أن الهاتف قد أُصلِح، وأن تصريح الذهاب في انتظاري، وأن الخيول ستُعَد للعرض عليَّ لأفحصها في الساعة الثامنة من صباح غد.

ستغادر الشاحنة في الساعة الرابعة فجرًا. لا يزال بإمكاني الذهاب معها إن لم أكن أشعر بضعف شديد.

لامان (٤٦٠٠ قدم)، ٤ ديسمبر: إنها القرية التي في أسفل الممر الجبلي.

أتتِ الخيول في الموعد. واحد منها لم يستطِع أن يضع قائمته الأمامية القريبة على الأرض، والاثنان الآخران يشبهان فرس فارس الموت في رؤيا يوحنا اللاهوتي. أيقظت احتجاجاتي الحاكم قبل أن يرتدي ملابسه، ولكي يجنِّب نفسه مزيدًا من انتهاكي للآداب العامة، عرض عليَّ ثلاثة من خيول الحكومة ومرشدًا مقابل ٥ جنيهات إسترلينية. كان استثمارًا جيدًا للمال. ومع اعتلالي، الذي كان يؤخِّرنا كل عشرين دقيقة، فقد اجتزنا مرحلتين في نصف يوم، وسنحاول الوصول إلى كرخ غدًا، مع أنه يُقال إنها تستغرق ثلاث عشرة ساعة.

لم يتمكَّن السَّرج الأفغاني ولا آلام الجوع من إفساد جمال رحلتنا وسط التلال الفضية اللامعة. عند التقاء الأفاجيج بالوادي، كان الكازاخ قد نصبوا مخيماتهم للشتاء داخل الجدران الطينية، التي يستخدمونها عامًا بعد عام. رسم كل مخيم صورةً ظلية لقبابٍ سوداء منخفضة على الخلفية البيضاء للمشهد الطبيعي. في أغلب الأحيان، كان قطيع من الكلاب المزمجرة يأتي مندفعًا إلى المنحدرات لتحيتنا، وكانت الكلاب السلوقية التي من بينها في صلابة تلك المشارِكة في كأس ووترلو للكلاب. ولكن عند أحد المخيمات أوقفَنا رجلان. وسألا: «أين الكيبيتكا الخاصة بك؟»

«ماذا؟»

«الكيبيتكا الخاصة بك؟»

«لا أفهم.»

بتعبيراتٍ تدل على الاحتقار والغضب، أشارا إلى كوخَيهما المصنوعين من اللباد والسنط. «الكيبيتكا الخاصة بك، يجب أن يكون لديك كيبيتكا. أين هي؟»

«في إنجليستان.»

«وأين ذلك؟»

«في هندوستان.»

«هل ذلك في روسيا؟»

«نعم.»

أهل القرية غير خدومين على نحوٍ غريب. بيض؟ بارافِين؟ تِبن؟ لم يكن لديهم شيء من هذا القبيل. قلت إنني سأدفع. لكنهم لم يصدِّقوني عندما رأوا برفقتي موظفًا حكوميًّا. منحتنا سلطته في النهاية ما أردناه، وكذلك منزلًا للنوم يتكوَّن من أربعة جدران وسقف بفتحة فيه. لسوء الحظ، لا يخرج دخان المشعلة في وسط الأرضية من هذه الفتحة. غير أنه من اللطيف أن يشعر المرء بالدفء على سبيل التغيير. نحن مجموعة من سبعة أشخاص.

يظن مرشدي أن القرويين يحملون لنا نوايا سيئة. لست مرتاحًا أنا أيضًا. يوجد تصدُّع في الجدار فوقي، أوقفه أحدهم بخرقة من قماش. أصابني الذهول عندما اختفت الخرقة فجأةً وحلَّت محلها يدٌ أخذت تتلمَّس أغراضي. أخبرت المرشد، الذي أخذ بندقيته واندفع للخارج. ولكن لم تنطلق أي طلقات.

سدَدْنا الفتحة بحَجَر. يجب أن أنام. فذِهني مملوء بخططٍ للقيام بهذه الرحلة في الصيف. ربما سيتمكَّن كريستوفر من أن يأتي حينذاك.

كرخ، ٦ ديسمبر، ٢:٣٠ صباحًا: قطعت على حصاني مسافةَ ستين ميلًا اليوم، وخلدت إلى فراشي للتو، ولم أكن قد تناولت سوى كوب من الحَساء. ديك الصباح يصيح.

هِرَات، ٨ ديسمبر: يا لذلك اليوم الذي مررت به! فلْيَقِني الرب من خوضٍ مزيد من المغامرات بمَعدةٍ مُنهَكة.

لم يكن الفجر قد انبلج تمامًا عندما ركبنا الخيل خارجين من لامان لصعود الممر الجبلي. طَفتِ الأشكال الشبحية لأشجار العرعر وتلاشت في السديم الرمادي. دثَّر الثلج خطوات الخيل. أخيرًا كشفت الشمس عن القمم التي في أعلى الممر الجبلي، والتي ظهرت أشد احمرارًا في خلفية من سماء زرقاء وعالم أبيض. ألقيت نظرة وداع على باند تركستان، متسائلًا عما إذا كان ثَمَّة شاحنة جاهزة هناك، ومستهجنًا حيرتي. عند النزول، بدأت الخيول في الهرولة. حاولت دون جدوى التحكم في إيقاع جوادي؛ وإما أنه لم يستطِع، وإما أنني لم تكن لديَّ المهارة الكافية. عندما كنت أقف على الركَّاب، كان السَّرج الخشبي يمزِّق ساقيَّ، رغم قماشه الأرجواني المزيَّن بالشراشيب. وعندما كنت ألزم مكاني، على الطريقة الشرقية، وأُهرول، كان اضطراب أمعائي لا يكاد يُحتمل. جرَّبتُ إحدى الطريقتين ثم الأخرى، جرَّبتُ الجلوس مواجهًا لمقدمة السَّرج ومُسنِدًا ظهري إلى مؤخرته، وجرَّبتُ

الجلوس مائلًا، وفكَّرت في الاستدارة وأن أجلس مواجهًا للذيل. ولكن بألم أو من دون ألم، عزمت على بلوغ كرخ في تلك الليلة، وكذلك كان عزم مرشدي، منذ أن تنبَّأ أهل لامان بأننا لن نبلغها. طوالَ فترة ما بعد الظهيرة، بعد التوقُّف لترعى الجياد، سِرْنا بخطًى متثاقلة إلى ذلك الوادي اللانهائي. حول حافة كل نتوء، توقَّعت رؤية العُشب في المرتفعات، ولكن حول كلٍّ منها كان ثَمة نتوء آخر ينتظر؛ وكانت كرخ، كما عرفت، بعيدة عن مدخل الوادي. عندما غربت الشمس، تبادلت أنا والمرشد حصانَينا، وكان سَرج حصانه ذا حشوة ناعمة. خرجنا أخيرًا. عبْر النهر في واديه، امتدت المرتفعات الصفراء الداكنة لتصبح جبالًا باللون الأزرق الداكن كالحبر عليها بقعٌ من الثلج ومتوجة بسُحب رصاصية. أكسب راعٍ بعباءة بيضاء مع قطيعه ودخان قرية بعيدة بُعدًا بشريًّا لهذا القَفْر الشاسع. نزلنا إلى الوادي وعاودنا الصعود. عاودنا النزول وصعدنا لأعلى. كان المرشد قلقًا، وحثَّني على الجري باعتدال.

كان آخرُ بصيص ضوء قد رحل عندما شققنا طريقنا عبر النهر والمياهُ تتناثر من حولنا للمرة الثالثة، ولم يعوِّضه القمر ولا النجوم. وبينما كنا نضيء الفانوس، سمعنا وقْع أقدام. تيبس المرشد، ولكن عندما اتضح أنها لشخص واحد، همز الحصان للتحرك للأمام ملوِّحًا ببندقيته ومهددًا بإطلاق النار على الرجل لخروجه بعد حلول الظلام. وصلنا في النهاية إلى قرية. لم تكن كرخ، بل كرخ سار، وقال المرشد إنه يعرف طريقًا مختصرًا من هنا. ضاق الطريق. وانعطفنا في هذا الطريق وذاك. وحاولنا أن نعود أدراجنا باقتفاء أثرنا. وفي النهاية، وجدنا أن ما كنا نتَّبعه لم يكن سوى أثر أرنب.

سألت للمرة العاشرة: «أهذا حقًّا الطريق إلى كرخ؟»

«نعم، إنه كذلك. لقد قلت لك مرارًا وتكرارًا إنه هو. أنت لا تفهم الفارسية.»

«كيف تعرف أنه هو؟»

«أنا أعرف أنه هو.»

«تلك ليست إجابة. فأنت مَن لا يعرف الفارسية.»

«آه، أنا لا أعرف الفارسية، أليس كذلك؟ أنا لا أعرف أي شيء. أنا بالتأكيد لا أعرف إلى أين يقود هذا الطريق.»

«هل يقود إلى كرخ أم لا؟ أجِبني رجاءً.»

«لا أعرف. فأنا لا أعرف الفارسية. لا أعرف. أنت تقول كرخ، كرخ، كرخ. وأنا لا أعرف أين تقع كرخ.»

وفجأةً سجد فوق العُشب، ووضع رأسه بين يديه وأخذ يئن.

ضللنا الطريق. كان هذا مأزقًا صعبًا في بلدٍ تنتهي فيه السلامة الشخصية بحظر التجول. لكنه بدَّد آلامي كالسحر. تساءلت لوهلة عما إذا كان المرشد قد جاء بي إلى هذا الممر لغرض في نفسه. كان أنينه يتعارض مع هذه الفكرة؛ فقد ظننت ظلمًا أنه ربما يكون لصًّا، ولكن ليس ممثلًا. لم يكن حتى ليساعدني في إفراغ الأمتعة. وأخيرًا، أزلت عنه يأسه وقبلت أن أعقل الخيل. ثم سجد واضعًا جبهته على الأرض مرةً أخرى، ورفض الطعام الذي قدَّمته له، وحاول أن يرفض البطانية حتى عقدتها حول كتفَيه. كان الطقس شديد البرودة، ووجدنا أنفسنا مرةً أخرى داخل سحابة رطبة كثيفة. بسطت فراشي، وتناولت بعض البيض، والنقانق، والجبن، والويسكي، وقرأت قليلًا في كتاب بوزويل، وغفوت وسط الأعشاب العطرية وأكياس أموالي بين قدميَّ، وسكين الصيد الكبير مرخيٌّ في قبضة يدي.

في الساعة الواحدة أيقظني ضوء القمر، ورأيت أننا توقَّفنا عند نهاية حافة الوادي تمامًا. بعيدًا في الأسفل، تعرَّج النهر لمسافة كبيرة كثعبان فضي. وأمامنا، على بُعد حوالي ميلَين، ظهرت بقعةٌ داكنة عرفت أنها أشجار صنوبر مدينة كرخ.

كانت لمحة اتسمت بحسن الحظ. وبمجرد أن عثرنا على الخيل حتى غيَّمت السُّحب مرة أخرى. لكن المرشد كان قد عرف وجهته، وبعد ذلك بساعة كنا نقرع باب خان مسافرين كبير، قال إننا سنَنعَم فيه بالراحة أكثر من القبر. وقد ثبت صدقُ كلامه بالفعل. ذهبت للنوم وحدي في غرفةٍ ذات سجاد مترف؛ حيث أيقظني، في وقت متأخر من صباح اليوم التالي، ثلاثة حكماء ملتحين كانوا قد جاءوا للصلاة، ولم تمنعهم من ذلك نظراتي الفضولية.

وصلنا هِرَات في الساعة الرابعة. حيَّاني السيد محمود وجميع موظفيه وكأنني ابن ضالٌّ عاد من السفر. ففرد أحدهم السجاجيد. وجلب آخرُ الماءَ لأغتسل به. ودون أن أطلب، دقوا لي المسامير لتعليق ربطات عنقي، والنظارة، والقبعة. وأحضروا إناءً جديدًا من المربى التي أحببتها كثيرًا، ووعد السيد محمود أن يُحضر بالغد كميةً من الكيك الإسفنجي.

أجل، كان الهنود قد رحلوا، وكذلك الرجل المجري. كان بعض الفرنجة الآخرين قد جاءوا في ذلك الوقت، واعتقدَ أنهم أصدقائي. آه، ها هم أُولاء.

كان الفحَّامون يقفون عند الباب.

قلت من الركن الذي كنت فيه: «مرحبًا.»

«أنت؟ آه، مرحبًا.»

«عذرًا، لقد أنهيت الويسكي.»
«لا عليك.»
«كان ذلك بسبب مرضي.»
«سمعنا أنك كنت مريضًا.»
«هل وجدتم الطقس باردًا في أفغانستان؟»
«أزعجنا المطر.»
«ولكن آمُل أن تكون المباني قد أعجبتكم.»
«آه، إنها ساحرة.»

لم يكن اجتماع الشمل الذي كنا قد تخيَّلناه. نظرًا لتأخُّرهم مدة عشرة أيام عن الوصول إلى تركستان، فلا بد الآن أن يذهبوا جنوبًا إلى قندهار. ويتوقَّعون مني الذهاب معهم.

ساعد تناول حَجَل على العشاء في تلطيف الأمور.

هِرَات، ١١ ديسمبر: ذهبوا وحدَهم. فقد كانت تركستان هي مقصدي، وليس مظاهرة لعمال الفحم. ولا تزال كذلك. سأعود إلى بلاد فارس وأنتظر حلول الربيع.

بلاد فارس: مشهد، ١٧ نوفمبر: لقد كانت رحلة كريهة، أرهقتني. وها قد أتت فترة الراحة.

ومع ذلك، كنا لا نزال محظوظين مع الطقس. فقد جفَّ الطريق تمامًا وكان السير جيدًا. شغلت مجموعة من الحجيج في طريقهم إلى النجف مؤخرة الشاحنة. وبجواري في الأمام جلس سيدٌ شابٌّ متظاهر بالتقوى يضع عمامةً سوداء ومعطفًا بنيًّا من شعر الغنم، وكان قد أتى من العراق لرؤية المدن الإسلامية، وكان في طريقه في ذلك الوقت إلى الهند عبر دوزداب وكويته. بعد قضاء الليلة في إسلام قلعة، الموقع الحدودي، انطلقنا في طريقٍ وعْر عبر القطاع الذي يبلغ طوله اثنَي عشر ميلًا من الأرض غير المأهولة الذي يفصل بين البلدين، تصاحبنا أسراب من طيور المستنقعات بنحيبها الحزين. عند بلدة كاريز، عندما أخَّرتنا الجمارك الفارسية، بادرني رجل ألماني بالكلام. كان قد هرب لتوِّه من روسيا، حيث كان قد مُنِح الجنسية، وسار كل هذه المسافة في طريقه إلى الهند، ولكن السلطات الأفغانية أعادته. كانت زوجته مريضة في القرية، وكانا معدمَين ويائسَين. كنت أتحسَّس جيوبي بحثًا عن بعض المال لأعطيه له، عندما اختفى وقد أخذته العزة.

ظهرت بثرة في فخذي، وكانت في ذلك الوقت بحجمٍ جعل الساق كلَّها متورمة من الكاحل إلى أصل الفخذ؛ فكنت بالكاد أستطيع المشي. ولكي أتخلَّص من الألم، طلبت بعض

العَرَقي، الأمر الذي اعترض عليه السيد بفزعٍ مصطنَع. ظننت أن التحفُّظ في بلاد فارس لم يكن من شأنه. أزلت السدَّادة ودسست فوَّهة الزجاجة في لحيته. ففرَّ مثل راهبةٍ مغتصَبة، ولكن لم يكن ثَمة مَهرب في الشاحنة. وعندما كانت الزجاجة تظهر كان ينهار على عجلةِ القيادة كما لو كانت أدخنة قد أحاطت به، طالبًا من الرب ومن السائق أن يقتصَّا من الفسوق. كان السائق يضحك. ولم يفعل الرب شيئًا حتى مدينة تربت شيخ جام، التي وصلناها في منتصف الليل.

فهنا، عندما كنت أفرِغ متاعي في خان المسافرين، سرق بعض الجنود حقائبَ سَرجي. ظنًّا مني أن بابهم كان مغلقًا، اندفعت تجاهه راكلًا إياه بكل قوة رجلي السليمة. لكنه لم يكن كذلك، وجعل دخولي الحماسي أربعةً منهم يتمدَّدون على الأرض، واصطدمت ركبتي بعجيزةِ أحدهم فجأةً عندما انحنى فوق الغنيمة. كان الباقون حانقين، ولاحقوني، وأنا لا أزال أقفز كجرادة، إلى المطبخ؛ حيث سخر الجمع منهم حتى شعروا بالخزي. ثم سألت عن مكانٍ يمكنني النوم فيه، فقادوني بطريقة جافة إلى طرف حصيرة بالقرب من الموقد، كان يشغلها بالفعل خمسة آخرون. أخذت إبريقَ شاي مملوءًا بالماء الساخن، وذهبت إلى مكانٍ خَرِب على الجهة الأخرى من الفناء، يمكنني فيه أن أكمِّد رجلي في هدوء؛ فجمَّدت ثلاثةُ تيارات منفصلة من الهواء الضِّمادة على جلدي. سألت السيد، الذي تسلَّل خلفي ومعه صرة بيضاء في ذراعيه: «هل المكان مريح هنا؟» تخلَّصت منه بزجاجة العَرَقي.

لم يبتهج حاج من قبلُ برؤيةِ قباب مدينة مشهد مثلما ابتهجت. كانت السيدة هامبر، من القنصلية، قد طلبت مني أن أبقى إذا عُدت؛ ولم يكن لديَّ من القوة ما يجعلني أتظاهر بالتردد. عولجت رجلي بالحجامة في المستشفى الأمريكي. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت لأجد ملاءاتٍ نظيفة تحت ذقني وإفطارًا على صينية، فتعجَّبت من عالمٍ كنت قد نسيته.

مشهد، ٢١ ديسمبر: تعود إليَّ الطاقة والمعنويات المرتفعة شيئًا فشيئًا، وذلك في الأساس بفضل رواية «آنا كارنينا» التي لم أكن قد قرأتها من قبل. تحسَّنت رجلي تحسُّنًا يمكنني معه أن أرتدي سروالي بنفسي. تنتشلني هذه الرواية من خصوصيات المستشفى. عندما كنت في الغرفة أمس، خُلع لرجلٍ سبع أسنان دون مخدِّر، بينما كان يُجرى لآخر اختبارٌ لسرطان الخصيتين.

مَن يحتقرون المبشِّرين لم يروا عملهم الطبي. فصِحَّة خراسان بأكملها تعتمد عليهم. ولهذا تكرههم السلطات وتعوق عملهم، وليس لجهودهم في إدخال الناس في المسيحية؛ فلا يوجد ما يدعو للغَيرة في دينٍ لا يتعدَّى قبول الناس له هنا القبول الذي ستلقاه بعثةٌ

دعوية إسلامية في روما. الفرس بارعون في إلحاق الأذى بأنفسهم نكايةً في الآخرين. فقد أوقفوا خدمة طيران يونكرز لأنها أظهرت تفوقًا أجنبيًّا. ويشيِّدون الطرق، لكن رسومهم الجمركية تعوق استيراد السيارات. ويريدون حركةً سياحية، لكنهم يمنعون التصوير لأن أحد الأشخاص نشر ذات مرة صورةً لشحَّاذ إيراني، في حين أن الامتثال للوائح الشرطة هو مهنة في حد ذاته، كما اكتشفت في اليوم أو اليومين الماضيين. في الواقع، تلهُّفُ أرض مارجوريبانكس للتقدُّم يتعارض تعارضًا محبطًا مع أفغانستان. يذكرني هذا بحكاية الأرنب والسلحفاة.

مشهد، ٢٤ ديسمبر: سافرت السيدة هامبر إلى الهند. وطلب مني هامبر بلباقةٍ فائقة أن أُونِسه بصحبتي في عيد الميلاد المجيد.

كل صباح آخذ عربة بحصانين إلى ضريح خواجة ربيع؛ حيث أجلس وأرسم، في تصالح مع الدنيا، طيلة ما تسمح به أيام الشتاء القصيرة من وقت. بناه شاه عباس في عام ١٦٢١، وهو يقع في حديقة خارج المدينة. للبلاطات ذات الألوان المبهجة، الفيروزية، واللازوردية، والبنفسجية، والصفراء، شجنٌ فريد وسط الأشجار الجرداء من الأوراق والأحواض الفارغة التي تتطاير فيها أوراق الأشجار الجافة. يلائم هذا حالتي المزاجية.

المعالم الأثرية الأخرى هنا هي مسجد الشاه، وهو مسجد مهدَّم في البازار يعود تاريخه لعام ١٤٥١، وله مئذنتان مُحَليتان باللونين الأزرق والأرجواني بالطراز نفسِه للمئذنة ذات الشرفتين في هِرَات؛ والمصلى، وهو قوس مهدَّم يعود لتاريخ لاحق، له واجهة من الفسيفساء المعقد ولكن ليس جميلًا. ويوجد أيضًا الضريح الكبير للإمام الرضا.

تُشكِّل هذه المجموعات من المساجد والأضرحة والمقصورات والبازارات والمتاهات مركز المدينة. مؤخرًا عُزلَت المنطقة المقدَّسة بشارع دائري واسع؛ مما جعل الشوارع الرئيسية الأخرى تشعُّ في جميع الاتجاهات، بحيث اكتمل كل مشهد بقباب ومآذن. في وصولي الأول عند الغسق، كانت قبَّة ضخمة باللون الأزرق السماوي مرتفعة في السماء الضبابية، وتألَّقت بخفوت قبَّةٌ ذهبيةٌ بجوارها، وبين المئذنتين الشبحيتين كان معلقًا حبل من الأضواء السحرية.

نقلت جنازتان عاصمة خراسان من طوس إلى مشهد. في عام ٨٠٩، أزعج تمرُّد في بلادِ ما وراء النهر الخليفة هارون الرشيد. فسار ابنه المأمون بجيش إلى مرو، لكن الخليفة شعر بالإعياء في طوس عندما كان يتبعه، ومات، ودُفِن في مكانٍ مقدَّس على بُعد عشرين ميلًا، وهو الآن مدينة مشهد. أقام المأمون في مرو، وفي عام ٨١٦ استدعى هناك الإمام

الثامن من أئمة الشيعة، وهو علي الرضا من المدينة المنورة، الذي أعلن وراثته للخلافة. ولكن بعد عامين، مات الإمام هو الآخر في طوس حين كان يرافق المأمون في زيارة لقبر والده. وفقًا للاعتقاد الشائع أنه مات بتخمة من العنب. غير أن الشيعة يعتقدون أن المأمون قتله بِالسم. أيًّا كان الأمر، فقد دُفن بجوار هارون الرشيد، وأصبحت مقبرته أقدسَ الأماكن في بلاد الشيعة، بعد مقبرة الإمام علي في النجف.

ومن ثَم توسَّع الضريح، وكذلك المدينة من حوله. وبينما يوقِّر الحجيج مقبرة الإمام، فإنهم يبصقون على قبر هارون الرشيد. يستدعي هذا الاسم في مخيلتنا آسيا بكل روعتها. في حين لا يعني عند الشيعة سوى والد قاتل أحد الأولياء.

قضيت الصباح، يرافقني ضابط شرطة عابس، على عدة أسطح متفحصًا الضريح عبر منظار من الجهة الأخرى للشارع الدائري. توجد ثلاثة أفنية رئيسية، كلٌّ منها بأربعة إيوانات (لا توجد كلمة أخرى تصف تلك الصالات الضخمة ذات الواجهات المفتوحة والقنطرات المدبَّبة والواجهات العالية، والتي تُعَد السمة الخاصة بعمارة المساجد الفارسية). يتجه اثنان من الأفنية شمالًا وجنوبًا، ويصطفَّان متلاصقين، مع أنهما ليسا على المحور نفسِه، وتبدو البلاطات فيهما من بعيد كالقماش المزهر، ولا بد أن تاريخ بنائهما يعود إلى ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر. ترتفع بينهما قبَّة ذهبية على شكل دَفة سفينة، تميِّز مقبرة الإمام، وشيَّدها شاه عباس في عام ١٦٠٧؛ وفي عام ١٦٧٢ شاهد شاردان صفائح تُصنع في أصفهان لإصلاحها بعد أحد الزلازل. توجد بجوارها مئذنة ذهبية، وثَمَّة مئذنة مماثلة شرق الفناء الجنوبي.

يتَّجه الفِناء الثالث جهة الغرب، في زاويةٍ قائمة مع الفِناءين الشمالي والجنوبي. هذا هو المسجد الذي بنته جوهر شاد بين عامَي ١٤٠٥ و١٤١٨. فوق غرفة الحرم في الطرف، المحاط بمئذنتين هائلتين، ترتفع قبَّة بصلية الشكل باللون الأزرق السماوي، منقوش عليها بالخط الكوفي الأسود العريض، ومزيَّنة من قمَّتها بمحالق صفراء رفيعة.

يبدو أن فسيفساء الفناء بأكمله لا تزال سليمة. فحتى من مسافة ربع ميل، يمكنني أن أرى الفرق بين جودة ألوانه وألوان الفناءين الآخرين. ها هو ذا البرهان على أمجاد هِرَات المندثرة. لا بد أن أتسلل إلى هذا المسجد، وسأتسلل إليه بالفعل، قبل أن أترك بلاد فارس. ولكن ليس الآن؛ فلا أملك روح المبادرة الآن. يجب الانتظار حتى الربيع؛ فبحلول ذلك الوقت ربما أكون قد عرفت أكثر عن جوهر شاد.

مشهد، يوم عيد الميلاد المجيد: انطلقت أنا وهامبر مع السيد والسيدة هارت، وهما أيضًا من القنصلية، وابنهما الصغير كيث. أفرطت في أكل حلوى البودينج، وشعرت بالغثيان

كما يشعر المرء دائمًا عصر يوم عيد الميلاد المجيد، وعُدت في حالتي الطبيعية وقت العشاء. دعا هامبر إلى هذا العشاء البعثةَ الأمريكية بأكملها، وآل هارت، وفتاة ألمانية من بوليفيا كانت تعمل مربية لدى عائلة هنا، وكانت تبدو عصرية وهي تُقهقه بطريقة ألمانية تيوتونية نوعًا ما وهي تشرب الكوكتيل. تبع العشاء بعض الألعاب. وفزت بقلم حبر سائل، وهي الجائزة التي يحصل عليها الرجال عند تزيين قبَّعة سيدة.

بسطام: برد دفن أوائل القرن الرابع عشر.

طهران، ٩ يناير: كانت لحظة حزينة عندما تركت السكنى في بيت آل هامبر اللطيف وعُدت للعالم الوحشي.

في طريق العودة توقَّفت في شاهرود. كان ذلك في الصباح الباكر، وبما أننا الآن في شهر رمضان، وهو ما يعني أن أحدًا لن يستيقظ حتى منتصف النهار، أخذت حصانًا دون إذن وانطلقت إلى بُسطام، وهو مكان صغير خامل على الطريق عبْر الجبال إلى أستراباد. كان لضريح بايزيد الذي يعود للقرن الرابع عشر مظهر خارجي ريفي جدًّا، بأبراجه التي تشبه أبراج المنازل ذات الأتون في كنت، حتى إن ثراء المحراب الجصي المنحوت بداخله كان مفاجأة. في الواقع، تمثِّل هذه التقنية دائمًا مفاجأة؛ فما تُحدِثه من أثرٍ يفوق بجميع المعايير الموادَّ البسيطة التي تُستخدم فيها. الآثار هنا ليست غنيةً كما في همدان؛ إذ تعتمد على الرسم أكثرَ من النقش البارز. ومع ذلك، تتسم بنفس خصائص الروعة دون أُبهة وبتعقيدٍ يخلو من التنافر. يوجد بالقرب من المسجد برج دفن بُني في بداية القرن، تكسو هيكلَه المستدير دعاماتٌ صغيرةٌ ذاتُ حواف حادة. تتميز أشغال القِرْميد بملمس ناعم، نتج عن حواف القِرْميد، فزواياه متناوبة وذات تصميم صغير.

أُلقي القبض عليَّ في طريق عودتي إلى شاهرود، لكن رئيس الشرطة كان ودودًا جدًّا عندما قدَّمت وثائقي. أوضحت أنني بقدرِ ما كنت أتعاطف مع عادة تحويل الليل إلى نهار خلال شهر رمضان، لم يكن من المفيد لي أن أنتهج تلك العادة في بحثي عن الآثار. وافقني على ذلك، بل أخجله الأمر. ربما صدر مرسوم سخيف يقضي بانقلاب النهار ليلًا والليل نهارًا في شهر رمضان.

لأذنيَّ اللتين كانتا لا تزالان تَطِنَّان بضوضاء شاحنة متباطئة، بدت طهران مدينة غيلان مخملية الأقدام. ألبسوني بدلة مسائية وسط الفوضى الأنجلو-فارسية، واصطحبوني إلى الحفلة الراقصة لليلة رأس السنة. نظرًا لأنني كنت أتوقَّع فقط تلك الكِياسة العفوية التي تهدف إلى تجنيب المسافر العائد أن يستعيد ذكرياته، فقد تأثَّرت كثيرًا باهتمام الناس برحلتي القصيرة. وفجأة، رأيت بوسك، السكرتير الجديد للمفوضية، وأعربت عن دهشتي لكونه أطولَ مني؛ لأنه في المدرسة؛ إذ لم نكن قد التقينا منذئذٍ، كان أحد أقصر الصبية.

فسألني بنبرة حزينة: «لكني لم أكن «مشهورًا» بأنني قزم، أليس كذلك؟»

هوامش

(١) نُقل إلى لينينجراد لعرضه في المعرض الفارسي عام ١٩٣٥، وعلى الأرجح سيظل هناك.

الجزء الرابع

طهران، ١٥ يناير: اللعنة على هذا المكان.

بعد فترةٍ وجيزة من مغادرتي في نوفمبر، ظنَّ مارجوريبانكس أنه مهدَّد بالإطاحة به عن طريق انقلاب. كان قد ذهب إلى أستراباد لرؤية السكة الحديدية الجديدة التي أنشأها وحضور سباقات التركمان. كان معه سردار أسعد، وزير الحربية وزعيم الخانات البختياريين. وكانت أول إشارة علنية على وجودِ مؤامرة هي عودة سردار أسعد غير المتوقَّعة إلى طهران في شاحنة؛ فهي طريقة غير معتادة لسفر أغنى وأبرز أعضاء الطبقة الأرستقراطية القبلية. هو وإخوته، بمن فيهم سردار بهادور وأمير جانج اللذان التقينا بهما أثناء تناول الشاي مع ميرزا يانتز، موجودون الآن في السجن؛ فقد أُرسلَت القوات والطائرات إلى المنطقة البختيارية جنوب أصفهان. في تلك الأثناء، أحاطت الشكوك بقوام المُلك، أحد أقطاب القشقاي من شيراز، الذي يتمتَّع حتى اليوم بشرف خطير لكونه كبيرَ المقرَّبين من مارجوريبانكس. هو الآن محتجَز في منزله، ويطارد الآنسة بالمر سميث، جليسة بناته، هاجس أن يُدسَّ لهم السُّم في الطعام.

لا أحد يعرف إذا ما كانت حقًّا توجد مؤامرة وقتئذٍ أم لا. لكن الجميع الآن يظنون أن ثمة مؤامرةً آتية. ثمة شائعات مفادُها أن مارجوريبانكس يعاني سرطانًا في المعدة، وأن ولي العهد سيُقتَل لدى عودته من المدرسة في سويسرا، وأن القبائل ستثور في الربيع. لا أصدِّق أيًّا منها؛ فدائمًا ما تُولِّد الديكتاتوريات هذه الشائعات. ما يزعجني هو الشعور المناهض للأجانب الذي بلغ مرحلةً حرجة. يُعزى جانب من عار البختياريين إلى صداقتهم مع الإنجليز؛ حيث كان الزائرون الحريصون على رؤية الجانب الأكثر حضارة من الحياة الفارسية يسافرون دائمًا عبر أراضيهم. نتيجة لذلك، فإن جميع الفرس، باستثناء أولئك الذين أُمروا رسميًّا بمخالطة الأجانب، ينفرون مني وهم يرتعدون كما لو كنت كلبًا مسعورًا.

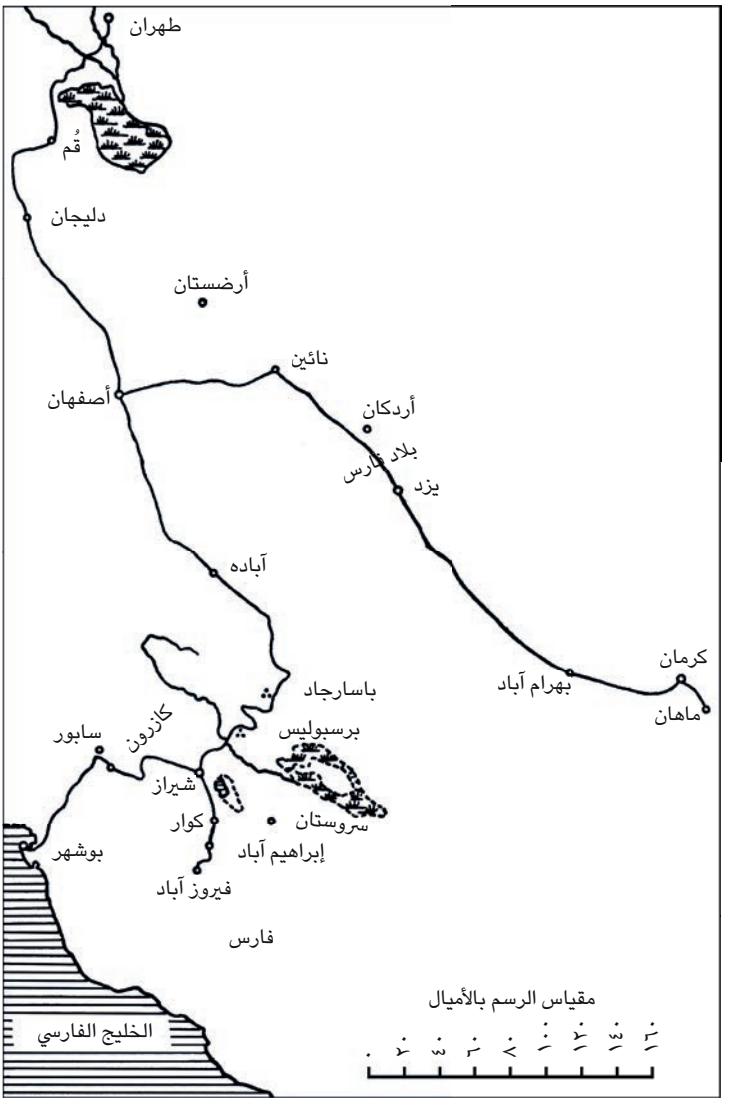

خريطة جنوب شرق بلاد الفارس.

وقد عزَّز هذا الشعورَ مقالٌ كتبه دي باثي في صحيفة «ذا تايمز» عند عودته إلى إنجلترا، وصف فيه اعتداء مارجوريبانكس على الجوكي التركماني تحت أعين أعضاء السلك الدبلوماسي. وذكرت الصحافة الفارسية أن الملك في إنجلترا لا يجرؤ على مغادرة قصره دون حراسة من ٣٠٠٠ رجل، بينما يمتلك أمير ويلز ١٠٠ كلب يصعدون إلى سريره عبر درج خاص وينامون فيه. وبخوف من هذه النوبات، أقنَعَت وزارةُ الخارجية في لندن صحيفةَ «ذا تايمز» بإجراء تعديلات في مقالٍ افتتاحي، كان يقارن بين حال بلاد فارس الحديثة وإنجلترا في عصر آل تيودور، وبين إنجازات مارجوريبانكس وإنجازات هنري الثامن. لم يزِد هذا الجرح الفارسي إلا عمقًا؛ حيث يُعتبر آل تيودور رجعيين. وقد كلَّف هذا التدخل وزارة الخارجية عدة مئات من الجنيهات أنفقتها على البرقيات، وأكَّد الهاجس المزدوج الذي لدى الفرس — والذي دأب وزيرنا السابق على إرسائه — أنَّ صرامتهم تثير الرعب في لندن، وأن وزارة الخارجية الإنجليزية تسيطر على الصحافة الإنجليزية. في هذا الجحيم المملوء بالنوايا الحسنة من جانب الإنجليز، وجد الفرس استجابةً لا تنضب للهزات التي أصابت الكرامة المُهانة. أشكر الرب أن رسائل التوصية التي أحملها أمريكية.

طهران، ١٧ يناير: يوجد عيب آخر في العقلية الفارسية، وهو الغَيرة المميتة لخشيتهم من أن يسبقهم الأفغان في مسألة التفرنج. عندما يسمع الفارسي المتعلم أنني زرت أفغانستان، يأخذ نفَسًا عميقًا، كما لو كان يكبَح جِماحَ نفسه، ويبدي بتهذيب اهتمامًا بما يتمتَّع به الأفغان من رفاهية، ويستفسر بتلطُّفٍ يضاهي تلطُّف القطط عما إذا كنت قد وجدتُ أي سكك حديدية، أو مستشفيات، أو مدارس في البلاد. أجيب بأنني رأيت مستشفيات ومدارس بالطبع؛ فهي في جميع البلدان الإسلامية، أما فيما يتعلق بالسكك الحديدية، فمن المؤكد أن المحركات البخارية قد أصبحت شيئًا عتيقًا في عصر السيارات. عندما أخبرت ميرزا يانتز بأن الأفغان يناقشون مشكلاتهم السياسية بصراحة، وليس همسًا كما يحدث هنا، أجاب: «طبعًا؛ فهم أقل تحضرًا منا نحن الفرس.»

يبادلهم الأفغان الكراهية، ولكن من نوع مختلف. فالاحتقار، وليس الغيرة، هو كلُّ ما يشعرون به نحوهم.

ذهبت أمسِ لزيارة شير أحمد، السفير الأفغاني، لأخبره عن رحلتي. كان متدثرًا بمَبذل مخملي متقزح اللون، ويمسِّد بيده لحيتَه التي بدت كغطاء حفظ حرارة البيض، وبدا أكثرَ ضراوة من أي وقتٍ مضى.

أنا: «إذا سمح لي صاحب السعادة، فسأعود إلى أفغانستان في الربيع.»

شير أحمد (بصوتٍ هادئ): «أستعود؟ (صائحًا بصوتٍ عالٍ جدًّا) بالطبع ستعود.»

أنا: «ويأمُل سايكس أن يرافقني.»

شير أحمد (بصوتٍ هادئ): «أيأمُل؟ إنه ليس بحاجة لأن يأمُل. (صائحًا بصوتٍ عالٍ جدًّا) بالطبع سيرافقك. (بهدوء شديد) سأعطيه تأشيرة.»

أنا: «أحببت الأفغان لأنهم يتحدثون بصوتٍ عالٍ ويقولون الحقيقة. لا تسيطر عليهم المكائد.»

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ وهو ينظر شزرًا): «ها، ها، أنت مخطئ. فلديهم العديد من المكائد، (بصوتٍ هادئ) العديد، (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) العديد. أنت لست ذكيًّا. (بصوتٍ هادئ) أنت لم ترَها.»

أنا (خجِلًا): «في جميع الأحوال، سعادتك كنتَ كريمًا معي. إذا كتبتُ شيئًا عن أفغانستان، فسأعرضه عليك أولًا.»

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ جدًّا): «لماذا؟»

أنا: «تحسبًا لأن يكون مسيئًا لك.»

شير أحمد (بصوتٍ معتدل): «لا حاجةَ لذلك. (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) لا حاجة. (بصوتٍ عالٍ) لن أراه. لا أريد أن أراه. إذا كنت تكتب أشياءَ لطيفة، فيسعدنا أن يمدحنا صديق. وإذا لم تكتب أشياء لطيفة، فيسعدنا أن ينصحنا صديق. ستكتب ما تظنه. (بصوتٍ هادئ) أنت رجل أمين.»

أنا: «سعادتك طيب للغاية.»

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء): «أنا طيب، ها، ها. جميع الأفغان أناس طيبون. إنهم يعيشون حياة جيدة. (بهدوء شديد) لا خمور، (بصوتٍ عالٍ جدًّا) ولا زوجات رجال آخرين. (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) إنهم يؤمنون بالله وبالدين. جميع الأفغان طيبون، وجميعهم Fiddles.»

أنا: Fiddles؟

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء): «أليست Fiddles هي الكلمة الصحيحة؟ هل هي كلمة فرنسية؟ مؤمنون Faithfuls، أليس كذلك؟»

أنا: «إنهم مختلفون جدًّا عن الفرس.»

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء)**:** «ليسوا مختلفين. (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) ليسوا مختلفين. فالفرس متدينون أيضًا. (بهدوء شديد) سأخبرك بقصة:

(بصوتٍ معتدل) كما تعلم، الفرس شيعة، والأفغان سنَّة. الفرس يحبون عليًّا. والأفغان يعتقدون أن عليًّا (بصوتٍ عالٍ جدًّا) بوف! (بصوتٍ معتدل) في شهر المحرم، يحيي الفرس ذكرى موت علي ويقيمون وليمة. في العام الماضي طلبوا مني الاحتفال في البلدية، أو كما تقولون أمانة العاصمة. فذهبت. (بصوتٍ عالٍ تدريجيًّا) ذهبت. (بصوتٍ معتدل) ووقفت إلى جانب رئيس البلدية. وقد وقف حوله جميع الملالي. كان جمعًا كبيرًا. (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) جمعًا كبيرًا جدًّا. (بصوتٍ معتدل) الجميع محتشدون، الجميع، أجل، الشباب، وكِبار السن، (بصوتٍ عالٍ جدًّا) وحتى ضباط من الجيش الفارسي، (بهدوء شديد) ينتحبون وينتحبون، (بصوتٍ عالٍ) ويصفعون صدورهم، وذلك لتذكُّر موت علي. (بهدوءٍ بعض الشيء) جميعهم متدينون. جميعهم يحبون الدين. أنا سُني. ولا أحب رؤية مثل هذه الأشياء: رجال ينتحبون، وضباط ينتحبون. (صائحًا بصوتٍ عالٍ جدًّا) لا أحب ذلك. (بهدوءٍ بعض الشيء) قال لي الملالي: «هلا تلقي سعادتك كلمة؟» (بصوتٍ عالٍ جدًّا) قلت: «لمَ لا؟» (بهدوء شديد): «سألقي كلمة.» (بهدوءٍ بعض الشيء) أولًا سألتهم سؤالًا:

(بهدوء شديد) سألتهم: «هل كان عليٌّ فارسيًّا؟»

(بصوتٍ معتدل) ظن الملالي أنني رجل غبي. فقالوا (بصوتٍ عالٍ): «سعادتك رجل متعلم. سعادتك تعرف أن عليًّا كان عربيًّا.»

(بهدوءٍ بعض الشيء) فسألتهم سؤالًا ثانيًا: (بهدوء شديد) «هل كان عليٌّ رجلًا آريًّا؟»

(بصوتٍ معتدل) ظن الملالي أنني أكثرُ غباءً. قالوا (بصوتٍ عالٍ): «سعادتك تعرف أن العرب ليسوا آريين.»

(بهدوءٍ بعض الشيء) فسألتهم سؤالًا ثالثًا: (بهدوء شديد) «هل الفرس والعرب ينتميان للعِرق نفسِه؟»

(بصوتٍ معتدل) ظن الملالي أن غبائي مستحكِم. وهم محقُّون. (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) هم محقُّون. قالوا (بصوتٍ عالٍ): «سعادتك رجل متعلم. سعادتك تعرف أن الفرس آريون، وأن العرب ليسوا آريين.»

(بصوتٍ معتدل) أنا أحمق. ظن جميع الملالي وجميع الحشد أنني أحمق. فسألتهم: (بهدوء شديد) «ألم يكن عليٌّ ذا قرابة بالفرس؟»

(بصوت معتدل) قال الملالي، (بصوت عالٍ): «لم يكن ذا قرابة.»

قلت لهم (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء): «شكرًا لكم، (بصوتٍ عالٍ جدًّا) شكرًا لكم.»

(بصوت معتدل) ثم سألت عما إذا كان بعض الناس في الحشد قد قضَوا شهر المحرم في عربستان. وعندما ردُّوا بالإيجاب سألتهم: (بهدوء شديد) «هل ينتحب العرب لذكرى علي؟»

(بصوتٍ معتدل) قالوا لي لا.

فقلت: (بصوتٍ عالٍ) «إذَن، العرب أقارب علي، ولكنهم لا ينتحبون لذكراه. الفرس ينتحبون، ولكنهم ليسوا أقارب علي.»

(بصوتٍ معتدل) قالي لي الملالي إنني أقول الحق.

قلت: (بصوتٍ عالٍ جدًّا) «هذا غريب. هذا غريب جدًّا. لا أفهم لماذا ينتحب الفرس. (صائحًا) في أفغانستان، إذا بكى صبي في السادسة من عمره، «ندعوه امرأةً».»

(بصوتٍ معتدل) كان الملالي آسفين للغاية، كانوا في غاية الخجل. وقالوا لي: «سعادتك لم تقضِ شهر المحرم في بلاد فارس منذ عشرين عامًا. فيما مضى كنا ننتحب أكثر من اليوم. وفي المستقبل، بعد عشر سنوات، سنكون قد تقدَّمنا. ولن نستمر في النحيب وصفع الصدور. سترى سعادتك.»

(بهدوءٍ بعض الشيء) في الأسبوع التالي، بعد شهر المحرم ذلك، دعاني الشاه إلى القصر. فذهبت. (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) ذهبت. (بصوتٍ معتدل) قال لي الشاه: «سعادتك صديق للفرس.»

فقلت له: (بهدوء شديد) «سموُّك طيِّب للغاية. أنا لا أستحق ذلك. بالطبع سموُّك تقول الحق. بالتأكيد أنا صديق للفرس. ولكن هل تسمح لي سُموك أن أسأل كيف يراني سُموك صديقًا.»

قال الشاه: «(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) سعادتك، (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) سعادتك منعت الفرسَ من النحيب في شهر المحرم. وأنا أيضًا أمنعهم. (صائحًا بصوتٍ عالٍ جدًّا) لن ينتحبوا في العام القادم. لقد أصدرت الأوامر بذلك.»

(بهدوء شديد) سيأتي شهر المحرم. وسنرى. (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) سنرى.»

طهران، ١٨ يناير: أقامت السيدة نصر المُلك حفلَ استقبال أمس في قصر الكاراجوزلو. الكاراجوزلو عائلة قبَلية أخرى، من همدان، لكنها نجت حتى الآن من الاستياء الملكي. في الواقع، يُقال إن السيدة نصر المُلك هي الشخص الوحيد على قيد الحياة الذي يفصح أحيانًا عما يدور بخَلَده لمارجوريبانكس. يمكنني تصديق ذلك. فقد أفصحت لي عما يدور بخَلَدها عندما ظنَّت أنني سأسكب بعض عصير الليمون على كرسي مزركَش.

استمرَّ الحفل من الساعة الخامسة إلى الساعة الثمانية. وكان يضم ٣٠٠ شخص تقريبًا وفرقة لموسيقى الجاز. سرت شائعة بأن سردار أسعد قد «مات» في السجن.

افتتح مهندس معماري روسي يُدعى ماركوف دارَ رعاية هنا للاجئين الروس الهاربين حديثًا. في منزل صغير بالقرب من بوابة مشهد، وجدنا حوالي خمسين شخصًا تنبعث منهم تلك الرائحة الروسية القديمة نفسها — من أين تأتي هذه الرائحة؟ بدَوا جميعهم بصحةٍ جيدة، باستثناء فتاتَين صغيرتين بائستين؛ فقد جمعت الملابس والألعاب القديمة للأطفال من مصادر مختلفة. كان أحدهم كاهنًا من سامراء أمضى ثلاث سنوات يؤدي وظائف مختلفة مقتربًا أكثرَ وأكثر من الحدود قبل أن يتمكَّن من التسلُّل عبرها. كانت معه أيقونة قديمة رائعة، لكن تلك الأيقونات التي أنقذتها العائلات الأخرى بمشقة كانت بشعةً وعديمة القيمة.

الغرض من الدار هو استقبال اللاجئين فور وصولهم، ومنْحُهم الراحةَ والطعام الجيد بعد رحلتهم، وتجهيزهم بالأحذية والملابس قبل توزيعهم على أصفهان وكِرمان وأماكن أخرى في وسط البلاد. فضلًا عن التركمان، الذين عبَر ٢٥ ألفًا منهم الحدود في العام الماضي وحده، يفِر الناس من روسيا إلى بلاد فارس بمعدل ١٠٠٠ شخص سنويًّا. معظمهم ليسوا مناهضين للبلشفية، ولكنهم ببساطةٍ يهربون من المجاعة. إن صحَّت رواياتهم، عن أكوامِ صدفِ السلاحف الفارغ الذي يحيط بمنازل العمال في أماكن أخرى، وأن السلاحف هي طعامهم الأساسي، فلا عجب أن الأجانب يُثبَّطون على زيارة آسيا الوسطى الروسية.

لمعرفةِ ما إذا كان هذا التثبيط يرقى إلى مستوى الرفض، أقمت صداقةً مع القنصل الروسي، السيد داتييف. إنه ليس متقشفًا جدًّا مثل بعض الرفاق الروس؛ إذ يرتدي التويد ذا الألوان الصاخبة فيظهر غريبًا بينهم كأن منطقة بلومزبري تظهر في الريف، ويرتدي قبَّعة وليس قلنسوة. في المرة الأولى التي ذهبت فيها لرؤيته، أتحفني بكعكة الكرز، وفي المرة الثانية بشراب كريمة النعناع.

طهران، ٢٢ يناير: اشترى كريستوفر سيارةً، وكنا ننوي التوجُّه إلى أصفهان أمس. لكن الثلج يسدُّ الطريق. والحقيبة ومرسالها تائهان بين هنا وهمدان.

وزيادةً في الملل، أدَّى ممثِّلون مسرحية «عطيل» باللغة الأرمينية. لعب دور البطولة باباتزيان، وهو نجم من موسكو، حافظَ بالتأكيد على سمعة موسكو في التمثيل المحنَّك. أما البقية فكانوا من الهواة المحليين، ولعدم معرفتهم بأي نماذج أخرى لأزيائنا القديمة، فقد ارتدَوا ملابس تشبه ملابس الأوروبيين في اللوحات الجصية الجدارية في أصفهان.

عِلاوةً على ذلك، أقام الوزير الألماني بلوخر حفلًا في إحدى دُور السينما لمشاهدة الفيلم الدعائي النازي Deutschland Erwacht (ألمانيا تستيقظ). حيث كان هتلر وجوبلز وبقيتهم يَهدِرون. وقُدِّم الشاي والكعك في الاستراحة. حضر داتييف مرتديًا قبَّعته، وسفيره مرتديًا قلنسوته. شعرت بالأسف على بلوخر وبالامتنان لأنني لم أكن ألمانيًّا.

طهران، ٢٥ يناير: ما زلنا هنا. وما زال الثلج يسقط. وما زالت الحقيبة ومرسالها مفقودَين.

عندما دخلت إلى القرطاسية المحلية لشراء بعض أوراق الرسم، وجدت السفير البابوي عند طاولة الدفع، ولم أستطِع التفكير في أي شيء لأقوله خارج حبْل أفكاري.

قلت بالفرنسية: «صباح الخير يا حضرة الأسقف.»

«صباح الخير يا سيدي.»

ثم ساد صمت.

«هل أنت فنَّان يا حضرة الأسقف؟»

«ماذا؟»

«هل أنت رسَّام؟ هل تشتري أقلام التلوين، الألوان؟»

عصف الرعب بملامحه الورعة.

«بالتأكيد لا. إنني أشتري بطاقات دعوة.»

حضر شير أحمد وتومي جاكس، المدير المقيم لشركة النفط الأنجلو-فارسية لتناول العشاء في النادي. كان عشاءً جيدًا: كافيار، وشمندر، وحَساء البرش، وسلمون مشوي، وحَجَل محمَّص مع فطر، ورقائق بطاطس، وسلطة، وبودينج المارنج الساخن مع قطعة من الثلج في المنتصف، وشراب الكلاريت المتبل.

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء)**:** «أين مدام جاكس؟ (بصوتٍ خفيض) إنها سيدة جميلة.»

جاكس: «لم تستطِع المجيء.»

قال شير أحمد (صائحًا بصوتٍ عالٍ جدًّا)**:** «لماذا؟ (مقرقِرًا بغضب بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) أنا غاضب جدًّا، (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) غاضب جدًّا.»

بعد ذلك لعبنا البريدج، لكننا لم نتمكَّن من إنهاء مباراة واحدة؛ حيث كان شير أحمد يغادر الطاولة باستمرار ليشرح قصصه عن طريق التمثيل. استغرقت قصة العائلة

المالكة الأفغانية نصف ساعة، وتبيَّن منها أن سبب قرابة شير أحمد من كلٍّ مِن أمان الله والملك الحالي كان يرجع إلى أن مؤسِّس العائلة كان لديه ١٢٠ طفلًا. بعد توزيع الورق للمرة الثانية، انتقل إلى حكايةِ جولة أمان الله في أوروبا. وكانوا بصحبة العديد من النبلاء الإيطاليين في مقصورة بالأوبرا الرومانية.

«(بصوتٍ معتدل) جلست سيدة إيطالية بجانبي. كانت (بعينين متوقدتين وصوتٍ عالٍ جدًّا) سيدة كبيرة الحجم، أجل! ضخمة؟ لا، بل سمينة. (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) لقد كانت أكثر سمنة من سيدة مصر [زوجة الوزير المصري]، وكان صدرها (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) كبيرًا جدًّا. (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) كان متدليًا من المقصورة، هكذا. وكانت ترتدي فوقه كثيرًا من الألماس والذهب. (بهدوء شديد) لقد كنت مرتعبًا. فقد أدركتُ أنه إذا جاء في وجهي (بصوتٍ عالٍ) فسأختنق.»

انتقل المشهد إلى مأدبة رسمية في قصر بكنجهام.

«(بصوتٍ معتدل) تحدَّث معي أمير ويلز. (بهدوء) قلت له: «يا صاحب السمو الملكي (بصوتٍ عالٍ جدًّا) أنت أحمق! (صائحًا) أنت أحمق!» (بصوتٍ معتدل) فقال أمير ويلز: (بهدوء) «لماذا أنا أحمق؟» (بصوتٍ معتدل) قلت له: «لأنك يا سيدي تقفز الحواجز بالحصان. هذا خطير، (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) خطير. (بهدوء) لن يكون الإنجليز مسرورين إذا لقيت حتْفك يا صاحب السمو الملكي.» (بصوتٍ معتدل) سمعني الملك. فقال للملكة: «يا ماري، سعادته يصف ابننا بالأحمق.» كان غاضبًا جدًّا، (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) غاضبًا جدًّا. (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) سألتني الملكة عن سبب وصفي ابنَها بالأحمق. قلت لأنه يقفز الحواجز بالحصان. فقالت لي الملكة: (بصوتٍ خفيض) «يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة، أنت مُحِق، (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) أنت مُحق.» (بصوتٍ معتدل) شكرتني الملكة. وشكرني الملك.»

طهران، ٢٩ يناير: ما زلنا هنا.

استيقظنا صباح أمس في الساعة الثالثة، وكنا خارج المدينة بحلول الساعة السادسة، عازمين على بلوغ أصفهان في يوم واحد. بعد عشرة أميال، أصبح الطريق جليدًا طافيًا؛ إذ كانت كومة جليد قد ذابت وتجمَّدت مرة أخرى. زدت من سرعتي. سقطنا على مسافة عشرين ياردة، وكِدنا ننقلب، حتى توقفنا تمامًا توقُّفًا سيئًا. في هذه اللحظة أشرقت الشمس، وأضاء وميض من النار الأرض المنبسِطة الجليدية، فاكتست سلسلة جبال ألبرز البيضاء باللونين الأزرق والذهبي، وداعبت نفحة من الدفء الرياح المحمَّلة بالثلج. أبهجَنا جمال المشهد، فرجعنا إلى العاصمة.

وتجنبًا لرُهاب الأماكن المغلقة، قضينا اليوم في الجبال أعلى دربند؛ حيث يوجد قصر لمارجوريبانكس. تبادل كريستوفر أطرافَ الحديث مع أحد البستانيين الملكيين. يبدو أن مارجوريبانكس يحب الزهور.

طهران، ٦ فبراير: ما زلنا هنا.

رحل كريستوفر في الثالث من الشهر. أُصبت فجأةً بإعياء ليلة أمس، من نفس تلك العدوى الأفغانية، واضطررت للذهاب إلى دار التمريض بدلًا من الذهاب إلى أصفهان؛ حيث وضعوا لي الكمادات، واستخدموا معي المِشرط والحجامة، وطهَّروا جسدي ١٠٠ مرة في اليوم. دارُ التمريض إنجليزية، وهي مفخرة للمستعمرة، غير أن إدارتها تُشكِّل مصدر خلاف بين المفوَّضية وشركة النفط الأنجلو-فارسية قد يهدِّد بقاءها.

يقول الطبيب إنه يمكنني المغادرة بعد غد.

قُم (٣٢٠٠ قدم)، ٨ فبراير: غادرت دار التمريض.

وأوصلني السيد والسيدة هوفلاند. كان السيد هوفلاند قنصلًا في كرمانشاه، ونظرًا لأنه قد نُقل الآن إلى شيراز، فهما ينقلان محلَّ إقامتهما ومعهما سيارتان وكلب إسبانيل أسود. هطلت الأمطار لمدة عشرين ساعة قبل أن ننطلق، وقد مررنا بوقتٍ عصيب؛ فلو كنا أخذنا قاربًا لكان أسرع من السيارة في مثل هذا اليوم.

يتناغم الضريح هنا، مع أنه أُعيد بناؤه في أوائل القرن التاسع عشر، مع قبَّته الذهبية الطويلة وأربع مآذن زرقاء.

دليجان (٥٠٠٠ قدم)، ٩ فبراير: عَلِقنا مرةً أخرى.

كنا نتوقَّع الوصول إلى أصفهان في موعد تناول الشاي، ولكن أحد انحناءات الطريق كشف عن شاحنتين وسيارة فورد غارزة في سيلٍ بعرض خمسين ياردة. لم يكن ثَمَّة شيء نفعله سوى العودة إلى هذه القرية؛ حيث استأجرنا المنزل الرئيسي. بالمنزل بُرجا رياح يقودان إلى غرفٍ سريَّة يمكن فتحها في الصيف لتولِّد تيار الهواء الملائم، وغرفة كبيرة مزيَّنة بأنماطٍ من المرايا في الجص، ومعلَّق تحتها صور للسادة أعضاء مجلس الوزراء يرتدون سترات نورفولك التقطت في بومباي في الثمانينيات. وبينما كانت السيدة هوفلاند تقود كلبها الإسبانيل متخطيةً العتبة، اندفعت عجوز شمطاء حولاء العينين محتجَّةً، خوفًا من أن يدنس الحيوان النجس المكان الذي نام فيه يومًا أحد الرجال الأتقياء. أسكتها الإخوة الذين يملكون المنزل، وكانوا يريدون الأجرة التي دفعناها.

عصرًا، رسمت الفناء، حيث جذع شجرة مُقلَّم، وبِركة فارغة، وصفٌّ ملابس مغسولة يقطر بأكمله بمياه الأمطار؛ مما يعطي فكرةً جديدة عن الحديقة الفارسية. وفي نهايته يوجد منزل صيفي مقنطر، لكن ما إن وضعت القلم على الورقة لرسمه حتى انهار مُتكوِّمًا. منذ ذلك الحين، وقعت حوادث تحطُّم أخرى في أماكن أخرى بعيدة. كمادة بناء، طمي دليجان غير مناسب للطقس السيئ.

أجلس في غرفتي الصغيرة بجوار نار حطب متقدة، بينما يقرأ لي أغا محمود، أكبر الإخوة، عن الإمام الحسن من النصوص المقدَّسة الشيعية. يتوقَّف من آنٍ لآخر، ليهمس بأن المنزل منزله هو، وأن الأجرة يجب أن تُدفع له وحدَه.

دليجان، ١٠ فبراير: قُدنا السيارة إلى النهر. إن منسوبه أعلى من أي وقتٍ مضى. لكن الشمس قد أشرقت ولدينا أمل.

استمرت أصوات القصف الناتجة عن المباني المنهارة طوال الليل. لا يكاد يوجد سقف سليم في القرية بأكملها.

أصفهان (٥٢٠٠ قدم)، ١١ فبراير: وصلنا عصر هذا اليوم. كان من المفترض أن أكون هنا منذ ثلاثة أسابيع بالضبط لولا الطقس السيئ والمرض.

هطلت الأمطار ليلًا مرة أخرى في دليجان. ارتدينا ملابسنا ونحن فاقدون للأمل، وكنا نتناول فطورًا على مهلٍ حين جاءت الأخبار بأن النهر قد انحسر «ولكنه سرعان ما سيرتفع مجددًا». في غضون خمس دقائق كنا نقطع الطريقَ بسرعةٍ كما لو كنا نهرُب من الموت، ومعنا فلَّاح يحمل مجرفةً جالس على درجة الصعود لكل سيارة. عبَر هوفلاند السيلَ بحركة متعرِّجة سريعة، ووصل سالمًا إلى الجانب الآخر. عِلقتُ أنا والسيدة هوفلاند حتى دفعَنا عشرون رجلًا.

كان يوجد وقتٌ للتجوُّل بالسيارة في أنحاء أصفهان قبل حلول الظلام. بعدما مررت بقصر شيهل ستون (وتعني بالفارسية: الأربعين عمودًا)، الذي كان مألوفًا لي منذ وقت طويل من صوره التي تظهر فيها أشجار الصنوبر المنعكسة على البِركة وشرفته الضخمة، دخلت الميدان. تطوِّق أروقةٌ مقنطرةٌ ساترةٌ مطليةٌ بالكَلْس الأبيض، في صفَّين، مساحةً بطول ربع ميل وعرض ١٥٠ ياردة. في الطرف القريب، بجواري، تقف أطلال بوابة البازار؛ وفي الطرف البعيد، في مواجهتها، البوابة الزرقاء لمسجد الشاه بقبَّة وإيوان ومآذن متكتِّلة بانحرافٍ خلفه في اتجاه مكة، وأمام كلٍّ منهما موقعان رخاميان لتسديد الأهداف في لعبة البولو. يظهر على اليمين ذلك القَصر الذي يشبه صندوقَ أحذية من القِرْميد، قصر

عالي قابو، وفي مقابله قبَّة مسجد شيخ لطف الله على شكل صحن مزيَّن بالأزهار، والتي تميل من جوانبها فوق تجويفٍ أزرق. متناسقة، ولكن ليس بدرجةٍ كبيرة. جَمال المشهد يكمُن في التباين بين البراح التقليدي والتنوُّع الشاعري للمباني. لإفساد هذا التأثير، ولإظهار أن السادة البختياريين لم يَعُد مسموحًا لهم لعب البولو أو تدريب خيولهم هنا، شيَّدت النهضة سطحًا مائيًّا مزخرفًا في المنتصف. يحيط بهذا سياج حديدي قوطي وأحواض أزهار بتونيا مزروعة حديثًا.

يرجع تاريخ الميدان وآثاره للقرن السابع عشر. أما مسجد الجمعة، في قلب المدينة، فأقدمُ من ذلك؛ فقد بُني في القرن الحادي عشر. هنا، كما في المسجد نفسِه في هِرَات، تاريخ المدينة بأكمله متمثِّل في مبنًى واحد وترميماته؛ حيث يتراجع سحر اللون الصفوي، وكذلك التيموري، أمام عظمة وقاره. فجانب كبير منه غير متقن، وبعضه قبيح. ولكن القبَّة البيضاوية العظيمة المصنوعة من القِرْميد العادي، التي شيَّدها مَلِك شاه السلجوقي، لا تماثلها إلا قلةٌ قليلة في ذلك التعبير الخالص عن المضمون الذي يميز القباب الإسلامية.

كان الغسق يحلُّ عندما وصلتُ مَدرسة والدة الشاه، التي بناها السلطان حسين الصفوي عام ١٧١٠. عبر المدخل، قادت بِركة عميقة وضيقة إلى قوسٍ سوداء، وعكسَتها بلا تموُّج، مُشكِّلةً، إن جاز القول، ورقةَ لعب معمارية. كانت فروع أشجار الحور القديمة ذات السيقان البيضاء قد قُلِّمَت لتوها، وكانت الأغصان والفروع متناثرةً فوق الطريق الممهَّد. خرجت إلى شار باغ، جادة شاه عباس، وسرتُ بالسيارة تحت صفٍّ مزدوج من الأشجار إلى جسرِ علي وردي خان، الذي يحمل الطريق إلى شيراز، والمشهد الملكي، عبْر النهر إلى منحدرٍ بطول ميل. يطوِّق الجسر الطريق بجدرانٍ مقوَّسة، وخارجها يمتد رُواق مقنطر صغير للمسافرين سيرًا على الأقدام. كان المكان مزدحمًا بالناس، وكانت المدينة بأكملها تُهرع للانضمام إليهم؛ فلم يحدث من قبلُ فيضان كهذا تعيه الذاكرة. انبعثت الأضواء. وتحرَّكت نسمة خفيفة، وللمرة الأولى خلال أربعة أشهر أشعر بريحٍ لا برودة فيها. شممت رائحة الربيع، والعصارة المنبعثة من الأشجار. كانت هذه واحدة من تلك اللحظات النادرة التي يشعر فيها المرء بالسكينة المطلقة، حين يسترخي الجسد، ولا يطرح العقل أسئلة، ويصبح العالم مبهجًا، يصبح مِلكًا لي. كان الفِرار من طهران يعني لي الكثير.

أصفهان، ١٣ فبراير: يوجد كثيرٌ من الجهد التبشيري هنا، من النوع المفتول العضلات الذي يحذِّر من شرور التدخين أو شرب الخمر. رجال بنظارات ويرتدون معاطفَ التويد وسراويل من قماش الفانيلا يجوبون شار باغ، وبصحبتهم صبية صغار، وتظهر

عليهم السِّمة التي لا تُخطئها العين لمعلمي المدارس البريطانيين؛ فتبرز مؤخراتهم كما لو كان عمودهم الفقري من الاستقامة بدرجةٍ تمنعه من الانحناء. وخلفهم يتوارى أسقف أنجليكاني، أصبح مؤخرًا نصيرًا لحركةِ مجموعةِ أكسفورد. حركة بوتشمانية في أصفهان! هذا بمثابةِ انتقام وحشي للبهائيين في شيكاجو.

ثمَّة مؤيِّد أكثرُ إنسانيةً للأخلاقيات الإنجليزية، وهو رئيس الشمامسة جارلاند، الذي عاش هنا ثلاثين عامًا. خلال ذلك الوقت، حسبما اعتاد القول، كان لديه مهتدٍ واحد للمسيحية. كان ذلك المهتدي امرأة عجوزًا، نُبذَت بسبب رِدَّتها، حتى إنها وهي على فِراش الموت كان رئيس الشمامسة هو الصديق الوحيد الذي استطاعت أن ترسل في طلبه. قالت له إنها كان لديها طلب واحد فقط.

سأل رئيس الشمامسة، توَّاقًا إلى أن يُهوِّن اللحظات الأخيرة عن المرأة التي تحت عنايته: «ما هو؟»

«أرجوك أن تستدعي مُلَّا.»

فعل ذلك، وحكى القصة بعدها.

اكتملت سعادتي بالمشي تحت المطر بعد ظهيرة هذا اليوم بعناق من جثة. كانت مارَّةً على نقَّالة، وكان الطريق مُوحِلًا، فاصطدمت بها؛ فانفلتت اليدان والقدمان متشنِّجةً من تحت غطاءٍ ذي مربَّعات.

توجد كاتدرائية أمريكية في جلفا على الضفة الأخرى من النهر، وهي تشبه ضريحًا إسلاميًّا من القرن السابع عشر. الجدران بداخلها مغطَّاة برسوم زيتية على النمط الإيطالي لذلك العصر. وملحق بها متحف، لكن كنوزه ذات أهمية تاريخية وليست فنية.

آباده (٦١٠٠ قدم)، ١٤ فبراير: يمكن لبلاد فارس أن تكون مبهجة جدًّا عندما يطلِق الموظفون الرسميون العِنان لطبيعتهم الطيبة الطبيعية.

وصلت وآل هويلاند هنا مبكرًا؛ وعندما رأيت حصانًا جيدًا في الشارع، سألت رئيس الشرطة عما إذا كان من الممكن أن يجعلني أمتطيه ساعةً. على الفور جيء بفحلين يُرغِيان ويُزبِدان عند بوابة الاستراحة. فانطلقنا بالخيول عبْر الحقول بسرعة عالية، وولَّينا وجْهَينا صوب شمس الغروب، حتى إنني لم أستطِع رؤيةَ الحفر ولا الحواف والحصان يخطو عليها. كنا نسعى لإيجاد حديقة منعزِلة. لبضع دقائق جلس الشرطي حبيب الله صامتًا، مسحورًا بصوتِ أحد الجداول وتلألؤ مائه. قال برِقة: «يجب أن تأتي هنا في الصيف.» ثم تحدَّث بعد ذلك، كما لو كان خجِلًا من مشاعره، عن الصيد: صيد الغزلان والخِراف البرية.

ولأن الحصان البُني الذي امتطيته كان مِلْكه، فقد أعطيته عشر كرونات. في وقتٍ لاحق في المساء، أعاد لي المال بأمرٍ من رئيس الشرطة. وقال إنني إن كنت أريد أن أُسدي له معروفًا، يمكنني أن أوصي به عند رئيس الشرطة في شيراز.

آباده قريةٌ ثرية. الشارع الرئيسي مفروش بالحصى بعناية، وأهلها موسرون، ويصنعون أفضلَ الأحذية في بلاد فارس. الطقس شديد الجفاف. حتى الآن، حيث يغمر الماء كلَّ مكان آخر، ليس لديهم أي أمطار.

مذاق نبيذ جلفا الأحمر يشبه البورجندي الذي يُزرَع في اليونان. شرب كلٌّ منا زجاجة اليوم.

شيراز (٥٠٠٠ قدم)، ١٧ فبراير: إنه الجنوب، الجنوب المبارك! إنه يمنحني النشوةَ نفسَها التي شعرت بها في أول صباح لي على شواطئ البحر المتوسط. تشرق الشمس بلا غيوم. تتخطَّى القمم المستدقة السوداء لشجر السَّرو التلال التي تشبه في لونها قشورَ البيض والقمم الأرجوانية المغطاة بالثلوج للجبال البعيدة. ترتفع قباب فيروزية، شبيهة برءوس الكُرَّاث، على جذوع طويلة من بحر من الأسقف الطينية المسطحة. ويتدلى اليوسفي من الأشجار في حديقة الفندق. أكتب وأنا مستلقٍ على الفراش، والنافذة مفتوحة، ونسيم الربيع اللطيف يبعث فردوسًا في الحجيرة العِفنة التي أقضي فيها ليلتي الأخيرة.

توقَّفنا بضعَ دقائق في موقع برسبوليس الأثري على الطريق من آباده، وصعدنا دَرَج قاعة الرقص الكبيرة إلى المصطبة. لطالما انتابني الفضول حيالَ الحجر المستخدَم هناك. الأعمدة من رخام أبيض، أثَّرت فيه العوامل الجوية فجعلته كريميًّا وبُنيًّا وأسود، وله بريق وردي، ولكنه طبشوري أكثر، وأقل شفافية من رخام جبل بينديلي؛ حيث يفتقر إلى هذا التأثير المتص لأشعة الشمس الذي هو سر جمال البارثينون. النقوش البارزة محفورة في حجر رمادي باهت، معتِم تمامًا وذي ملمسٍ ناعم للغاية، حوَّله تعرُّضه للعوامل الجوية إلى لون أسود مبرقش.

لم يُتَح وقتٌ لرؤية بيت الدَّرج الجديد، ولكننا تركنا بطاقات لِهرتسفلد لتحضيره لزيارة طويلة.

شكَّل الوصول إلى القنصلية لحظةً حاسمة لآل هويلاند، الذين يتعيَّن عليهم أن يتخذوها بيتًا لهم طوال السنوات الثلاث القادمة. عندما جلسنا لتناول الشاي، دخل كريستوفر سعيدًا جدًّا باكتشافاته فيما يتعلق بخِسَّة فاسمس، ذلك العميل الغامض للقبائل الفارسية في الحرب، الذي كان سيشغل الآن منصبَ الكولونيل لورنس لو أن الألمان

كانوا قد انتصروا في الحرب. إننا ذاهبون إلى فيروز آباد معًا؛ حيث سينشغل بطوبوغرافية معركة بين الجنود البريطانيين والقبائل الساخطة، وسأنشغل أنا بقَصر أردشير.

لا تزال توجد آثار للاحتلال البريطاني هنا. فلا تزال سيارات الأجرة تحمل إعلانات لجِعة تينانت. وقدَّم لنا مدير الفندق رقائقَ البطاطس على العشاء. أوجدت الطبيعة، قبل الحرب، في المنطقة المحيطة جبلًا منفردًا، يكمل مشهد الشارع الرئيسي مع صورةٍ ذاتية، بوضعية منحوتات ليسيبوس، للورد بلفور مستلقيًا على ظهره. يُسمَّى هذا الآن كوهى برفي، وتعني جبل الثلج. ربما كان سيبدو اسمًا منطقيًّا لو كان يوجد عليه ثلج في أي وقت من الأوقات. ولكن لا يوجد. اسمه الحقيقي هو كوهي بلفور، و«برفي» هو تحريف فارسي للاسم.

عندما ذهبت للبعثة الإنجليزية لأخذ حقنة، عرضت عليَّ الدكتورة ميس، وهي طبيبة سيدة، سيجارةً، وأخذت واحدة لنفسها. إنه الجنوب مرة أخرى!

آثارُ شيراز مشوقةٌ أكثرَ من كونها مهمة؛ رغم أنه يبدو أن واجهة فناء مسجد الجمعة، الخرِبة في حد ذاتها، تغطي بناءً بالغَ القِدَم. يقف ما يشبه خيمة حجرية في منتصف الفناء، محاط بأربعة أعمدة دائرية سميكة مبنية من حجارة منحوتة. الأجزاء العلوية من هذه الأعمدة، التي لا تدعم شيئًا الآن، مُطوَّقة بنصوص محفورة في الصخر ولكنها محاطة بخلفية زرقاء. هذا هو المثال الوحيد الذي رأيت فيه استخدام الحجر والخزف معًا. إنه ليس مزيجًا موفقًا، كما يمكن للمرء أن يستنتج من نسخ «سار» لنقوش الآيات القرآنية.

فِناء المدرسة خَرِب أيضًا، وهي حالة تسهم في تحسين مظهر بلاطاته ذات الأزهار الوردية والصفراء التي تعود إلى القرن الثامن عشر. الزينة الرئيسية في المكان هي شجرة تين مورِقة بجوار بِركة ثُمانية الأضلاع. تؤدي إليها رَدهة ثُمانية جميلة مغطَّاة بقبَّة على شكل صحن على حنايا مقرنصات مسطَّحة على شكل أجنحة الخفاش. وهي مزيَّنة بفسيفساء غنية بالألوان الباردة تعود إلى القرن السابع عشر.

خارج البلدة يوجد مبنًى مربَّع مرتفع، كان ذا قبَّة يومًا ما، ويُعرف بالخاتون، ويُقال إنه ضريح ابنة أحد ملوك آل مظفر، مع أنه يبدو أحدثَ من ذلك. الواجهة منهارة، لكنَّ الجانبَين والخلفية، المبنية بقِرْميد عادي، محفوظة بصفوف مزدوجة من ألواح مقوسة، لكلٍّ منها ركنيات فسيفسائية. والقِرْميد بلون برتقالي وردي كالتلال.

خلف هذا، تقبع حديقتا حافظ وسعدي، اللتان تضم كلٌّ منهما مقبرةَ الشاعر، وحدائق كثيرة أخرى مبهجة بنفس القَدْر بما تحوي من أشجار السَّرو والصَّنوبر والبرتقال، التي

يرفرف عليها الحمام الأبيض وتُغرد عصافير الدوري. وعلى الأرض الجرداء بالخارج، كانت جلود الحُمْلان تُجفَّف أو تُجمَع في حُزَم؛ حيث يأتي موسم ولادة الحُمْلان مبكرًا جدًّا في الجنوب.

ذهبت هذا المساء لمقابلة بيرجنير، وهو عضو في فريق هِرتسفلد، ولأستشيره حول التقاط صور فوتوغرافية في برسبوليس. عملًا بنصيحته، كتبت خطابًا لهِرتسفلد أطلب منه الإذن رسميًّا، ولكن مع الحرص على إنكار أي رغبة في سرقة اكتشافاته الجديدة. كان بيرجنير يقيم بالقرب من البوابة المكتوب عليها «الله أكبر»، وإذ كان أمس هو يوم الجمعة، كان جميع أهل شيراز يسلكون هذا الطريق، بعضهم يتمشون لرؤية أصدقائهم والمدينة أدناهم، وبعضهم عائدون من نزهاتهم، وكثيرون منهم على ظهور الخيول. الخيل هنا متعةٌ لا حدود لها؛ وذلك لأنها في الأغلب من دماء عربية، مع أن عظامها ليست قوية كالخيول العربية الصحراوية، وتنجو من ذلك المظهر الهجين الهزيل الذي يأتي من التزاوج مع سلالات التركمان في الشمال. وهي مجهَّزة جيدًا، عادةً بسرج من القماش موقَّع عليه بالأحرف الأولى. وحتى الحمير مجهَّزة بتأنُّق؛ فالحيوانات البيضاء الكبيرة محمَّلة بالوسائد والشراشيب والحبال، بحيث يعدو الخيَّالون والحمَّارون جنبًا إلى جنب على قدمِ المساواة في القافلة البهيجة. الحمير لمن هم في منتصف العمر، والخيول الأصغر للصبية الأصغر الذين يمتطونها بثباتٍ عجيب. يستعيد الفُرس هيبتهم على ظهور الخيل؛ فلا يمكن حتى للقبعة البهلوية أن تفسد ذلك عليهم. يجلسون جيدًا على السَّرج ويبقون عليه، كما لو كانوا قد نمَوا على ظهر حصان. ومع ذلك، حسب كلام كريستوفر الذي لعِب البولو معهم عندما كان ملحقًا دبلوماسيًّا، فليس لديهم مقابض في اللجام، ويمتطون الخيل معتمدين اعتمادًا كاملًا على التوازن.

النبيذ هبةٌ أخرى من هِبات جنوب بلاد فارس. وقد ذاعت شهرته، ويتجادل علماء الاشتقاق اللغوي حول ما إذا كان اسم شراب الشيري مشتقًّا من كلمة «خيريز» الإسبانية أم شيراز الفارسية. اكتشفنا هنا حتى الآن ثلاثة أنواع: نبيذ ذهبي جاف جدًّا، وهو ما أفضِّله على أي شراب شيري آخر، مع أن مذاقه ليس شهيرًا جدًّا؛ وكلاريت أحمر جاف، وهو عادي في البداية ولكنه مقبول مع الوجبات؛ ونبيذ وردي أكثر حلاوة، يبعث إحساسًا لذيذًا بالرفاهية. إن كان لكروم العنب أسماء، وإن امتلك المنتجون سدادات من الفلين، مما يتيح التمييز بين أنواع النبيذ المختلفة وتخزينها، ربما تنتج شيراز خمورًا حقيقية. لكن الفرس، المنفتحين بقدرِ انفتاح وجهات نظرهم في الدين، يشربون في الأساس من أجلِ ما

في شرب الخمر من إثم ولا يعبئون كثيرًا بطعمها. بينما إن أدخل الأجانب هذه التحسينات، فسيحاولون لا محالةَ محاكاةَ علاماتهم التجارية، كما فعل الألمان في تبريز. نبيذ هوك من الدرجة الثانية صالح للشرب، ولكنه ليس لذيذًا؛ فأنا أفضِّل نبيذًا أسوأ له مذاقه الخاص. وريثما يتحقَّق ذلك، يخطِّط السيد والسيدة هوفلاند، اللذان عاشا كثيرًا في منطقة البحر الأبيض المتوسط، لبحثٍ منهجي عن كروم العنب في الخريف القادم.

شيراز، ١٨ فبراير: تَبخَّر سحر شيراز.

ذهبت أنا وكريستوفر إلى رئيس الشرطة لاستكمال الرسميات العادية، ولطلب الإذن بالذهاب إلى فيروز آباد، وهو الأمر غير المضمون غالبًا بسبب تمرُّد القشقاي؛ وفي الواقع يبدو أن هِرتسفلد وأوريل شتاين هما الشخصان الوحيدان اللذان شاهدا الآثار هناك منذ ديولافوي في الثمانينيات.

قال رئيس الشرطة محملقًا فيَّ: «أنت، يمكنك الذهاب. ولكن يجب أن تذهب وحدَك.»

«لا أفهم. أتعني أنني يمكنني الذهاب وأن سايكس لا يمكنه؟»

«بالضبط.»

كان هذا مخزيًا بما يكفي. ولكن تَبِعه ما هو أسوأ. عندما سعينا للخروج بالسيارة من المدينة لاستنشاق هواء الجبال، أوقفت الشرطة السيارةَ عند بوابة «الله أكبر»، ولم تسمح لنا بالتقدُّم إلا سيرًا على الأقدام.

زُرت الحاكم لاحقًا، وكان رجلًا واسع الاهتمامات؛ حيث قال إن الترجمة فن، كما تعلَّم من ترجمة نصوص أفلاطون وأوسكار وايلد إلى الفارسية. عندما أخبرته بما واجهناه من الشرطة، اتصل هاتفيًّا برئيس الشرطة، الذي قال إنه لم يكن ثمَّة خطأ.

عندما سمِع كريستوفر هذا، ذهب مجددًا لمركز الشرطة وطلب تفسيرًا للأمر. وعندما حوصر رئيس الشرطة، كشف عن تلقيه أوامرَ من طهران لمنع كريستوفر من مغادرة المدينة. لم يكن يستطيع الذَّهاب إلى فيروز آباد؛ ولا متابعة طريقه إلى بوشهر؛ ولا الخروج إلى الصيد؛ ولا حتى التنزه في الريف مستقبلًا.

من بين جميع الأجانب الذين قابلتهم في هذا البلد، والدبلوماسيين، ورجال الأعمال، وعلماء الآثار من العديد من الجنسيات ومختلِف شروط الإقامة، فإن كريستوفر هو الوحيد الذي يحب أهل هذا البلد، ويتعاطف مع متاعبهم القومية المتزايدة، ويدعم باستمرارٍ فضائلهم، لدرجةٍ غير معقولة في بعض الأحيان. كان ينبغي للسلطات الفارسية، في نوبة رُهاب الأجانب الراهنة التي أصابتهم، أن تجعلهم آخرَ مَن تختصهم بالمضايقة وليس

أولهم. إن مارجوريبانكس العجوز المسكين شديدُ الحساسية تجاه تعليقات الأوروبيين القائلة بأن الانتقام سهل. ولكن الرضا الذي يجلبه دفعُ شخصٍ خرِفٍ مصابٍ بجنون العظمة إلى نوبةِ غضب، ليس تعويضًا كافيًا عن تدمير متعة المرء الحالية في هذا البلد.

كوار (٥٢٠٠ قدم تقريبًا)، ٢٠ فبراير: الانطلاق في رحلة في بلاد فارس يشبه معادلةً جبرية؛ فقد يُوجد لها ناتج أو لا يوجد. كرَّست لها يوم أمس بأكمله، وانطلقنا في السادسة من صباح ذلك اليوم، ولكنني قضيت ما تبقَّى من اليوم هنا في انتظار الخيَّالة والخيول.

يوجد نوعان من الشرطة: «النظمية»، التي تتحكم في المدن، و«الأمنية»، التي تتحكم في الطرق والمناطق الريفية حسبما ينص القانون. عملًا بنصيحة رئيس الشرطة النظمية، ذهبت لرئيس الشرطة الأمنية؛ حيث يجب أن يكون رجاله مسئولين عن رحلتي إلى فيروز آباد. كان رجلًا بدينًا وظريفًا، وكان توَّاقًا لمساعدتي.

كان الحاكم قد اتصل به هاتفيًّا بالفعل موضحًا غرضي وهُويتي. ومن ثَم كان أول ما فعله هو أن هاتَف الحكام مستعلمًا عن غرضي وهُويتي. بعدما تلقى إجابة مُرضية، ذكَّر نفسه، وأيَّده الحاكم، أن الأمر سيكون أسهل إذا عرض الحاكم غرضي وهويتي في خطاب.

قبل أن أذهب لإحضار الخطاب، سألته عما إذا كان ينبغي أن يكون لديَّ مرافق؛ حيث كانت ثَمة شائعات بوجود لصوص على الطريق. أجاب بأنه لا لزوم لذلك. أسرعت بسيارة أجرة إلى الفُلك، وردَدتُ عبارات المجاملة، وامتدحت شجرة البرتقال التي يملكها الحاكم، وسألت عما إذا كان الخطاب جاهزًا.

قال بشكل جِدِّي: «ألا ترى أنه ينبغي أن يكون معك مرافق في الرحلة؟»

«في الواقع، لا بد أن تنصحني يا صاحب السعادة في ذلك الشأن. فقد قال رئيس الشرطة الأمنية إنه لا لزوم لذلك.»

«سأهاتفه ...»

أجاب رئيس الشرطة الأمنية عبر الهاتف قائلًا: «بالتأكيد، بالتأكيد يجب أن يحصل على مرافِق. لا يمكنه الذهاب من غيره.» لكن كانت ثَمة صعوبةٌ ما. كان وزير المالية في البلاد قد بدأ لتوِّه جولة لتقييم الأراضي (لإدراج أملاك قوام المُلك، وأشياء أخرى)، وأخذ معه ١٠٠ حارس من الفرسان؛ ومن ثَم لم تتبقَّ أي خيول، وكان على أي مرافق لي أن يأتي سيرًا على الأقدام.

قلت: «في تلك الحالة، دعوني أستأجر لهم خيلًا.»

ارتأى الحاكم ورئيس الشرطة الأمنية أن هذا حلٌّ ممتاز.

في الوقت نفسه، كان السكرتير في الغرفة المجاورة يكتب خطاب الحاكم لرئيس الشرطة الأمنية. عندما اعتمده الحاكم، أُعِدَّت منه نسخة نهائية. فوقَّعها وختمها وسلَّمها لي. هُرعت إلى سيارة الأجرة، ورجعت إلى مقر الشرطة الأمنية بعد أقل من ساعتين من مغادرتي له.

سأل رئيس الشرطة الأمنية بلا مبالاة: «هل تظن أنك، ربما، ينبغي أن يكون معك مرافق يصحبك إلى فيروز آباد؟»

«في الواقع، لا بد أن تنصحني في ذلك الشأن يا صاحب الفخامة.»

«من رأيي أنه ينبغي لك الحصول على مرافق. هل سيكون رجل واحد كافيًا؟»

«بالتأكيد. فأنا لست مليونيرًا كي أستأجر خيلًا لفرقة من الجنود.»

«بالطبع لا، ومَن كذلك؟ أتصوَّر أن خمسة رجال سيوفون بالغرض. بطبيعة الحال، سيكونون جميعًا ممتطين لخيلٍ حكومية؛ فلدينا وفرةٌ منها يمكننا الاستغناء عنها. وقد يُسهِّل الأمور أن تأخذ ضابطًا معك في السيارة حتى كوار. سيُرتب لك الحصول على خيلك الخاص هناك. سآمره بالذهاب إليك في الفندق في الساعة الخامسة لترتيب الأمور.»

«فخامتك لطيف للغاية. أيمكنه المجيء في الساعة الثامنة بدلًا من الخامسة؛ لأنني سأكون في الخارج لتناول الشاي؟»

«كما ترغب تمامًا. سأخبره أن يأتي في السابعة.»

غادرنا في سيارة فورد، وكان الجمع يتكوَّن من خادمي الجديد علي أصغر والسلطان، والتي تعني القائد والسائق ومساعده وأنا، بالإضافة إلى الأمتعة والطعام والنبيذ. أسافر لمرة في حياتي كأمير توفيرًا للوقت؛ فمن دون خادم يستغرق المرء نصف اليوم يوميًّا في تعبئة وتفريغ الأمتعة.

عندما اقتربنا من الأراضي القبَلية، توقَّف السلطان لتفحُّص معاقل الشرطة الأمنية، وهي أماكن فارغة مبنية ببراعة تتخلل حواجزها منافذ. كان من الشائق رؤية آليات إخضاع القبائل ومشاهدة الشرطة الأمنية أثناء عملها. إنها هيئة جيدة التنظيم، وتُعد أفضل ابتكارات مارجوريبانكس.

انتهتِ المعاقل ومضمار السيارات عند كوار، وهي قرية مملوكة لحاجي عبد الكريم شيرازي، الذي بنى لنفسه منزلًا جديدًا للتو. يُشعرني هذا براحة على غير عادة، مع أنَّ الطمي على الجُدران لا يزال رطبًا. يُبقي مجرًى مائيٌّ البِركةَ في الفِناء صافية؛ حيث ينبثق من مِرزاب حجري.

خارج القرية، لديه حديقةٌ قديمة تبلغ مساحتها حوالي اثني عشر هكتارًا. أدخلني البستاني عبْر طاقةٍ في جدار مسقوف، وقضيت فترةَ ما بعد الظهيرة متجولًا في المسارات العشبية المستقيمة التي تُقسِّم الحدائق الفارسية إلى مربَّعات ومستطيلات. كل مسار عبارة عن جادة من أشجار الحَور أو الدُّلْب يرافقها سواقي ري، ويحتوي كل مربع بالداخل على أشجار فاكهة أو أرض محروثة فارغة. تبدو كلمة مربعات تقليدية، لكن في الحقيقة، كلمة مزرعة أو بَرِّية هي الكلمة الملائمة لوصف حديقة فارسية. تلاقى الشتاء والربيع عصر اليوم. حملت رياح دافئة قوية معها صوت تلاطم وهسهسةَ أوراق الدُّلْب الذابلة؛ مع أن تلك الأوراق زيَّنت الانحناءات الخضراء للسراخس الصغيرة. هنا وهناك، أزهرت أوراق الورد مبكرًا جدًّا، وكساها الصقيع. حملت فروع شجر التفاح الفارغة تشابكًا من الدبق الميت؛ وكان دبق مماثل آخر، في فرع كستناء ضخم منذ بضع مئات السنوات، عشًّا لـ «بالامدار»، بحسب البستاني؛ تُرى هل كان يعني عقعقًا أم سنجابًا. فقبَّته كانت تشبه قبَّة عشِّ أحدهما أو الآخر. خرجت أولى الفراشات: بلون أبيض مغبر، من نوع لم أكن أعرفه، وقد فقست حديثًا، وتطير متحيرة نوعًا ما كما لو كان العالم لا يزال بُنيًّا حتى إنها يصعب عليها رؤيته؛ وفراشة ملونة استيقظتْ حديثًا، وتعاين الحديقة التي عرفتها في سبتمبر بانقضاضات مألوفة من نقطة لأخرى. كانت بعض الأزهار في انتظارها. كانت شجرة خوخ (أو برقوق) تُزهِر، وحبست أنفاسي انبهارًا ببراعمها الحمراء؛ حيث أبرزت السماء الزرقاء المتلألئة البتلات البيضاء الشفافة والقصبات السوداء. من فوق الجدار، أطلَّت الجبال اللانهائية، بالألوان البنفسجي والبني المصفر، جدباء ومميتة. اجتذبني نعيق الحملان والأطفال إلى البوابة مرة أخرى. كانت فتاة صغيرة ترعاها بجوار مقبرة القرية؛ حيث كانت تقف ثلاث صنوبريات نائحة عملاقة من فصيلة السرو. قال السلطان: «تلك تُسمى «كَرج»، ولكن لمَ تقول إنها كبيرة؟ أنت لم ترَ تلك التي في بروجرد في لُرِستان.» طارت بومة رمادية من الشجرة الأولى، من فتحة كانت تتفحصها. في بِركة مستنقعية منقَّطة برءوس مدبَّبة صفراء من الزنابق المائية، كان دجاج الماء يُعشش بالفعل.

أستلقي في السرير بجوار زجاجة من نبيذ الروزيه. وعلي أصغر، الذي كان طباخًا لفوج بريطاني في الحرب، «يخبز» حَجَلًا في إناء. تجمَّع الخيَّالة وجُهِّزت الخيول. يقولون إنها رحلة تستغرق يومين على ظهور الخيول إلى فيروز آباد، ولكني آمُل أن ننجزها في يوم واحد.

فيروز آباد (٤٤٠٠ قدم)، ٢٢ فبراير: وصلتُ إليها بجهدٍ جهيد في يوم واحد بالفعل؛ مع أنَّ الأمر كان صعبًا على بقية الجمع. قدَّرت الآراء في كوار المسافة بتسعة فراسخ؛

ستة وثلاثين ميلًا. ظللت ممتطيًا حصاني إحدى عشرة ساعة، باستثناء توقُّف لساعة واحدة لتناول الغداء، وإذ تساوى تقريبًا السير الجيد والسيئ، لم يكن يمكن أن تكون سرعتي أقل من أربعة أميال في الساعة. لا بد أن المسافة كانت أكثر من أربعين ميلًا.

بعد الحوادث المعتادة، من انقطاع حزام السَّرج، أو إسقاط حصان للأمتعة على الأرض أثناء قفزه، غادرنا في الساعة السابعة. عبَر الطريقَ قطيعٌ من الخنازير في طابور حسب أحجامها. كانت الأرض صلبة للغاية حتى إنها لم تمكِّنَّا من الانعطاف وتجاوزها، مع أن أحدَ المرافقين حاول ذلك؛ لكن العدْو السريع بالخيل في الطريق أدَّى بنا إلى أنْ نجاريها، وصاح الرجل: «أتريدون واحدًا؟» إن حقيقة أنني لم أكن أريد واحدًا، إضافة إلى رادع ضعيف زرعته قوانين الصيد الإنجليزية، جعلتني أتردَّد. انحرفَت بعيدًا، وخسرت فرصتي في رؤيةِ فارسيٍّ يطلق النار من فوق سَرج حصان وهو يركض بحصانه بأقصى سرعة.

كان سفح الجبل مكسوًّا بالشجيرات وأشجار الفاكهة البرية ذات الزهور الوردية. كان يقبع أسفل مني ذئبٌ ميت. بعد تسلُّق صعب، انتهى بانزلاق من فوق صخرٍ طيني، وهو ما كان صعبًا على الخيل، وصلنا إلى قمَّة ممر موك؛ ومن ثَم تَبعنا مجرًى مائيًّا كانت ضِفافه مرقَّطة بسنابل العنب ذي اللون الأزرق الداكن. أوصلنا هذا إلى خانق زنجيران، وهو معبر ضيِّق بين جرفين متدليين ومكان يُشتهر باللصوص. اختفى الطريق. ولم يَعُد هناك مكان إلا للمجرى المائي، الذي كان مسدودًا حتى عمقٍ غيرِ معتاد بخليط من الصخور، وجذوع الأشجار، والعليقات؛ ومن ثَم بالكاد استطاعت الخيول أن تشقَّ طريقًا. بمجرَّد خروج المياه من الخانق، جُمِّعت في قنوات ري تُفرِّع هذا الطريق وذاك بمستويات مختلفة.

اعترضتنا أرضٌ منبسطة ساخنة مغطَّاة بشجيرات صغيرة، تفصلها عن أرضٍ أخرى مماثلة لها درجةُ ارتفاعها ١٠٠ قدم، ورأينا من حافتها قرًى على مسافة بعيدة. كان جرفٌ أسود في الجبال المقابلة هو وجهتنا: التنجآب أو ممر المياه. جلست في إسماعيل آباد تحت شجرة على رقعة من الحشائش الخضراء النَّضرة المتناثر عليها عظام ثور، وأكلت سلطانيةً من خُثارة اللبن.

كان مكانًا متداعيًا، وكانت فرائص الزعيم ترتعد؛ لأن الشرطة نادرًا ما تُرى في هذه الأنحاء. قال بطريقة تبريرية: «كان ينبغي أن تذهب هناك إلى إبراهيم آباد.» عندما طلبت منه إحضار حصاني، أساء الفهم، وظن أنني أريد حصانًا جديدًا، وأحضره لي. كانت هذه رفاهية كبيرة يصعُب التخلي عنها. أعطيته خمس كرونات، أبى بنفور أن يقبلها، حتى استخدمت الطريقة التي لا تخيب، وهي أن قلت: «لأجل أطفالك.»

طبقات حيود ممر المياه قُطرية، كما لو أن فأسًا قد شقَّت الجبل وسينطبق على نفسه مرة أخرى إذا دُفِع؛ لم يسبق لي أن رأيت شيئًا كهذا، أو مثل الخانق الذي تبِعه، منذ ما رأيت تلك الخوانق في أجيا روميلي على شاطئ كريت الجنوبي. عندما اقتربنا منه، انعطف فجأةً نهر، كان قد وصل لقاعدة التلال من الشرق، بزاويةٍ قائمة إلى المعبر، وبدا أنه يتدفَّق سريعًا لأعلى، وهو خداع بصري استمر طَوال الأميال الأربعة للخانق. يقع عرضُ هذا التكوين الاستثنائي ما بين نصف ميل و١٠٠ ياردة؛ ويبلغ ارتفاع جروفه من ٥٠٠ إلى ٨٠٠ قدم. يقطع المسارُ النهر ويعاود قَطْعه في مساره الأفعواني. في المنتصف تقريبًا، رأيت أولى علامات للعصور القديمة: قلعة ساسانية جاثمة على نتوء الجُرف الشرقي، ومتصلة بحصنٍ أصغرَ بجدار طويل. يُعرف هذان المبنيان بقلعةِ دختر وقلعة الباشا. كلمة «قلعة» بالفارسية تعني «حصنًا»، و«دختر» بالفارسية تعني «بنت»، فهي تقابل كلمة «ابنة» في لغتنا. ولكني كنت قد نسيت هذا في تلك اللحظة، وعندما سألت علي أصغر عن معناها، أجاب فجأةً بالإنجليزية قائلًا: «دختر أيها السيد؟ دختر هي الآنسة الصغيرة.»

قادت طبقاتٌ أرضية مذهلة إلى هذا الجُرف الشرقي، المكوَّن من كتل مستطيلة ضخمة بطول ثلاثين قدمًا وعرض عشرين؛ وظننت في البداية أنها طرق اصطناعية، كالتي بناها الإنكا لمدينة كوسكو. بحلول هذا الوقت، كان الضوء يخبو. وكان علي أصغر والأمتعة متأخرين بأميال. كان معه ثلاثة من المرافقين، ولكنَّ الاثنين اللذين كانا معي تزايد توترهم.

سألت: «ما الأمر؟»

«اللصوص.»

«ولكن العظيم رضا شاهنشاه قضى على جميع اللصوص في بلاد فارس.»

«آه، هل فعل؟ لقد أطلقوا النار الشهر الماضي على أربعة خيول كانت معي، وأصابوني في رأسي. سيقتلونك يا صاحب السعادة من أجل كراون واحد.»

خرجنا أخيرًا عبْر البوابة الجنوبية على الضفة الشرقية للنهر. كان لا يزال يوجد ما يكفي من الضوء لتمييز، من على بُعد نصف ميل على الجانب الآخر، الخيال المقنطر لقصر أردشير الكبير، الذي كان رجالي يطلقون عليه اسم «آتش خانة» أو بيت النار. ولاحقًا، وسط الحقول المفتوحة، كان يوجد ما يكفي من ضوء النجوم لرسم صورةٍ ظلية لمئذنة ذات سُمك هائل. لم يكن لدى الرجال أدنى فكرة عن مكان البلدة، لكن قرية، أرادوا التوقُّف فيها، هدَتهم إلى التخلُّص منا. في غضون نصف ساعة وجدنا أنفسنا وسط شوارع صامتة وجدران يغمرها ضوء القمر. أرشدنا شبح رجلٍ مارٍّ إلى منزل الحاكم.

صعدت إلى الطابق العلوي.

لم يكن يوجد أثاث في الغرفة. في وسط الأرضية، كان يوجد مصباح نحاسي طويل، يلقي بوهجٍ أبيضَ بارد على السجاد الأحمر والجدران البيضاء العارية. كان يقف وسط وعاءين من البيوتر، أحدهما مملوء بأفرع لأزهار فاكهة وردية، والآخر بباقة من أزهار النرجس الصفراء ملفوفة حول باقة من أزهار البنفسج. بجوار أزهار النرجس، كان يجلس الحاكم واضعًا رجلًا على الأخرى، ويداه مطويتان في كُمَّيه؛ وبجوار الأزهار الوردية كان يجلس ابنه الصغير، الذي مثَّل وجهه البيضوي وعيناه السوداوان ورموشه المقوَّسة الجمالَ النموذجي للمنمنمات الفارسية. لم يكونا منشغلين بأي شيء، لا كتاب ولا قلم ولا طعام ولا شراب. كان الأب والابن غارقَين في مشاهد الربيع ورائحته.

كان اقتحام رجل همجي غير حليق يعلوه الغبار مترنحًا من التعب امتحانًا لأخلاقهما نجحا في اجتيازه، ليس دون ذهول، ولكن أيضًا بنشاط ومودة، لا بد أنهما عكَّرا حالة تأملهما الشاعري. بينما كنت أنخفض إلى الأرض، مُصرصرًا ومتمددًا ككلب في بيت صغير، وممتعًا أنفي بأزهار النرجس، أُشعلَت النار، وأعيد تسخين وعاء السماور، وسُكب النبيذ الأحمر الثقيل؛ وقطع الحاكم اللحم بيديه ووضعه في أسياخ لكي يصنع لي كبابًا، وشواه فوق جمر من الفحم؛ ثم أخذ يُقطِّع اليوسفي ويضع عليه السكر ليُعِدَّ لي الحلوى. وفي النهاية، بلغ به الكرم أن عرض عليَّ سريره. أوضحت له أن سريري كان في الطريق، وطلبت الحصول على الغرفة السفلية لأضعه فيها.

لا توجد شرطة في بلدة السوق القَبَلية الصغيرة هذه، لا شرطة أمنية ولا نظمية؛ ويعتمد أمن الحاكم على بضعة جنود. يلبَس الناس ما يشاءون؛ حيث يرتدي الرجال عباءات مخطَّطة، وأوشحة فضفاضة يغرزون فيها الأسلحة، وقبَّعات سوداء على شكل الكعكة بلا حواف. القبعة البهلوية هي استثناء نادر. هذه أخيرًا هي بلاد فارس الأخرى، التي عشقها العديد من الرحالة، وإذ وجدتها كنت سأبقى فيها عن طيب خاطر البقاء لأسبوع إن استطعت. ولكن إذا أردت أنا وكريستوفر أن نصل إلى أفغانستان في الوقت المناسب لاتقاء «مصاعب الربيع» المتوقعة جدًّا، فإن علينا مغادرة طهران يوم ١٥ أبريل، ولا يمكنني التسكع. لا يعني ذلك أنه توجد حقًّا احتمالية كبيرة لقلاقل. ولكن مجرد وجود شائعة عنها كافٍ في حدِّ ذاته لغلق البلاد أمام الأجانب لشهر أو شهرين.

وهكذا، بحيوية مغايرة تمامًا لميولي، انطلقت لرؤية الآثار هذا الصباح. عرض عليَّ الحاكم حصانًا لعلمه أن حصاني لا بد أن يكون متعبًا. شكرته موضحًا أن مجرد الإتيان

على ذكر السَّرج جعلني أئن، وبدأت في السير. تقع فيروز آباد في الواقع جنوبًا بعد بوشهر. كان الطقس شديد الحرارة. ورأيت من خارج البلدة النخيل يتمايل فوق الأسطح المستوية. كنت قد اجتزت مسافة الميلين ونصف الميل إلى غور، وهي المدينة التي أسَّسها أردشير حوالي عام ٢٢٠، وكنت أتندَّم على رفضي للمَطيَّة، عندما جعلتني جلبة خيول تلاحقنا أُدير رأسي. أولًا جاء الحاكم على فحلٍ بُنيٍّ يقف على قائمتيه الخلفيتين، وتبِعه ابنه على حصان رمادي يتواثب، ثم رئيس البلدية وبعض السادة الآخرين، ومن بعدهم حشدٌ من الجنود المسلحين، أحدهم يمتطي حصانًا أغبرَ كستنائيًّا. وفي وسط الرَّكب، تبختر حمارٌ أبيض ضخم يحمل جبلًا من السجاد بلا راكب. قال الحاكم: «هذا لك. ضيوفنا لا يمشون.»

اتضح أن «المئذنة» التي رأيتها ليلة أمس عبارة عن عمود مربَّع مُصمَت، بارتفاع ثمانين إلى مائة قدم وعرض عشرين قدمًا، مبني بعمارة ساسانية فجَّة، وليس له مدخل أو أثر يدل عليه. دلَّت الجوانب على أنه كان يوجد مُدرَّج مائل صاعد لأعلى، لا بد أنه كان يشغل العمود في هيئة مصعد حلزوني رباعي الجوانب. أذكر أن هِرتسفلد في كتابه Reisebericht (يوميات رحالة) يُلمِح إلى أن المدرَّج المائل كان مغلقًا بدوره؛ ومن ثَم شكَّلت الوحدة ككلٍّ برجًا له مُرتقًى داخلي لم يتبقَّ منه سوى محوره. وتعتقد ديولافوي، الأروع في وصفها، أن العمود كان مذبح نار، وتصوِّر الكهنة يملئون مدرَّجه المائل على مرأًى من الجماهير بالأسفل، كما لو أنه هرم تيوكالي من حضارة الآزتِك. ولكنَّ أيًّا من النظريتين لا تفسِّر الغرض من بنائه، عدا أن شخصًا مصابًا بجنون العظمة قد تعهَّد بتشييد ٤٠ ألف قدم مكعَّب من الحجارة المُصمَتة بهذا الشكل. فحتى الأهرامات كانت مجوفة قليلًا.

ليس للبرج اسم، ولكن يُقال إنه يحدِّد موقعَ حجرٍ سقط من السماء. فيما حوله من جميع الجوانب، في دائرةٍ نصف قُطرها نصف ميل، تُظهِر الأرض الخطوط العريضة لعاصمة أردشير. يبدو أن العديد من الأركان، أو الجدران التي كانت قائمة عليها، كانت تحت الأرض مسافة قدم أو قدمين فقط، ولا تزال توجد مصطبة واحدة فوق الأرض. بُنيت هذه المصطبة بكتلٍ مستطيلة مقطوعة بإتقان ومرصوصة على الطريقة الأخمينية، وهي تختلف كثيرًا عن طريقة البناء العشوائية للبرج؛ حيث حجارة من أي شكل مغروسة في بحر من الملاط. أود أن أحفر هنا؛ فلا بد أنه الموقع الأغنى في بلاد فارس الذي لم يُنقَّب فيه بعدُ. نادرًا ما تتمتَّع البقايا الأثرية الساسانية بالجمال. ولكنها توثِّق لفترة مبهمة من التاريخ يتقاطع فيها العالَمان القديم والحديث.

ركب الآخرون خيولَهم وركبت أنا الحمار، الذي كان يسبق بفارق ضئيل جوادَ الحاكم في كل منعطَف مرفرِفًا بأذُنيه وواثبًا فوق كل خندق كما لو كان باستطاعته أن يسبق أي حصان على وجه الأرض. توقَّفنا عند حديقة في طريق العودة لنستريح تحت أيكة من أشجار البرتقال القديمة، ونحتسي خثارة اللبن بجوز الطيب. خارج البلدة، ألقى ثلاثة أطفال بثيابٍ رثَّة السلامَ على الحاكم من فوق ظهر جمل. كبح الحاكم الجَوادَ للخلف ليقف على قائمتيه الخلفيتين، كما لو كان المشهد لوحةً مماثلة للوحة «ميدان قماشة الذهب»، وردَّ بدوره عبارات مجاملتهم: «السلام عليكم. هل صِحَّتكم جيدة يا أصحاب السعادة بفضل من الله؟» كانت مزحةً رائعة، فضحكنا جميعًا، وكذلك ضحِك الأطفال. ولكنها عبَّرت أيضًا عن لُطفٍ حقيقي أثلج صدري تجاه حاجي سيد منصور أبطحي شيرازي، حاكم فيروز آباد.

إبراهيم آباد (٤٤٠٠ قدم تقريبًا)، ٢٣ فبراير: كان هذا الرجل ذو اللطف الآسِر قد نوى أن يأتي معي إلى الخانق، لكنه كان مشغولًا؛ حيث كان اليوم هو الجمعة، في استضافة أعضاء مجلس البلدية في نزهة في حديقة ناصر آباد. لم يكن يعتقد أنني سأغادر قريبًا، وتوقَّع حضوري أنا أيضًا إلى النزهة. في الواقع، كاد يعتبر مغادرتي إهانة له. ولكنني استطعت أن أؤكد له، بصدقٍ هذه المرة، أن حزني كان يفوق حزنه بكثير.

كان اليوم هو اليوم المثالي؛ فهو اليوم الذي جعل الرحلةَ بأكملها من إنجلترا تستحق العناء، حتى وإن لم يتكرَّر مرة أخرى.

لم تكن البداية مبشِّرة بخير. ليلة أمس، عندما كانوا يُركِّبون لحصاني من إسماعيل آباد حدواته في البازار، كسر رَسَنه وفرَّ. وعدَني المُرافق بأحد خيوله عوضًا عنه، ولكنهم تأخَّروا في الاستيقاظ، ظنًّا منهم أنهم حينئذٍ كانت لهم أفضلية عليَّ. خارج البلدة، وجدنا الحصان المفقود، وهو ما جعلنا نتأخَّر أكثر. كان يأكل بتأنٍّ من حشائش الطريق وقد بدت عليه تلك الحالة من الحَيرة المفعمة باليأس التي تتسم بها الجياد المفقودة، وكان ينظر لأعلى بعينين خاليتين من التعبير من حين إلى آخر كما لو كان يبحث عن شخص طيب يأخذه إلى المنزل. أضعنا نصف ساعة في محاولة إظهار هذه الطيبة له، دخلت خلالها خيولنا في حالة من الهِياج بينما ظل الحصان، الذي كان ضائعًا، هادئًا في خمول وبراءة عاجزة كما كان من قبل، ثم قُدناه إلى الخانق. بقي أحد المرافقين على أُهبة الاستعداد في عقبنا، حتى إذا فرَّ الحصان عبْر الطريق الآخر لا يتمكَّن من الوصول إلا إلى مكانه الأصلي.

بدت أبعاد قَصر أردشير هائلةً بينما كنا نعبُر النهر، واستطاع أن يبرز ضآلةَ خيمتين للقشقاي معسكِرَتين على المرج أسفله. كانت هاتان الخيمتان سوداوين ومستطيلتين،

وكانتا منبسِطتين على جدرانٍ حجرية منخفِضة. كانت الكلاب والأطفال والحُمْلان والدجاج تتهادى هنا وهناك فوق العشب؛ مما يجعل الهيكل الغريب فوقها يبدو أكبر بكثير. كانت امرأتان، ترتديان تنورتين بطَيَّات بكامل محيطهما، تدقان الذُّرة على قطعة قماش بواسطة مِدقَّات متصلة بعِصيٍّ طويلة.

لم يكن ثَمَّة وقتٌ لقياسِ أبعاد القَصر كما ينبغي. ولكنني سرعان ما رأيت أن الارتفاع الذي ذكرته ديولافوي كان خاطئًا. هذا مثير للاهتمام بالنظر إلى أهمية المبنى من ناحية تاريخ العمارة، وحقيقة أن معلومات ديولافوي كانت حتى الآن المعلومات الوحيدة المتوفرة للكتاب حول الموضوع.

كان المدخل في الأصل جهةَ الجنوب، عبر إيوانٍ ذي سقف معقود. اليوم يواجه ما يبدو أنه الواجهة الرئيسية جهةَ الشرق، التي تُطِل عبْر النهر على فوَّهة الخانق. خلفها، على كلا الطرفين، يوجد فناءان، الجنوبي بمساحة نصف فدان، والشمالي بمساحةٍ أقل بعض الشيء. وتفصل بينهما سلسلة من ثلاث غرف مقبَّبة، تمتد أمام القَصر من جانب إلى آخر، واحدة خلف الأخرى. نصف الغرفة الشرقية فقط لا يزال قائمًا، ونصف قبَّته فوقه؛ ومن ثَم يظهر صف الواجهة للوهلة الأولى مقطوعًا برَدهةٍ مفتوحة بعرضِ ثلاثين قدمًا وارتفاع خمسين قدمًا. ولكن سرعان ما يرى المرء أنه في الواقع لا توجد واجهة على الإطلاق — ولكني أستخدم المصطلح للتيسير — وأن الجدار الشرقي بأكمله، القائم على حافة منحدرٍ أخضرَ يقيم عليه الآن القشقاي، قد انهار تدريجيًّا آخذًا واجهة الغرفة الأولى معه.

تبلغ مساحة الغرفتين الداخليتين أيضًا ثلاثين قدمًا مربَّعًا تقريبًا، ولقبَّتَيهما، المرتكزتين مباشرةً على حنايا مقرنصات ركنية بسيطة، نفس القُطر. قمة كل قبَّة مخترَقة بفتحة عريضة تبرز لأعلى حولها حجارة البناء الخارجية. لا تُدخِل هاتان الفتحتان حاليًّا إلا الضوء الموجود؛ إذا كانتا متضمنتين في الأصل، فلا بد أن الغرفتين أسفلهما كانتا مضاءتين بإضاءة اصطناعية، ولا بد أنه كان يعلو كلَّ قبَّة نوعٌ من القُبَيبة البدائية؛ ومن ثَم كنا سنكتشف سابقةً لتلك البروزات الاستثنائية لقباب العمارة الرومانسكية في بيريجو. ارتفاع قبَّة الغرفة الوسطى أعلى من ارتفاع نظيرتها في الغرفتين الأخريين بحوالي خمس عشرة قدمًا. وأعلى منها ارتفاع القُبَيبة الإهليلجية، التي تفصلها عن القبَّة الأمامية، والتي تشكِّل سقف الممر بين الغرفة الوسطى والغرفة الخارجية المهدَّمة. هذا الممر مقسَّم إلى طابقين، ولكنَّ بئرًا مفتوحة في أرضية الطابق العلوي يتيح للقُبَيبة أن تضيء الطابق السُّفلي. يفصل ممرٌّ مماثل بين الغرفتين الوسطى والخلفية. ويعلوه سقفٌ معقود ضخم، وهو مُعتِم بالكامل.

تسجل ديولافوي جميعَ القباب الثلاث بالارتفاع نفسِه، وتُغفِل قُبَيبات الممرَّات تمامًا.

سيتطلب الأمر وقتًا طويلًا لأستخلص التصميم من متاهة الجدران وكومات حجارة البناء الساقطة التي تشغل الفناءين. ومع ذلك، يمكن للمرء أن يرى أن الغرفة ذات السقف المعقود، أو الغرف التالية، كانت موازية للغرف المقبَّبة في الشمال. لم تَعُد القنطرة موجودة، لكن لا يزال الجداران المستعرضان، اللذان كانت قمَّتاهما شبه الدائرية تحملانها، قائمين. هذه الجدران مخترقة من الأسفل بممرات مقنطرة منخفضة كالتي في الجسور، وتُضاعِف دعامةٌ عند القمة الضرورية لدعم وزن الجدار من شناعة تقوُّسها؛ لأن ذلك التقوُّس أقل من تقوُّس القنطرة التي بالأعلى.

سماكة معظم الجدران خمس أقدام تقريبًا. الحجارة سليمة والملاط يملأ الفراغات. وكانت زخارف جصية تزيِّن الغرف الثلاث، التي توجد مُحسِّناتها المعمارية على طرازَين. أحدهما نطلق عليه الطراز الرومانسكي: حيث ترتكز الحاملات على طنوف بحليات نابية؛ وممرَّات بقمم مستديرة مؤطرة بتشكيلات متراكزة؛ وكوة مماثلة في الفناء الجنوبي بها أيضًا هذه القوالب ذات الحليات النابية. الطراز الثاني هو الطراز المصري الزائف، المنقول من برسبوليس: حيث تعلو المداخل المقنطرة ظُلَلٌ أفقيةٌ صدفية الشكل، تمتد للداخل والخارج، بتصميم على شكل ريش مُتشعِّب. هذا التجميع غير جذَّاب بما يكفي في بلده الأصلي وبحجارته الأصلية. ونظرًا لأنه يمثل تذكرة غير مباشرة، بمواد أرخص، فهو ينبئ بذوق مبنى مجلس مقاطعة لندن في أوائل القرن العشرين.

ولكن لا يرى جمالًا في العمارة الساسانية إلا علماءُ الآثار. فالاهتمام هنا تاريخي. فهذا القصر، الذي أُسِّس في بداية القرن الثالث الميلادي، هو مَعلَم من معالم تطوُّر البناء. إذ يتزامن ظهور الحنيَّة الركنية فيه، وهي قوس بسيطة عبر زاويتَي جدارين، مع ظهور الحنيَّة الكرويَّة، التي هي قنطرة على شكل طائرة ورقية تدعمها دعامة زاوية، في سوريا؛ ومن هذين الابتكارين استُمد طرازان معماريان رئيسيان، في غمرة معتقدين دينيين: الطراز الفارسي في القرون الوسطى، الذي تفرَّع ممتدًّا إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام والهند؛ والطراز الرومانسكي البيزنطي الذي امتدَّ إلى حدود شمال أوروبا. قبل ذلك، لم تكن توجد وسيلة لوضع قبَّة على أربعة جدران مربعة، أو على مبنًى بأي شكل تتجاوز مساحته الداخلية بكثير مساحة القبَّة نفسها. ولكن منذ ذلك الحين، ومع تضخم أحجام الحنايا الركنية والحنايا الكرويَّة، ومع تعدُّد الأولى لتصبح نطاقات لمقرنصات وأركان على شكل أجنحة الخفافيش، أصبح من الممكن وضعُ قبَّة فوق مبانٍ بكل الأشكال والأحجام.

بلغ التوسُّع المسيحي في استخدام هذه الإمكانية أوجَه في كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية، وبدأ عهدًا جديدًا مع قبَّة برونليسكي في فلورنسا. تنتظر العمارة الإسلامية أن تُستكشف من أي أحد يمكنه أن يتحكَّم في أعصابه وسط مشاعر الغيرة بين القائمين على علم الآثار الحديث. ولكن ثَمَّة شيء واحد مؤكَّد. وهو أنه من دون هاتين القاعدتين اللتين نجد هنا النموذج الأوَّلي لأحدهما، لاختلفت العمارة التي نعرفها، ولما ظهر إلى الوجود العديد من الأشياء المألوفة للغاية للعالم أجمع، مثل كاتدرائية القديس بطرس، ومبنى الكونجرس الأمريكي، وتاج محل.

أودُّ لو كان بإمكاني الذهاب إلى سروستان. إنها أشبه بشيراز من هذه المنطقة، وبها قصر ساساني آخر، يوجد فيه صفٌّ من الأقواس البارزة عن الجدار المدعمة بأعمدة مستديرة. ربما تكون هذه المنطقة هي أصل تلك السِّمة الرائعة المميِّزة للعمارة الإسلامية، وأعني بذلك الأروقة المقنطرة. من المؤكد أن الأعمدة قد لعبت دورها في العمارة الساسانية، كما أظهرت أعمال التنقيب في دامغان، وبالنظر إلى الكفاءة الساسانية في بناء القناطر، من المرجَّح أنها استُخدمت في معظم الحالات لتدعيم الأقواس.

مدفوعًا بهذا التسلسل من الإلهام، نزلت من على السطح لأجد أن القشقاي قد أعدُّوا لنا الشاي. تفضَّل رجل مُسنٌّ من رجال القبيلة، وأخرج مثقابًا وخيطًا ليصلح الدعامة المتقاطعة في حقائب سرجي. كان أحد الرجال الأصغر سنًّا، بعدما قال إنه يعرف الطريق صعودًا إلى قلعة دختر، قد سبقنا لينتظرنا في الخانق. حيَّانا من أعلى عندما مررنا به على صهوة الخيل. كان الصعود أسهلَ مما كان يبدو، ولكنه كان مضنيًا بما فيه الكفاية.

عند رؤية القلعة من الخلف، تجدها قائمة على نتوء، وهي بذلك محمية من ثلاثة جوانب بجروف جبلية تكاد جدرانها الخارجية أن تكون شبه عمودية. كانت المرحلة الأخيرة في الصعود هي عبر مرتفع سنامي يربط بين النتوء والجرف الرئيسي. يؤدي هذا إلى خلفية المبنى، التي تواجه الشمال، وهي عبارة عن متراسٍ ضخم ليس به باب أو نافذة، ومنحَنٍ كما لو كان يحتوي على مدرَّج. ويستند إلى دعامات طويلة ورفيعة على مسافات متقاربة، ويتصل من أعلى بأقواس مستديرة.

زحفت بحذرٍ حول حافة الجدار؛ إذ كانت تهبُّ ريح عاتية، حتى وصلت إلى الغرفة المركزية.

بُنيت القلعة بثلاث شرفات. من الخانق بالأسفل، يمكن رؤية قوس سوداء شاسعة تؤدي إلى قبو بالجانب الشرقي. لم أتمكَّن من الوصول إليها؛ لأن المدرَّج الحلزوني المتصل

بها كان مسدودًا، ولم أكن أرغب في النزول من الخارج. يوجد مدرَّجان بهذا الشكل، تحيط بهما أبراجٌ كانت في الأصل تؤدي من أسفل المبنى، مرورًا بالأركان الشرقية للغرفة التي كنت أقف فيها، إلى طابق ثالث بالأعلى.

بوجه عام هذه الغرفة تشبه الغرف التي في قصر أردشير، من حيث كونها مربَّعة وتدعم قبَّة على حنايا ركنية. تنتشر في الجص فتحاتٌ على شكل ثقوب رصاصات، ولكن الجص بخلاف ذلك يحتفظ بشكله على نحوٍ جيد جدًّا مع أنه ليس به أي زخارف. يخترق كلَّ جدار قوسٌ واسعةٌ ذات قمَّة مستديرة، وهي مفتوحة، في حالة الجدران الجنوبية والشرقية والغربية. ولكنها مسدودة في الجدار الشرقي، وكُسيت حجارة البناء بالجص. غير أن تصميمها الخارجي بسيط للغاية.

يقع هذا الجدار في ذلك الجانب من الغرفة الذي يقع في الجهة المقابلة من الخانق، ويحيط به من الخلف متراس خارجي منحنٍ. وهنا ظهر لغز. فبين الغرفة والمتراس تقع منطقةٌ كبيرة يبدو أنه لا يوجد مدخل إليها إلا القوس المسدودة حاليًّا أو عبر ممرٍّ خفي محفور عبر الصخر بالأسفل. لم أتمكَّن من رؤية أي مسار لممرٍّ كهذا من الخلف. قد يوجد واحد من القبو. ولكنني لا أظن ذلك. وذلك لأنني رأيت بعد ذلك أن آخرين قد لاحظوا هذا اللغز أيضًا، وقد حفروا بعمق في الجدار على كلا جانبَي القوس في محاولاتهم لاختراق المنطقة المسدودة. وما كانوا سيَهدرون جهدًا كبيرًا للغاية دون سبب. امتد طول الأنفاق عشرين قدمًا في حجارة البناء المصمَتة ووصل إلى طريق مسدود.

تؤدي القوس المقابلة بالجانب الجنوبي إلى منبسط عشبي بين جدران عالية، وهذا المنبسط يمتد ستين قدمًا إلى حافة الخانق. كانت هذه الجدران، كما رأيتُها من القمة الشبه دائرية للجدار عند الطرف الداخلي، تدعم سقفًا معقودًا قُطره بضع وأربعين قدمًا. كانت النهاية الأخرى مفتوحة دائمًا. ولذلك تمثِّل قلعة دختر في فيروز آباد نموذجًا ساسانيًّا آخرَ لثاني أهم المساهمات الفارسية في العمارة الإسلامية بعد القباب على الحنايا الركنية: وهي الإيوان أو الرَّدهة المفتوحة الواجهة. غيَّر هذا التكوين، أكثرَ من غيره، من طبيعة المساجد الأولى. وكان يُستخدم في البداية في جانبٍ واحد فقط، لإظهار المحراب والقبلة إلى مكة. ولاحقًا استُخدم أيضًا لكسر رتابة الجوانب الأخرى. ازداد تدريجيًّا في الارتفاع. وأصبحت واجهته المسطَّحة الأشبه بالساتر مجالًا لجميع أنواع الزخارف والكتابات. وظهرت المآذن على جانبَيه، والأروقة المقنطرة والقُبَيبات أعلاه. غيَّرت تقلباته وجه كل مدينة إسلامية، وكان من السار، حسبما تراءى لي، أن أجد نفسي جالسًا على فرع شجرة جوز قديمة وآكل برتقالة في المكان الذي بدأت فيه تلك الفكرة.

قال مرشد القشقاي فجأة: «أتريد رؤية الحمَّام؟»

كنت أريد بالفعل أن أعرف ما كان يعنيه؛ فالحمَّامات التركية لا توجد عادةً على قمم جبال منعزلة. حمل حراسي بنادقهم، وتبِعْنا الرجل نزولًا عبر درب صغير ملتوٍ بمحاذاة حافة الجرف. بعد بضع دقائق جرى الحراس صائحين: «نرجس! نرجس!» مفترضًا أنهم قد رأوا حيوانًا ما، تابعت سيري مع المرشد، الذي كان من المفترض أن يحموني منه، إن كانوا سيحموننني من أي أحد، ونزل في النهاية فوق الجرف وهو يشير إليَّ أن أتبعه. وجدنا أنفسنا عند فوَّهة نفقٍ تعلوه السراخس، وتنبعث منه رائحة نَتِنة، كما لو كان جُحر حيوان: وهي فكرة عزَّزها وجود بعض كومات من العظام والريش.

بعد اجتياز أربعين قدمًا في هذا النفق وصلنا إلى عتبةِ كهف. في ذلك الوقت، كاد الظلام يصبح دامسًا. وداهمَنا بخارٌ ساخن وصوت بقبقة. وفجأة حلَّت تحت أقدامنا طبقةٌ من الطين غير المستقر محلَّ الصخر الصلب.

قلت: «من الأفضل أن تذهب أولًا.»

قال القشقاي: «أظن أنه من الأفضل أن تذهب أنت أولًا.»

قررنا أن نضيء مشعلًا.

حتى هذا لم يكشف نهايةَ الكهف أو مكان البقبقة. أخذت شعلة، وما كدت أخطو على الطين حتى هيَّج الدخان سربًا من الخفافيش. لم يكن يوجد سوى مخرج واحد لها، وكنت أسدُّه. فررت من النفق إلى ضوء النهار، والهواء الناتج عن حركة أجنحتهم على عنقي؛ حيث وقفتُ أشاهد المخلوقات المؤذية الصغيرة وهي تتعلَّق وسط السراخس. كانت من النوع القصير الأذنين، وكان حجمها بين حجم عصفور الدوري والشحرور، ووجوهها الوردية الصغيرة تنظر إلى أسفل محملقةً فيَّ بحقد.

أظهر صوتُ ضحك وزوجان من الأرجل أن الحراس قد وجدونا. نزلوا إلى الحافة حاملين، عوضًا عن فراء أحد الحيوانات كما توقَّعت، ملء أذرعهم من أزهار النرجس الكبيرة التي كنت قد رأيتها لدى الحاكم، والتي يبلغ حجمها ضعف التي في بلادنا. كان ذلك إذَن المقصود بكلمة «نرجس»[١] — أزهار النرجس!

عندما نظرت من فوق الحافة لأرى ما إذا كان يوجد في وقتٍ مضى طريقٌ للصعود من الأسفل، وجدت آثار مسار بشري مبني على جانب الجرف. كان الملاط ساسانيًّا، وكذلك كانت حجارة البناء. ولذلك ربما كان الكهف في تلك الأيام يُستخدم كحمَّام تركي؛ فمن الصعب التفكير في سبب آخر يجعلهم يصنعون طريقًا إليه. لا تتناول السرديات الملكية

الساسانية الأشخاص بخاصة. ولكنني بدأت الآن في تخيلهم وهم يرتدون النعال، إن جاز القول، في عطلات نهاية الأسبوع في قلعة دختر؛ حيث يستحم المصابون بالروماتيزم بين الجمع عادةً في الصباح، وتحصل أرامل النبلاء على تدليك للوجه في ذلك الطمي. في نهاية المطاف، إذا كان بوسع الآنسة تابويه أن تكتب كتابًا عن قصة حياة نبوخذ نصر، وهو كتاب يكاد يكون أثقل من أن يُحمَل، فربما أؤلف مجلدين بالحجم نفسه عن أردشير من المعلومات التي استخلصتها اليوم.

عندما وصلنا للأسفل، قفزت في النهر. كان عميقًا بما يكفي للسباحة فيه، ولم يكن شديد البرودة، وكان باعثًا بشدة على الاسترخاء بعد صباح حار. لكن المرافق رأى أنه خطير، وبعدما اقتلع عدة أشجار، أشعل شعلةً لإنعاشي عندما خرجت. كنا الآن ستة، بما في ذلك القشقاي؛ ومع ذلك مكَّنني ثراء استعدادات السفر التي قام بها علي أصغر من توفير طعام الغداء لهم جميعًا من حقائب سرجي، مع الاحتفاظ بزجاجة نبيذ لنفسي. كان طائر رفراف أبقع يرفرف لأعلى ولأسفل فوق النهر، وكان باللونين الأسود والأبيض، وأكبر بعض الشيء من ذلك الذي في بلادنا، ولكنه بلا شك من أقاربه؛ إذ إن له الرأس الكبير ذاته والذيل القصير، ويمتاز بالطيران الفائق السرعة. وعلى الضِّفة نمت زنبقة بنفسجية، أو زنبقتان، عديمتا الأوراق، بارتفاع ثلاث بوصات.

توجد منحوتتان صخريتان ساسانيتان في الخانق، رسمهما فلاندين وكوست، ولكن لم تُنشر لهما أي صور فوتوغرافية. تُصوِّر أكثرهما إثارةً للاهتمام مبارزةً بين أردشير وعدوِّه أرداروان الخامس، آخر سلالة أرساسيد، التي أطاح بها. تقع هذه المنحوتة بالقرب من نهاية فيروز آباد، ولكني أغفلتها للأسف، ولم يكن يوجد وقت لأن نعود أدراجنا كلَّ هذه المسافة. عُدت بالفعل على حصاني لرؤية المنحوتة الأخرى، التي كان القشقاي قد أشار إليها من أعلى الجرف. تصوِّر هذه المنحوتة الإله المعتاد، هرمز، وملك، وهو أيضًا أردشير في هذه الحالة، ممسكين بحلقة؛ والملك يلبس بالونًا فوق رأسه، قال بعض الخبراء إنه كيس للشَّعر، ويتبعه العديد من الخدم، ويتخذ وضعيةً دفاعية (كان الفنان يقصد منها أن تكون تبجيلًا) كما في رياضة الملاكمة الحديثة. لم يكن الصف، الصغير والمنعزل بين الجروف الضخمة، والمحفور، على سطح صخر أرجواني كئيب حيث النهر والأشجار والرفراف هي مواطن الحياة الوحيدة، الذي يمثِّل نقوشًا لشخصيات قديمة، تذكِرةً بنصر الساسانيين بقدرِ ما كان تذكِرة بالعصر المظلم الذي كانت لهم الغلبة فيه. لم يطرأ تغيير على تلك النقوش البارزة ولا على الخانق، خلا أن عابري السبيل ليسوا شائعين جدًّا، ولا يجدون

ما يكفي من وسائل الراحة؛ فقد كان يوجد فيما مضى جسرٌ بالقرب من النقوش البارزة، ولا يزال النهر مقسَّمًا بفعل دعامات ساقطة، المبنية بالحفر في الحجارة، صمد ملاطها أمام الفيضان في القرن الثالث عشر. شققت طريقي على صهوة حصاني عبر القصب، حتى لمس بطنُه الماء، وبحثت في عجالة وبلا جدوى عن الكتابة التي رآها هِرتسفلد هنا، والتي تسجِّل أن الجسر بناه أبرسام، وزير أردشير.

كان أفراد الموكب المرافق قلقين من احتمالية أن يداهمنا الليل في الخانق مرة أخرى. قادنا حصان هائج، غير عابئ بالصخور أو الأشجار، حتى أصبح الممر المائي على مرأًى منَّا، قبل أن يخبو الضوء وتبدأ الضفادع في النعيق. ومن هناك استرشدنا بالقمر عبر الحقول إلى قرية إبراهيم آباد العجيبة، المحصورة شوارعها، كقطار الأنفاق، في متاهة من أنفاق مبنيٍّ فوقها منازل.

كان علي أصغر ينتظر فوق سطح أحد المباني بجوار باب مفتوح. وكانت عُدة الشاي قد جُهِّزت على صينية؛ والكتب والنبيذ على أحد الأرفف. «ماذا تريد يا صاحب السعادة على العشاء؟»

وكانت رائحة أزهار النرجس قد تغلبت على رائحة الماعز، وروث الخيل، والبارافين، والمبيد الحشري، وحلَّت محلها.

شيراز، ٢٥ فبراير: ما زال كريستوفر هنا، ولكن كان لديه الآن تصريح بمواصلة السير إلى بوشهر، شريطةَ أن يغادر بلاد فارس في الحال. هذه هي نهاية آمالنا الأفغانية ما لم يُلغَ هذا القرار؛ وحيث إن ثَمَّة خلافًا سياسيًّا يُدبَّر، فقد يحدث ذلك. إن السير ريجينالد هوار ليس من النوع الذي يتلقَّى الإهانات بطيبِ خاطرٍ عندما تأخذ شكل هجوم خفي على مفوضيته، فكريستوفر ملحَق دبلوماسي سابق وقريبه. لم تتمتع السلطات، من وجهة نظره، بحسن التقدير لاسترضائه بتقديم سبب؛ وببساطة يردِّد أيروم، رئيس الشرطة في طهران، أن أمر الإبعاد جاء من هيئة الأركان العامة، بعبارة أخرى من مارجوريبانكس نفسه. ربما سيظهر أخيرًا الأسدُ المتخفي في هيئة دودة.

رأيت كريفتر لدقيقة، وأخبرني أن حاكم شيراز مخطئ في تأكيده على أن هِرتسفلد ليس له الحق في رفض التصريح للناس بالتصوير الفوتوغرافي للآثار القديمة في برسبوليس؛ حيث وزير التعليم العام قد أكَّد بجلاء على هذا الحق. يجب أن أسأل الحاكم مرة أخرى، في حالِ كان في الأمر خدعة. نتيجة لهذه المحادثة، حلُمت أن برسبوليس أصبحت مركزًا لفن الحياكة، وأن الأعمدة لُفَّت بستار التويد على النمط اليعقوبي، والتي يولي لها الأستاذ في ذلك الحين كامل الانتباه ويعرضها على الزائرين.

كازرون (٢٩٠٠ قدم)، ٢٧ فبراير: انتبهت إلى أن أمس كان يوم عيد ميلادي.

ثمَّة انخفاض يُقدَّر بحوالي ٥٠٠٠ قدم من أعلى ممر بير زن إلى هذا المكان، عمودي في الأغلب، ويقطعه طريقُ رصيف صخري ضيِّق كان من بين الامتيازات التي أعطتها الحرب لبلاد فارس. يظهر لون جديد غرب الممر، ذلك اللون الرمادي الفولاذي الذي يميِّز الخليج الفارسي. في هذا الوقت من العام، عندما ينبت العشب الأخضر الناضر، فإن القرى الرمادية، والحقول غير المنتظمة، والطرق المتعرِّجة، والجدران الحجرية المحطَّمة لوادي كازرون تُذكِّرني بإيرلندا. حتى أشجار النخيل ليست دخيلةً على المشهد تمامًا في تلك المقارنة.

تقدِّم أطلال سابور المجاورة، مع أنها قريبة من الطريق الرئيسي، حقلًا أثريًّا، إن لم يكن ذا أهمية كبيرة، فهو يضاهي في بكارته الحقولَ الأثرية الموجودة في فيروز آباد. سُمِّي المكان باسم مؤسسه، سابور الأول، الذي صُوِّرت علاقاته بالآلهة، وانتصاراته العديدة، وأَسره للإمبراطور الروماني فاليريان على جدران خانق صغير. بالنظر إليها كوثائق، تعطينا هذه النقوشُ البارزة صورةً مفصَّلة عن الأزياء الساسانية من أحزمة، وقبعات، وسراويل، وأحذية، وأسلحة. وبالنظر إليها كآثار، فإنها تمثل شاهدًا باقيًا مثيرًا للاهتمام على الطبيعة الفظة التي دفعت الملوك الأوائل في مصر وبلاد الرافدين وإيران لنحت صورهم كشخصيات خالدة في العمارة المنحوتة في الصخر. وبالنظر إليها باعتبارها أعمالًا فنية، نجد أنهم اقتبسوا من روما، ربما عبر الأسرى الرومان، وخبئوا وجوههم المختالة الوحشية أسفل قشرة بحرٍ متوسطية من الفخامة والثراء. أولئك الذين تعجبهم القوة بلا فن والشكل بلا عقل يجدون فيها جمالًا.

يعزِّز تمثال سابور، الثلاثي الأبعاد بالكامل، والذي يبلغ حجمه ثلاثة أمثال الحجم الطبيعي، من قيمة النقوش البارزة فقط بفضل موقعه، الذي يقع عند فوَّهة كهف يبعد ثلاثة أميال عن الوادي خلف الخانق. يمكن الوصول إليه بصعود ٦٠٠ قدم. كانت آخر خمس عشرة قدمًا عمودية، وعلقتُ في الطريق بينما يطفو الوادي أسفل مني. ولكن قبل أن أتمكَّن من المقاومة، دثَّرني أهل القرية كالجِراب، كما فعلوا مع طعام غدائي ونبيذي. لا بد أن التمثال كان على ارتفاع عشرين قدمًا، وامتد من الأرض إلى السقف، بعد المدخل مباشرةً. في وضعه الحالي له رأس متوَّج بلحية كلحية فيلاسكيز، وخصلات شعر مموَّجة تشبه خصلات شعر ابنة ملك إسباني، تقع حتى قاع تجويف، يتقوَّس فوقه جذع مزيَّن بتصاميم الربيع وبشراريب من الموسلين ومكسور عند الفخذين. حفر السيد هايد اسمه عليه في عام ١٨٢١. وصلنا في الوقت المناسب تمامًا لنمنع جمشيد تاروبوريفالا، سائقنا الهندي، من إضافةِ اسمه عليه. لا تزال قاعدة التمثال تحمل قدمين ترتديان حذاءً مربَّع الطرف.

تؤدي مؤخرة الكهف إلى سلسلة من الهوات الشاسعة، التي تتشعب منها كاتدرائيات مستحكمة الإظلام. كان معنا فانوس، لكن مداه كان عديم النفع في مواجهة تلك المسافات، ولم ينفعنا إلا في تنبيهنا إلى وجود مواضع فيها مياه كثيرة للغاية لدرجة تمنع استكشافها.

بعدما سرنا عائدين إلى الخانق، سبحت أنا وكريستوفر في النهر الذي يجري عبره. وتذكرنا آخر مرة سبحنا فيها معًا في بيروت. ودعته صباح اليوم. ذهب إلى بوشهر، وسنتقابل مرة أخرى للذهاب إلى أفغانستان أو لتناول الغداء في فندق الريتز.

برسبوليس (٥٥٠٠ قدم)، مساء نفس اليوم: توقَّفت في شيراز على الطريق إلى هنا، للحصول على خطاب من الحاكم إلى الدكتور مصطفوي، الذي كان يراقب أعمال التنقيب لحساب الحكومة الفارسية. وفي طريق خروجي من المدينة، قابلت كريفتر الذي كان في طريقه بالسيارة إلى حفلٍ راقص على الضِّفة. أعطاني خطابًا آخر:

برسبوليس شيراز
البعثة الفارسية للمعهد الشرقي

عزيزي السيد بايرون،

أعتذر عن تأخري في الرد، فببساطةٍ نسيت. الوضع كالآتي: حيث إنه لا يوجد قانون يحمي حق النشر، وما إلى ذلك، في بلاد فارس؛ فالسبيل الوحيد لمنع الجميع من المجيء لالتقاط الصور وبيعها ونشرها، هو عدم السماح بالتصوير الفوتوغرافي. وذلك لأنه بمجرد رؤية أجنبي يلتقط صورًا، تظهر مقالات في الصحافة (حدث ذلك ٣ مرات بالفعل) تشتكي، من أن الجميع مسموح له بتصوير الآثار القومية لبلاد فارس ما عدا الفُرس. لقد تبادلت مراسلات غير سارَّة على الإطلاق مع الحكومة حول هذا الشأن.

وبناءً عليه، اتخذنا التدابير التي تمكِّن الأشخاص المهتمين بنشر الصور من الحصول عليها من المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو، ونشرها مع إقرارهم بمصدرها. أعتذر عن أنني لا أستطيع استثناء أحد. وإذا التقط أحدٌ صورةً، بكاميرا صغيرة، مع مجموعات من الناس، وكان ظاهرًا في الصورة لأغراض تذكارية، فلا أُعُد هذه صورة فوتوغرافية. ولكن يجب «ألا» تُنشَر.

مرسِله إليكم بمنتهى الإخلاص والاحترام
إرنست هِرتسفلد

أضاف كريفتر: «ستجد البروفيسور وحده. سيكون سعيدًا ببعض الرفقة.»

هل سيكون كذلك حقًّا؟ في هذه اللحظة أنا نائم في إسطبلٍ ملحق بصالة شاي، بجوار كومة من الروث الجديد.

برسبوليس، ١ مارس: تبعُد صالة الشاي مسافةَ ميل ونصف من برسبوليس. ونظرًا لكوني في الاتجاه المار بموقع نقش رستم الأثري، قرَّرت الذهاب إلى هناك أولًا، وكنت أشرع في الانطلاق في طريقي، عندما قال الناس إنه لا يمكنني السير لأن الجداول كانت تفيض بالمياه. في هذه اللحظة، توقَّف خيَّال مارٌّ لتناول الإفطار. فقلت له: «إنك بحاجة لسيارة من أجل الطريق، وأنا بحاجة لحصان من أجل الحقول. هلا نتبادل؟» فوافق بسرور.

يمتد تاريخ المنحوتات على الجرف في موقع نقش رستم إلى ما يزيد على عشرين قرنًا، من عصر العيلاميين مرورًا بالأخمينيين إلى الساسانيين. ويقع أسفلها مذبحا نار يعودان إلى عهدٍ غير معلوم، ومنزلُ دفن أخميني. الأخير فقط يمتاز بالجمال. والبقية تمثِّل فنًّا سلبيًّا أو قبيحًا. ولكن ما دامت الجبال باقية، فلا بد أن يبقى المهووسون بالصخور الذين أمروا بتشييد هذه الأشياء في الذاكرة، وكانوا يعرفون ذلك. كانوا غير عابئين «بامتنان» الأجيال القادمة. فلم يتركوا لهم جماليات بائدة أو إحسانًا رشيدًا! كلُّ ما كانوا يطلبونه هو لفت الانتباه، وقد نالوه بإلحافٍ غاشم، مثلهم في ذلك مثل طفل أو هتلر. في هذه الجملة الإيديوجرافية الضخمة، سجَّلوا لحظةً حاسمة في تاريخ الأفكار البشرية، عندما ظهر الحق الإلهي للملوك من عصورِ ما قبل التاريخ إلى العالم الحديث.

الأمر المذهل هو وجود أربع مقابر لملوك أخمينيين، وهي معالم أثرية عادية محفورة في الجرف على شكل صلبان. وكلٌّ منها محفور بتناسق رتيب وبنقوش بارزة قليلًا. تبدأ هذه النقوش من الأعلى بالتحالف المعتاد بين الإله والملك — كان الإله في هذه الفترة على شكل جعران بشري — وتواصِل بأريكتين على طراز أرائك توت عنخ آمون، واحدة فوق الأخرى، وتحيط بصفوف من الأتباع، ثم تمتد إلى أذرع الصليب بواجهة زائفة من أعمدة نصف دائرية تحمل تيجانًا على شكل رءوس ثيران. تكسو وجْهَ الصخر بين الأعمدة كتابةٌ مسمارية. بالاستعانة بحبل من شعر الماعز أنزله لي رجلان كانا يعيشان داخل الجرف، تسلَّقت إلى إحدى المقابر، وهي المقبرة الثانية من جهة الغرب؛ حيث يواجه الجرف جهة الجنوب. كان الجزء الداخلي مقسمًا إلى ثلاث كُوَّات، وكلٌّ منها مقسَّمة إلى ثلاث حاويات؛ ولحاويةٍ منها أو حاويتين غطاءٌ مخروطي فُتح بعَتَلة. لا بد أن الغرفة بأكملها كانت محكمةَ الغلق بباب حجري يدور حول محوره على محاور حجرية بالأعلى والأسفل، ولا تزال تجاويف تلك المسامير مرئية.

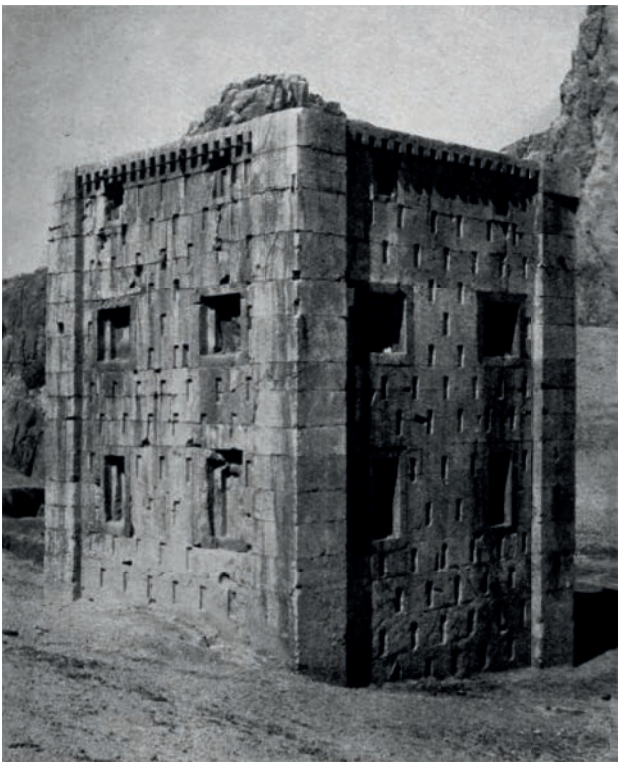

نقش رستم: منزل دفن أخميني.
القرن السادس قبل الميلاد.

كثيرًا ما وُصفت وصُنِّفَت الألواح في موقعِ نقش رستم، أسفل المقابر. يواجه الجرف جهة الجنوب. من الشرق إلى الغرب لاحظت ما يلي، دون إشارة للمدلول التاريخي:

بين زاوية الجرف والمقبرة الثانية

(١) مساحة فارغة معدَّة للنقش، ولكنها لا تحتوي إلا على كتابة صغيرة حديثة.

(٢) مجموعة ساسانية. الملك، لابسًا سروالًا من الموسلين أشبه بسراويل رعاة البقر الأمريكيين، وحذاءً مربَّع الطرف، وأشرطة طويلة مُرفرِفة، وبالونًا للشعر، يواجه شخصيةً

رمزيةً، كاد تاجُها المحلي، المكدَّس بخُصَل شعر متموِّجة شبيهة بالنقانق، أن يكون من تصميم برنارد بارتريدج. يحمل هذا الكائن، المُختلف حول جنسه، الحلقةَ التي ترمز للتحالف بينه وبين الملك. ويقف بينهما طفل، كما يقف خلف الملك رجلٌ يرتدي قبَّعة فريجية. تمتد اللوحة بأكملها إلى أسفل مستوى الأرض الحالي، الذي حُفِر لإظهار النقش.

أسفل المقبرة الثانية

(٣) ملك ساساني، يضع بالونًا للشعر، يهاجم عدوًّا بالرمح. هذا النقش متضرِّر إلى حدٍّ كبير.

(٤) أسفل النقش السابق نقشٌ آخر به رأسان وكتفان لمحاربين آخرين يتبارزان بالرمح. هنا لم تُنقَب الأرض عن هذا النقش، ومعظمه مخفي.

بين المقبرتين الثانية والثالثة

(٥) تكوين من نقش لسابور بثلاثة أمثال الحجم الطبيعي على صهوة حصان، ويتلقى البيعة من الإمبراطور فاليريان الراكع على ركبتيه. وقفة الحصان تحاكي وقفةً رومانية، ولكنه ليس قويًّا. كما أنه ليس مفتول العضلات كحال جميع النقوش البارزة الساسانية: كدمية محشوَّة. لأحد الرءوس في الجانب الشرقي ملامحُ أخمينية. هل من الممكن أنه كانت لهم نقوشٌ أقدم هنا هدمها الساسانيون لإفساح الطريق لدعاياتهم الخاصة؟

أسفل المقبرة الرابعة

(٦) ملِك ساساني يبارز بالرمح عدوًّا مهزومًا. بالون شعره أصغر من الآخرين، وعلى شكل ليمونة، ومثبت في الرأس بواسطة عُصية. هذا النقش أكثرُ نبضًا بالحياة. لا يقتبس كثيرًا من الحضارة الرومانية، ويضاهي أشكال الفرسان على الصفائح الفضية، التي تُظهِر العبقرية الحقيقية لتلك الفترة.

وراء المقبرة الرابعة

(٧) ملِك ساساني وحاشيته في منبر أو شُرفة. نُحت هذا التكوين غير المألوف على واجهة نتوء ثلاثي الجوانب في الصخر. يقف الملك في وسط الجمع؛ حيث تتيح فجوة في

السور رؤيته بكامل طوله. وفي حضرته ثلاثة أشخاص بنصف طولهم على كلا الجانبين، واثنان آخران على الجهة الغربية للنتوء. لهؤلاء الأشخاص أيضًا ملامحُ أخمينية، مع أن رأس المِلك ساسانيةٌ بامتياز. أتساءل مرة أخرى عما إذا كان يوجد نقش أخميني هنا في السابق، أو أن هذه الملامح نتيجةُ ولعٍ واعٍ بالآثار.

(٨) أيًّا كان ما فعله الأخمينيون على هذا السطح تحديدًا، فإن الساسانيين قد سبقهم أحدٌ ما، يبدو أنه عاش في منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد تقريبًا؛ ومن ثَمَّ ربما كان يُطلَق عليهم العيلاميون. على الجانب الشرقي للنتوء يمكن رؤية شكل بدائي شبيه بطائر في نقشٍ مسطَّح تمامًا، ويذكِّرني تكوينه ذو الزوايا بكتابة تصويرية مكسيكية. على الجانب الغربي، أسفل الأشكال النصفية الطول، يظهر رأس واحد بالنمط نفسِه. كلا الرأسين من الجانب، ولكن تظهر العين كاملةً في كلٍّ منهما كما تظهر في وجه ناظر إليك من الأمام، في تقليدٍ مألوف من مصر القديمة.[٢]

(٩) اثنان من الخيَّالة واقفان متواجهان، ويكادان يكونان لصيقين بمجموعة المنبر على الجانب الغربي، ويميل كلٌّ منهما للأمام للإمساك بالحلقة الرمزية. هنا، يضع الملك الساساني بالونه أعلى قبَّعة فريجية، بينما يضع الإله تاجًا محليًّا. يطأ الحصانان على أعداء راكبَيهما، ويقدِّمان عرضًا رائعًا لحرفة السروج الساسانية. تتدلى شراريب ضخمة، معلَّقة بحبالٍ من السَّرج، بين القائمتين الخلفيتين لكل حصان.

بعد هذا النقش البارز يلتف الجرف إلى الشمال، وينغمس تدريجيًّا في منحدرٍ أقلَّ حدة. مذبحا النار عند المنعطف. ارتفاعهما أربع أقدام وست بوصات، وقد يحسبهما المرء زوجًا من مبرِّدات النبيذ على الطراز اليوناني الكلاسيكي الحديث، إذا طُليا بلون بني.

يقف المدفن الأخميني منفردًا، في مواجهة المقبرة الرابعة. ويُعرف بقبر زرادشت، وهو الاسم الذي لطالما تهكَّم عليه علماء الآثار حتى اكتشف هِرتسفلد أنه ربما كان ثمَّة سبب وراءه.

يُعد هذا البناء عملًا معماريًّا حقيقيًّا، أو ربما ينبغي أن نقول حيث إن وظيفته لا علاقة لها بشكله، فهو يمثل تراثًا معماريًّا حقيقيًّا، ومع ذلك نحن نجهله. إنه نسخة من منزل. أين كان ذلك المنزل؟ أكان في بلاد فارس؟ إنه لا يوحي بأي شكل عن أنه بذلك الرقي المكلف الهجين الموشك على الازدهار في برسبوليس. لو كان في بلد من بلدان البحر الأبيض المتوسط، لكان قد احتُفي به باعتباره مصدرًا أصليًّا للعمارة السكنية في إيطاليا في القرن الخامس عشر وإنجلترا في العصر الجورجي. وعلى عكس المعابد اليونانية، التي تطوَّرت من

مبنًى خشبي ارتكز على ضغط الأوزان، فإن منزل الدفن هذا مشتق من مبنًى من القِرْميد أو الطين ينقل فكرة عن محتواه؛ حيث يكمُن جماله في التباعد بين الزخارف على جدار مسطَّح. من المدهش أن تجد هذا المبدأ، الذي اعتمدت عليه جميع المباني السكنية الجيدة منذ عصر النهضة، ممثلًا بالكامل في بلاد فارس قرب منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد. ومن المدهش بالقدرِ نفسه، من وجهة النظر هذه، تذكُّر مدى ضآلة الاهتمام الذي أبداه الزائرون نحو موقع نقش رستم إلى الآن.

يشغل المبنى مساحةَ سبع عشرة قدمًا مربعًا تقريبًا، ويبلغ ارتفاعه سبعًا وعشرين قدمًا فوق مستوى سطح الأرض الحالي؛ ولكن لا بد أنه كان في الأصل على ارتفاعٍ أعلى بعشر أقدام، كما كشفت عملية حفر خندقٍ افتقرت إلى روح المغامرة حول الجانب الشمالي فقط. يبلغ سُمك الجدران أربع أقدام ونصفًا، وهي مبنية بكتل رخامية بيضاء كبيرة ومرصوصة كتلك الكتل التي في البوابة الذهبية لسور القسطنطينية. وقد ثُبِّتَت كل زاوية بدعائم غير مرتفعة بينها، وليس خارجها، طنف منمنم. وقد شُكِّل السقف من عمودَي مونوليث (عمود المونوليث هو عمود منحوت من حجر واحد) ضخمين متراصَّين.

الجوانب الشرقية والجنوبية والغربية مزيَّنة بثلاثةِ أزواج من النوافذ المؤطرة بجزء مسطح حجري أدكن مع الرخام، وتحوي ألواحًا مصمتة؛ وهذه الألواح محاطة بأُطر داخلية ثانوية على امتداد الجوانب والجزء العلوي فقط. ارتفاع النوافذ السفلية أكبر من عرضها؛ والنوافذ في المنتصف مربعة؛ والنوافذ العلوية هي نُسخ من النوافذ السفلية، ولكن فيما يخص المنمنمات وملامسة الطُّنُف؛ وهو نسق يُذكِّر بأعمال المهندسين المعماريين فيتروفيو وبالاديو. عموديًّا، تتساوى المسافات بين الأزواج. ولكن أفقيًّا، تزيد المسافة بين كل نافذة والأخرى على ضعف المسافة بين النافذة والجزء الداخلي لدعائم الأركان. فضلًا عن النوافذ، فإن الجدران مزيَّنة بنمط من الكوات المنخفضة الصغيرة، المستطيلة والمستقيمة، والتي تتقاطع مع فواصل حجارة البناء كما لو كانت مشابك، ولكنها مشابك منعكِس فيها الضوء والظل، على غرار الصورة الفوتوغرافية السالبة.

أما الجانب الشمالي، المواجه للجرف، فليس به أي أزواج من النوافذ، ولكن فقط فتحة واحدة منخفضة في موضعٍ أعلى من منتصف ارتفاع المبنى، وتتقاطع عتبتها، والأرضية بداخلها، مع مستوى النوافذ الجانبية الوسطى. يعلو هذا المدخل عَتبٌ (ساكِف) مُقرَّن، توجد به نافذة مصمتة من دون أي إطار. يمكن للمرء الصعود إليه، فقد أُجريَت محاولات لاختراق حجارة البناء أسفله لدخول ما يُفترض أنه غرفة سفلية.

ذهبت في فترةٍ ما بعد الظهيرة إلى برسبوليس، وسلَّمت الخطاب الذي كان معي من حاكم محافظة فارْس إلى الدكتور مصطفوي.

انضم هِرتسفلد إلينا. كان مضيافًا جدًّا بينما كان يأخذني في جولة لتفقُّد أعمال التنقيب، وأطلق بلبل، خنزيرته البرية، التي اختطفت حجرًا كان مع عدوها، وهو كلبٌ عجوز حادُّ الطبع من سلالة أرديل. كانت نتيجة ذلك مطاردة هزلية عبْر الأطلال، انزلقت فيها أقدام الخنزيرة على السلالم والأرصفة كقَدمَي تشارلي تشابلن، مع خلفيةٍ من أوركسترا من الدمدمات، والهمهمات، والزمجرات من البروفيسور. جلسنا في النهاية لشرب الشاي في المنزل الذي بناه كريفتر للحفارين. أقول منزلًا، ولكنه قَصرٌ مُعادٌ بناؤه من الخشب في الموقع، على نمط سلفه الأخميني، فله باب ونافذة بإطارات مدمجة داخلهما. قدَّمت السيدة مور وجامعة شيكاجو التمويل المالي، وكانت النتيجة مزجًا فاخرًا بين فندقِ الملك داود في القدس ومتحف بيرجامون في برلين. هذا هو ما يجب أن يكون عليه، لأنه سيتعين أن يؤدي الغرض الذي يؤديه كلٌّ منهما عند انتهاء أعمال التنقيب.

أنا: «ربما أسأت فهْم خطابي.»

هِرتسفلد: «بل فهمته جيدًا. لا يمكنك تصوير أيِّ شيء هنا إطلاقًا. إذا رآك الفرس، فسيتسبَّبون في مشكلات.»

أنا: «أظن أنه لا بد أنك مخطئ. قال حاكم فارْس إنه يريدني أن ألتقط صورًا هنا.»

هِرتسفلد: «إن المشكلات التي واجهتُها فيما يتعلَّق بهذه النقطة لا يمكن تصوُّرها. في بداية مجيئي إلى هنا، أرسلت صوري للتحميض في شيراز. صنع المصوِّر نسخًا من الشرائح، وباع النُّسخ باعتبارها صوره. ثم جاء ذلك الشخص الفظيع، فلان، عندما كنت بالخارج، والتقط ١٠٠ صورة لاكتشافاتي. وكان أول معرفتي بالأمر عندما ظهرت في الصحف باعتبارها اكتشافاته. الآن، يطلب السيد مايرون سميث إذنًا. إن له نفوذًا لدى الداعمين لي في أمريكا، وللتخلص منه قدَّمت مجموعتي الكاملة من الصور الفوتوغرافية لجامعة شيكاجو. كان عليَّ كتابة ما يصل إلى اثني عشر خطابًا حول موضوع هذا الرجل.»

أنا: «أتفهَّم تمامًا أنه إذا باع آخرون صورًا لاكتشافاتك، فإنهم بذلك يسرقون أموالًا من التمويل المخصَّص لأعمال التنقيب. ولكن استمِع لوجهة نظري. أنا لست عالِم آثار. ولا شأن لي باكتشافاتك. فجلُّ اهتمامي هنا هو الأنماط المعمارية، ليس بسبب قِدَمها، ولكن لأنها جزء من التاريخ المعماري. الأبواب على سبيل المثال. لا توجد الأبواب إلا بوجود الشخصيات البشرية؛ يمكنك الحكم على كلٍّ من هذه الأبواب، وأبواب عصر النهضة، وأبواب كوربوزييه

بالمقياس نفسه. ولإجراء ذلك النوع من المقارنة، لا أريد سوى بضع صور مرجعية للأشياء التي كان يراها الناس لمدة ٢٠٠٠ سنة ورُسمَت والتُقطَت لها صورٌ فوتوغرافية مئات المرات. وأريد أَخْذَ هذه الصور بنفسي، لأنني أعرف جيدًا التفاصيلَ التي أريد أن أرسمها. إذا كنت لا تثق بي لكي تتركني وحدي مع اكتشافاتك، يمكنك أن تُرسل شخصًا معي، ذلك معقول، أليس كذلك؟ ربما تظن أنك تملِك الحقَّ القانوني في منعي من التقاط أي صور فوتوغرافية على الإطلاق. ولكن عليك أن تُقر أن ذلك من شأنه ألا يكون مُبرَّرًا من الناحية الأخلاقية. إذ سيكون الأمر كما لو أن البارثينون قد صار فجأةً فيلا خاصةً، وأن بقية العالم قد حُرِم منه.»

هِرتسفلد (كابحًا جِماح نفسه): «مطلقًا. لقد كانت، وما زالت، هذه القواعد موجودةً في أوروبا. عندما كنت شابًّا، وأُجري أعمال التنقيب، لم يكن يُسمح لنا بتصوير أي شيء فوتوغرافيًّا.»

أنا: «لكن ذلك ليس سببًا لأن تحتذي بمثال سيئ بعدما أصبحتَ أكبر سنًّا.»

هِرتسفلد (وهو يأخذ نفسًا من سيجارته بغضب): «أظن أنه قرار صحيح تمامًا!»

بدا هذا السلوك الاستبدادي الألماني غيرَ لائق برجل على وشْك أن يطرده النازيون من بلده. لحسن الحظ، منعني من قول ذلك دخولُ كريفتر؛ حيث عندها نهضت لأغادر.

سألني هِرتسفلد بمزيد من اللطف: «أين سيارتك؟» واستطرد: «لدينا مرأبٌ في الخلف. سأخبرهم أن يحضروا متاعك.»

«هذا كرمٌ بالغ منك، ولكني أقيم في صالة الشاي على الطريق.»

«هذا غير مريح. لماذا لا تمكث هنا؟»

بدا كلٌّ منهما شديد الإنهاك عندما رفضت، ليس لفقدانهما صحبتي، ولكن لفراري من أغلال ضيافتهما.

قال هِرتسفلد مبتهجًا: «حسنًا، ربما سنراك غدًا.»

قلت مبتسمًا: «أجل، بالتأكيد. إلى اللقاء، وشكرًا على عرضك الكريم. أتمنى لو كان بإمكاني قبوله.»

كان ذلك صحيحًا. فلا عاقل يستمتع بالتخلي عن الراحة والصحبة الجيدة ويفضِّل عليها كومة من الروث.

برسبوليس، ٢ مارس، وقت الظهيرة: سلَّمتُ هذا الخطاب في وقت سابق من اليوم:

عزيزي الدكتور هِرتسفلد،

حيث إن كلًّا من حاكم فارس والدكتور مصطفوي قد ذكرا بشكلٍ قاطع أنه ليس لك الحق في منعي من التصوير الفوتوغرافي للأقسام أو الأقواس أو الأعمدة، التي كانت دومًا موجودة فوق الأرض، فإن السبيل الوحيد لمنعي من التصوير هو إما:

(١) أن تُريني نصَّ امتيازك الذي يُقرُّ بأن لك ذلك الحق، وإما
(٢) أن تستعمل معي القوة.

رجاءً اختَر وسيلتك.

بينما كنت ألتقط الصور الفوتوغرافية، مرَّ بسرعة جسدٌ مُكبَّب صغير عبر المصطبة. وقال: «لم أصادف من قبلُ سلوكًا يفتقر للولاء كسلوكك»، ثم استدار ومضى بعيدًا.

تساءلت في نفسي، يفتقر للولاء لَمَن.

كان الأمر مسألة مبدأ. التقطت صوري، وأسديت معروفًا للرحَّالين بكشف كذبة هِرتسفلد. ولكن كانت خسارة المحادثة أمرًا مثيرًا للشفقة.

ما زال ثَمة أشياء تُقال عن برسبوليس.

في بدايتها، عندما كانت الجدران من الطين والأسقف من الخشب، ربما كانت تبدو زائفةً بعض الشيء، بل كانت تبدو، في الواقع، كما لو أنه قد أعيد بناؤها في هوليوود. ليست زائفة اليوم على الأقل. ولم يبقَ غير الحجر باستثناء بضعة من أنقاض الإسكندر، التي يستخرجونها من حين لآخر. وللحجارة التي شُغلت بمثل هذا الثراء والدِّقة رونق رائع، فأيًّا ما يفكِّر فيه المرء من أنماط يجده مُنفَّذًا فيها. يزيد من هذا الرونق التباينُ بين الحجارة المستخدمة: الرمادية الشديدة الإعتام، والبيضاء الأكثر سطوعًا. اكتُشفت كذلك زخارف معزولة في قطعة من رخام فاحم السواد من دون عروق أو شوائب.

هل هذا كل شيء؟

صبرًا! في الأيام الخوالي، كنت تصل إلى هنا على ظهور الخيل. وكنت تصعد بها الدَّرج إلى المصطبة. وكنت تخيِّم هناك بينما كانت الأعمدة والوحوش المجنَّحة تبقى في عزلتها أسفل النجوم، ولم يكن ثَمَّة صوت أو حركة تُعكِّر صفو الأرض المنبسِطة الفارغة المضاءة

بنور القمر. كنت تُفكِّر في داريوس، وخْشايارْشا، والإسكندر. كنت وحدك مع العالم القديم. كنت ترى آسيا كما رآها الإغريق، وتشعر بأنفاسهم السحرية تمتد صوب الصين نفسها. ولم تكن تلك المشاعر تترك مكانًا للأسئلة الجمالية، أو لأية أسئلة.

أما اليوم، فتترجل من السيارة، بينما تمرُّ بجوارك بضع شاحنات وهي تهدر في غيمة من الأتربة. وتجد الطُّرق المؤدية محميةً بجدران. ثم تدخل بإذن من حاجب، وعند وصولك للمصطبة تستقبلك سكةٌ حديدية خفيفة، ونُزل ألماني حديث، وقاعدة متَّبعة من العداوة الأكاديمية التي يُتحكَّم فيها من شيكاجو. هذه الإضافات المفيدة تجلي الإدراك. فقد تقنع نفسك، على الرغم منها، بحالةٍ رومانسية. ولكن الحالة التي تستدعيها تلك الإضافات هي حالةُ ناقد في أحد المعارض. هذه هي ضريبة عِظَم المعرفة. إنه ليس خطئي. فلن يسعد أحدٌ أكثر مني بترك عقلي يهيم في حُلم من التاريخ والمشاهد الطبيعية والرياح الخفيفة وغيرها من الحوادث البعيدة المنال. ولكن إذا ألحَّت الظروف أن تريني أكثرَ مما أريد رؤيته، فلا طائل من نشْر الأكاذيب بشأنها.

يمكن إذَن وصفُ الأعمدة بعبارةٍ وجيزة. إنها مدهشة، بقدرِ دارِ بلدية السير جيلبرت سكوت في بومباي؛ لأنها تمزج بين النمط الهندي والنمط القوطي. وهي هجينٌ عقيم، كالبغال. فليس لها أثرٌ في المسار العام للعمارة، ولا تلتزم بمبادئها. ربما تعجبك إعجابًا عارضًا، إذا حدث ووافقت تيارًا ذا نزعة معاصرة. ولكن الأعمدة في برسبوليس لا ينطبق عليها ذلك.

فالأعمدة هي أول ما يخطف العين. الملامح المعمارية الأخرى هي السلالم، والمصطبة، وأبواب القصر. السلالم مقبولة لأنه يوجد كثير منها. والمصطبة مقبولة لأن كتلها الهائلة طرحت معضلةً هندسيةً ووجدت لها حلًّا. ولكن لا يوجد في أيٍّ منهما أيُّ لمحة فنية. ولكن الأبواب تشتمل على لمحة فنية. إذ تسطَع وحدها، بوميضٍ يُنبئ بابتكار حقيقي؛ فهي تطرح أفكارًا، وتثير ملاحظات، فيما يتعلق بالأبواب الأخرى. أبعادها محدودة وسميكة؛ ومن ثَم تشجِّع على الدخول والخروج المتواصل منها؛ بينما تطلب أبوابنا من المار أن يتوقَّف قليلًا وترسم لنفسها إطارًا. وهي، مثل الأقواس في ستونْهِنج، مصنوعة من أعمدة المونوليث، عمود في كل جانب من الجانبين وعمود بالأعلى. غير أن تشكيلاتها وزواياها حادة ودقيقة كما لو كانت مقطوعة بآلة.

يأتي بعد ذلك التزيين. تتسبَّب تلك النقوش البارزة في صدمةٍ بشعة لأي أحد كان يعرفها من الصور الفوتوغرافية. ففي المواضع التي كانت معرَّضة فيها لعوامل الطقس،

يبرز تصميمها وإيقاعها بشاعرية من الحجر المرقَّط بالأسود. وتتسم تلك التي بداخل الأبواب، وتلك التي استخرجها هِرتسفلد، بنفس التصميم والإيقاع. غير أن حجارتها، نظرًا لصلابتها الفائقة، أثبتت صمودها أمام الزمن؛ إذ تظل رمادية ملساء ساطعة، مصقولة كقِدر من الألومنيوم. تؤثِّر هذه النقاوة في النقش كما يؤثِّر ضوء الشمس في لوحةٍ فنية مزيفة؛ إذ تكشف عن فراغ مربك بدلًا من العبقرية المتوقَّعة. أدركُ جيدًا جدًّا ما كان كريستوفر يعنيه عندما قال إن المنحوتات كانت «غير عاطفية دون أن تكون عقلانية». الفكرة التي خطرت ببالي لا إراديًّا، عندما أراني هِرتسفلد بيت الدَّرج الجديد، كانت: «كم كلَّف هذا؟ هل صُنع في مصنع؟ لا، لم يحدث كذلك. إذن، كم عاملًا نقش وصقل هذه الأشكال اللامتناهية، وكم استغرق الأمر من سنين؟» بالتأكيد هي ليست أشكالًا آلية؛ ولا طوَّرت نفسها؛ ولا هي رخيصة بمعنى افتقارها إلى المهارة الفنية. ولكنها أشبه بما يُطلِق عليه الفرنسيون «شيئًا زائفًا جيدًا». إن بها لمحةً فنية، ولكنها ليست لمحةً فنية تلقائية، وهي بالطبع ليست فنًّا عظيمًا. فهي، بدلًا من العقل والمشاعر، تنضح بتزيينٍ يفتقر إلى الروح، قشرة اقتبسها الآسيويون الذين كانت موهبتهم الفنية مكبَّلة وواهنة بفعل تواصلهم مع شعوب البحر المتوسط. لمعرفةِ ما كانت عليه تلك الموهبة بالفعل، وكيف تختلف عن هذه، يمكن للمرء أن يُلقي نظرةً إلى النقوش الآشورية في المتحف البريطاني.

يشعر المرء بمفاجأةٍ أقل عندما يرى الشرفات على امتداد الحاجز، ودرابزينات بيت الدَّرج. وجدها هِرتسفلد في حالةٍ شبه ممتازة؛ فلكلٍّ منها ثلاث درجات، وتبدو كما لو أنها قد بُنيت من صندوقِ مكعَّبات للعب الأطفال. زيَّنت هذه الزوائد المتعرِّجة جميعَ القصور؛ فقد نسخها كريفتر بدقة. إنها شديدة القبح في حد ذاتها. ولكن نظرًا لمجاورتها للنقوش، فإن تكرارها غير المتقن وظلالها المائلة تفسد رقةَ النقش أيضًا. قال هِرتسفلد: «إنها تضفي عليها حياة.» بالفعل هي تصنع ذلك. ولكنها ليست حياةً جميلة كما أنها تقتل كل شيء آخر.

آباده، ٣ مارس: لم يستطِع علي أصغر أن يحتمل صالة الشاي أكثرَ من ذلك. غادرنا برسبوليس بعد الغداء.

كانت جادة مشجرة حديثًا متفرعة من طريق أصفهان تقود إلى مقبرة قورش، وهي عبارة عن ناووس من الرخام الأبيض على وطيدةٍ عالية مدرَّجة، تقف وحدها بين الحقول المحروثة. يدل شكلها على قِدَمها؛ فكل حجر قد قُبِّل وحده تبرُّكًا، وكل فاصل قد مُسِّد حتى أُحدِث فيه تجويف، كما لو كان بفعل البحر. ليست هناك زخارف أو شيء صارخ يعكِّر

صفو وحدتها. يكفي أن الإسكندر كان أول سائح إليها. كان يوجد معبد حولها في الماضي. وما زال بوسع المرء أن يرى كيف كان استنتاجًا من قواعد الأعمدة.

منذ ذلك الحين، أصبح مقبرة والدة سليمان. وإذعانًا لهذا التحول، حُفر محراب منمنَم وكتابة عربية على أحد الجدران الداخلية. تتدلى فوق المحراب مجموعة من الخِرق والأجراس، وكانت أوراق لمصحف قديم تتطاير في أنحاء الأرضية. وتشغل قبور إسلامية الأرضَ داخل حدود المعبد.

وبعد ذلك بمسافة نصف ميل تقف مصطبة من نوعية مصاطب برسبوليس، يرتكز عليها عمود وحيد أبيض وأملس؛ وبالقرب منها، توجد أطلال مدفن كالذي في موقع نقش رستم. وأخيرًا، بينما كانت آخر أشعة للشمس تنبثق من كومةِ سُحب ممطرة، تمشَّيت عبر الأرض المحروثة إلى تلك اللوحة التذكارية الرخامية المنعزلة، المنقوش عليها تمثال قورش ذو الأجنحة الأربعة. عندئذٍ كان بوسعي بالفعل أن أتخيَّل ما كان يشعر به زائر برسبوليس في الماضي؛ وبينما كنت في أحلام اليقظة تلك ضللت الطريق في الظلام، حتى أنقذني وميض المصابيح الأمامية لسيارة.

أصفهان، ٥ مارس: في ذلك اليوم كنت أجلس مع ويشاو، «زعيم النفط»؛ أو بعبارة أخرى، مدير الفرع المحلي لشركة النفط الأنجلو-فارسية.

اسم حاكم أصفهان هو السيد «صور إسرافيل». قبل الذهاب لمقابلته، طلبت من أحد موظفي ويشاو أن يترجم لي خطاب توصيتي:

سعادة السيد الحاكم العام،
أصفهان

السيد بيرن، أحد مثقَّفي إنجلترا، يطلب من سعادتك السماح له بزيارة المباني التاريخية وغير ذلك في تلك المناطق، وسيلتقط أيضًا صورًا للمباني المذكورة.

يُرجى إصدار التعليمات اللازمة للسلطات فيما يتعلق بتقديم أي مساعدة قد يحتاجها.

إمضاء/ محمود جام
(خُتم) وزارة الداخلية

أخبرني السيد «صور إسرافيل» بخططه لتحسين الميدان. تسبَّبت له أول مرحلة في تلك الخطط في ورطة؛ لأن مارجوريبانكس يرفض حفر البِركة الجديدة في الأرض بحجةِ

أنه قد يتوَّلد عنها بعوض الأنوفيليس. ومع ذلك سيمضي قُدمًا في بقية المراحل. فمن المقرَّر أن تُكسى الجدران ذات الأروقة المقنطَرة بالبلاط. وحيث يجتاز الطريق مدخل البازار في الطرف الشمالي الشرقي، سيمرُّ أسفلَ ممرَّين مقنطَرين مبلَّطين كبيرين على كلا الجانبين. المهندس المعماري المسئول هو ألماني يعمل تحت إشراف لجنة تتألف من هِرتسفلد وجودارد وعلماء آخرين.

أصفهان، ٩ مارس: يأخذ الرسَّام مظفر، الذي عرض أعماله في مَعرِض لندن ورسم بعدها صورةً للملكة، المرء إلى أيامٍ ما قبل الطابع الفني، عندما كان الفنانون ينفِّذون ما يُطلب منهم. إنه ينحدر من أجيال من الرسَّامين، وقد ورِث عنهم مسلكهم كحِرفيين؛ فقد بدأ في الواقع بتزيين حافظات أقلام الحبر. طلبت منه أن يصنع لي منمنمة على صورتي. فقال بالطبع سيفعل إذا أعطيته صورةً فوتوغرافية لينقل منها. رددت عليه بأن ذلك بالضبط ما لن أفعله؛ لأن غرضي من تكليفه بالأمر كان أن أرى ما إذا كان باستطاعته أن يرسم بالنقل من الطبيعة. إنه يستطيع أن يفعل ذلك. فقد رسم صورة شخصية، وكان الشبه قريبًا، على النمط الفارسي نوعًا ما. ولكن كان عليَّ أن أصمِّم صورةً أوضِّح فيها على الورق الحيزَ الذي يجب أن تُبسَط عليه الرأس، وأقرِّر ما إذا كانت الخلفية ستكون فارغة أم مزخرَفة. يرسم تلاميذه الخلفيات والأُطُر من مخزون من الأنماط التقليدية.

إنه يفتخر بأنه يمتلك أسلوبين؛ الفارسي والأوروبي. لقد رأيت بعضًا من المنمنمات التي رسمها من صور فوتوغرافية؛ وببساطة كانت مطابقة للصور الفوتوغرافية، الفرق الوحيد أنها كانت ملوَّنة. منذ بضعة أيام صمَّم مُلصَقًا رائعًا يحتوي على طاووسَين لعلامة تِجارية للسجائر المحلية. قال معلنًا في فخر: «تفضَّل! يمكنني صنعُ المنمنمات ويمكنني صنعُ هذا. ما كان بوسع روبنس أن يفعل كلا الأمرين.»

لماذا روبنس؟ لماذا روبنس بالتحديد؟

أصفهان، ١٣ مارس: وفْق الأخبار التي جاءت من طهران، فإن كريستوفر الآن سجين في مقر إقامة المندوب السامي ببوشهر. ولا يزال أيروم، رئيس الشرطة، يقول إنه خطأ هيئة الأركان العامة. ويقول وزير الخارجية إن الأمر يرجع إلى أوامر أيروم الشخصية.

وصَلَت إلى هنا السيدة بادج بالكلي، التي تُقدَّر ثروتها بمبلغ ٣٢ مليون جنيه إسترليني، وبصحبتها بعض المليونيرات الأقل ثروة. يشعرن بالبؤس الشديد لأن الكافيار بدأ ينفد. إجمالًا، يسافرن في ظروفٍ أقل راحة بكثير مني. حيث إن دزينة من السعاة (معهن دزينتان) تُظهِر لهن الإجلالَ لا تساوي خادمًا واحدًا يمكنه الطهي ويمكنه تحويل حظيرة خنازير إلى غرفة عادية في خمس دقائق، كما يفعل علي أصغر.

سُمِعَت سيدةٌ في المجموعة تقول عن السيدة مور، التي كانت في طريقها إلى هنا بالطائرة: «ثرية؟ عَجبًا، يمكنها أن تشترينا كلنا أربع مرات.»

أقام السيد «صور إسرافيل» لهن حفلَ شاي. جلستُ بجوار الأسقف الإنجليزي وأمير قاجاري.

سأل الأسقف غاضبًا: «لمَ أنتِ هنا بعيدًا عن الديار؟»

«أرتحل.»

«لأي غرض؟»

أصفهان، ١٦ مارس: أمس كانت ذكرى ميلاد مارجوريبانكس. كما تحتِّم الأعراف الفارسية، أقام الحاكم حفلَ استقبال ليلة أمس الأول.

أعاد هذا العُرف المفاجئ الحياةَ لقصرِ شيهل ستون محوِّلًا إياه من ظُلة صيفية قديمة إلى القبَّة المملوءة بالمرح والفخامة التي كان عليها في الأصل. بدت الشرفة هائلة، وقد بُسطَت فيها السجاجيد، وأضيئت بأهرامات من المصابيح، وامتلأت ببضع مئات من الأشخاص؛ حيث علَت أعمدتها الخشبية ومظلتها الملونة في سماء الليل، وبدت الكوَّة الزجاجية بالخلف، المتلألئة بزخارفها الذهبية، بعيدةً بُعدًا لا نهائيًّا. جلس الفُرس في صفوفٍ سوداء وأيديهم معقودة وأقدامهم أسفل كراسيهم. كان الدكتور وولف يضع على رأسه أُرصوصة. وفي المقدمة كانت توجد طاولات عليها أكوام من الكعك واليوسفي. وكان نُدُل يقدِّمون عددًا لا نهائيًّا من أكواب الشاي.

وصل السيد «صور إسرافيل»، وكان يرتدي بذلةَ سهرة يُرفرف فوقها مِمطَر. كان باديَ السعادة برؤية الجميع هناك حتى إن الجميع كانوا سعداء لرؤيته. صافح كلَّ مَن تمكَّن من الوصول إليهم، وتولَّى دور المُضيف بدلًا من الدور الرسمي الصوري الذي كان سيلعبه أي حاكم إنجليزي.

بدأت فرقةٌ نحاسية من صِبيةٍ أرمينيين من جلفا في العزف، وانتقلنا للمقدِّمة لمشاهدة الألعاب النارية. انفجرت هذه الألعاب النارية بجوار البِركة الطويلة، من صواريخ ودواليب نار وبقية الأنواع، حتى إنه في النهاية كان يتدفَّق صفان من النوافير الذهبية في الماء الأسود، وهمْهَم مارجوريبانكس نفسُه بحقدٍ وسط اللهيب في الطرف البعيد. لعبت الفِرقة السلام الوطني، وكانت تلك هي نهاية حفل الاستقبال الأول.

كان الحفل الثاني أكثرَ انتقائية. تجمَّع ما يقرُب من خمسين شخصًا في غرفةٍ مقنطرةٍ طويلة، تحت تلك الجداريات الجصية الصفوية المفتقِرة إلى الروح التي نافست عمر الخيام

في إعطاء العالَم فكرةً زائفةً عن الفن والوجدان الفارسيَّين. أدَّت زوجة مدير المصرف الألماني دور المُضيفة. ولعبت فرقةٌ أخرى من جلفا موسيقى الجاز داخل صوان زجاجي. في نهاية الغرفة، كان يوجد بوفيه بارد، حيث يُسكب في الكئوس مشروبٌ أحمر من سلاطين كبيرة. ولأنه كان مركَّبًا من ثلاثة أرباع من العَرَقي وربع من نبيذ جلفا، فلم يكن مشروبًا بريئًا كما بدا عليه.

لا يُقدِم أيُّ فارسي على دعوةِ ضيف واحد، فضلًا عن إقامة حفل، من دون سجاجيد. عندما بدأ الرقص، ارتفعت الأرضية كبحر غاضب، ولم يستخدموا المسامير لتثبيت القواطع الخشبية إلا بعد سقوط أزواجٍ عديدين من الراقصين. عند البوفيه، خالَط الأمراء القاجار عدوَّيهم الرسميَّين، الحاكم ورئيس الشرطة. كادت بذلاتهم السموكينج المثالية ذات الأزرار من مجموعة كارتييه أن تجعل بذلتي المستعارة تبدو رثةً لولا العنصر الألماني، الذي يمكن الاعتماد عليه في أي مكان لجعل الجنسيات الأخرى تبدو أنيقة. كان أحدهم، وطوله سبع أقدام، يرتدي سترة فراك، وياقة من دون فتحة بعمقِ أربع بوصات، وصدرية من جلد الجاموس، وكانت لديه الجرأة على التحديق إلى كَمَر بذلتي.

كانت أمسيةً لطيفة، وعندما سألني «صور إسرافيل» بطريقةٍ مؤثِّرة عن رأيي فيها، أثنيت بصدق على ذوقه الطيب. لم يكن ثَمَّة شيء متكلَّف، ولا اهتمام بعادات وتقاليد قومية متفاخرة بالذات عفا عليها الزمن، ولا حداثة فارسية متفاخرة بالذات، لتعكر صفوَ استمتاع الضيوف. يتمتَّع الفرس بهِبة العفوية الاجتماعية. وبعدما جرَّبتها شعرت بتعاطفٍ كبير نحو الوحش المُسن الذي كنا نحتفل بحياته. عِلاوةً على ذلك، ليس بوسع الجميع أن يقولوا إنهم قد رقصوا في شيهل ستون.

كان طريق شار باغ بأكمله مضاءً عندما عُدت إلى منزل ويشاو على الجهة الأخرى من النهر. كانت صفوف من المصابيح والشموع منسَّقةً على مسافات متباعدة تحت الأشجار، في كعكات زفاف كبيرة من الأضواء بارتفاع ثلاثين قدمًا، ملفوفة باللون الأحمر ومدعومة بمرايا مذهبة. وسط كل هذا التوهُّج، الذي تكبَّدت فيه البلدية عناءً كبيرًا ونفقات كثيرة لإثبات ولائها، قدَّم ملالي المدرسة في هدوء شيئًا أفضل. فمن حاجز البوابة الكبيرة، علَّقوا ثلاث ثريات مصقولة، كشفت شمعاتها الباهتة الوامضة في الفراغ الخلفي للقوس عن ثلاث كرات من السَّمك الذهبي المتدلية بينها.

بحلول عصر اليوم التالي، كان ثَمَّة موكب. ولكن لأنني قضيت الصباح في تزيين السيارة الأنجلو-فارسية، فقد غفوت بعد الغداء وفاتني. وفات ويشاو أيضًا؛ لأن جميع موظفيه كانوا قد غادروا، وكان عليه أن يبقى لحراسة فناء التخزين.

أصفهان، ١٨ مارس: جمال أصفهان يسلب العقل على حين غِرة. إذ تتجوَّل فيها بالسيارة عبر جادات تصطف فيها جذوع أشجار بيضاء وظلات ذات أغصان متلألئة؛ وتمرُّ على قباب باللونين الفيروزي والأصفر الزاهي في سماء زرقاء بنفسجية متدفِّقة؛ وتواصل بحذاء النهر الذي يعجُّ بمياه ضحلة ملتوية، تلتقط تلك الزُّرقة في طميها الفضي، وتصطف عليه أيكات خفيفة تدعوك عصارتها؛ وعبر جسور من قِرْميد بلون حلوى الطوفي الباهتة، وصف فوق الآخر من الأقواس يجتاز سرادقات مكوَّمة؛ وتُطلُّ عليك جبال ذات لون بنفسجي فاتح، وجبل كوه صفه الذي يشبه حدبة بنشيللو، وسلاسل جبال أخرى منحسِرة إلى صف من الأمواج المكسوة بالثلج؛ وقبل أن تعرف كيف حدث هذا، تصبح أصفهان شيئًا لا يمحى من مخيلتك، وتدسُّ صورتها في ذلك المعرض للأماكن التي يُقدِّرها كل شخص سرًّا.

لم أعاونها في إحداث ذلك الأثر. فقد شغلتني الآثار عن أي شيء آخر.

قد يُمضي المرء شهورًا في الاستكشاف دون أن يصل إلى نهايتها. بدءًا من القرن الحادي عشر، سجَّل المعماريون والحِرفيون ثروات المدينة، والتغيرات التي طرأت على الذوق العام فيها، وعلى حكومتها ومعتقداتها. تعكس المباني هذه الظروف المحلية؛ ففيها يكمُن سحرها؛ سحر أقدم المدن. غير أن بضعة مبانٍ تُظهر ذروة الفن بشكل مستقل، وتضع أصفهان بين تلك الأماكن النادرة جدًّا، كأثينا أو روما، التي تمثل الإنعاش الشائع للبشرية.

تُبرِز الغرفتان المقبَّبتان في مسجد الجمعة هذا التمايز بفضلِ ما بينهما من تباين. فقد بُنيت كلتاهما في الوقت نفسِه تقريبًا، وهو نهاية القرن الحادي عشر. في الغرفة الكبرى، التي هي الحرم الرئيسي للمسجد، تنخرط اثنتا عشرة دعامة في نضال على شاكلة نضال بروميثيوس مع ثقل القبَّة. في الواقع، هذا النضال يُضمِر النصر؛ فإدراك النصر يتطلب اهتمامًا مسبقًا بهندسة القرون الوسطى أو بشخصية السلجوقيين. هذا على النقيض من الغرفة الصغرى، التي هي في الواقع برجُ دفن مُدخَل في المسجد. تبلغ مساحة الجزء الداخلي نحو ثلاثين قدمًا مربَّعة، وبارتفاع نحو ستين قدمًا؛ فمن المحتمل أن حجمها يساوي ثلث حجم الغرفة الأخرى. ولكن بينما لم تقدِّم الغرفة الكبرى التجربةَ المتناسبة مع حجمها، فإن الغرفة الصغرى تجسِّد تلك اللحظة الثمينة بين خوض تجربة فقيرة للغاية وتجربة شديدة الثراء؛ حيث صُقلت عناصر البناء من كتلة فائضة، ولكنها لا تزال صامدة أمام إغراءات الزخارف الزائدة عن الحاجة؛ ومن ثَم فإن كلَّ عنصر، كعضلات رياضي مدرَّب،

يؤدي وظيفته بدقة مهيبة، دون إخفاء الجهد المبذول فيها، كما يحدث في العناصر ذات الزخارف الزائدة عن الحد، بل يعمل على التكيف مع أعلى درجات المعنى الفكري. هذا هو الكمال المعماري، الذي لا يلعب فيه شكل العناصر دورًا — لأن هذه مسألة اتفاق — بقدرِ الدور الذي يلعبه التوازن والنِّسب. وهذا التصميم الداخلي الصغير يدنو من ذلك الإتقان أكثرَ مما كان يمكن أن تخطر على بالي إمكانية وجوده خارج أوروبا الكلاسيكية.

المواد نفسُها تُعَد مؤشرًا على الاقتصاد، حيث قوالب القِرْميد الصغيرة الصلبة ذات اللون الرمادي الفاتح، التي تُغلِّف زخرف نصوص الخط الكوفي والترصيع الجصي في وحدة هدف صارمة. من حيث الهيكل، فإن الغرفة نظام من الأقواس؛ قوس عريضة في منتصف كل جدار، وقوسان ضيقتان بجوار كل ركن، وأربع أقواس مصغرة في كل حنِيَّة ركنية، ثمانية في كل نطاق حنِيَّة ركنية، وستة عشر فوق الحنايا الركنية لتستقر عليها القبَّة. امتد نطاق الإبداع الموجود في فيروز آباد؛ وسيمتدُّ لأبعد من ذلك قبل أن تموت العمارة الفارسية في القرن الثامن عشر. نشاهده هنا في أوج شبابه وحيويته. وحتى في هذه المرحلة، يتكرَّر النظام أو يتنوَّع في مبانٍ كثيرة أخرى، كبرج الدفن في مراغة على سبيل المثال. ولكني أشكُّ فيما إذا كان يوجد مبنًى آخر في بلاد فارس، أو في البلاد الإسلامية بأسْرها، يوفِّر تجليًا بهذه الحدة الشديدة والآنية الشديدة للشكل المكعَّب الخالص.

وفقًا للنقش حول القبَّة، فقد بَنى برجَ الدفنِ هذا أبو الغنائم مرزبان، وزير مَلِك شاه، سنة ١٠٨٨. تُرى ما الظروف في تلك اللحظة التي حفزت مثل هذا السمو في العبقرية. هل كان بفعل عقلية جديدة من آسيا الوسطى على الحضارة القديمة للهضبة، نتاجًا لطاقة بدوية عبر الجماليات الفارسية؟ لم يكن السلاجقةُ الغزاة الوحيدين لبلاد فارس الذين أحدثوا هذا الأثر. فقد سبقتهم في ذلك السلالة الغزنوية، وتَلَتْهم السلالتان المُغولية والتيمورية، وجميعهم جاءوا من شمال نهر أوكسوس (جيحون)، وكلٌّ منهم أحدث نهضةً جديدة في التراب الفارسي. وحتى الصفويون، الذين كانوا مصدرَ الإلهام للمرحلة الأخيرة والأضعف في الفن الفارسي، كانوا أتراكًا في الأصل.

كانت هذه المرحلة الأخيرة هي التي أعطت أصفهان الشخصية التي تتمتَّع بها اليوم، والغريب في الأمر أنها كانت هي التي أنتجت تحفتها الفنية الرائعة الأخرى. في عام ١٦١٢، كان شاه عباس عاكفًا على بناء المسجد الملكي في الطرف الجنوبي الغربي للميدان، الذي تُشكِّل كتلته الزرقاء الضخمة ومساحته الضخمة من البلاط ذي الورود الخشنة ذلك النوعَ من المشاهد «الشرقية» التي كانت محبَّبة للغاية لأصدقاء عمر الخيام؛ فقد كانت جميلة،

إن شئت أن تصفها بذلك، بل باهرة، ولكنها غير مهمة بحسب المقياس العام للأشياء. ومع ذلك، فإنه في عام ١٦١٨ بنى مسجدًا آخر في الجانب الجنوبي الشرقي من الميدان، والذي سُمي باسم حَمِيه الشيخ لطف الله.

يقف هذا المبنى على طرف النقيض للتميز المعماري للغرفة المقبَّبة الصغيرة بمسجد الجمعة. فهذا الأخير استثنائي لأنه إلى جانب جودته الفريدة، فإن تلك الجودة من نوعٍ اعتبره معظم الناس حِكرًا على العقل الأوروبي. يُعد مسجد الشيخ لطف الله فارسيًّا بالمعنى الرائع للكلمة؛ حيث يستطيع أتباع عمر الخيام، الذين يمثِّل لهم الشكل العقلاني لعنةً كالعمل العقلاني، الانغماسَ فيه مستمتعين قدرَ ما شاءوا. لأنه في حين أن الغرفة المقبَّبة هيكل فحسب بلا لون، وزخارفها مطموسة تحت وطأة تكوينها، يخفي مسجد الشيخ لطف الله أيَّ دلالة على تكوين أو شكل ديناميكي تحت سراب من الأسقف المنحنية الضحلة، التي تمثل الذرية الوافرة للحنِيَّة الركنية الأصلية. الهيكل حاضر هناك، وبالفعل يجب أن يكون كذلك، ولكن كيفية تشكيله وماهية ما يدعمه أسئلةٌ لا تعيها العين العادية، كما هو مراد لها، إلا في حال تحوَّل انتباهها عن موكب الألوان والأنماط. والألوان والأنماط مألوفةٌ في العمارة الفارسية. غير أن لها هنا طابعًا لا بد أنه يُذهِل الرجل الأوروبي؛ ليس لأنها تنتهك ما ظن أنه يحتكره، ولكن لأنه لم يكن لديه أدنى فكرة من قبلُ عن أن النمط المجرد قادر على تلك الروعة البالغة.

كما لو أنه يعلن عن هذه المبادئ بأسرعِ ما يمكن، فإن الجزء الخارجي للمسجد لا يبالي بالتناظر بدرجة عجيبة. ولا يُرى من الواجهة سوى القبَّة والبوابة. ولكن بسبب التفاوت بين محور المسجد ومحور قصر عالٍ قابو في مقابله، فإن البوابة، بدلًا من أن تكون أسفل القبَّة مباشرةً، تميل قليلًا إلى أحد جانبيها. ومع ذلك فإن القبَّة ذات طابع متميز؛ فهي مختلفة جدًّا عن أي قبَّة في بلاد فارس أو في أي مكان آخر، حتى إنه يصعب ملاحظة هذا الانحراف. حول جزء نصف كروي منبسط مصنوع من القِرْميد الشديد الصِّغَر ومغطًّى بطلاء بلون القريدس، تمتد شجرة ورد ذات أفرع عريضة مطعَّمة باللونين الأسود والأبيض. بالنظر إليها عن قرب، نلاحظ في التصميم لمحةً من تصاميم ويليام موريس، ولا سيما في الأشواك؛ ولكنه في المجمل تقليدي أكثر من تصاميم مدرسةِ ما قبل الرفائيلية؛ فهو أكثرُ شبهًا بتصميم لأحد مطرزات جِنوة، ولكنه مضخَّم بشكل هائل. وفي مواضعَ مختلفة، عند مواضع تداخل الأفرع أو في ثنايا الأوراق، تُخفِّف زخارفُ بلون أصفر مائل إلى البني وأزرق داكن من حدةِ الزخرفة التشجيرية السوداء والبيضاء، وتجعلها

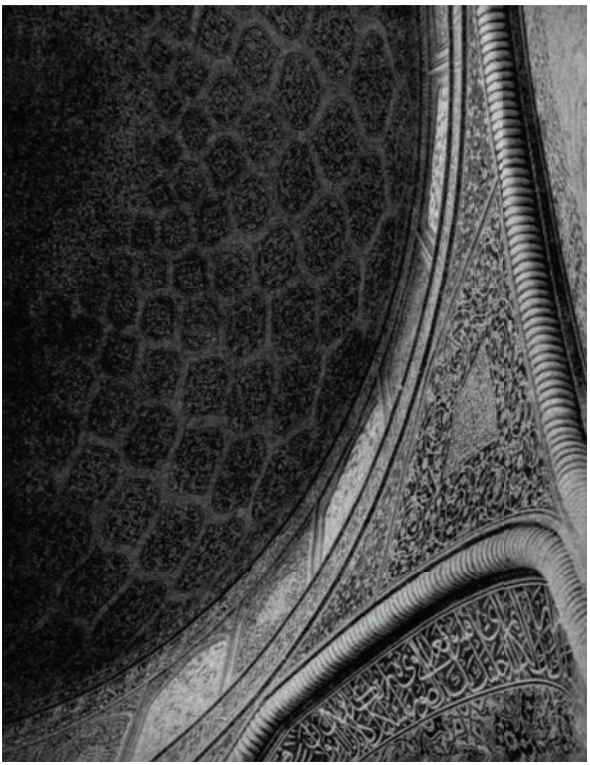

أصفهان: قبة مسجد شيخ لطف الله ١٦١٨.

في تناغم مع اللون الوردي الناعم ذي المسحة الذهبية في الخلفية، وهو نهجٌ تكرِّره أوراق تحتية منتشرة ذات لون أزرق فاتح باهت. إلا أن عبقرية التأثير تكمُن في لعبة الأسطح. فالترصيع مزجَّج. ولكن التجصيص ليس كذلك. ومن ثَم تسقط أشعة الشمس على القبَّة بإضاءةٍ شديدة «منكسرة» يضيف وميضها المتفرق، والمتحرك حسب الوقت من النهار، قوامًا ثالثًا للنمط، وهو قوام متحرك وغير متوقَّع.

إذا كان الخارج يتميز بنمطٍ شاعري، فإن الداخل يغلب عليه طابع أغسطسي. فهنا توجد قبَّة أقل ارتفاعًا، قُطرها حوالي سبع عشرة قدمًا، تطفو فوق حلقة من ست عشرة نافذة. من الأرضية إلى قاعدة النوافذ يرتفع ثماني أقواس رئيسية، أربع منها تحيط بزوايا

قائمة، أربع مساحات جدران مسطحة، بحيث تُشكِّل حدود الأرضية مربعًا. وتشغل ثماني حنايا كرويَّة، مقسَّمة إلى أسطح كأجنحة الوطواط، المساحةَ بين قمم الأقواس.

القبَّة مطعَّمة بشبكةٍ من تقاسيم على شكل ليمونة، يزداد حجمها كلما نزَلَت مما يشبه شكل الطاووس في القمة، ويحيط بها قِرْميد غير مزخرف؛ وكل تقسيم مملوء بنمط من أوراق الشجر المرصَّع بجص غير مزخرف. الجدران، التي تحدُّها كتابات بيضاء عريضة على خلفية باللون الأزرق الداكن، مرصعة كذلك بزخارف أرابيسك مستديرة أو مربَّعات مزخرفة على الطراز الباروكي على جص باللون الأصفر المائل إلى البني. الألوان في كل هذا الترصيع هي الأزرق الداكن، والأزرق المخضر الفاتح، وخضاب ذو وفرة غير محدَّدة كالنبيذ. وكل قوس مؤطرة بما يشبه البريمات الفيروزية. المحراب في الجدار الغربي مطلي بزهور شديدة الصغر على مرج بلون أزرق غني.

كل جزء من التصميم، وكل مستوًى، وكل تكرار، وكل فرع أو زهرة، له جماله الحزين الخاص به. غير أن جمال المكان ككلٍّ يظهر عندما تتحرَّك فيه. مرة أخرى، تنكسر الأضواء الشديدة بتلاعب الأسطح المزجَّجة وغير المزجَّجة؛ بحيث تعيد ترتيب نفسِها مع كل خطوة في أنماط برَّاقة لا حصر لها، بينما حتى أنماط الضوء عبر الزخارف التشجيرية السميكة للنوافذ غير ثابتة، بسبب الزخارف التشجيرية الخارجية التي تبعُد بضع أقدام وتضاعف من التباين في كل صورة ظلية متباينة بالفعل.

لم يصادفني قطُّ بهاءٌ من هذا النوع من قبل. خطرت ببالي جميع التصميمات الداخلية وأنا واقف هنا، لمقارنتها بالتصميم هنا: قصر فرساي، أو غرف البورسلين في قصر شونبرون، أو قصر دوجي، أو كاتدرائية القديس بطرس. جميعها ذات تصميمات داخلية ثرية؛ ولكن لا أحدَ منها شديد الثراء. فثراؤها ثلاثي الأبعاد؛ حيث يتحقق بالكامل بفعل الظل، بينما في مسجد شيخ لطف الله، الثراء هو ثراء نابع من الضوء والسطح، من النمط واللون فحسب. الشكل المعماري بسيط. فهو ليس ممتلئًا بالزخارف، كما في طراز الروكوكو، بل هو ببساطة أداةٌ لعرضٍ ما، مثلما أن التربة أداةٌ لزراعة حديقة. ثم تبادر إلى ذهني فجأةً ذلك الصنف البائس من البشر، مصمِّمو الديكور الداخلي الحديث، الذين يتصوَّرون أن بوسعهم جعْلَ مطعم، أو دار سينما، أو صالة استقبال بلوتوقراطية، تبدو ثرية إذا ما أُعطوا ما يكفي من المال لشراء صفائح ذهبية ومرايا. إنهم يجهلون أنهم هواة. وللأسف يجهل عملاؤهم أيضًا ذلك.

يِزْد (٤١٠٠ قدم)، ٢٠ مارس: بدت الصحراء بين أصفهان ويِزْد أوسع، وأكثر سوادًا وكآبة من أي صحراء أخرى، رغم شمس الربيع الدافئة. كان المتنفَّس الوحيد فيها

هو تلال التهوية في القراريط، التي امتدت كأراصيص في صفوفٍ تمتد عشرة وعشرين ميلًا، وضخَّمها الهواء المتألق الصافي تضخيمًا هائلًا. أتذكَّر عندما أخبرني نويل أن حساباته تقول إن ثلث الذكور البالغين في بلاد فارس يعملون بشكلٍ دائم في قنوات المياه الجوفية هذه. لقد تطوَّرت قدراتهم في أستاتيكا الموائع على مدارِ أجيال متعاقبة، حتى إن بوسعهم تشييدَ منحدر من أربعين أو خمسين ميلًا عبر منطقة شبه مسطَّحة دون استخدام أي أدوات، ودون حفر سوى عدد محدود من الأقدام تحت الأرض.

وقع لي خَطبٌ مروِّعٌ هذا الصباح. فليلة أمس، عندما كنت ذاهبًا إلى البعثة الإنجليزية لأتلقَّى لقاحًا، قبلت اقتراحهم الكريم بأن أنام في سرير الطبيب بما أنه لم يكن موجودًا. في منتصف الليل، عاد الرجل المسكين على غير المتوقَّع، وعندما رأى رأس رجل غريب على وسادته، اضطُر للنوم على أريكة. ولكن ما أعقب ذلك كان أسوأ. فعندما تجرَّأ أخيرًا على دخول غُرفته لجلب بعض الملابس النظيفة، رآني في حالة عربدة؛ حيث كنت جالسًا على سريره ومعي زجاجة من النبيذ وسيجار. ولأنني كنت أعلم أنني سأكون بالخارج طوال اليوم، فقد تناولت غداءً مبكِّرًا. حاولت التظاهر بأن لا شيء في الأمر بأن عرضت عليه بعض النبيذ، ولكنه كوَّن انطباعًا سلبيًّا عني.

كنت قلقًا من عدم حصولي على خطابِ توصية عندما أصل إلى هنا. قال علي أصغر بجدية: «سأكون أنا خطاب توصيتك»، موضِّحًا أنه كان خادمًا لحاكمِ يِزْد الحالي لمدة عشر سنوات، عندما كان الحاكم رئيس بلدية أصفهان؛ وفي الواقع، مباشرةً قبل أن أضمَّه في شيراز، أرسل الحاكم له برقيةً يطلب منه الرجوع ولكنه رفض. الآن، عندما دخلنا مكتب الحاكم، كان هناك! هبَّ الحاكم من فوق كرسيه صائحًا. وقف علي أصغر، الذي كانت له في أوج تألُّقه هيئة قس مُسِن، بيدين معقودتين وركبتين مرتخيتين، راسمًا ابتسامةً متكلفة ومُرخيًا جَفنيه في حياءِ آنسةٍ فيكتورية. وأخيرًا، وكما كان قد تنبَّأ، حوَّل الحاكم مودته إليَّ سائلًا عما إذا كان علي أصغر متفرغًا الليلة لتناول العشاء معه والتحدث عن الأيام الخوالي.

بعد تسويةِ هذا الأمر، حصلت على كل التسهيلات الممكنة للاستكشاف، ورافقني ضابط شرطة ذكي وكريم. يجب أن يبدأ البحث عن الآثار في بلدةٍ بِكرٍ مثل يِزْد من ارتفاعٍ مناسب، يمكن منه رؤية أي القباب أو المآذن مبشِّرة برؤيةِ عمل جيد أسفلها، استنباطًا من أشكالها أو موادها. اليوم، أثمر دليلٌ تلو الآخر عن كنز، حتى كدنا في نهاية اليوم نصبح متعَبين لدرجةٍ يصعب معها السير للمنزل.

السير بيرسي سايكس هو الكاتب الوحيد الذي كتب عن المباني هنا، ولكن ذكرها بإيجاز شديد. هل يسافر الناس عميانًا؟ يصعب أن أتخيَّل أن أحدًا يمكن ألا يلحظ بوابةَ مسجد الجمعة. إذ ترتفع لما يزيد على ١٠٠ قدم، وقوسها المستدقَّة الضيقة تكاد تُضاهي في إبهارها قوس المذبح في مدينة بوفيه الفرنسية. بعد هذا، الباحة بالداخل مخيِّبة للآمال؛ فهي تشبه حوش أبرشية صغير. ولكن الحرم، المكسوة جدرانه وقبَّته ومحرابه بفسيفساء من القرن الرابع عشر بحالةٍ جيدة، ليس مخيبًا للآمال. هذا هو أفضل ديكور رأيته من ذلك النوع بعد هِرات. إنه يختلف عن الصنعة هناك. فالألوان أكثر برودة، والتصاميم أكثرُ وضوحًا ودقة، ولكنها ليست فائقة الجمال.

كانت تستدرجنا حاليًّا عبر البلدة سلسلةٌ استثنائية من الأضرحة البسيطة ذات القباب البيضوية، وهي استثنائية لأنها بسبب كونها مبنية من قِرْميد لا يكاد يمكن تمييزه عن الطمي، ربما كان من المتوقَّع ألا تحوي شيئًا سوى الحطام. غير أن ضريحًا تلو الآخر كشف لنا عن جدران وأقبية وقبابٍ تكسوها كتابة كوفية عريضة ومجدولة بأسلوبٍ شديد الثراء، وأحيانًا شديد الاختلال، حتى إنه ليس لها سابقة معروفة. أكثرها تعقيدًا هو ضريح وقت الساعة، الذي بُني عام ١٣٢٤. لا بد أن بعض الأضرحة الأخرى أقدمُ من ذلك. فضريح الأئمة الاثني عشر، على سبيل المثال، به إفريز مزخرف بالكتابة الكوفية بالأسلوب نفسِه الذي في برج بير علم دار في مدينة دامغان، والذي يعود تاريخه للقرن السابع عشر.

صادَفتنا تحفةٌ أخرى في البازار، وهي إحدى بوابات المدينة القديمة المعروفة باسم دروازه مهريز. بابها الخشبي الضخم مثبَّت بألواحٍ حديدية مختومة بعلامات بدائية للأبراج الفلكية. لهذه الأشياء مظهر من القِدم الذي لا حدَّ له. غير أن الأشكال البدائية تشكِّل تقاويمَ لا يُعوَّل عليها. ربما هي مجرد دليل على نقص الكفاءة الفنية.

تختلف يزد عن المدن الفارسية الأخرى. فليس بها حزام من الحدائق، ولا قباب زرقاء باردة، تحميها من الخلاء المنيع خارجها. للبلدة والصحراء اللون نفسه، والجوهر نفسه؛ فقد نمت الأولى من الثانية، وتمثِّل أبراج الرياح العالية، الشاهدة على الحرارة، غابةً قد تنمو طبيعيًّا من الصحراء. إنها تضفي على المكان هيئةً مدهشة، مع أنها ليست مدهشة كحيدر آباد في السند. الرياح هناك تهُبُّ دائمًا من جهة البحر، وتبرز ظلال الأبراج لتتلقَّاها. الأبراج في يزد مربَّعة، وتتلقى الرياح من جميع الجهات الأربع عن طريق أخاديد مجوَّفة تدفعها إلى غرف بالأسفل. تثير غرفتان في كلا طرفي المنزل تيارًا بطول المبنى.

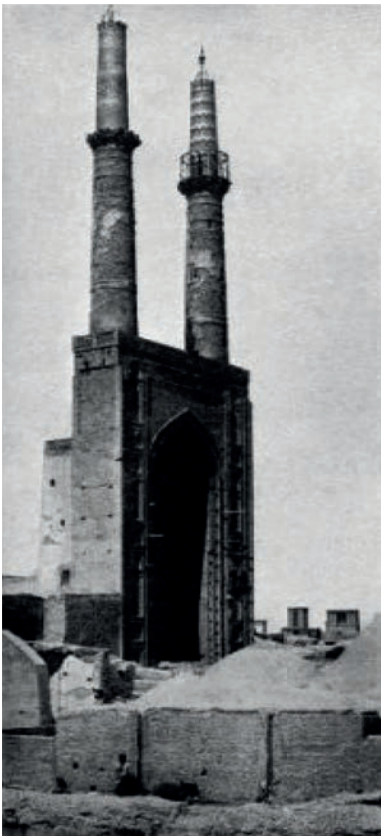

يزد: بوابة مسجد الجمعة القرن الرابع عشر.

في الوقت الحالي، ومع وجود خطط الحاكم الطموحة، لم تُوجَّه سوى جادَّة واحدة عبْر المتاهات القديمة. حتى هذه يستنكرها محبُّو المناظر الخلَّابة. ولكنها تُعد منحةً لأهالي المنطقة؛ إذ يجدون الآن مكانًا للسير، وتنسم الهواء، واللقاء، واستكشاف الجبال البعيدة.

ذهبت إلى المرأب بحثًا عن وسيلةِ نقل إلى مدينة كرمان، وانخرطت في محادثة مع نائبٍ سابق قال لي إن قوام الملك كان مسجونًا، ولكن أُطلق سراحه الآن، بينما يظل مصير ساردار أسد والإخوة البختياريين الآخرين مجهولًا. كان حانقًا على مارجوريبانكس، وتساءلت عن

السبب، حتى حكى أن عمَّه، وهو رجل مُسن في الرابعة والسبعين من عمره ومصاب بالعمى في إحدى عينيه، قد سُجن لمدة سنتين لرفضه أن يترك مارجوريبانكس يستولي على ضِياعه التي كان يزرع فيها الأرز في محافظة مازَنْدَران. انتزع ذلك الحاكم الفذ الضِّياعَ من جميع أنحاء البلاد، وصنع منها ثروة؛ لأن أصحاب الأملاك الآخرين لم يكونوا بهذا القدرِ من الممانعة. أدهشني طيش الرجل. ولكني أفترض أنه ظن أنني لن أخونه. آمُل ألا أفعل ذلك. حدث هذا قبل أن آتي إلى يِزْد، ولم يكن حينئذٍ نائبًا سابقًا.

بهرام آباد (٥٢٠٠ قدم)، ٢٢ مارس: أتناول الإفطار هنا على الطريق إلى كرمان، بعدما أمضيت الليلة بأكملها في شاحنة.

اليوم هو «النيروز»، أي «يوم جديد»، أو بعبارة أخرى هو أول أيام السنة الفارسية الجديدة وعطلة رسمية. للتَّو قال علي أصغر شاكيًا، ومعه بعض الحق: «بلا استحمام، وبلا حلاقة، وبلا ملابس نظيفة.» ثم أوضح كلامه بالإنجليزية قائلًا: «النيروز هو عيد الميلاد الفارسي، أيها السيد.»

فقدَّمت له الهدية المناسبة.

كرمان (٥٧٠٠ قدم)، ٢٤ مارس: أخفَت عاصفة ترابية شديدة المدينةَ عندما وصلنا. إنها تهبُّ عصرَ كل يوم بين الساعة الثانية والرابعة. هبَّت عاصفة أخرى أمس.

بعجرفة، يذكر كتاب ابتهاج، «دليل إيران»: «بسبب عزلتها، فإن التحسينات في كرمان قليلة نسبيًّا.» إنها أكثر مما في يِزْد. إذ توجد عدة شوارع واسعة، وكذلك سيارة أجرة، حالفني الحظ أن صادفتها واستأجرتها لليوم بأكمله، بعدما عرفت أنها الوحيدة في المدينة. خرجت بها من المدينة إلى جبل سنج، وهو ضريح مقبَّب مثمَّن الشكل يعود للقرن الثاني عشر، وهو مثير للاهتمام لأنه بُني من الحجارة وليس من القِرْميد.

خلاف ذلك، ومع أن كرمان لم يستكشفها علماء الآثار قطُّ، لم أجِد سوى شيئين جديرين بالملاحظة. أحدهما كان لوحة المحراب في مسجد الجمعة، المُشكَّلة بفسيفساء من القرن الرابع عشر، والتي يبدو أنها من تصميم فنانين من يِزْد. والآخر كان مدرسة كنج علي خان، وهو مبنًى قبيح وليس قديمًا جدًّا، ولكنه يحتفظ برقعٍ من الفسيفساء. هذه التنانين، والكراكي، وغيرها من الكائنات غير المعتادة في الأيقونات الفارسية، تُشكِّل نوعًا من الزخرفة الصينية، على الرغم من الغموض الذي يكتنف كيفية اختراق الأفكار الصينية في أيٍّ من الأوقات لهذه المدينة البعيدة.

انهارت قبَّة سبز التي ذكرها سايكس. كانت ضريحًا بقبَّة زرقاء طويلة على الطراز التيموري. وجَدتُ بقاياها مدمجة في منزل حديث.

النبيذ هنا أحمر اللون ويصنعه الزرادشتيون. اشترى علي أصغر زجاجة، ولكنها كانت حُلوة المذاق أكثر من اللازم، فبِعتها لصاحب الفندق.

أعارني أحدُ المعارف الفرس المجلَّد الخاصَّ ببلاد فارس ضمن موسوعة «سلسلة العالم الحديث». يكره الفرس جميع الكتب التي تتحدث عنهم، لكنه يقول إنهم يكرهون هذا الكتاب بالتحديد لأنه «مفرط» في مدحهم. هذا عمل عجيب من رجل مُغرَم بنزاهته مثل السير أرنولد ويلسون.

ماهان (٦٣٠٠ قدم)، ٢٥ مارس: ظن الرحَّالة من الحدود الهندية، ومن بينهم كريستوفر، أنهم في الفردوس عندما وصلوا إلى ماهان بعد عبور صحراء بلوشستان الرملية. حتى في الطريق من كرمان، تصدم هذه الصحراء المرء بحضورها الخبيث. ثَمة أكوام من الرمال على الطريق، ولا بد أن هذا يعني نهايةَ بلاد فارس؛ لأن صحراء فارس حجرية.

يمثِّل ضريح نعمة الله مُتنفَّسًا مفاجئًا؛ حيث نعمة وجود المياه وخشخشة أوراق الشجر. يوسِّد اللون الأرجواني أشجار الزمزريق، وينعكس نِثار زهور أشجار الفواكه المبكرة على صفحة بِركة طويلة. في الباحة التالية توجد بِركة أخرى على شكل صليب ومحاطة بمُهُد أنيقةٍ مزروعة حديثًا بزهور السوسن. الطقس هنا أكثر برودة. وأشجار سرو سوداء مستقيمة، تظلها مظلات مرفرِفة من أشجار الصنوبر الأسرع نموًّا، تلقي بظلٍّ شجري عميق. وتشع بينها قبَّة زرقاء متقاطعة مع الخطوط السوداء والبيضاء على شكل شبكات العناكب، ومئذنتان زرقاوان … ودرويش يترنح، مرتديًا قبعة مخروطية وجلد غنم أصفر مُطرَّزًا. يقود الطريق أمام قبر الولي أسفل القبَّة، عبر قاعة واسع مطلية بالكلس، إلى باحة ثالثة أكبر، بها زوج ثانٍ أكبر من المآذن في طرفها البعيد. وتوجد خارج البوابة الأخيرة بِركة أخيرة متناسقة الشكل وشجرة دُلْب عملاقة تتلألأ بعصارتها الجديدة. المنطقة المحيطة مغطاة بكروم العنب، في حقولٍ أشبه بمسارات لعبة البولينج مليئة بأقماع من الطمي لتدعم التعريشات، كما تدعمها أشجار التوت على سهل لومبارديا. تحدُّ الأفقَ سلسلةٌ عالية من الجبال في رداء من الثلج والسديم البنفسجي.

وبينما تُلقي الشمس الساقطة بشرائطَ نحاسية مشتعلة عبر السماء العاصفة بالرمال، تجمَّعت جميع الطيور في بلاد فارس لأداء عرضٍ جوقةٍ أخير. ببطء، يجلب الظلام صمتًا، وتجثم الطيور للنوم برفرفة متباطئة كطفل يُهيئ فَرش سريره. ثم تبدأ نغمة أخرى، نغمة مضطربة حزينة رنانة، على استحياء في البداية، ثم تكتسب جرأة فتنبض دون انقطاع،

حتى تصبح نغمتين، كما لو أن كمانات النغمة الثانية قد تسللت إلى المشهد، فتارةً تسمع هذه النغمة وتارةً تسمع الأخرى، وتُجيبهما نغمةٌ ثالثة من الجهة الأخرى للبِركة. تشتهر ماهان بطيور العندليب. ولكن ما أصغي إليه هو الضفادع. أنا الآن خارج الباحة في الظُّلمة تحت الأشجار. فجأةً تصبح السماء صافيةً، وتنعكس صورة القمر ثلاث مرات؛ مرة على القبَّة ومرتين على المآذن. تنبثق في حنوٍّ من شرفةٍ فوق المدخل دائرةٌ من ضوء كهرماني، ويبدأ أحد الحجيج في الإنشاد. وتتبعه ضوضاء تقاطر المياه في أحواض الزهور المحفورة حديثًا. أخلد إلى الفراش أخيرًا. للغرفة عشرة أبواب وإحدى عشرة نافذة، يصدر عبرها صفير إعصار من الرياح وأصوات فحيح وهرولة القطط وهي تبحث عن عظام الدجاج. لا تزال الضفادع ينادي بعضها بعضًا؛ وتشق تلك النغمة المتألقة الرنانة طريقها إلى نومي؛ وأستيقظ لأجد قطًّا يفتح صندوق طعامي بضراوة تجعلني أتخذه مساعدًا لي لو كنت لصَّ خزائن. يهزُّ تيار الهواء السرير. آمُل أن يكون علي أصغر أكثرَ ودًّا مع الدراويش، ولكني لا أتجرَّأ أن أشتكي له في الصباح؛ فقد قال له الجنرال سايكس إن ماهان «كانت» فردوسًا منذ خمسة عشر عامًا. يوشك الصبح أن يطلع، ويرفع عنه حُجُبَه الرمادية ويطلع؛ وتبدأ الطيور تشدو مرةً أخرى، كما لو كانت تتبع إيقاع قائد أوركسترا حازم، في ترتيلة صاخبة صارخة إلى الشمس، بينما يدخل معها في منافسةٍ مزعِجة سِربٌ، لا ينبغي أن يُنسى، من الغربان في الجهة الأخرى من الغرفة. الآن، على نحوٍ مفاجئ أيضًا، حلَّ الصمت مرةً أخرى، بينما تتسلل أشعةُ الشمس الأولى إلى المشهد. خارج الباب، يُهوِّي علي أصغر والدرويش على صينية من الفحم ويعدان الشاي في وعاء السماور بأناة. تمرُّ خطوات أقدام، ويقول صاحبها: «يا الله!» يردُّ الدرويش قائلًا: «يا الله!» يردِّد الحاج صلاته الصباحية من الشرفة، مستخدمًا نصف نغمة أنفية طويلة تُذكرني بجبل آثوس. تضيء قوسٌ ذهبيَّةٌ القبَّةَ الزرقاء وتكتسي السماء بلون وردي. وها هو ذا علي أصغر يأتي بصينية الشاي.

يِزْد، ٢٨ مارس: شارفنا على يِزْد في الصباح الباكر، بعد رحلةٍ أخرى استغرقت الليل بطوله، وقابلتنا جنازة زرادشتية. كان حاملو النعش يعتمرون عماماتٍ بيضاء ويلبسون ستراتٍ بيضاء طويلة؛ وكانت الجثة مكسوَّة بغطاءٍ أبيضَ فضفاض. كانوا يحملونها إلى برجٍ من أبراج الصمت على تلٍّ بعيد بعض الشيء، وهو جدار دائري أملس بارتفاع خمس عشرة قدمًا تقريبًا.

عصر اليوم قُدت السيارة إلى قرية في الريف لأرى إحدى الحدائق. بالقرية ١٠٠٠ منزل، وتبلغ قيمتها ٦٢٥٠٠ جنيه إسترليني تقريبًا، بما في ذلك مورد مياهها. ويبلغ عائد

تأجيرها ٢٢٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا، وهو ما لا يمثل فائدة كبيرة على رأس المال. كانت أزهار البنفسج وزهور اللوز متفتحة في الحديقة، وكذلك سوسنة بيضاء ممتلئة ذات رائحة قوية. أراني المالك شجرةً لُقِّحَت مرتين، بحيث كان البرقوق والخوخ والمشمش مزهرين عليها في آنٍ واحد. كانت كنوزه الأخرى هي شجرة رمان بلا بذور، والتي كان يبحث عنها كيو؛ ومنزل برتقالي في ساحة غائرة بعمق خمس وعشرين قدمًا؛ حيث تتسع القناة الرئيسية لتصير بِركةً. تحدَّث بحماس عن الفستق الذي يحصل عليه في الصيف من أردكان، التي يتسم طقسها بأنه أكثرُ دفئًا من يِزْد، وبها الماء المَسُوس الذي يحبونه.

أصفهان، ٣١ مارس: كريستوفر هنا.

وقد مُنح إفراجًا مؤقتًا كي يجمع أغراضه في طهران. إذَن الآن، بمشيئة الرب، سنذهب معًا إلى أفغانستان.

توقَّفت في مدينة نائين في طريق العودة لرؤية المسجد الذي يرجع تاريخه إلى القرن التاسع، وهو من أقدم المساجد في بلاد فارس. تمتلئ زخارفه الجصية بأفرع العنب، وتوحي بنقل للأفكار الهلينستية عبر الفن الساساني إلى الفن الإسلامي. ومن هناك، ذهبت إلى أردستان؛ حيث يُستخدم الجص بطريقةٍ جديدة، لتكوين نوعٍ من الزركشة فوق البناء القِرْميدي. هذا المسجد سلجوقي، ويرجع إلى عام ١١٥٨، ويتسم بنقاء التكوين نفسه الموجود في الغرفة المقبَّبة الصغيرة في مسجد الجمعة بأصفهان، ولكن ليس بالدرجة نفسها.

طهران، ٢ أبريل: قطعَ سيلٌ جبليٌّ الطريق خارج أصفهان. بمساعدة اثني عشر فلاحًا دفعنا السيارة عبر المياه إلى مستوى الخَصر. عندما كنا قد أبدلنا ملابسنا، وغيَّرنا الزيت، والبنزين، وشمعات الاحتراق، وجفَّفنا الأسطوانات، كان منسوب المياه قد انخفض، وسبقتنا السيارات الأخرى التي كان أصحابها يكتفون بالانتظار دون فعْل شيء. بدت روح المبادرة البريطانية حمقاء بعض الشيء.

نقيم في المفوَّضية. وعندما نزلت إلى الطابق السفلي وجدت المنزل ممتلئًا بأطفالٍ يرتدون أزياء الجنيات. إنه تدريب لمسرحية للأطفال.

طهران، ٤ أبريل: ساردار أسد «مات بالصَّرع» في مستشفًى بقصر قاجار.

قصر قاجار هو حصنٌ يسيطر على طهران من ارتفاعٍ عالٍ. من هنا قوَّضَت البنادق الروسية الحركةَ الدستورية قبل الحرب. حوَّله مارجوريبانكس إلى سِجن حديث، ولكيلا يغيب هذا الإجلال للتقدم عن الملاحظة، نظَّم زيارة خاصة إلى هناك للأجانب، الذين انبهروا

أرضستان: كوة في مسجد الجمعة.

كثيرًا بالمطبخ والمعدات الصحية. ولكن، كما قال لي أحد الأمريكان أمس: «إن معدل الوفاة بين السجناء من الطبقة العليا مرتفع على نحو غريب.»

كان يوم أمس يومًا يعج بنُذُر الخطر. كان كافيًا أن أقابل مارجوريبانكس في الشارع، وأن أسمع تصفيق أتباعه المحموم. في طريق عودتي للمفوضية، أعلنت ضجةٌ مروعة عن فِرار حصان وعربة، وهذه العربة سقطت على الطريق وأخذت تتطاير منها المقاعد التي كانت تُفرِغ حمولتها من أجل مسرحية الأطفال. دون مشاعر بطولية، تنحَّيت عن الطريق. أغلق الحاجب البوابة، واندفع الحصان إلى القضبان العمودية عاجزًا عن اختراقها، بينما تفسَّخت العربة من تحته. ومع الصدمة التي عُرض لها الحصان، لم يُصَب.

ثم بدأت المسرحية، وتبِعها الشاي.

أنا: «أتريد قطعة أخرى من الكعك؟»

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء): «كلا، شكرًا لك، لقد أكلت. (بصوتٍ عالٍ) لقد اكتفيت، (بصوتٍ خافت تدريجيًّا) ليس إلى هنا (لامسًا حلقه، وبصوتٍ يعلو تدريجيًّا)، بل إلى هنا (لامسًا جبهته). لقد أكلت (بصوتٍ عالٍ) كل شيء. لقد أكلت كلَّ طبق على الطاولة. (بهدوء) كما تعلم، فإن اسمي هو شير أحمد. وشير، كما تعلم، يعني الأسد. (صائحًا، بصوتٍ عالٍ جدًّا) عندما أهجم، (هامسًا، بهدوء شديد) يكون الأمر مروعًا.»

من وراء الستار، نتج عن احتجاز كريستوفر حدثٌ فعلي. كانت التحقيقات المتكررة قد استخلصت الآن مبررًا له، وهو، حسبما قال وزير الخارجية حرفيًّا، أن «السيد سايكس يتحدَّث مع الفلاحين». نتصور أن هذا لا بد أن يكون تلميحًا خفيًّا لمحادثته مع بستاني مارجوريبانكس في دربند. ليس مبررًا مقنعًا جدًّا، ولكنه ربما سيكون كافيًا لعودة وزارة الخارجية في لندن لحالة الرضوخ الخانع المعتادة لسوء معاملة الرعايا البريطانيين. ولقد عبَّروا في هذه الحادثة عن احتجاجهم ببراعة محكمة حتى إن الفرس قرَّروا الآن طرد الأب رايس من شيراز. ربما سيدافع عنه الفاتيكان دفاعًا أفضل. فالسفير البابوي في حالة من الغضب العارم.

زار كريستوفر شير أحمد هذا الصباح.

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء)**:** «هل ستقيم مدةً طويلةً في طهران؟»

كريستوفر: «سأغادر في غضون أسبوعين، وإلى جانب سعادتي برؤية معاليك (ينحني الاثنان)، فقد جئت لطلب الإذن للمغادرة إلى أفغانستان.»

شير أحمد: (مشيرًا في اتجاه أفغانستان، وصائحًا بصوتٍ عالٍ جدًّا): «ستذهب.»

كريستوفر: «إنه لطفٌ من معاليك أن تقول ذلك. ولكني أشعر أنه من واجبي أن أخبرك أولًا أنني كنت مشتبهًا فيَّ بضلوعي في التجسُّس في جنوب فارس، وذلك نتيجة ...»

شير أحمد (بهدوء)**:** «أعلم.»

كريستوفر: «ما يجعل الأمر أكثر عبثًا هو ...»

شير أحمد (بهدوء شديد)**:** «أعلم. أعلم.»

كريستوفر: «لو كانوا قد أخبروني مبكرًا، لكنت ...»

شير أحمد (بهدوء شديد)**:** «أعلم. ولكن لا يهم.»

كريستوفر: «عذرًا معاليك، فالأمر مهم. أنا غاضب جدًّا.»

شير أحمد (ضاحكًا، بصوتٍ عالٍ بعض الشيء): «أنت غاضب، ها، ها — هذا خطأ. وزيرك غاضب — هذا خطأ. الفرس، ها، ها، إنهم على حق، (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) إنهم على حق.»

كريستوفر: «بالطبع معاليك أكثر حكمة من أن تعتقد ...»

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء): «الفرس على حق. لماذا يجعلونك تغادر؟»

كريستوفر: «يقولون إنني أتحدَّث مع الفلاحين.»

شير أحمد (بنبرة انتصار بصوتٍ عالٍ): «إذَن فهم على حق. سأقول لك لمَ هم على حق:

في بلاد فارس، وفي أفغانستان، وفي العراق، وفي بلاد الشرق، (بهدوء شديد) لا توجد أسرار. (بصوتٍ عالٍ) في إنجلترا، وفي روسيا، وفي ألمانيا، (بهدوء شديد) أسرار كبيرة. (بصوتٍ عالٍ) في إنجلترا يوجد سر السُّفُن، وفي روسيا، التي فيها عدة ملايين من الناس، يوجد سر الجيوش، وفي ألمانيا، وفي فرنسا يوجد سر الأسلحة. (بهدوء) في أفغانستان، وفي فارس، (مع إيماءة استبعاد عنيفة) لا توجد أسرار. فلا جيوش. ولا سُفُن. (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) هذا هو تاريخ الممالك.»

كريستوفر: «ولكني لا أفهم لماذا ...»

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء): «سأخبرك. دعني أتكلَّم. الأمر بسيط. (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) ينبغي أن تستمع:

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) كان يوجد حمار مُسن، حمار مُسن مسكين، يحمل فوق طاقته من الحجارة، ويصبح متعبًا جدًّا. ذات يوم، جاء الحيوان ذو الشعر الكثيف، والأنف الكبير، والأسنان العريضة، ما اسمه؟ إنه ينبح كالكلب.»

كريستوفر: «ذئب؟»

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ جدًّا): «ليس ذئبًا.»

كريستوفر: «ابن آوى؟»

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ): «ابن آوى! ... ذات يوم جاء ابن آوى للحمار المسن المسكين. (بهدوء شديد) الحمار متعب جدًّا، وحزين جدًّا. (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) قال ابن آوى: «معذرةً يا سيدي، هل ستكون ملِكًا، هل ستكون شاهنشاه على غابتنا؟»

(بهدوءٍ بعض الشيء) يردُّ الحمار قائلًا: «هذا مستحيل.»

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) يقول ابن آوى: «أجل، أجل، أنا أريد ذلك. يجب أن تقف على هذه الأكمة.»

(بهدوءٍ بعض الشيء) يقول الحمار: «أنا لا أريد ذلك. يجب ألا أكون مِلِكًا. دعني أحمل حجارتي.»

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) يقول له ابن آوى: «لا يهم. قف دائمًا على هذه الأكمة وضعْ هذا الفرو.»

أعطاه ابن آوى فرو أسد. وضعه الحمار على جسده وبقي على الأكمة.

«(بهدوء شديد) في الغابة، يقابل ابن آوى (بصوتٍ عالٍ جدًّا) أسدًا. (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) فيقول: «مولاي، يوجد شاه آخر على التلال، شاه عالٍ، أعلى منك يا مولاي.»

(بهدوء شديد) غضب الأسد كثيرًا. وأجاب (وهو يزأر بصوتٍ عالٍ جدًّا): «جررر! كيف تجرؤ! أين هو؟ سآكلكم جميعًا!» (تلمع عيناه، وتصرُّ أسنانه).

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) يذهب الأسد سريعًا إلى الأكمة. ويرى الحمار في سترة الأسد. إنه كبير للغاية. الأسد-الحمار كبير جدًّا، وعالٍ جدًّا. فيشعر الأسد بالخوف، وينصرف. (ضاحكًا بصوتٍ عالٍ تدريجيًّا) ثم تجثو جميع الحيوانات أمام الحمار. إنه الشاهنشاه على الغابة. (يتوقف قليلًا.)

(بهدوء شديد) في أحد الأيام يأتي (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) خنزير (pick) صغير ...»

كريستوفر: «يأتي ماذا؟»

شير أحمد (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء): «(pick) ... ها، خنزير (pig) ... ينظر إلى الأسد-الحمار. ويُصدِر (ناخرًا بصوتٍ عالٍ) خنخنةً، ضوضاء الخنازير. فيغضب الأسد-الحمار جدًّا. يدق بقدميه مثل الشاهنشاه ويُصدِر (صوتًا لا يُوصَف) ضوضاء حمار. (بصوتٍ عالٍ جدًّا) ثم ترى جميع الحيوانات، الفهود والأسود والنمور والوحوش الكبيرة، أن الشاهنشاه على الأكمة مجرد حمار مسن مسكين. وفجأةً! انتهى! مات الحمار المسن المسكين.

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) أفهمت يا سيد سايكس؟ أؤكد لك أن هذا نفس ما يحدث في الشرق. فأفغانستان وبلاد فارس حماران مسنَّان. لكن بلاد فارس حمار يرتدي كسوة أسد، فهي كالحمار-الأسد. وهذا جيد. فبلاد فارس لديها كبرياء كبيرة، مكانة عالية. ولكن إذا (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) تحدثت إليها كما فعل الخنزير، إذا (بصوتٍ عالٍ جدًّا) تحدَّثت إليها، (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) فستغضب جدًّا؛ لأن جميع الحيوانات، أي جميع الناس، سيرون أنها حمار. لذلك، يجب أن تذهب.»

واصَل شير أحمد حديثه عن موضوع الكبرياء الفارسي، وبعد قليل تحدَّث عن مقابلة أجراها مع مارجوريبانكس في أعقاب مقتل شرطي فارسي على الحدود الأفغانية.

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) كان الشاه غاضبًا جدًّا. قلت له: «كيف حالك يا سيدي؟ هل أنت بخير؟ كيف مزاجُك؟»

قال الشاه (بصوتٍ عالٍ جدًّا): «جررر!»

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) فقلت له: «لماذا تجفل يا سيدي؟ (بصوتٍ عالٍ تدريجيًّا) كفاك إجفالًا.»

قال الشاه (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء): «جررر!»

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) سألته: «لمَ أنت غاضب؟»

قال الشاه (بصوتٍ عالٍ جدًّا): «أين الأفغان القتلة؟»

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) قلت له: «لا نعرف. (بهدوء) إننا آسفون جدًّا.»

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) قال الشاه (بصوتٍ عالٍ جدًّا): «جررر!»

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) سألته: «ماذا تريد أن تفعل؟»

قال الشاه أشياءَ فظيعةً عن الأفغان، وقال إنه سيرسل جنودًا لقتل الأفغان.

قلت له: «لا يا سيدي، ما تقوله لي خطأ.»

قال الشاه (صائحًا بصوتٍ عالٍ جدًّا): «خطأ كيف؟ سعادتك تقول لي إنني مخطئ؟»

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) قلت له: «اذهب إلى أفغانستان، يا صاحب الجلالة. واقتل كثيرًا من الأفغان، (بصوتٍ يعلو تدريجيًّا) كثيرًا. (بهدوء) فهُمْ رجال أشرار. (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) ولكن أولًا اقتل رئيس شرطتك، الجنرال أيروم. فهو أيضًا رجل شرير. في حمَّام نادري الأسبوع الماضي، ارتكب بعض الرجال أفعالًا سيئة في حق إحدى النساء. ثم فصلوا رأسها عن (بإيماءةٍ مروعة وصوتٍ يعلو تدريجيًّا) جسدِها! وتركوا الجثة في بِركة من الدماء. (بصوتٍ خافت) لم يستطِع الجنرال أيروم العثور على القتلة. لا نستطيع العثور على القتلة. إنه آسف جدًّا. ونحن آسفون جدًّا. لذا، اقتل الجنرال أيروم، ثم (بصوتٍ عالٍ جدًّا) اذهب إلى أفغانستان. (بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) لكن أولًا يجب أن أرى الجنرال أيروم (بصوتٍ عالٍ تدريجيًّا) ميتًا! وفي بِركة من الدماء أيضًا!»

(بصوتٍ عالٍ بعض الشيء) ضحك الشاه. «يجب ألا تغضب يا صاحب السعادة. كل شيء على ما يرام.»»

طهران، ١١ أبريل: تضم صورة المفوَّضية الجديدة أربعة وثمانين شخصًا، من بينهم أطفال ومترجمون ومبعوثون. لا ينام جميعهم في المبنى، ولكن يمكن العثور عليهم جميعًا فيه عند الظهيرة. هذا هو حجم بلاد فارس في دبلوماسيتنا.

ليلة أمس، أخذنا يونج، أمين مكتبة الكلية الأمريكية، إلى زورخانة (بيت القوة بالفارسية). كانت المرة الأولى التي عرف فيها بهذه المؤسسة عندما سمِع طلابه يحطُّون من قَدْر التدريبات البدنية السويدي لصالحها. يعود تاريخها إلى عصورِ ما قبل الإسلام، وربما تكون قد تطوَّرت من أحد الطقوس الزرادشتية.

استقبلتنا غرفة عالية السقف في حي البازار برائحة الأجساد وضوء أبيض. كانت جدرانها مغطاة بصور شخصية، وبعض الرسومات، وبعض الصور المُصفرَّة، وهو ما منحها نفس مظهر حجرات الطبقة الأرستقراطية، مثل حجرة ديمبستر في إيتون وحجرة مدام زاخر في فيينا. يظهر في الصور أبطال الماضي، «البهلوانات»، هكذا يُسمونهم، وهو لقب قديم ينطبق على المحاربين الأسطوريين مثل رستم، ولكنه يشير إلى القوة فحسب وليس لأية فضيلة أخلاقية. عُلِّقَت فوق الصور تذكاراتٌ أخرى من «الهواية»؛ صف من الجوارب الطويلة المطرَّزة التي كانت تُرتدى في مسابقات المصارعة، وعدد من الأقواس الحديدية التي رُبطت بها، بدلًا من الحبال، سلاسل مفكوكة مزيَّنة بأقراصٍ حديدية. كانت الغرفة المجاورة مكتظَّة بالهراوات الخشبية والدروع الخشبية المربَّعة.

في منتصف الأرضية، كانت توجد حفرة بعمق ثلاث أو أربع أقدام وبمساحة ثلاثين قدمًا مربَّعًا، يملؤها رمل ناعم، مدعوس بقوة، ومفروش عليه عمقُ قدم من القشِّ المرصوص بإحكام لمنحه المرونة. كان يشغل هذا المكان دزينة من الرجال من مختلف الأعمار، عُراة إلا من منشفةٍ حول الخَصر تلتفُّ بشكل كامل حول بطونهم؛ فهكذا كان شكل «بهلوان» المستقبل. على طاولة في الركن، كانت توجد صينية من الفحم تُسخِّن عليها الأوركسترا الطبلةَ لجعل صوتها رنانًا. عندما قُرِعت الطبلة، أخذ المؤدون يرتفعون وينخفضون، صعودًا وهبوطًا، أسرعَ فأسرع، حتى بدأت الأوركسترا في الغناء، وفجأةً مع تتابُع من القعقعة على الجرس والطبلة بالتناوب، بينج، بينج، بوم ... بوبوبوم، بوبوبوم ... بينج، بينج، انتهى العرض.

تلا ذلك تدوير الهراوات، الذي كان يؤديه رجلٌ واحد في كل مرة، مع هراوة واحدة في كل يد، وكانت كل هراوة ثقيلة للغاية حتى إنها كانت بوزن يمكنني معه رفع واحدة منها عن الأرض بكلتا يديَّ. ثم المزيد من التمارين البدنية. ثم الدوران مع تمديد الذراعين، بسرعة كان بوسعي معها أن أرى بوضوح لمؤدٍّ واحد في اللحظة نفسها صورتين جانبيتين للوجه ووجهه من الأمام. استمرت أوركسترا الطبلة والصوت والأجراس في العزف طوال الوقت، مبطئةً ومسرعةً في إيقاعها، بحيث كان المؤدون يستجيبون بوضوح لمحفز موسيقي،

وكانت الوجوه والأجساد مفعمةً بالمتعة، وأصبح تباينها مع التدريبات البدنية السويدية مؤلمًا لنا أكثر مما هو مؤلم لتلاميذ يونج الفُرس؛ إذ تحوَّل أمل أوروبا إلى صفوف من الحركات الإيمائية الآلية.

كان العرض الأخير يُقدَّم بالأقواس الحديدية، التي أُمسِك بكل واحد منها فوق الرأس، بينما كانت السلسلة والأقراص تصلصل جيئةً وذهابًا من الكتف إلى الأذن. في النهاية، أدَّى بطل هذا التمرين رقصةً؛ حيث قفز داخلًا إلى القوس وخارجًا منها بأسلوب تكس ماكلويد وأُنشوطته، باستثناء أنه بسبب وزن الأداة كان منهَكًا للغاية في النهاية حتى إنه كان بالكاد قادرًا على رفع نفسه والخروج من الحفرة. في تلك الأثناء، كان الوافدون الجدد يخلعون ملابسهم ليأخذوا دورهم في الدورة التالية.

عندما انتهت الدورة الأولى، ارتدى المؤدون ملابسهم ورأيناهم على طبيعتهم. كان معظمهم من التجار أو أصحاب المتاجر. وكان أحدهم ضابطًا في القوات الجوية. كما كان باحث يعكف في الوقت الحالي على ترجمة «الموسوعة البريطانية» بمعاونة أربعة مساعدين. كان من المقرَّر نشر المجلد الأول من هذا العمل على الفور لولا أنه قد أدرك، في الوقت المناسب، أن الأبجدية الإنجليزية تختلف في ترتيبها عن الأبجدية الفارسية.

شرح لنا المالك، الذي يشرف على كل عرض ليتأكد من أن أحدًا لا يُفرِط في إجهاد نفسه، طبيعة المنظمة. كل زورخانة تمثِّل ناديًا، ويقع معظمها، مثل هذا، عند تقاطع البازار والأحياء السكنية، بحيث يمكن لرجال الأعمال المجيء للتمرين في طريقهم إلى المنزل. قيمة الاشتراك ثلاثة تومانات، أي ٧ شلنات، و٦ بنسات في الشهر. وأحيانًا تُقام منافسات بين مختلف الزورخانات.

قابلت على العشاء شابًّا سويديًّا، جعلتني مجوهراته الباهظة الثمن وحديثه عن عقارات والده أتساءل عن سبب عيشه في طهران.

السويدي: «أعمل في تجارة الأغلفة.»

أنا: «أغلفة؟»

السويدي: «أغلفة النقانق.»

أنا: «أتعني الصفائح؟»

السويدي: «لا، بل الأغلفة التي تُصنَع منها النقانق نفسها، والتي تُصنَع من أمعاء الغنم. يظن بعض الناس أنها ليست بالتجارة المستحبَّة. لا أتحدَّث عنها عادةً.»

أنا: «كنت أظن أن تلك الأكياس تُصنع من ورق الأرز أو من مادة مشابهة.»

السويدي: «مطلقًا. فكل قطعة نقانق لها غلاف من الأحشاء.»

أنا: «ماذا تفعلون، ها، ها، في قطعةِ نقانق طولها ست بوصات؟»

السويدي (بجدية)**:** «لا نستخدم أحشاء الغنم فحسب، بل أحشاء الثيران أيضًا. يمكن لأمعاء الثور الكبيرة أن تحمل أكبرَ قطعة نقانق يمكن صنعها.»

أنا: «ولكن أليس للماشية السويدية أمعاء؟ لماذا تأتي لبلاد فارس من أجلها؟»

السويدي: «الأغلفة الفارسية عالية الجودة. تأتي الأغلفة الأعلى جودة من سهوب قلميقيا في روسيا. وتأتي الأغلفة التي تليها في الجودة من أستراليا ونيوزيلندا. وتأتي التي تليها من بلاد فارس. إنها تجارة مهمة لبلاد فارس. فالأغلفة هي واحدة من أكبر الصادرات بموجب اتفاقية التجارة السويدية-الفارسية.»

أنا: «ما الذي جعلك تختار تجارة الأغلفة مهنةً لك؟»

السويدي: «إنها تجارة أبي.»

إذَن من هنا تأتي الأملاك، على ما أظن.

سلطانية (٥٩٠٠ قدم تقريبًا)، ١٢ أبريل: زُرت ضريح أولجايتو زيارةً أخيرة. كان أول مَعلَم كبير رأيته في بلاد فارس، لكن لم يكن لديَّ معيار مقارنةً في ذلك الوقت، وكنت أخشى أنه قد يُخيِّب أملي الآن.

لم يحدث ذلك.

يوجد مَعلَمان أصغر على مسافة ليست بالبعيدة: برج دفن مثمَّن الأضلاع يعود للقرن الثالث عشر ويحمل اسم السلطان شيلابي، وضريح مُثمَّن أقل ارتفاعًا وأحدث عهدًا، وهو الذي يضم قبر الملا حسن. يتفوَّق البناء القِرْميدي للمَعلَم الأول، الذي لا يزال مدبَّبًا كما لو كان بُني أمس، على أفضل أعمال أساطين القِرْميد الأوروبي، وهم الهولنديون. يتميز المَعلَم الثاني بسقفٍ مقبَّب من المقرنصات مطلي باللونين الأحمر والأبيض.

أدَّى ممرٌّ ضيق إلى الضريح الأخير عبر شجيرة بنية وشائكة. قال الفلاح المرافق لي بحزن: «من المؤسف أنه لا يمكنك العودةُ في الصيف. فجادَّة الورود تكون في غاية الجمال في ذلك الوقت.»

طهران، ١٤ أبريل: عندما توقَّفت في قزوين في طريق العودة، اكتشفت النبيذ الأبيض المحلي، واشتريت كامل مخزون الفندق منه. كم يبدو هذا الفندق مريحًا الآن! أتذكَّر أننا، بعد أن توقَّفنا هناك في الطريق من همدان، حذَّرنا الفحَّامين في بغداد ونصحناهم بتجنُّبه بأي ثمن.

يسافر جميع الزائرين تقريبًا إلى بلاد فارس إما عن طريق رشت أو همدان، وجميع مَن يفعلون ذلك لا بد أن يمروا بواجهة مسجد الجمعة في قزوين. ومع ذلك، فباستثناء جودارد، المدير الفرنسي لخدمة الآثار، أعتقد أنني أول شخص لاحظ الجصَّ السلجوقي في المحراب، وهو تصميم جميل من ألواح وطنف وإفريز مزخرف بالأرابيسك، يعود تاريخه إلى عام ١١١٣. تنتشر في جميع النقوش تلك الأزهار المتدلية الجميلة والورود والزنابق وأزهار السوسن، التي يوجد اعتقاد عام بأن الصفويين هم مَن ابتكروها بعد ذلك بأربعة قرون.

طهران، ٢٠ أبريل: ما زلنا هنا.

كان من المفترَض أن نغادر هذا الصباح، لكن منعنا فيضٌ عارم من المطر.

ثراش، وهو مُعلِّم مدرسي، هو الآخر في طريقه إلى كابول عبر الطريق الجنوبي. أخبر السفارة الأفغانية بأنه يبحث عن المغامرة، وعندئذٍ اقترح شير أحمد، الذي كان حريصًا دائمًا على صنع الجميل، أن يتظاهر بأنه جاسوس روسي؛ ومن ثَم يقي نفسه التعرُّض لإطلاق النار بتقديم خطاب يقدِّمه له شير أحمد لهذا الغرض. التقيت به أنا وكريستوفر هذا الصباح؛ حيث كنا نناقش أهمية الحصول على الراحة في رحلتنا. قال إنه يفضِّل المشقة، وإنه مستمتع بها. أعرف هذا النوع من الناس؛ فقد يموتون بين يديك لأنك لم تكن كفئًا بما يكفي مع ما بذلته من جهد.

عصر هذا اليوم التقيت بأسدي، متولي باشي الضريح في مشهد. وهو تكليف من البلاط الملكي، يتحكَّم صاحبه في إيرادات الضريح التي تبلغ ٦٠٠٠٠ جنيه إسترليني سنويًّا. كان شديد الحرص على أن أرى المستشفى الذي يبنيه بتلك الإيرادات. لكنني لم أستطِع الحصول على وعد منه بأنه سيجعلني أتسلل إلى الضريح.

توجد معلومات معروفة عن شخص جوهر شاد أكثر مما كنت أتخيَّل.

طهران، ٢١ أبريل: ما زلنا هنا.

هذه المرة توقَّفنا لرؤية وفام بوب، الذي وصل أمس. قد تكون بعض صوري ومعلوماتي مفيدة لكتابِه المرتقَب «دراسة استقصائية حول الفن الفارسي».

جاء على متن طائرة مع السيدة مور، وهي كبيرةُ عائلةٍ ترتدي شالًا، وعمرها تخطَّى السبعين عامًا، وتبلغ ثروتها عدة ملايين. اكتملت المجموعة بشقيقتيها وثلاث خادمات و«مدير». التقينا بهم لتناول الشاي في الكلية الأمريكية. انزعج كريستوفر انزعاجًا شديدًا من التملُّق المتواصل، لكنه لا يتعاطف مع الأشخاص الذين يعتمد عملهم على الإعانات الخاصة.

هوامش

(١) الكلمة نفسها موجودة في اللغتين الآرامية والأرمينية، وقد سجَّلها الصينيون باللفظ «ناي كي»؛ انظر كتاب «الصين الإيرانية» لبرتولد لوفير (شيكاغو، ١٩١٩)، ص ٤٢٧.

(٢) يذكر جيرالد ريتلينجر في كتابه «برج الجماجم»، ص ٩٩، منحوتةً أخرى من هذا النوع على الوجه الرئيسي للبروز بجوار قدَم ملِك ساساني؛ حيث «يجلس ملِك يرتدي ثيابًا ضيقةً على عرشٍ مُشكَّل من ثعبان ملتف».

الجزء الخامس

شاهي (٣٠٠ قدم تقريبًا)، ٢٢ أبريل: الأمسية الأولى من رحلتنا التي خطَّطنا لها طويلًا.

استيقظت الليدي هوار وجوزيف مبكرًا لتناول الإفطار معنا تحت شجرة الوِستارية. كان المظهر الشَّتوي لمجمَّع المفوَّضية، الذي يشبه ملجأً فيكتوريًّا، شِبه مخفي الآن جرَّاءَ الأزهار وأوراق الأشجار الشابَّة. وبينما كنا نبتعد بالسيارة، تذكَّرت بامتنانٍ لا حدَّ له الطيبةَ التي كنت قد وجدتها في تلك البيوت الصغيرة القبيحة، ووسط المجتمع الإنجليزي بوجه عام. من السهل نسيانُ مثل هذه الطيبة، ومن المستحيل ردُّها؛ فالأمر يتطلب أن يكون المرء ثريًّا ليقدِّم نفسَ درجة كرم الضيافة في إنجلترا المتمثِّلة في ملاءتين نظيفتين واستحمامٍ بعد رحلة في بلاد فارس. والأسوأ من ذلك أن مَن يكتب عليه أن يردَّها بإساءة، في صورةِ حماقة سياسية؛ مما يجعل حياة السكان أصعب مما هي عليه بالفعل. لكن يجب أن أعترف أن هذا لا يُخلِّف لديَّ شعورًا بالندم، مهما كان الأمر مؤسفًا من وجهة نظري الشخصية. التطلع إلى غروب الشمس في هذه الأيام حماقة سياسية، وكذلك الحال مع الإشادة به، إذا كان هناك مصنع للأسمنت في صدارة المشهد يجب الإشادة به بدلًا من ذلك. يجب أن ينتهك شخصٌ ما مقدَّسات/محرَّمات القومية الحديثة، لصالح العقل البشري. التجارة لا يمكنها فِعل ذلك. ولن تفعله الدبلوماسية. إذ يجب أن يأتي الأمر من أشخاص مِثلنا.

مرةً أخرى، يثير طريق خراسان الذكريات! ومع أننا في فصل الربيع، فإن الثلج كان يتساقط على الممر الذي يؤدي عبر حافة الهضبة إلى ساحل بحر قزوين. وتحت العاصفة الثلجية البيضاء، حدث تحوُّل غير عادي. ففي غضون خمس دقائق كنا قد هربنا من عالم من الحجر والطين والرمل والجفاف الدائم، الذي عانيناه منذ كنا في دمشق، إلى عالَم من

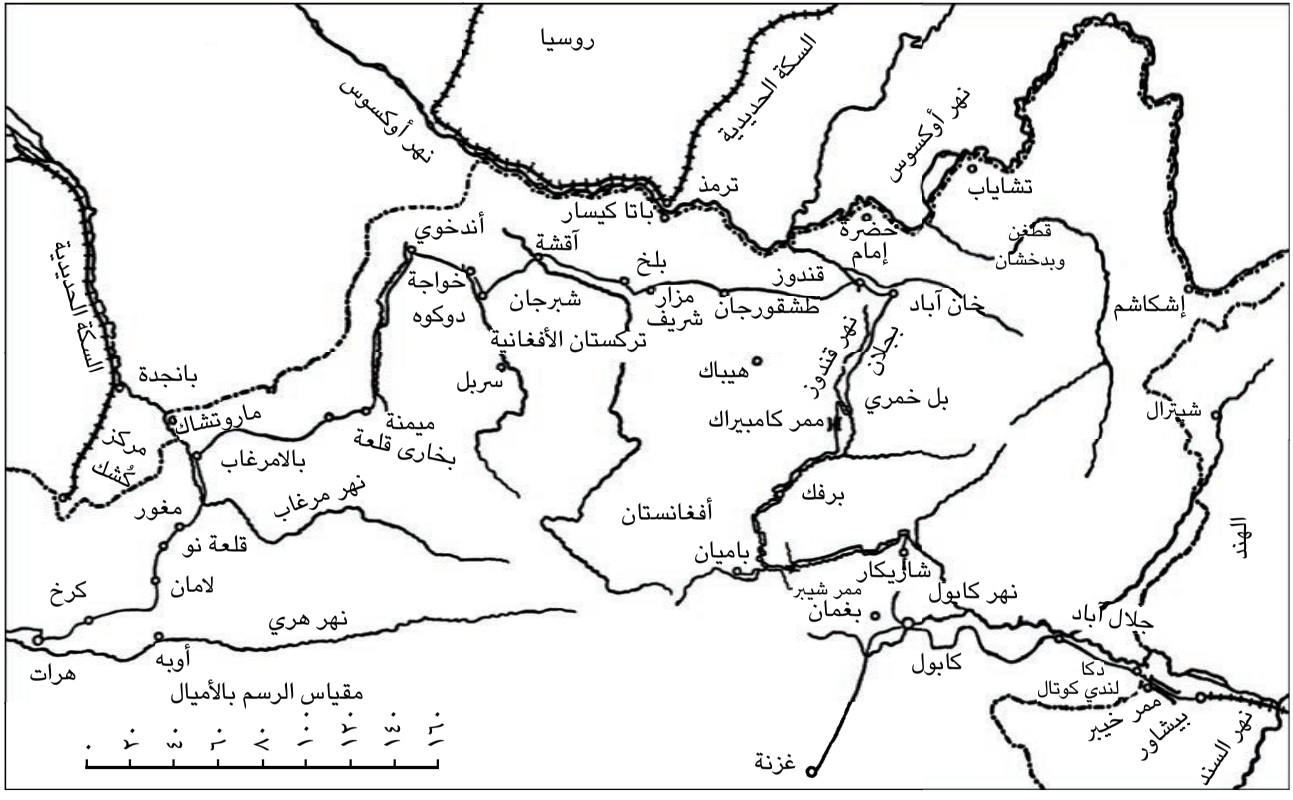

خريطة أفغانستان: انظر خريطة الجزء الثالث الممتدة إلى هرات.

الغابات وأوراق الشجر والرطوبة؛ حيث كانت التلال مغطَّاة بالشُّجيرات، ونمَت الشُّجيرات فصارت أشجارًا، وتجمَّعت الأشجار، عندما توقَّف الثلج، فشكَّلَت غابةً متوهجةً من جذوع الأشجار العارية التي حجبت أقبيتها المورِقة عَنان السماء. خفَّت فجأةً وطأة الضيق الذي تسبَّبت فيه الهضبة. الآن فقط أدركت مدى العقوبة التي فُرِضَت على الروح من قِبَل الصحاري المقفِرة التي تعصف بها الرياح، والجبال المنذِرة بالسوء، والقرى المتهدِّمة. كان الارتياح في الواقع جسديًّا. فقد بدا وكأن أجسادنا خضعت لتغيُّر في الجاذبية، عودةً إلى النشاط الطبيعي.

قُطِعَت هذه المشاعر بصافرةٍ حادَّة ونفثةٍ من دخانٍ أبيض. في قعر الوادي، كانت سِكة مارجوريبانكس الحديدية الجديدة تزحف صاعدةً نحو الهضبة. هناك، بعد اجتياز المرحلة الثانية من جبال ألبرز في فيروزكوه عبر نفق على شكل لولب ثلاثي، سوف تصل إلى طهران في غضون ثلاث سنوات. لا يمكنها أبدًا أن تغطي نفقاتها. فالضرائب المفروضة لإنشاء أول مائتَي ميل منها تَحرِم الفلاحين بالفعل من رفاهيتهم الوحيدة، وهي الشاي والسكر. لكنَّ الغرض منها نفسيٌّ وليس اقتصاديًّا. فهي تمثِّل للمواطن الفارسي المعاصر رمزَ الاعتداد الوطني بالذات؛ فهي تُغذي أخيرًا هذا الغرور المفرِط، الذي استمر طَوال ألفَي عام على مآثر داريوس، بشيء جديد. من ناحيتنا، بعد كلِّ ما عانيناه تحت رحمة محرِّك الاحتراق الداخلي، بدا نخير البخار حُلْو العِشرة وعتيق الطراز كقعقعةِ عربةٍ ذات أربع عجلات. شعرْنا بالود مضاعَفًا من الأشجار والقطار.

عندما عبرْنا الممرَّ لأول مرة، تذكَّرت النمسا عندما رأيت قِطَع الحطب الصغيرة عند سفوح التلال والمزاريب الخشبية للمنازل. في الخارج على السهل الساحلي، حيث الحقول مقسَّمة بالأسيجة وأشجار العُلَّيق، وتزدهر السراخس وأجَمات القُرَّاص على العُدُوات العشبية تحتها، ظننا أننا ربما كنا في إنجلترا في عصر يوم رطب، حتى رأينا جِلد نَمِر معلقًا خارج الباب الأمامي لمنزل أحد الأشخاص. وسط هذه الأجواء الرعوية، بدا الصِّبية الرعاة المازندرانيون حفاة الأقدام بقبَّعاتهم الصوفية السوداء دخلاءَ على المشهد بشكل غريب. حيث تظهر عليهم سماتُ وحشيةٍ خائرة القوى، يبدو أنها قد نتجت عن أثرِ بيئةٍ شبه استوائية على أُناس لا بد أنهم كانوا في يوم من الأيام من الرُّحَّل.

شاهي بلدة رائدة نشأت نتيجةً للسِّكة الحديدية. تتلاقى أربعة شوارع رئيسية، آتية من العدم، في سيرك أسفلتي، أضفت عليه الأرصفةُ ونوافذ المتاجر بعضَ المهابة. الفندق مزدحِم بالمهندسين الروس والألمان والإسكندنافيين.

أستراباد (٣٠٠ قدم)، ٢٣ أبريل: ثَمَّة طريقٌ من شاهي إلى أستراباد، لكنه تُرِك ليتدهور لصالح السِّكة الحديدية. كانت قرية أشرف هي أقصى ما استطعنا بلوغه بالسيارة.

لا يزال بستانان وقصر يميزان أرضَ المتعة الملكية هذه؛ حيث استقبل شاه عباس السير دودمور كوتون عام ١٦٢٧. من بعيد يبدو القصر الواقع على تلةٍ مكسوة بالأشجار مثل منزل ريفي إنجليزي. لكنه في الحقيقة صغير «جدًّا»، وبلاطه خَشِن، ويَعجز تصميمه عن الاستفادة من الحيِّز المتاح الذي يوجد عادةً في المباني الفارسية العلمانية. تتمثل خصوصيته الرئيسية في أنه نتيجةً لمصادفة غريبة نوافذه من النوع الذي نقله روسكين من قصورِ حِقبة الكواتروشنتو الفلورنسية إلى ضواحي أكسفورد. تمتاز الحديقتان بأنهما أكثر رومانسية. تمتد الممرات المائية الحجرية الطويلة عبر المروج المنحدِرة بلطف، وتُتِم كل انخفاض في المستوى بمنزلق حجري مسطح على الطراز المغولي. بصرفِ النظر عن منشأ هذا الطراز، سواء أكان في بلاد فارس أم الهند أم أوكسيانا؛ فهو لا يُناسب سوى المشاهد الطبيعية القاحلة. هنا، وسط إطار من العشب والسراخس، يصبح مبالغًا فيه بعض الشيء، كحال حديقة إيطالية في أيرلندا.

يتبيَّن من الحديقة الأكبر نفس معيار الأفكار التي نفَّذها شاه عباس في أصفهان. من التل في الخلف، حيث كانت أزهار الأوركيد الوردية تزهر في الأحراج، يهبط طريقٌ من أشجار السرو عبر منطقة مسيَّجة بجدران تشغل عدة هكتارات، تنتشر فيها أشجار سرو أخرى على غرار متنزَّه إنجليزي. يمر الممر المائي داخل الطريق، ومثل ذلك الذي في حديقة فيلا لانتي، يمر بين سرادقين متصلين برواق مسقوف يؤدي دورَ جسر. توجد في نهاية الطريق بوابة منزل. وخلف هذه البوابة، يستمر طريق على خط الأشجار خلال قرية أشرف وعبر قطاع من سهلٍ مزروع، حتى تجد العين راحتها في الأفق المتلألئ لبحر قزوين.

بعدما بحثنا عن مكان لتناول الغداء، اخترنا أحدَ البِرك المربَّعة، التي كانت الآن جافة، وكانت تتلقى كل منزلق مائي وحُفرَت في إفريزها المائل فتحاتٌ لتُشكِّل أضواءً خيالية في هيئة فتائل تطفو على الزيت. حمَلتُ حقيبة النزهة وقفزت على العشب الطويل في الأسفل. لكن المكان كان مشغولًا بالفعل. اندفع ثعبان بلون القرفة، طوله خمس أقدام، لحسن الحظ أنه كان مرتعبًا أكثرَ مني، في طريقه من حول ساقيَّ إلى صدع في المبنى.

عندما وصل القطار كانت السيارة موصولةً بشاحنة، وبقي الخدم بداخلها، بينما كنا نُكوِّن صداقات مع حشد في عطلة من طهران، جاءوا لتفقُّد الأعجوبة الجديدة. من خمسة محظورات مكتوبة على لافتات معلَّقة في كل عربة اطَّلعوا على آداب السكة الحديدية.

في بندر شاه، وهو ميناء بحر قزوين الجديد حيث ينتهي خط السكة الحديدية، استُقبل القطار بحشدٍ معتاد من أهل الساحل. كان من بينهم رئيس الشرطة المحلي وممثل عن وزارة الحربية، اللذان سألانا عن وجهتنا.

قنبد قابوس؟

بالتأكيد. ويمكننا أيضًا، إذا أردنا، أن نتابع المضي بالسيارة إلى مشهد بالطريق العسكري الجديد عبر بجنورد والريف التركماني.

كانت هذه مفاجأةً سارَّة. فعندما طلبت الإذن لزيارة برج قنبد قابوس في طهران، أرسل لي جام، وزير الداخلية، رسالةً خاصة يرجوني أن أسحب الطلب؛ لأن المكان كان في منطقةٍ عسكرية ولا يمكنه منحي الإذن. وعندما سمع بايباس، ملحقنا العسكري، بالأمر، عرض أن يقدِّم لنا توصية لدى هيئة الأركان العامة. ولكننا لم نكن قد تلقَّينا منه ردًّا عندما غادرنا، وقد قطعنا كل هذه المسافة على أمل تلقِّي ردِّه. كانت الصورة التي رسمها دييز لقنبد قابوس هي ما جعلني أقرِّر المجيء إلى بلاد فارس، وكنت، على حد علمي، سأُفضِّل أن أفوِّت أيَّ مبنًى آخر في البلاد.

حتى في الظلام، يمكننا رؤية السهوب. خمدت أضواء المصابيح الأمامية في الحيز المكاني، ولم تجِد شيئًا تكشف عنه سوى خنزير برِّي عابر. وها هي ذي قد أقبلت رائحة عشب حلو، كما في ليلة من ليالي شهر يونيو في موطننا قبل حصاد القش. كان الناس في أستراباد يحتفلون بشهر المحرَّم؛ إذ يسيرون في الشوارع خلف تابوت مغطًّى ويرفعون لافتاتٍ مضيئة مثلثَّة الشكل. كان كثيرون يبكون ويتأوَّهون، وكان من لا يحملون شيئًا في أيديهم يمزِّقون ملابسهم ويضربون أنفسهم كما وصفهم شير أحمد. نقيم مع رجلٍ تركي مُسن، كان نائب القنصل البريطاني هنا، ويعرض أن ينظِّم لنا رحلة لصيد النمور.

قنبد قابوس (٢٠٠ قدم)، ٢٤ أبريل: بعد وقت قصير من اتِّباع طريق بندر شاه في طريق العودة، انعطفنا يمينًا في مسار بين سياجات من أغصان مجدولة. حجبت قصبات مرتفعة الرؤية. وفجأة، بينما كانت سفينة تغادر أحد المصبات، صعدنا إلى السهوب، التي كانت عبارةً عن بحرٍ مفتوح وباهر من الخُضرة. لم أرَ مثل هذا اللون من قبل. في الأشياء الخضراء الأخرى من زمرُّد، أو يشْم، أو ملكيت، واللون الأخضر القاسي العميق لغابات البنغال، واللون الأخضر البارد الحزين لأيرلندا، ومزيج اللون الأخضر لكروم العنب في بلدان البحر الأبيض المتوسط، والأخضر الثقيل الكامل الازدهار لأشجار الزان الصيفية الإنجليزية، نجد أن بعضًا من اللون الأزرق أو الأصفر يسود على درجات اللون الأخرى.

أما هذا فكان الجوهر الخالص للون الأخضر، السرمدي، لون الحياة نفسها. كانت أشعة الشمس دافئة، والقُبرات تغنِّي فوقنا. وارتفعت خلفنا الزرقة الشاهقة الضبابية لجبال ألبرز المكسوة بالأشجار. في الواجهة، امتد الاخضرار المتوهج إلى حافة الأرض.

اختفتْ زاوية السمت والمعالم، كما تختفي على متن مركب شراعي وسط المحيط الأطلسي. بدا أننا دائمًا ما نكون تحت المستوى المحيط، محاصَرين في غور من موج أخضر. عند الجلوس قد نرى لمسافة عشرين قدمًا، وعند الوقوف لمسافة عشرين ميلًا، وحتى عندئذٍ، فعلى بُعد عشرين ميلًا، كان منحنى الأرض في خضرة الحافة التي كانت تلامس العجلات، حتى إنه كان من الصعب التمييز بينهما. كانت خريطتنا الوحيدة تعتمد على الأشياء التي عرفنا حجمها؛ وهي مجموعات من مخيمات الكيبيتكا ذات القمم البيضاء المنقطة كفطريات عيش الغراب على مرج، مع أنه حتى في حالتها تلك كانت تتطلب مجهودًا في التفكير لتصديقِ أنها لم تكن فطرياتِ عيشِ غراب؛ وقطعان من الماشية، وفرسات مع أمهارها، وأغنام سوداء وبنية، وأبقار، وجِمال، على الرغم من أن الجِمال كانت خادعةً بالمعنى العكسي؛ إذ بدت طويلة جدًّا حتى إنها احتاجت إلى جهدٍ آخر للتصديق أنها لم تكن من وحوشِ ما قبل عهد الطوفان. نظرًا لتبايُن الأكواخ والحيوانات في الحجم، استطعنا تحديد مسافاتها؛ نصف ميل، وميل، وخمسة أميال. لكن لم يكن هذا هو ما عبَّر عن حجم السهب بقدرِ ما كان وفرة هذه المخيمات البدوية؛ إذ تراها العين أينما استقرت، ومع ذلك كانت دائمًا تفصلها مسافةُ ميل أو ميلين عن جيرانها. وكان يوجد المئات منها؛ ومن ثَم بدا أن المشهد يشمل مئات الأميال.

بالطريقة نفسِها التي تُدرَج بها مخطَّطات المدن في خرائط الدول، يوجد مخطَّط آخر على نطاقٍ أكبر أسفل عجلاتنا مباشرةً. هنا تحوَّل اللون الأخضر، ليس إلى عشب عادي، بل إلى ذُرة برية، وشعير، وشوفان، وهو ما فسَّر تلك النيران المتوهجة للحياة داخل اللون الأخضر. ووسط هذه الممرات التي لا حصر لها ذات السنابل، كانت تحيا تجمُّعات من الزهور، ونباتات الحوذان، والخشخاش، والسوسن البنفسجي الشاحب، والجِريس الأرجواني الداكن، وعدد لا يُحصى من نباتاتٍ أخرى بكافة الألوان والأشكال والعجائب التي يجدها طفل في حديقته الأولى. ثم تأتي نفخة من الهواء، وتنحني نباتات الذرة لتشكِّل تموُّجًا فضيًّا، بينما تنحني الأزهار معها؛ أو يمر ظل سحابة، ويُظلِم كل شيء، وكأنما هي غفوة؛ ولكن على بُعد أقدامٍ قليلة لا يوجد تموُّج ولا ظُلمة؛ بحيث كان هذا العالَم الداخلي

بأكمله من السهوب مخططًا على نظام من الانحسارات الدقيقة اللانهائية، وليس به سوى تلك التدرُّجات في المسافة التي افتقر إليها العالم الخارجي.

كانت معنوياتنا قد ارتفعت عندما غادرنا الهضبة. الآن استيقظ كلُّ ذلك. فصِحْنا فرحًا، وأوقفنا السيارة خشيةَ أن تمرَّ سريعًا الدقائق التي كانت تسلبنا الرؤية الأولى التي لا يمكن تَكرارها. حتى القُبرات في الفردوس كانت قد تخلَّت عن انطوائيتها المعتادة. وكادت إحداها تصطدم بقبَّعتي من فرط فضولها.

وجدنا نهر جرجان في فالقٍ عمقُه ثلاثون قدمًا، تتبعتْ أجرافه الأرضية الجرداء شقًّا من أرضٍ خرِبة عبر الخضرة. كانت بعرض نهر سيفرن في روافده العليا، وعبرناه فوق جسرٍ قديم من القِرْميد على أقواس طويلة مدبَّبة. على الضفة الشمالية، كان بجوار الجسر بوابة محصَّنة، طابقها العلوي المتدلي له سقف من بلاطٍ ذي طُنُف عريضة كالذي يراه المرء في سلسلة جبال الأبينيني. من هنا، تبدأ المسارات الخضراء الناعمة تشعُّ فوق السهوب في جميع الاتجاهات، وما كنا سنجد الطريق لولا خيَّالة على خيولهم وجِمال والعربات ذات العجلات العالية كانوا يمرون عرَضًا وأرشدونا إليه. كانوا جميعًا من التركمان، وكانت السيدات يرتدين ملابس حمراء مغطَّاة بالورود، والرجال يرتدون ملابسَ حمراء غير مزركَشة، وقلةٌ قليلة منهم تَلبَس حريرًا رائعًا متعدِّد الألوان منسوجًا بتعرجات مضيئة. لكن لم يكن يوجد كثير من القبَّعات الصوفية. كان معظم الرجال يرتدون قبعات مارجوريبانكس البديلة، أو على الأقل قمَّة من الورق المقوَّى متصلة بقبعة من الصوف.

بدأت جبال ألبرز الآن تنعطف أمامنا، محيطةً بخليجٍ أخضر. وسط هذا، وعلى بُعد عشرين ميلًا، ارتفعت قمَّة مستدقَّة صغيرة سمنية اللون أمام زرقة الجبال، عرفناها باسم برج قابوس. وصلنا بعد ساعة، مسترشدين بهذه القمة، إلى بلدةِ سوق صغيرة تذكِّرنا شوارعها الواسعة بالاحتلال الروسي للمنطقة قبل الحرب. ينتصب البرج في شمال المدينة، وتساعده في الارتفاع إلى عَنان السماء رابيةٌ خضراء غير منتظمة الشكل، ولكنها مصطنعة وقديمة جدًّا.

تنبثق أسطوانة مستدقة من القِرْميد بلون القهوة بالحليب من وطيدة مستديرة إلى سقفٍ مدبَّب باللون الأخضر الضارب إلى الرمادي، يبتلعها كمطفأة شمعة. يبلغ قطر الوطيدة خمسين قدمًا، ويبلغ الارتفاع الإجمالي حوالي مائة وخمسين. على الأسطوانة، بين الوطيدة والسقف، تندفع عشر دعامات مثلَّثة تتقاطع مع رباطين ضيقين من نصٍّ بالخط الكوفي، أحدهما في الأعلى أسفل الطنف، والآخر في الأسفل فوق المدخل الأسود الرفيع.

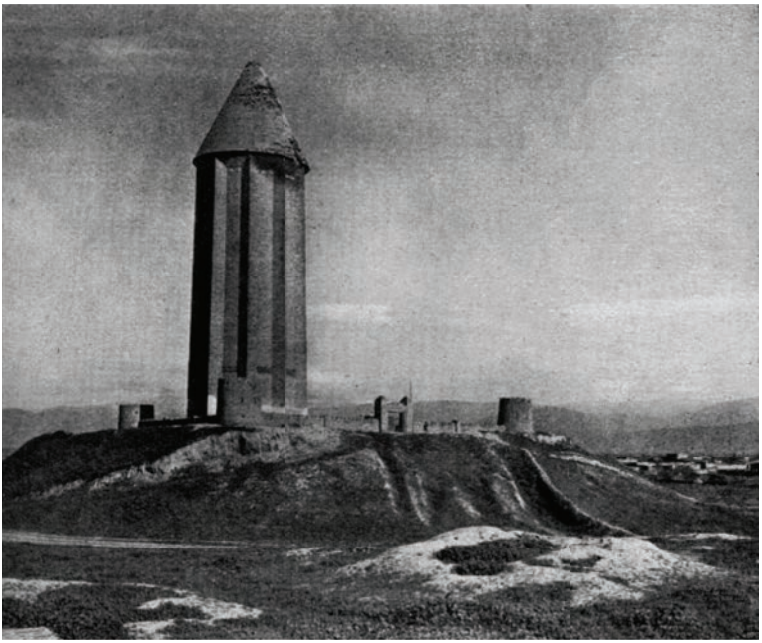

برج قابوس ١٠٠٧.

القِرْميد طويل ورفيع، وحادٌّ كما كان عندما خرج من الأتون، وبذلك يقسم الظل الناتج عن أشعة الشمس لكل دعامة بدقةٍ تشبه دقةَ فصلِ السكين للأشياء. عندما تنحسر الدعامات عن اتجاه الشمس، تمتد الظلال على الجدار المنحني للأسطوانة بينها، بحيث تكتسب خطوط الضوء والظل، المتفاوتة في العرض، زخمًا فوق العادة. إنَّ اعتراض هذا الزخم الرأسي للإحاطة الجانبية للحلقات الكوفية هو ما يُضفي على المبنى طابعه، وهو طابع لا يشبه أي شيء آخر في عالم هندسة العمارة.

لا يوجد شيء بالداخل. كانت جثة قابوس فيما مضى معلَّقة هناك، متدليةً من السقف في تابوتٍ زجاجي. توفِّي في عام ١٠٠٧. ولأكثر من ألف عام أحيت هذه المنارة ذكراه كما أظهرت عبقرية بلاد فارس، لبدو بحر آسيا الوسطى. لديها اليوم جمهور أكبر، لا بد أنه يتساءل كيف أدَّى استخدام القِرْميد، في بداية الألفية الثانية بعد المسيح، إلى ابتكار نصبٍ

تذكاري أكثرَ ملحمية، وتلاعب أكثر بهجةً بالأسطح والزخرفة؛ مما شوهد في أي وقتٍ مضى من استخدام لتلك المادة منذ ذلك الحين.

[عادةً ما تكون صِيَغ التفضيل التي يستخدمها الرحالة في وصف الأشياء التي رأوها، ولم يرَها معظم الناس، مشكوكًا فيها؛ أعرف هذا لأنني مَدِين بنفس التهمة. ولكن بإعادة قراءة هذه المذكرات بعد مرور عامين، في بيئة مختلفة قدْر الإمكان (بكين)، ما زلت أحتفظ بالرأي الذي كوَّنته قبل ذهابي إلى بلاد فارس، والذي تأكَّد في ذلك المساء على السهوب، وهو أن قنبد قابوس في مصافِّ المباني العظيمة في العالم.]

جاء الحاكم العسكري لزيارتنا وقت العشاء، وأخبرَنا أنه وفقًا للتراث المأثور كان شيءٌ ما يومض من سطح البرج؛ وقد كان من الزجاج أو الكريستال، وكان يُعتقد أنه يحتوي على مصباح. قال إن الروس أخذوه؛ رغم أنه لم يشرح كيف وصلوا إليه. قد يحوي هذا التراث المأثور إشارةً مُحرَّفة إلى نعشِ قابوس الزجاجي، الذي يبدو أنه كان حقيقةً فعلية، كما سجَّله المؤرخ العربي الجنابي بعد وقتٍ قصير من وفاة قابوس.

يمتلئ محيط المنطقة هنا بالآثار، التي كنت أتمنَّى لو كان لدينا الوقت للتوقف وتفقُّدها. يقع «جدار الإسكندر» على بُعد أميال قليلة فحسب شمال نهر جرجان، ويُقال إن المستنقعات على امتداد النهر إلى الشرق تعجُّ بآثار لم يستكشفها أحد. توجد أيضًا بقايا من عصورٍ ما قبل التاريخ. من وقتٍ ليس ببعيد، وجدت بعض العائلات التركمانية تلَّةً جنائزيةً مليئة بالأواني البرونزية، التي استخرجوها واستخدموها للأغراض المنزلية. ثم لحِق بهم الحظ السيئ ونسبوه إلى تدنيسهم لأحد القبور، فرجعوا إلى التلَّة الجنائزية وأعادوا دفن الأواني. أتخيَّل تهافت الأساتذة إلى هذا الموقع الأثري، على نحوٍ يشبه التهافت المحموم على منطقة كلوندايك التي اكتُشف فيها الذهب، لو كانوا يعرفون مكانه.

ينقل لنا الحاكم أيضًا أخبارًا سيئةً مفادُها أن الطريق إلى بجنورد مسدود بسبب الأمطار والانهيارات الأرضية. ربما يمكننا الوصول إليها بنجاح، غير أن هناك شاحنةً سُحِبَت لتوها إلى هنا شبه محطَّمة، بعدما أمضت خمسة أيام في الرحلة، ولا نجرؤ على المخاطرة بالسيارة، والأهم من ذلك بالوصول إلى أفغانستان. وبناءً على ذلك، نفكِّر في ركوب الخيل عبر الجبال إلى شاهرود، بينما تعود السيارة إلى فيروزكوه.

بندر شاه (مستوى البحر)، ٢٦ أبريل: قُبِض علينا! أكتب وأنا على سرير في قسم الشرطة.

نحن مخطئان؛ مما يجعل الأمر أكثرَ إزعاجًا. بعدما انتظرنا في قنبد قابوس حتى الساعة الرابعة، حيث لم تكن توجد خيول يمكننا ركوبها بعد، قرَّرنا العودة بالسيارة، وإذ تجنَّبنا أستراباد، وصلنا هنا في الساعة العاشرة. لم يكن يوجد مكانٌ للنوم سوى المحطة، ولم يكن مدير المحطة، الذي كان شابًّا واهنًا، مسرورًا بإزعاجنا له في وقتٍ متأخر هكذا. هذا الصباح كان من المقرَّر أن يغادر القطار في السابعة. وأخبرنا أن نُعِدَّ السيارة لتكون جاهزة بجوار سكة التخزين في الساعة السادسة. وقد كانت كذلك بالفعل. لكن الشاحنة الخاصة بها لم تصل إلا في الساعة السابعة إلا عشر دقائق، ورأينا فجأةً أن رئيس المحطة، نكايةً فينا، قد جعل القطار ينطلق من دوننا. انفجر سخطٌ مكظوم طوال سبعة أشهُر؛ فتعدينا على الرجل. صدرت صرخاتٌ عالية، واندفع الجنود إلى الداخل، وكبَّلوا ذراعَي كريستوفر، وضرب بعضهم ظهره بأعقاب بنادقهم، بينما صفع ضابطهم، الذي كان طوله لا يكاد يصل إلى أربع أقدام وصوته يشبه صوت تينور من نابولي، وجْهَه مرارًا وتكرارًا. أفْلتُّ من هذه الإهانات لكننا نتشارك المحبس؛ مما أثار ذهول الشرطة التي تعتبرنا مصدر إزعاج.

يهدِّدوننا بفتح «تحقيق» بشأن «واقعة» طهران. وكان علينا أن نتذلل لنجنِّب أنفسنا ذلك بأي ثمن. فذلك يمكن أن يستغرق أسابيع. أتساءل — كلانا يتساءل — ما الذي اعترانا من جنونٍ كي نعرِّض رحلتنا للخطر على هذا النحو.

سمنان (٤٠٠٠ قدم)، ٢٧ أبريل: سُوِّيَت «الواقعة» على يد المدير الألماني لورشِ الإصلاح، وهو رجلٌ مُسن يتمتع برِباطة الجأش، الذي دخل قسم الشرطة بخطواتٍ بطيئة، قائلًا: «ما هذا؟» وبعد أن رآنا نصافح مدير المحطة، أخذنا إلى منزله لقضاء الليلة هناك. كان هذا ألطفَ شيء تمكَّن من فِعله؛ لأن ابنته وزوجها، ومدير بنك دنماركي، كانا قد وصلا فجأةً من طهران، وحيث إنه لم تكن توجد إلا غرفة شاغرة واحدة، فقد اضطُررنا إلى وضع أسِرَّتنا في الرَّدهة.

هذا الصباح بينما كنا نغادر شاهي كان المطر يهطل، والطريق المؤدي إلى الممر زلقًا وخطِرًا. عند المنعطف، خرجت شاحنة عن السيطرة. اصطدمت مقدمةُ سيارتنا بجانبها، وترنَّحنا نحو الجرف فوق الوادي ... كانت هذه هي النهاية؛ ولكن كلَّا، فقد بقينا على الطريق، وتحسَّرنا فقط على أن حقيبتي، التي كانت مثبتةً في الدَّرَج، حطَّمتها العجلة الأمامية للشاحنة، وحوَّلتها إلى ما يشبه شطيرةً زرقاء رفيعة، فقذفت بما فيها من ملابس وأفلام وأوراق رسم. انقضت مدةُ التأمين، الذي كان قد دام ثمانية أشهُر، الأسبوع الماضي.

في أميرية قالوا إن المطر ظل يهطل خمسة عشر يومًا متتالية، وإنهم لم يشهدوا من قبلُ طقسًا كهذا في هذا الوقت من العام.

دامغان (٣٩٠٠ قدم)، ٢٨ أبريل: المزيد من الكوارث.

على بُعد عشرين ميلًا من سمنان انكسر المحور الخلفي للسيارة. كان لدينا محور احتياطي، ولكن الأمر استغرق منا خمس ساعات لتثبيته، بينما تجوَّلت أنا وكريستوفر، عاجزَين عن تقديم العون، يائسَين في أرجاء الصحراء المبتلة المتلألئة، مفرِّجين عن أنفسنا بمشاهدة الزنابق الصغيرة الصفراء التي أزهرت لتوها، وبين الحين والآخر وأحيانًا نخفق البيض في صالة شاي محطَّمة.

سأل كريستوفر الشاب المسئول: «ما اللغة التي تتكلَّمها؟»

«أتكلم لغة تشاكاباكارو، وهي لغة سمنان. ألا تتكلمها؟»

نحن لا نتكلمها. ولكن ربما تكون كنزًا لعلماء اللغويات.

هطل المطر كبالوعة حمَّام. لأميال متواصلة، كان الطريق نهرًا، والصحراء فيضانًا، وكل جبل شلالًا. ولكن بفعل ظاهرة طبيعية غريبة، فإن «قاع النهر»، الذي جرى بجوار أعمدة التلغراف، والذي كان أدنى بعدة أقدام من مستوى المنطقة المحيطة، ظل جافًّا تمامًا.

في أحد السيول، كانت عجلات شاحنتين قد غُرِسَت دون أمل. سحَبَنا السكان المحليون، ولكن بعد أن أخذوا أجرةَ رافعات الشاحنات قبل أن يفعلوا ذلك، وإلا كانوا سيوجِّهون السيارة للجزء الأعمق ويتركونها. بعد ذلك تحسَّن الطريق، وكنا نمضي بسرعةِ أربعين ميلًا في الساعة في الأجزاء المستقيمة من الطريق، عندما مرَّ أمام أعيننا بسرعة خاطفة مجرًى مائيٌّ صغير بعرض ثلاث أقدام، وعمق قدمين، ومستدق الطرف كالتابوت ... مرةً أخرى ظننا أنها النهاية؛ ولكن كلا؛ فقد قفزت سيارتنا من فوقه، وسقطنا في مستنقع، وهبطنا أحياءً باصطدامٍ مُحطِّم بكومةٍ من الحصى.

كانت العجلتان الأماميتان على هيئةِ قدمَي بطة، لكن المحور صمد، ولم يكن بوسعنا إلا أن نمضي بالسيارة وهي تتهادى وصولًا إلى دامغان؛ حيث يعمل الحدَّاد الآن على تعديل المحور. هنا رأينا الجندي الهندي التابع لبايباس، والذي أخبرنا أن سيده، أثناء عودته من مشهد، قد علِق في نهر في الجهة الأخرى من البلدة. سرعان ما ظهر بايباس نفسُه بعد ذلك، في مقدمة الرَّكب الذي كان يحمل أمتعته. اشتمل هذا الرَّكب على سيدة عجوز تُعاني انحناءً مفرِطًا بسبب الروماتزم ومغطَّاة برداء ذي مربَّعات زرقاء، كانت تستخلص حقيبةً صغيرةً بشِق الأنفس.

استقبلْنا بايباس بإطلاعه على المصائب التي واجهتنا. وقد رفَعَت ثلاثُ زجاجات من نبيذ شاهي وسلطةُ برتقال وسيجارُ ويشاو الروحَ المعنوية لنا جميعنا.

عباس آباد (٣٠٠٠ قدم تقريبًا)، ٢٩ أبريل: حتى في رحلتيَّ الأخريين، بدت هذه البقعة العاصفة المشئومة، التي يبيعون فيها حافظات سيجار مصنوعة من حجر أملسَ أخضر، ويرتدي الرجال قمصانًا نسائية حمراء، هي ذروةَ البؤس. الآن، يتعيَّن علينا أن نُمضي ليلتنا هنا.

فاضَ النهر أمام سيارة بايباس مباشرةً. كانت سيارة ليموزين جديدة. ولكنها بدت هذا الصباح مثل كهف نبتون. بعد أن فشلت شاحنتان في سحبها بالسلاسل، تابعنا المضي في طريقنا.

كان المطر لا يزال يسقط. صادفنا بعد شاهرود رمالًا ناعمة، طارت ملتصقةً بالزجاج الأمامي؛ ولذلك كان عليَّ أن أقود السيارة ورأسي خارجها، ولكن دون أن تقل السرعة مطلقًا عن ثلاثين ميلًا في الساعة، وإلا كنا سنَعلَق. كانت التلال المتعرِّجة الداكنة والسماء الملبَّدة بالغيوم في خراسان لا تزال كما هي. غير أن كساءً نباتيًّا كان قد نما فوق الصحراء السوداء المشبعة بالمياه؛ حيث الخضرة الشحيحة المتمثلة في أشجار شوكة الجمل، والبَروَق المستقيمة، ونوع من بقدونس البقرة الأصفر السميك، الذي يبلغ ارتفاعه ثلاث أقدام وسُمكه سُمك شجرة؛ فهو زهرة قبيحة مشئومة.

قالوا هنا إن الماء كان بعمق أربع أقدام على الطريق إلى سبزوار. ومن ثَم توقفنا، وأويت إلى الفِراش ومعي رواية إدموند جوس «الأب والابن». اشترى كريستوفر بلوزة حمراء بصخب شديد كما لو كانت من أزياء سكيابارِيلي.

مشهد، ١ مايو: صاحت السيدة جاستريل، بينما كنا نتهادى ونحن نصعد دَرج القنصلية، قائلةً: «لقد وصلتما في الوقت المناسب للانضمام إلى الحفل الراقص.»

هل يسافر جميع مَن يعملون في الإدارة السياسية الهندية حول آسيا بصناديق تحوي ملابس تنكرية؟ كانت السيدة جاستريل متنكِّرة في هيئةٍ زنجية مرتديةً جواربَ ضيقة سوداء وقبعة عالية؛ وقد رقص جاستريل، الذي يبلغ طوله سبع أقدام، رقصةَ ريل اسكتلندية وهو متنكِّر في هيئة «ذي اللحية الزرقاء»، مرتديًا ثوبًا ذهبيًّا وقبعةً من فرو القندس ذات لون أزرق داكن. بدت روز، من الإدارة نفسها، مثل صبي مدرسة من رسومات كيت جريناواي. وتنكَّرت السيدة هامبر في هيئة راعية غنم، وظهر هامبر، وهو أحد أعيان بخارى، في ملابسَ حريرية في تفصيلةٍ أكبرَ من حجم جسم الإنسان. قبل أن أتمكَّن من أن أعبِّر عن مدى سعادتي برؤيتهم مرةً أخرى، أخذوا يحوِّلونني إلى خادمة؛ أما كريستوفر الذي أحاط به آل جاستريل، فكان يختنق في الملابس الفخمة لشيخٍ عربي.

كانت الإرساليات التبشيرية ممثَّلة بأعداد كبيرة. وكان السيد دونالدسون الذي أمضى نصف عمره يَدرُس الحُجاج الشيعة، قد أصبح واحدًا من أفرادها كما ينبغي تمامًا. عندما سألته عما إذا كان في الأمر تضحية أن يحلق شعر رأسه كله من أجل ليلة واحدة، قال: «أوه، كلا، هذا مناسب جدًّا. فدائمًا ما أسافر حليق الرأس، وسأذهب في رحلة غدًا لزيارة القرى الجورجية بين عباس آباد وقوتشان. الأهالي مسلمون بالطبع، لكنهم لا يزالون يملكون تراثًا من التعليم الراقي.»

نسيت الخادمةُ نفسَها حتى إنها نخزت الرجل الذي من أعيان بخارى في ظهره بمظلة أثناء أدائهما رقصةَ أباتشي الثنائية الفرنسية.

مشهد، ٢ مايو: يقول «لي» الذي يعمل في البنك إنه ما فتئ يؤدي أعمالًا تجارية مؤخرًا أكثرَ مما كان عليه الأمر منذ وقت مضى. سألته عما إذا كان هذا راجعًا لطرد اليهود من أفغانستان. فقال إنه ربما يكون هذا هو السبب.

أولئك اليهود كانوا يسيطرون على تجارة جلود الحُملان، وأتذكَّر أنه في الكريسماس كان «لي» مهتمًّا بروايتي لقصةِ هجرتهم الجماعية، مع أنَّ أيًّا منا كان يعلم في ذلك الوقت أن الأمر راجع إلى أمرٍ حكومي. كان السبب وراء اهتمامه أن نسبةً كبيرةً من هذه التجارة كانت فيما مضى تمرُّ عبْر مشهد، وكان ذلك في مصلحة المدينة والبنك. ولكن هذا توقَّف عندما شرع مارجوريبانكس في سياسته المتمثلة في تأميم الاقتصاد. توقَّفت كل التجارة تقريبًا، حتى وصل الأمر بمصلحة الجمارك في خراسان أن عجزت عن أن تدفع حتى أُجورَها من إيراداتها. ولكن الآن بعدما دخل كثير من هؤلاء اليهود بلاد فارس، فربما يكونون قد أعادوا معهم تجارة جلود الحُملان.

دائمًا ما أسمع عن الحَمَل «الفارسي»، وعندما كنت في أفغانستان في السابق لم أدرك الأهمية الاقتصادية لهذه التجارة في ذلك البلد؛ مع أنه كَثُر الحديثُ عن جلود الحُملان في بازار هِرات. صحيح أن بلاد فارس تُصدِّر ما يكفي من الحُملان. غير أن الفِراء الجيد، الذي يدفع فيه صانعو القبعات في لندن وباريس ما يصل إلى ٧ جنيهات إسترلينية، هو حِكر على أوكسيانا. يرجع هذا إلى أعشابٍ جافة معينة تنمو في منخفض نهر أوكسوس، وتجعل الصوف يتجعَّد بإحكامٍ أكثرَ منه في أيِّ مكانٍ آخر. وبذلك تشترك كلٌّ من روسيا وأفغانستان في الجزء المربح بالفعل من تجارة جلود الحُملان. ولكن ماهية السبب الذي يجعل الأفغان يريدون التخلص من الأشخاص الذين يديرون الجزء الخاص بهم من التجارة؛ ومن ثَم يجعلون الوسطاء الفرس حاضرين في الأرباح، هي لغز لا يزال علينا حله.

مشهد، ٦ مايو: أمسِ منحَنا صديقي القديم القنصل الأفغاني لمحةَ ضوء محتملة حول هذا اللغز. كنا نناقش إعلانًا في الصحيفة مفادُه أن الحكومة الأفغانية قد قرَّرت إعادة بناء بَلْخ، وسألته عن المغزى من الأمر؛ حيث إن مزار شريف، عاصمة تركستان الأفغانية وإحدى المدن المزدهرة، على بُعد سبعة عشر ميلًا فقط. أجاب بأن بَلْخ مدينة تاريخية، وهي «موطن الجنس الآري».

لا بد أن هذا الهوس قد انتشر من ألمانيا. وحتى عامٍ مضى، كان الأفغان يزعمون أنهم يهود؛ من أسباط إسرائيل المفقودة. ولكن لا يوجد ما يمكن وصفه بأنه خيالي أكثر من اللازم بالنسبة إلى القومية الآسيوية.

مضت الأيام سارةً هنا. كان ينبغي علينا المغادرة، ولكنَّ أمرين منعانا. أحدهما وصول محور احتياطي من طهران. والآخر هو الضريح. فيما يتعلَّق بالفسيفساء الملونة، لا يوجد مبنًى رأيته أو سمعت عنه في بلاد فارس يمكن مقارنته بالمصلى في هِرات، ربما باستثناء الضريح الموجود هنا، والذي بنَته المرأة نفسُها؛ وإن كان ذلك صحيحًا، وكونه سليمًا تقريبًا، فهو على الأرجح أروع مثال على الألوان في العمارة الإسلامية بأسْرها. لم أدرك هذه الأرجحية عندما كنت هنا سابقًا؛ فلقد افترضتُ أن الخزف في أصفهان سيكون مكافئًا للخزف في المصلى أو يتفوق عليه. ولكنه ليس كذلك. إن مسجد شيخ لطف الله أروع، ولكن فقط مثلما كاتدرائية القديس بطرس أروع من كاتدرائية تيمبيو في مدينة ريميني؛ حيث لا وجود لإلهام النهضة المتسم بالحيوية. لن أترك هذه البلدة دون أن أرى المبنى الوحيد الكامل لجوهر شاد.

كنا قد أعددنا العُدة. وكانت وِجهتنا الأولى هي زيارة المستشفى الجديد، قرة عين الأسدي، كي نتمكَّن من مدحها له عندما يرجع من طهران. جعلته هذه اللمسة من اللباقة في مزاج طيب، ولكن ليس أكثر من ذلك؛ إذ كان لا يزال يأبى تولي المسئولية الرسمية عن سلامة الأجانب داخل الضريح. ومع ذلك، أدَّت زيارتنا له بشكلٍ غير مباشر إلى التعرُّف على مُعلِّم مدرسةٍ شابٍّ دمثٍ يرتدي قفازًا من الجلد المدبوغ، والذي عرض مساعدتنا من أجل المتعة، فقط من أجل المتعة؛ أي متعة توجيه ضربة لصالح المعرفة ضد قوى الظلام الكَنَسي.

التقينا به ليلةَ أمس لمناقشة بعض الأمور، وذلك بعد أن أخذنا أولًا غرفة في الفندق كي نحافظ على سرية خططنا بعيدًا عن أعين القنصلية. بحلول وقت وصوله كنت قد صِرت فارسيًّا، أو على الأقل ظن هو كذلك؛ حيث حيَّاني بالطريقة الفارسية، واندهش عندما

انفجر الشرقي الرَّث في قهقهة وقِحة مغلِقًا عينيه ومشمِّرًا عن ساعدَيه. حسم هذا المسألة. سيصطحبنا الليلة.

هذا الصباح مضينا بالسيارة إلى تشناران، على الطريق إلى عشق آباد والحدود الروسية. ومن هنا قادنا مضمار عربات إلى مسافةِ ستة أميال إلى برج رادكان. سرْنا بقيةَ الطريق، أولًا فوق عُشب رطب جُذَّ قصيرًا بفعل قطعان الخيول، ثم عبْر سلسلة من الأهوار المالحة اللزجة. كان مرشدنا فلاحًا حانقًا ضئيلَ الحجم بشعرِ وجهٍ كثيف.

«هل تعرف الطريق إلى رادكان؟»

صاح ساخطًا: «كيف لي ألا أعرفه؟» ولكنه لم يكن يعرف سوى الطريق إلى قرية رادكان، وقد تعدَّى غضبه كلَّ الحدود عندما جذبناه عبْر تلك الأهوار إلى البرج بدلًا من ذلك.

كان الأمر يستحق العَناء؛ كان برجَ دفن أسطوانيًّا ضخمًا ذا سقف مخروطي، ارتفاعه تسعون قدمًا، ويرجع تاريخ بنائه إلى القرن الثالث عشر. يتألَّف الجدار الخارجي من أعمدةٍ سُمك الواحد منها قدمان، ويلامس أحدها الآخر. القِرْميد، ذو اللون الأحمر الصدئ، الذي بُنِيَت به هذه الأعمدة، مرصوص بأنماط كالتويد، وهو ما يمنح المبنى نوعًا من السطوع، كذلك الذي يتمتع به حصان مهندم. على خلاف قنبد قابوس، لهذا البرج بيت درج في سُمك الجدار.

في طريق العودة، خرجنا عن الطريق الرئيسي لزيارة طوس. كنت أقول لكريستوفر إنه إلى جانب الجسر القديم والضريح هنا، ينبغي أن يرى ضريح الفردوسي؛ لأنه دليل على أن ثَمة نَسمة من الذوق المعماري لا تزال حاضرة في فارس الحديثة. تجمَّدت الكلمات على شفتيَّ؛ حيث كان حشدٌ من العمال عاكفين على هدمه. يخفي درابزين حديدي البِركة. ثَمة أحواض زهور بلدية جاهزة لزراعة زنابق القنا والبيجونيا. وفي النهاية، بدلًا من الهرم البسيط البهيج الذي أُعجبتُ به في نوفمبر، انتصبت نُسخ غير مكتملة البناء من الأعمدة التي تعلوها رءوس الثيران الموجودة في برسبوليس.

اعتذرت عن حماسي ومضينا مبتعدين بالسيارة. يبدو أن مارجوريبانكس رأى صورةً فوتوغرافيةً للنُّصُب الأول، وقال إنه بسيط أكثر من اللازم.

مشهد، ٧ مايو: ليلة أمس التمسنا لأنفسنا الأعذارَ كي لا نذهب إلى القنصلية، وتناولنا العشاء في الفندق. علَّق كريستوفر قائلًا إنه إن كان يوجد دليل مُحدَّث لمشهد، فربما يحتوي على جملة مثل: «الزائرون الذين يعتزمون تفقُّد ضريح الإمام الرضا عادةً

ما يتناولون العشاء ويتقابلون في فندق هوتيل دي باريس.» ختمنا عشاءنا بمثلجات الفانيليا، وهيَّأنا أنفسنا بشراب بورجندي قوقازي حامض رديء. في الساعة الثامنة، كنت قد وضعت لتوِّي آخر قطعة من الفلين على مؤخرةِ عنق كريستوفر عندما وصل صديقنا معلِّم المدرسة ومعه سيدة أرمينية جاءت لتشهد انطلاق الأبطال في رحلتهم. ولكنها رأتهم يركبون عربةَ حنطور في حالةٍ سيئة. أوصلتنا هذه العربة إلى البوابة الرئيسية للضريح؛ حيث ترجَّلنا، ولكن بدلًا من أن ندخل، انعطفنا يمينًا إلى الجادَّة المستديرة. قال المرشد: «هل أنتما مستعدان؟» وغاص إلى داخل نفق مظلِم. تبِعناه كالأرانب، لنجد أنفسنا في ساحةٍ صغيرة، وانطلقنا مسرعين عبْر بازار مضيء مملوء بالأكشاك والمشترين، وخرجنا منه إلى الساحة الكبيرة لمسجد جوهر شاد.

تلألأت الأضواء الكهرمانية في الفراغ، وتوهَّجت غير مرئية من القوس الضخمة أمام الحرم، عاكسةً وهجًا ناعمًا فوق المدخل المُذهَّب للمقبرة المقابلة، وكاشفةً، بينما تأقلمت العين، عن ساحةٍ رباعية الجوانب شاسعة تحدِّدها صفوفٌ من الأقواس. ظهر صفٌّ علوي بعيد عن متناول الأضواء، وعاود الظهور، بعد أن مرَّ عبر نطاق غير مرئي على هيئةِ حاجز أسود أمام النجوم. اختفى الملالي المعمَّمون الذين كانوا من الأفغان في ثوب أبيض، كالأشباح بين مدارات الحُملان، متسللين عبر الرصيف الأسود ليسجدوا تحت البوابة الذهبية. سُمع صوت إنشاد من الحرم، حيث يمكن رؤية شيء صغير منفرد قابع في العتَمة أسفل المحراب البرَّاق.

الإسلام! إيران! آسيا! يا لها من أمورٍ خفيَّة وخاملة وغامضة!

يمكنني سماعُ رجل فرنسي يقول ذلك، ويا له من أحمقَ سخيف؛ كما لو كان وكْر أفيون في مارسيليا. ولكننا شعرنا بعكس ذلك؛ ولهذا ذكرت الأمر. تآمر كل مشهد وصوت وتَعَدٍّ ليُثقل كاهل العقل. تغلَّبت رسالة التحفة الفنية على هذه المؤامرة لتشقَّ طريقها وتخرج من الظلال، في إصرارٍ على البِنية والتناسب، وعلى غرس انطباع الجودة الفائقة، ووراء ذلك الفكر. يصعب التعبير عن الكيفية التي نُقلَت بها هذه الرسالة. لمحات الأرابيسك في غاية الرشاقة والتداخل حتى إنها لم تعُدْ تبدو كفسيفساء، بل كغُرَز نسيج سجادة؛ لمحات من أنماطٍ أكبرَ ضاعت في الظلام فوق رءوسنا؛ من أقبية وأفاريز نابضة بالحياة بفضل فن الخط — هذه هي الكلمات التي تصف الأمر بالفعل. لكن المعنى كان أكبر. فثَمَّة عصر هيمَنَ على الأمر، وهو عصر التيموريين، وجوهر شاد نفسها، ومهندسها المعماري قوام الدين.

قال مرشدنا هامسًا لكريستوفر: «من فضلك تمخَّطْ.»

«لماذا؟»

«رجاءً تمخَّطْ، واستمِرَّ في ذلك. يجب أن تغطي لحيتك.»

كان مرشدنا معروفًا لدى الملالي ورجال الشرطة المناوبين. ألقَوا عليه التحية دون أن يلاحظوا العاميَّ الرثَّ إلى جانبه أو المسلول العاطس في عقبه. سِرْنا مرتين حول الساحة الرباعية، ببطء شديد، منحنين للمقبرة في كل مرة؛ ثم أسرعنا الخُطى عبر الساحتين الكبيرتين الأخريين اللتين تمثلان نُسخةً بالغةَ الرقة من كوات بيضاء مفضضة في صفوف مزدوجة.

همس مرشدنا قائلًا: «الآن نصل للبوابة الرئيسية. سأتحدَّث إليك يا سيد بايرون عندما نخرج. أما أنت يا سيد سايكس، فرجاءً تمخَّطْ وامشِ خلفنا.»

وقف الحراس والبوابون ورجال الدين احترامًا عندما رأوه قادمًا. بدا منهمِكًا للغاية في محادثته التي اتخذت شكلَ مناجاةٍ منفردة من خادمة، وبدت رائعة للغاية بالفارسية حتى إنني لم أكن بحاجة لتصنُّع الاهتمام: «وهكذا قلت له كذا وكذا وكذا، فقال كذا وكذا. قلت وقلت كذا وكذا وكذا، وقال لي إنني قلت كذا! كذا وكذا وكذا ...» انحنى الجميع. نظر مرشدنا خلفَه ليتأكد من أن كريستوفر كان يتبعنا، ثم خرجنا وركبنا سيارة أجرة، وبعد قليل كنا نغسل وجوهنا في الفندق قبل العودة إلى القنصلية.

شكرناه جزيل الشكر. غير أنه كان عليَّ في اللحظة نفسِها أن أخبره أنني بعدما رأيت كل هذا، فليس ثَمَّة قدْر من الامتنان يمكنه أن يمنعني من أن أتوسَّل إليه أن يصطحبني مرةً أخرى نهارًا. لاحَظ كريستوفر إحجامه، فعرض ألا يأتي معنا؛ حيث كان من الواضح أن ذقنه مبعثُ إحراج. طمأن هذا مرشدنا. واتفق على لقائي اليوم في الساعة الثانية.

هذا الصباح عندما دخلت الفندق، أحضر لي عامل غرفة النوم صحنًا من الفلين والفحم دون أن أطلبهما. كان وضع هذه المواد الخشنة في النهار أمرًا مختلفًا تمامًا؛ إذ بدا شاربي أخضر وليس أسود وأصبح مُبقَّعًا، وظلَّت عيناي زرقاوين وسط رموش شبه سوداء ومتقرحتين من أثرِ فرْكهما. غير أن الثياب كانت بارعة؛ فقد كانت حذاءً أسود، وسروالًا أسودَ ضيقًا أقصرَ بأربع بوصات، وسترة رمادية، وأزرارًا ذهبية بدلًا من ربطة عنق، ومعطف المطر الخاص بخادمنا، وقبَّعة بهلوية جعلتُها تبدو قديمة بركلِها؛ شكَّلت هذه العناصر الطرازَ المفضَّل في بلاد فارس في عهد مارجوريبانكس. يا للحسرة! لم أكَد أستكمل عملي الفني حتى أُبلغتُ عن طريق رسالة هاتفية بأن مرشدنا قد أحجم خوفًا في آخر لحظة.

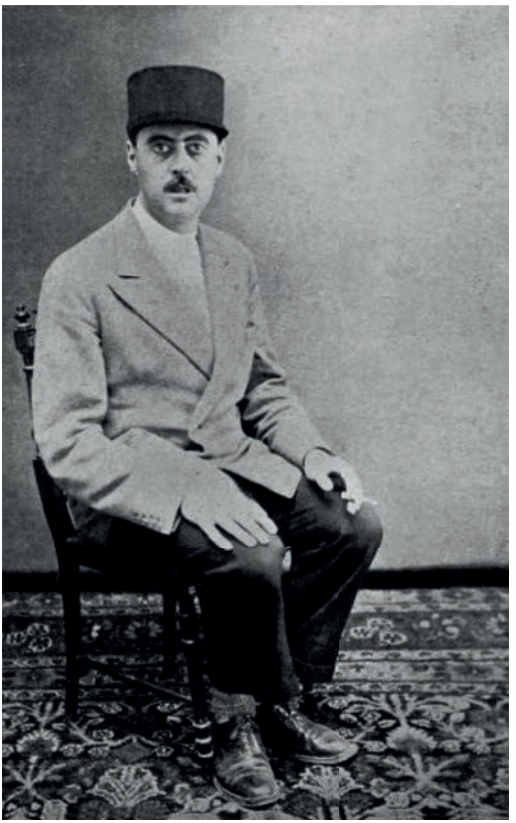

صورة شخصية لي متنكرًا في هيئة رجل فارسي من الطبقة المتوسطية الدنيا.

لم أجرؤ على أن آخذ سيارةَ أجرة بنفسي، فكان عليَّ السير مسافة ميل ونصف الميل إلى الضريح. كانت الشمس خلفي، وتعرَّق جسدي أسفل معطف المطر، بينما ابتدعت هرولةً سريعةً على الطريقة الفارسية بخطوات عالية وقصيرة لتجنِّبَني التعثرَ فوق حجارة الرصف غير المستوية، ولكني لم ألفت انتباهَ أحد. اقترب الهدف. ها هي ذي البوابة الرئيسية. وها هو ذا النفق الصغير. دون أن ألتفت حولي، صرت بداخلها، ووجدت الساحة، وأدركت أنه توجد أشجار هناك، ثم رأيت أن المَخرج الآخر كان محجوبًا تمامًا بمجموعة من الملالي؛ مهاجميَّ المحتملين الذين كانوا يتناقشون حول بضاعةِ أحدِ متاجر الكتب الصغيرة.

كان كل شيء معتمِدًا على سرعتي في السير. تكيَّفت عليها وبها. سينكشف أمري إذا تعثرت. لذا حافظت عليها، وشققت طريقي وسط مجموعة الملالي تلك كطُربيد يشق الأمواج. عندما انتبهوا إليَّ، متبرمين من سوء خُلقي، كان ظهري هو كلَّ ما يمكنهم ملاحظته.

أسرعت عبر البازار المظلم، وعثرت على القبَّة التي انعطفت عندها يسارًا، وعند خروجي إلى الساحة، استقبلني صخب من الألوان والضوء جعلني أتوقَّف للحظة وأنا لا أكاد أرى شيئًا. كان الأمر كما لو أن أحدًا قد أوقد شمسًا أخرى.

كانت الساحة الرباعية بأكملها حديقةً من الزهور بالألوان الفيروزي والوردي والأحمر الداكن والأزرق الداكن، مع لمسات من الأرجواني والأخضر والأصفر، المزروعة وسط مسارات من القِرْميد المصقول الخالي من الزخرفة. التفَّت زخارف الأرابيسك البيضاء الضخمة حول أقواس الإيوان. وحجبت الإيوانات نفسُها حدائقَ أخرى، أكثر ظلالًا وبألوان زنابق البوقيات. كانت المآذن الكبيرة بجوار الحرم، التي تنتصب من قواعد تطوِّقها كتابات كوفية بحجم صبي صغير، مزيَّنةً بشبكة من المعينات المرصَّعة. وظهرت من بينها القبَّة المنتفخة باللون الأخضر الفاتح المائل إلى الزرقة والمُزدانة بحوالق صفراء. في الطرف الآخر ومضت قمة مئذنة ذهبية. ولكن وسط كل هذا التنوُّع، أذكى مبدأُ الاتحاد شرارة الحياة للمظهر المتوهِّج بأكمله، بواسطة نَصَّين كبيرين؛ أحدهما على إفريز من الكتابة بخط الثُّلث المدقوق فوق خلفية بلون زهور الجنطيانا الزرقاء على امتداد أفق الساحة الرباعية بأكملها، والآخر في إطار بالأحرف الأبجدية نفسِها على خلفية من الياقوت باللونين الأبيض اللؤلئي والأصفر، متداخل مع خطٍّ كوفي باللون الفيروزي على طول حافته الداخلية، ويحيط، في هيئة مستطيل ثلاثي الجوانب، بقوس الإيوان الرئيسي بين المآذن. تنصُّ الكتابة على أن مَن صمَّم هذا الأخير هو في الواقع «بايسنقر، ابن شاه رخ، ابن تيمور جوركاني (تيمورلنك)، تقربًا إلى الله، سنة ٨٢١ (١٤١٨ ميلادية).» كان بايسنقر خطَّاطًا مشهورًا، وكونه ابن جوهر شاد أيضًا، فقد احتفى بجُودِ والدته بنقشٍ تُفسِّر عظمته إلى الأبد البهجةَ التي يشعر بها أهل الإسلام في الكتابة على الواجهات المعمارية.

استغرق مني هذا المشهد بضع ثوانٍ. في الوقت نفسِه بدأت أشعر بعدم الأمان. كنت قد نويت اتباعَ خطة الليلة الماضية من السير ببطء في أرجاء الساحة، ولكن صدَّني حشدان، أحدهما كان يستمع إلى واعظٍ أمام الإيوان الرئيسي، والآخر يصلي أمام القبر المقابل؛ وبذلك كانت المراسم الدينية تهدِّدني في كلتا الحالتين. كان حجاج آخرون جالسين القرفصاء على امتداد الجدران، كثير منهم من الأفغان، وجميعهم مختلفون تمامًا في الملبس والسلوك

عن صورتي الفارسية التي تنتمي إلى الطبقة الوسطى الدنيا، وكانوا يتطلعون إليَّ بتجهُّم الصقور، أو هكذا تخيَّلت، بينما كنت أتنقَّل جَيئةً وذهابًا بين الحشدين. ولكن الأمر في النهاية لم يَعُد مجرد تخيُّل؛ فقد جذب فضولي وتحديقي الانتباه. أسرعت الخُطى عائدًا إلى البازار. لم يَعُد الملالي موجودين في الممر. كان كريستوفر واقفًا بالخارج في الشارع، ينظر شزرًا متهكِّمًا عندما مررت به وعيناي تتحاشيان النظرَ إليه. الآن، في طريق العودة، كانت الشمس في وجهي، والتفت الناس لينظروا إليَّ بينما كنت أُمُر. كان ثَمَّة خَطبٌ ما. مهما كان ذلك، فإن السيدة جاستريل لم تتوصَّل إليه. فقد كانت تجفِّف شعرها بالقرب من النار، وكانت غاضبة للغاية عندما انتهك خصوصيتَها شخصٌ مجهول من أهالي البلد.

لقد اطلعت على ما أردت معرفته؛ أولًا أنَّ استخدام الفسيفساء الملوَّنة في خارج المباني بلغ ذروته في عصر النهضة التيمورية، وثانيًا أن جمالها في الضريح هنا أقلُّ مع ذلك من جمالها في ست مآذن من المآذن السبع في هِرات، والتي تتميز بقاياها بجودةٍ أعلى وألوانٍ أكثر نقاءً، ولا يتخللها البناء القِرْميدي البسيط. يقول الرحَّالون القلائل الذين زاروا سمرقند وبخارى وكذلك ضريح الإمام الرضا، إنه لا شيء في هاتين المدينتين يمكنه أن يضاهي ضريحَ الإمام الرضا. إن كانوا محقِّين، فلا بد أن مسجدَ جوهر شاد هو أعظم مَعلم باقٍ من تلك الحِقبة، بينما تُظهِر أنقاض هِرات أنه كان يوجد فيما مضى مَعلمٌ آخَر أعظم.

أرتجف عندما أتخيَّل أنه من بين أجملِ أربعة مبانٍ في بلاد فارس، وهي قنبد قابوس، والغرفة المقبَّبة الصغيرة في مسجد الجمعة بأصفهان، ومسجد جوهر شاد هنا، ومسجد شيخ لطف الله في أصفهان، تأجَّلت معرفتي باثنين منها حتى آخر أسبوعين لي في البلاد.

كاريز (٣٠٠٠ قدم)، ٨ مايو: كنا ننوي التوقُّف عند سنك بست لتفقُّدِ الضريح والمئذنة اللذين يعودان إلى القرن الحادي عشر، واللذين يمكن رؤيتهما على مسافةِ ميل من الطريق. لكنَّ السماء الممطرة جعلتنا نندفع إلى بلدة تربت شيخ جام. كان الضريح هناك مخيبًا للآمال. وكذلك كان حال غدائنا. في أصفهان، قرَّرت أن الشطائر لا تُحتمل، واشتريت وعاءً أزرق كان علي أصغر يملؤه بالدجاج المطهي بصلصة المايونيز قبل البدء في الرحلة. اليوم حدثت خيانة في مطبخ جاستريل؛ حيث مُلئ بلحم الضأن. والأسوأ من ذلك أن النبيذ كان قد نفد منا.

ثم بدأ ذلك الشعور بنهاية العالم، الذي كنت قد لاحظته من قبلُ في السهل حيث تلتقي بلاد فارس وأفغانستان، والذي أصاب الآن كريستوفر أيضًا. أحاطت حقول خشخاش

الأفيون بالقرى القليلة المتباعدة، زاهيةً بأوراقها الخضراء النضرة أمام السماء المنذرة بالعواصف. وتراقص برقٌ أرجواني في الأفق. كانت السماء قد أمطرت هنا بالفعل، وبالخارج في الصحراء كان بوسعنا أن نشمَّ الرائحة القوية لأشجار شوكة الجمل كما لو كانت تحترق. واختلطت أزهار الترمس الأصفر بمجموعاتٍ كبيرة من السوسن البنفسجي والأبيض. كانت تجتاح كاريز نفسَها رائحةٌ طاغية، في حلاوة أزهار الفاصوليا، ولكنها أوهن، وأكثر شاعرية. ذهبت لمحاولةِ شمِّها وتحديد مكانها. جذبتني أزهار الأفيون، الوهَّاجة في الغسق ككتل من الثلج. ولكن الرائحة لم تكن قادمة منها.

كاريز، ٩ مايو: هطلت الأمطار في الليل. حاولنا الانطلاق، ولكننا رجعنا بعد خمسمائة ياردة.

كاريز، ١٠ مايو: هذا الصباح أخذنا الجيادَ لتفحُّص الطريق وتجربة سروجنا العسكرية. ركبتُ فرسةً كستنائيةً عجوزًا صغيرةَ الحجم وتعاني سوءَ التغذية، بينما ركب كريستوفر فحلًا أبيضَ يافعًا ضخمًا وأحوَل. ضَمِن اختلافُ الجنس أقصى سرعة يمكن الحصول عليها منهما.

عند الحصن الصغير الفارسي في منطقةٍ غير آهلة بالسكان، وجدنا ضابطًا لم يكن قد مرَّ على خدمته هناك سوى يومين، وكان يشعر بالفعل بإحباطٍ لا يوصف في صحبةِ أعضاء فرقته القلائل، وكلبًا وحشيًّا، ومِلءَ حظيرة من الفرسات النحيلات وأمهارها الوليدة. لم تكن توجد شجرة، ولا جدول ماء، ولا أيُّ إشارة على وجودِ حديقةٍ تصد نباتات بقدونس البقرة الأصفر الرطبة الصحراوية. قدَّمنا له بعض الكعك، وقلنا إننا لا بد أن نتابعَ المضي في طريقنا، لرؤيةِ أسوأ جزء في الطريق حيث يتقاطع مع المستنقع.

اعترض متحجِّجًا بأن الطريق ليس آمنًا، ولكن عندما رأى إصرارنا أتى معنا طلبًا للصُّحبة، ممتطيًا جواده ومصطحبًا بندقيةً أسفل فخذه اليسرى. أتى أيضًا اثنان من أعضاء الفرقة، وتناثر الجمع بأكمله في صفٍّ لاستكشافِ جميع المسارات الممكنة. كنا قد قطعنا مسافةَ كيلومتر أو أكثر، عندما صرخ الضابط عليَّ كي أراقب راعيَ غنم نائمًا. أظن أن إحدى حالات هلعه الأخرى كانت عندما رأيت ذبابًا، الكثير منه، على الساقين العاريتين. كان الوجه متشنجًا، كقناع بُني مزرق، ومتضخمًا في حجم يقطينة: كانت العينان مغلقتين، والشفتان السوداوان مفتوحتين.

كان الضابط في حالةِ ذهول. كيف يمكن أن يكون الرجل قد مات على مسافةٍ قريبة جدًّا من الحصن الصغير؟ ومتى مات؟ وما السبب في موته؟ هل نظن أنه ربما يكون قد

دهسته سيارة؟ بالنظر في أرجاء السهل المستوي تمامَ الاستواء لمسافةِ عشرة أميال في كل اتجاه، وبتذكُّر أن متوسط حركة المرور في اليوم هو شاحنة واحدة، لم نظن ذلك؛ ومن ثَم خاب آخرُ أمل لرفيقنا الفارسي في التظاهر بأن الجثة التي اعترضت طريقنا، مع كونها نذير شؤم، كانت لا تزال علامةً على تقدُّم البلاد.

أخيرًا استجمع شجاعتَه، ونزل من على الحصان، ورفع الجثة. اهتزَّت أطرافها. كانت الأضلع معوجَّة ومتصلبة. وكان بها جُرح رَصاصة حول العين اليسرى، وآخر فوق الثدي الأيسر. كان الرجل من الكازاخ. كانت لحيته المكسوَّة بالشيب رفيعةً لدرجةٍ يمكن معها عدُّ شعراتها. وقد سقطت عصاه ذات المقبض في مكان سقوطه، وبدت، وهي مُلقاة هناك، أكثرَ آدمية من الهيكل المتعفِّن بجوارها.

قال الضابط إنه يجب أن يرجع على الفور لكتابةِ تقرير. جُنَّ جنونه عندما أجبنا بأنه لا بأس في ذلك، ولكن يجب أن نمضي في طريقنا. حُلَّت المعضلة بظهور فارس وحيد في الأفق من اتجاه بلدة إسلام قلعة. غادرت أنا وكريستوفر على فرسَينا لملاقاته. تبِعنا الضابط ممتعِضًا. كان الغريب تاجرَ خيول أفغاني، وأخبرنا أنه حتى حصانه قد واجهته صعوبات على الطريق عبر المستنقع؛ حيث وصل الطين إلى بطنه، كما كان بوسعنا أن نرى. كان هذا كلَّ ما أردنا معرفته. بعد شرب الشاي في الحصن الصغير، تركنا الضابط يصُوغ تقريره، وانطلقنا عائدين عبْر طريق بديل.

قادَنا هذا الطريق، بعد هجوم كلاب من مخيم بدوي باغت الفحل من الجانب الذي كانت رؤيته فيه محدودة وجعله يَنعَر في خوف، إلى بلدة يوسف آباد العسكرية؛ حيث أكرمَ ضابطٌ وِفادتنا مقدِّمًا لنا كعكَ السُّكر في غرفةٍ مفروشة بسجاد نظيف تُطلُّ على حديقة من الجنستا المزهرة وأشجار السنط. اتضح على الفور أنه كان شابًّا وسيمًا، وكان لديه من دماثة الخُلق ما جعله يتعاطف مع اهتمامنا بآثار بلده.

قال بالفرنسية: «إنكما على حق أيها السيدان. فلقد وجدت برج قنبد قابوس فريدًا من نوعه في العالَم بأسْره. هل زُرتما أصفهان من قبل؟ بالطبع. إنها رائعة، أليس كذلك؟ لا تزال توجد بعض الآثار هنا ... أجل قريبًا جدًّا من هنا.» ووصف مئذنة كِرات، التي رسمها دييز، والتي فشلت جميعُ الخرائط والتحريات حتى الآن في تحديد مكانها. إن كانت تلك بعيدةً للغاية، وكانت كذلك لسوء الحظ، فيوجد ضريح مولانا في تايباد على بُعد ميل فقط، والذي كان يبلغ عمره ٥٠٤ أعوام.

أخبرنا أيضًا عن طريقٍ آخرَ عبر الحدود إلى إسلام قلعة، والذي يمتد جهة الجنوب الشرقي من يوسف آباد حتى يصل إلى التلال، وبذلك يتفادى المستنقع. ربما نجرِّبه؛ حيث

يبدو أن الطريق العادي سيحتاج إلى ثلاثة أو أربعة أيام مشمسة ليجفَّ. كانت الغيوم في السماء أكثرَ من ذي قبل في طريق عودتنا إلى كاريز.

أفغانستان: هِرات، ١٢ مايو: هِرات العزيزة على قلبي!

أقيم مرةً أخرى في غرفةٍ فارغة مربعة ذات جدران بيضاء، وسفل أزرق، وسقف ذي أعمدة. تعيد قعقعة الحدَّادين بالأسفل أيامَ الخريف الغائمة للأذهان؛ حيث الانتظار، والمزيد من الانتظار. يجتمع ثانيةً شملُ رَكْب غريب الأطوار؛ جماعة نويل، والهنود، والرجل المجري، والطبيب البنجابي، والفحَّامون، جميعهم يهدِّدهم خطر الشتاء وإغلاق الطرق. الآن الصيف مُقبِل علينا، ومع ذلك يهبُّ الهواء باردًا عبر الأبواب المفتوحة وأنا مستلقٍ في سريري أراقب هرجَ ومرجَ الشارع في الصباح الباكر. توجد سيارة جديدة في البلدة، شيفروليه زرقاء داكنة، طراز ١٩٣٣. ولكن العربة الملكية ذات الحصان هنا أيضًا. رئيس الأركان واقف في الركن. ويحمل البنادقَ عددٌ من الناس أقلُّ من ذي قبل، ومع ذلك يُمسِك الجميع بوردة أو يضعها في فمه. ربما حلَّت الورود محلَّ البنادق. لا توجد بالتأكيد أيُّ بادرة على وجود «قلق في الربيع».

نزلت الطابَق الأسفل لتوِّي لأُحضر بعضَ الشاي، ورأيت المآذن على أضواء الفجر من السقف أعلى الدَّرَج. لقد تبدَّلت تلك الأضواء. منذ خمسة أشهر مضت كانت وميضًا حزينًا، ينحسر يومًا بعد يوم، ويُثقل معنوياتي أكثرَ حتى من ساعات الفجر التي لم يكن فيها أي ضوء، وكان المطر ينطِق بنقره اليائس على السقف المعدني. الآن سوف يزداد قوةً كل صباح. يمكننا السير إلى مزار إن أردنا، بدلًا من أن نسابق الشتاء ونخسر يومًا بعد يوم.

أدهشنا وصولنا هنا ليلةَ أمس بقدرِ ما أدهش مضيِّفينا. صباح أمس، في حوالي الساعة العاشرة ونصف، انطلقت مع كريستوفر على صهوةِ الخيل إلى يوسف آباد في مزاجٍ يتسم بالتروي، عازمين على قضاء اليوم في ضريح مولانا في تايباد. في طريق عودتنا الليلة الماضية، كنا قد لاحظنا نقاطًا منخفضة متنوعة على الطريق، كانت لا تزال غارقة في المياه لدرجةٍ لا يمكن معها لسيارة أن تعبرها. كادت الآن أن تكون جافة. رأينا في الوقت نفسِه عاصفةً جديدة تتجمَّع خلفنا من بلاد فارس. بدا أنه يتعيَّن علينا عبور الحدود على الفور أو أن نقاسي الانتظار لثلاثة أيام أخرى. كانت ركوبتنا أفضلَ من اليوم السابق. مضى كريستوفر يعدو بحصانه عائدًا لإحضار السيارة والحقائب. واصلت العدو ووجدت ضريحَ مولانا، الذي كان يزيِّنه نقشٌ جصي جميل على خلفية من طبقة ملساء فيروزية، ووصلت إلى يوسف آباد مرةً أخرى قبل السيارة بدقيقة واحدة. بعدما حزمنا سَرْجي وحقائبه، انطلقنا

تحت توجيه أحدِ الفلاحين الذي كان يرتدي بلوزةً قرمزية طويلة ومزخرفة بأوراق شجر بيضاء، وكان شعره قصيرًا، ولديه قُصَّة كخادمٍ من العصور الوسطى. لم تواجهنا أيُّ صعوبات حتى حاجي آباد، وهي قرية صغيرة بالقرب من التلال. ولكن بعد ذلك، بينما كنا نشق طريقنا على امتداد المنحدرات السفلية، وصلنا إلى رمالٍ غير ثابتة، وما كنا سنتمكَّن من العثور على الطريق من دون مرشدنا. ظهر من نبات بقدونس بقرة هائل يقف مستقيمًا وسط الطريق، أنَّ الطريق لم يشهد حركةً أخرى عليه هذا الموسم. بعد فترة كان باستطاعتنا أن نرى إسلام قلعة، وهي حصن منفرد في المساحة الشاسعة للسهل بالأسفل، وخرجنا في النهاية على طريق هِرات على بُعد ميلين خلفها، ولكننا رجعنا بالسيارة بإذعان امتثالًا لقوانين الحدود. أعطونا صحنًا من البيض المسلوق مكافأةً لنا.

كان الفندق في هِرات قد تلقَّى تحذيرًا عن طريق الهاتف بقدومِ أجانب، وكان السيد محمود واقفًا على العتبة. عندما رآني، كادت عيناه تخرجان من محجرَيهما، وأطلق ما يشبه نشيدًا عتيقًا (بمزيج من لغته والإنجليزية): «السيد بايرون، كان مريضًا، السيد بايرون، كان مريضًا. لقد رجع. كان مريضًا، كان مريضًا. لقد رجع، لقد رجع. السيد بايرون كان مريضًا، لقد رجع، كان مريضًا، ورجع» ... إلخ، حتى ظنَّ كريستوفر أنه كان في مستشفًى للمجانين، لعدمِ علمه بطريقةِ تعبير الأفغان عن مودَّتهم. هل أمتدحُ نفسي؟ زيَّنت زهور العُلَّيق عروتَي سُترتَينا، وفُرشت أفضل السجاجيد في غرفتَينا، ووُضعت قدور الغرنوقي على طاولتَينا. أحضروا نوعين من الشَّربات. وسيكون الكعك الإسفنجي والمربى المفضلة لديَّ جاهزَين غدًا. وأُخذَت الحقائب إلى الأعلى في طرفة عين.

قال كريستوفر: «حمدًا للرب على بلدٍ تجري فيه الأمور بذوقٍ مرةً أخرى.»

كان لتأخُّرنا في كاريز ميزةٌ واحدة، وهي أن ثراش قد غادر إلى قندهار. كتب شهادةً في كتاب السيد محمود يقول فيها إنه وفقًا للمعايير الأوروبية فإن الفندق يبعث على الرِّثاء، ولكن وفقًا للمعايير الأفغانية يظن أنه ليست لديه أي شكاوى. هذا رجل يستمتع بعدم الراحة.

هِرات، ١٣ مايو: امتدَّ هوس تحسين أحوال البلديات إلى هنا من بلاد فارس. يؤوي الآن كشكٌ صغيرٌ رجلَ الشرطة عند تقاطع الطرق، ومنه يتوعَّد أيَّ سيارة أجرة تتهادى عند المنعطف بهراوة حمراء وصافرة كفيلة بإفزاع عالم الجريمة في شيكاجو. أيضًا يهدمون البازار، ويُحلُّون محلَّه سلسلةً من الساحات الصغيرة للحِرَف المختلفة. يُعد هذا تحسينًا بالفعل. فالنفق القديم مكانٌ مرعب، وشديد البرودة في الشتاء، وليس له قيمة معمارية.

أحدثت الطبيعة تغيراتٍ أخرى. في جازار جاه؛ حيث رأيت آخر مرةٍ المخمليات والتبغيات تدلَّت من البِركة في الساحة الخارجية، ووروداً بيضاء منفردة نامية بسمك الثلج؛ وبدلًا من صفير رياح الخريف، يرفرف اليمام حول أشجار الصَّنوبر، وتستمتع العائلات بإجازاتها في السرادق ذي الأضلع العشرة. والسهل بأكمله، الذي يُرى من الشرفة بالخارج، بين الجبال ونهر هان هو الآن بحرٌ من نباتات خضراء متنوعة وجداول مائية فضية.

عندما أخرجُ إلى المصلى ومعي دفتر اليوميات هذا تحت ذراعي، بحثًا عن السكينة للتدوين فيه، أتعرَّف على كل حقل، وكل ضِفة، وكل مصرف تتلألأ فيه المياه، ولكن كما يتعرَّف المرء على وجه شخصٍ يرتدي ملابس غريبة. حتى المآذن تغيَّرت؛ إذ أصبحت زُرقتها زاهيةً أكثر، كما لو كان ذلك استجابةً لتغيُّر المشهد الطبيعي. وأصبحت القواعد المستديرة الضخمة، التي كانت تنتصب في الماضي من الأرض الجرداء، تنتصب الآن من حقول الذرة الزمردية المورِقة، التي يزدهر في أعماقها خَربَق أرجواني برَّاق، أو من قرون محاصيل الأفيون ذات اللون الأبيض المشرق والمملوءة باللون الأخضر المائل إلى الرمادي، أو من تلك الأشجار المنخفضة التي كان ينتشر عليها لونٌ ذهبي عندما رأيتها أول مرة، والتي كانت عارية كالعظام عندما غادرت، والتي تحوَّلت الآن إلى أشجارِ توت كثيفة باللون الأخضر الداكن. توزِّع الشمس حرارةً معتدلةً من سماءٍ معتدلة الزُّرقة. وفي المجمل، تسود تلك الرائحة الواهنة المحيِّرة التي صادفناها أولَ مرة في كاريز، محمولةً من كهفها ذي البتلات على نسيم الصيف اللطيف.

يتحدَّث الناس على الجانب الآخر من الضريح. توجد هناك منصة مواجِهة للجبال، حيث كنت أنوي الجلوس. ولكن كلا؛ فقد شغَلها بعض الملالي. توجد كتب متناثرة على الأرض، ومجموعة من المبتدئين من ذوي اللحى الزغباء يتلقَّون دروسًا، بينما يجلس اثنان آخران مستندين على حائط بالقرب من هنا، يُسمِّعون لأنفسهما. عبس وجهُ المُلا الذي يَخطُب، والذي تلتفُّ عمامته البيضاء حول قمعٍ أرجواني، وطلب مني أن أبقى بعيدًا. وجدت مكانًا مقابلًا لهم، على مسافةٍ مقبولة، من عندها يجعل المدخلُ الأسود الطويل والقبَّة الكبيرة الزرقاء الأشبه بالشمامة فوقه المجموعةَ الجالسةَ على المنصة تبدو كالأقزام. من المؤسف أنهم منشغلون جدًّا. لو لم يكونوا كذلك، لربما سألتهم عن سببِ اختيارهم لهذا الموقع لتلقِّي الدروس. هل هو تكريم لهؤلاء المدفونين هناك؟ وإن كان الأمر كذلك،

هرات: ضريح جوهر شاد ومئذنة مدرستها ١٤٣٢.

فما الذي يعرفونه عنهم؟ كانت قصص جوهر شاد لا تزال شائعةً في حديث الناس هنا في القرن الماضي.

ليس جمالها هو ما تسرده هذه القصص، فضلًا عن رعايتها للفنون. فللناس في هِرات، الذين عرفوها لمدة ستين عامًا، كانت شخصيةً بارزةً. تشعُّب مجالات حياتها والطريقة العنيفة التي ماتت بها جعلاها نموذجًا لعصرها؛ عصر كانت فيه هِرات عاصمةَ إمبراطورية تمتد من دجلة إلى شِينْجيانْغ.

تُذكِّرني سيرتُها بمَلِكتَينا إليزابيث وفيكتوريا. النساء من هذا النوع نادراتٌ في التاريخ الإسلامي. وربما لذلك سمِع موهان لال أنها لا تزال تُوصف، بعد مرور أربعمائة عام، بأنها

«المرأة الأكثر تفردًا في العالم». غير أن التيموريين، مع كونهم قادةً لمجتمعٍ مسلم، كانوا مغولًا بحكم الميلاد والتقاليد؛ فقد أتت أفكارهم عن الحياة العائلية من الصين، التي تمثِّل فردوسًا للنساء من ذوات الحَل والعَقْد. حكمت الزوجة الأولى لتيمور بجوار زوجها خلال السنوات الأولى للمصاعب التي واجهها والمخاطر التي خاضها. ولاحقًا يسجِّل كلافيجو، في أيام الازدهار في سمرقند، كيف كانت زوجاته الأُخريات وكَنَّاته ينظمن الحفلات بمعزلٍ عن أزواجهن، والتي كانت تسليتهن الرئيسية فيها أن تجعلن الرجالَ يَسْكرون. استفادت جوهر شاد، كونها ابنةَ نبيل من جاجاطاي، من الأعراف المغولية لإطلاق العِنان لمزيد من الأذواق الرصينة.

كان والدها هو الأمير غياث الدين، الذي أنقذ سلفه حياةَ جنكيز خان. تزوَّجت من شاه رخ، على الأرجح عام ١٣٨٨، قَطعًا قبل عام ١٣٩٤، الذي وُلد فيه ابنهما أولوغ بيك. كان زواجًا ناجحًا، حسبما تسرد الأغاني الشعبية في هِرات، التي تتغنَّى بحب شاه رخ لها. غير أنه لا يُعرف إلا القليل عن أول أربعين سنة أمضياها معًا، فيما عدا ما يخصُّ المباني التي شيَّدتها. على سبيل المثال، شيَّدت المسجد في مشهد، سنة ١٤٠٥، وأخذت شاه رخ لرؤيته في أغسطس عام ١٤١٩؛ حيث امتدح الأنماط والحرفية، وأهدى مصباحًا ذهبيًّا لقبر الولي. لم تتصدَّر المشهد إلا في وقتٍ متأخر، في البداية بصفتها زوجةَ شاه رخ الذي كِبر في السن، ثم بصفتها أرملته.

كنت محقًّا بشأن المئذنة المنفردة هناك، عندما ارتأيت أنها جزءٌ من مدرستها. يُظهِر رسمٌ للميجور دوراند من لجنةِ ترسيم الحدود في سنة ١٨٨٥، قبل الهدم مباشرةً، الساحةَ الرباعية للمدرسة تقف مجاورةً للمصلى، وهذه المئذنة متصلةٌ ببوَّابتها الرئيسية. هكذا أتخيلها، مطلةً على مؤسِّستها الملكة ووصيفاتها المائتين، عند وصولهن من المدينة في تلك الزيارة التفقدية التي كانت لها آثارها اللطيفة على طلاب المدرسة. بسبب السيدات، اللواتي كان من السهل أن تتغلَّب عليهن مشاعرهن، صُرِف الطلاب، باستثناء واحد كان نائمًا — ربما كان ذلك عصر يومٍ صيفي عَطِرٍ كهذا. عندما استيقظ، ونظر من نافذته ليرى سببَ الجلبة، لمحتْه عينا «سيدة ذات شفتين ياقوتيتين»، والتي أسرعت إلى غرفته، ولكن عندما عادت للجمْع الملكي، فضحَها «اضطراب ثيابها وسلوكها». لتجنُّب مزيد من الوقائع المشابهة، أو بالأحرى لمباركتها، زوَّجت جوهر شاد على الفور جميع وصيفاتها المائتين للطلاب الذين كانوا قد أُمروا من قبلُ بتجنُّب مجتمع النساء. وجهَّزت كلَّ طالب بثياب

وراتب وسرير. وحكمت بأن يلتقي الزوج والزوجة مرةً في الأسبوع شريطةَ أن يجدَّ الزوج في دراسته. يضيف موهان لال بورع: «فعلَت كلَّ هذا من أجل منع انتشار الفاحشة.»

كان لشاه رخ ثمانية أبناء، وكان من بينهم أولوغ بيك، الأكبر، وبايسنقر، الخامس، اللذان كانا أيضًا من جوهر شاد. على الصعيد الفكري، وفَّى هذان الاثنان بوعد والدَيهما؛ فقد أصبحا ووالدتهما الشخصيات المحورية للنهضة. ترك أولوغ بيك الساحةَ في هِرات ليشغلها في بلادٍ ما وراء النهر. جعله والده نائبًا على سمرقند سنة ١٤١٠، وبعد ذلك بعشر سنوات زارته والدته هناك لترى مرصده الجديد. قادته حساباته الفلكية إلى تعديل التقويم، وجلبت له تكريمًا بعد وفاته لدى جامعة أكسفورد؛ حيث نُشرَت سنة ١٦٦٥.

أما بايسنقر الذي عاش بجوار والديه في هِرات، فلم يكن له دور سياسي يتعدَّى كونه رئيسَ مجلس والده. كان بلاطه يضم الشعراء والموسيقيين، وقد توسَّع في شغفِ والدته بالبناء إلى الرسم وإنتاج الكتب. فقد عمل فريقٌ من أربعين مُزخرِفًا ومُجلِّدًا للكتب وخطَّاطًا تحت إشرافه المباشر. وقد كانت له نفسه مكانةٌ بارزة بين الخطاطين، وتشهد نقوشه في مشهد أنه لم ينلْها من باب المداهنة، ويومًا ما لا بد أن أقارن تلك النقوش بالنماذج الأخرى التي نقشها بيده في المكتبة هناك والسراي في القسطنطينية.

مثل كثيرين جدًّا من أفراد عائلته، فشل هذا الأمير الموهوب في التفرقةِ بين ملذات العقل والجسد. وتوفِّي من السُّكْر سنة ١٤٣٣. فُرض الحِداد أربعين يومًا، واصطفَّ حشدٌ ضخم في طريق موكب الجنازة من مقر إقامته في الحديقة البيضاء إلى مدرسة والدته. هناك بنَت والدته، جوهر شاد، ضريحًا في الساحة الرباعية للمدرسة. اختفى كلُّ شيء في المدرسة عدا تلك المئذنة الوحيدة. ولكن عندما أنظر عبر الحقول، أرى أن الضريح لا يزال مشهدًا للدراسات اللاهوتية، وأن المجموعة السعيدة من الطلاب الذين تزوَّجوا وصيفاتِ جوهر شاد قد تلاهم غيرُهم إلى عصرنا الحالي.

في ذلك الوقت وصلت جوهر شاد إلى عامها الستين، وعاشت بعد ذلك ربعَ قرن آخر. كان حبُّها لابن بايسنقر، علاء الدولة، هو ما أدخلها إلى عالَم السياسة. عملت ما تبقَّى من حياتها من أجل ضمان اهتمامه بخلافة الحكم، لدرجةٍ أوصلَتها إلى سقوطها التام.

فقد حوَّلت محاباتُها أولئك الذين كان من المستهدَف استبعادهم إلى أعداء، وتحديدًا حفيدها الآخر. كان هذا الحفيد هو عبد اللطيف، ابن أولوغ بيك، الذي نشأ في بلاط جَدِّه وجَدَّته في هِرات. لغضبه من إغداق الاهتمام على علاء الدولة، انتقل إلى والده في سمرقند، وعندئذٍ حزن عليه شاه رخ الذي كان يعشقه حزنًا شديدًا. ومن ثَم، كي تُرضي جوهر شاد

زوجَها الهَرِم، شرعت في إعادته، فسافرت على الطريق الذي سنسلكه غدًا في ذروة الشتاء. ربما كان لدى عبد اللطيف سببٌ لِفراره. أما السيدة العجوز، فبعدما أعادته، حوَّلت حِقدها إلى محمد جوكي، ابن شاه رخ الأصغر، لدرجةٍ جعلته مات من الخزي، على حدِّ قول خواند مير. ودُفِن هو الآخر في الضريح.

بعد ذلك بسنتين، وقَعت الفاجعة التي كانت تُحضِّر لها. إذ كانت قد أقنعت زوجها، برغم قواه الخائرة، بأن يقود جيشًا إلى بلاد فارس، ورافقته بنفسها. بعد المسير إلى شيراز تقريبًا، استقر شاه رخ في الري؛ حيث توجد طهران الآن، طوال الشتاء. وهناك، توفِّي في ١٢ مارس ١٤٤٧، عن عمرٍ يُناهِز التاسعة والستين. وبذلك انتهت الفترة الأولى من النهضة التيمورية. وذلك لأن الفنون لا يمكن أن تزدهر دون استقرار سياسي، أو على الأقل مدني، وخلال السنوات الاثنتي عشرة التالية، وقعت هِرات فريسةً لعشرة حكام متعاقبين.

ابتدأت الفوضى بشؤم على جوهر شاد التي وقعت في شَرَكها. تُرِك علاء الدولة، الحفيد الذي وثقَت به، على رأس هِرات. وأصبحت حينئذٍ في قبضة عبد اللطيف، الحفيد الذي ظنَّت به الظنون، وكانت قد أجبرته على مرافقة الجيش لتُبقيه تحت ناظرَيها. فأكَّد لها تلك الظنون؛ حيث لم يكتفِ بالاستيلاء على أمتعتها، بل أيضًا على جميع حيواناتها؛ وهكذا بينما كان جثمان المِلك الراحل في طريق عودته إلى هِرات على نقالة، أُجبرَت أرملته التي كانت أشهر امرأة في ذلك العصر وكانت قد تجاوزت السبعين عامًا، على أن تتبع الجثمان سيرًا على الأقدام عبْر قفور خراسان؛ «مع وشاحٍ عادي من الكتان ملقًى فوق رأسها، وعكاز في يدها»، كما يقول خواند مير. أنقذها علاء الدولة من هذه الشدة؛ حيث أسر عبد اللطيف ووضعه في القلعة (حيث تورَّطتُ في المتاعب بسبب مرأب المدفعية). عندما علم بذلك أولوغ بيك، الذي كان قد انطلق من سمرقند بجيش للاستحواذ أيضًا على الإمبراطورية، تخلَّى عن مسعاه لصالح علاء الدولة شريطةَ إطلاق سراح ابنه.

لفترةٍ قصيرة حقَّقت مخطَّطات جوهر شاد نجاحًا. غير أن نزاعًا نشب مع أولوغ بيك حول البنود الأخرى من الاتفاق، وواصل تقدُّمه إلى هِرات. وهناك تلقَّى أنباءً تفيد بأن مجموعة من المغِيرين الأوزبك قد نهبت ضواحي سمرقند ودمَّرت العديد من التحف الفنية الأثيرة لديه. لمقايضتها، أخذ ما استطاع من الكنوز من هِرات، بما في ذلك زوجٌ من الأبواب البرونزية من مدرسة جوهر شاد. وأيضًا أخرج جثمان أبيه شاه رخ من الضريح وأخذه معه، وأودعه في بخارى في طريق عودته إلى سمرقند. في تلك الأثناء، بدأ عبد اللطيف، نتيجةً لولعه المَرَضي، ينشغل بتفضيل والده المزعوم لأخيه الأصغر؛ غير عابئ بحقيقة أنه لولا

تخلِّي والده عن حكم الإمبراطورية لظلَّ قابعًا في السجن. عبَر نهر أوكسوس من بَلْخ، وهزم أباه عند شاروخية، وأعدمه على يد عبد فارسي. وهكذا مات أولوغ بيك، الأكثر دماثةً بين جميع أفراد عائلته والعالِم الوحيد بينهم، في ٢٧ أكتوبر ١٤٤٩.

بعد ذلك بستة أشهر، اغتِيل قاتلُ أبيه على يدِ أحد خدم أولوغ بيك.

وفي السنوات السبع التالية، تولَّى أبو القاسم بابر الحكمَ في هِرات. كان هو الآخر ابن بايسنقر، ويبدو أنه عاش في سلام مع جَدته. غير أن علاء الدولة، ابن بايسنقر الأصغر، كان لا يزال المفضَّل لديها. وعندما مات أبو القاسم بابر عام ١٤٥٧، من جرَّاء الإفراط في الشراب كوالده، جمعت شتاتَ آخر ما لديها من جهد من أجل دعم إبراهيم ابن حفيدها علاء الدولة.

كان عمرها قد جاوز في ذلك الوقت الثمانين عامًا. في يوليو من ذلك العام وصل أبو سعيد، ابن حفيد تيمور وسلف بابر، إلى هِرات. لم تصمد سوى القلعة بقيادة إبراهيم. ولكنَّ أبا سعيد، مع أنه كان يدير العمليات بنفسه، لم يستطِع الاستيلاء عليها. وغضبًا من عرقلة خططه، واعتقادًا منه بأن مقاومتها كانت بتشجيعٍ خفي من جوهر شاد، أعدم السيدة العجوز.

دُفنت في الضريح الذي بَنَته. وكُتِب على شاهد قبرها: «بلقيس عصرها». بلقيس هي ملكة سبأ.

بعد ذلك بعام، دُفن إلى جوارها علاء الدولة وإبراهيم. لكن ابن حفيد آخر، هو يادجار محمد، نجا، وهو أيضًا من نسل بايسنقر. سنة ١٤٦٩، كان يعيش مع أوزون حسن، زعيم الآغ قويونلو (أي الخرفان البيض) التركمان، عندما هاجم أبو سعيد ذلك الحاكم. فشل الهجوم. وأُسِر أبو سعيد، وسلَّمه أوزون حسن إلى ضيفه، الذي كان في ذلك الوقت صبيًّا في السادسة عشرة من عمره. بعدما أعطى الصبي الأمر اللازم، رجع إلى خيمته وأُعدِم أبو سعيد على الفور. وهكذا أخذت ذرية بايسنقر بثأر جوهر شاد.

الجو بارد. وقد غربت الشمس. دلف الملالي، ومعهم تلاميذهم، إلى الداخل. وذهب البريق عن الأبراج الزرقاء والذرة الخضراء. واختفت ظلالها. كما اختفت الرائحة الساحرة. انتهى الصيف، وأعاد الشفقُ الربيعَ ببرودته وغموضه. يجب أن أغادر.

وداعًا جوهر شاد وبايسنقر. استلقيا هناك أسفل قبَّتكما، على صوت دروس الصبية. وداعًا هِرات.

مغور (٣٠٠٠ قدم تقريبًا، ١٢٠ ميلًا من هِرات)، ١٧ مايو: دُخِّن آخرُ سيجار من المجموعة التي أعطاها لي ويشاو، فلْيُباركه الرب؛ في لحظاتٍ معينة أتمنى لو عدت إلى ذلك

المسكن الآمن والمريح، وسط تلك القباب الزرقاء الحلوة والجبال البنفسجية الساحرة. ومع ذلك، يعوِّض وضعنا الحالي عن ذلك بالعُشب والتلال المتموِّجة. وعلى الأقل تجاوزنا قلعة نو، وبذلك أصبحت أنا أيضًا، فضلًا عن كريستوف، في بلد جديد.

غادرْنا هِرات في وقتٍ مبكر من العصر منذ ثلاثة أيام، منطلقين بسرعة بسببِ زجاجة الشربات التي أعطاها لنا السيد محمود. في كرخ نما عشبٌ أسفل أشجار الصَّنوبر؛ وكان السَّمك لا يزال يَسبَح في بِركته التي تحاصرها الشِّباك، متجهًا دائمًا عكس التيار لتفاديها. كنا نميل إلى أن نقضي الليلة هناك، ودعانا حُسن التقدير لذلك أيضًا؛ إذ كانت السماء ملبَّدة بالغيوم. ولكن بحجةِ أننا إن توقَّفنا، وهطل المطر، قد نَعلَق لعدة أيام، عزمنا على عبور الممر الجبلي في تلك الليلة. كانت مخاطرة، ولو قال لي أحدٌ قبل ستة أشهر إنني قد أُقدِم يومًا ما على تلك المخاطرة، لوصفته بالجنون؛ وليس أنا.

لم يُشكِّل التدرُّج الأرضي المؤدي إلى الممر الجبلي؛ حيث كانت قد واجهتنا تلك المشكلةُ مع الشاحنة، أيَّ صعوبة حينما صار جافًّا. مرةً أخرى استقبلتنا أشجارُ العرعر والمشهد الرائع في الأعلى؛ ومرةً أخرى كانت ثَمَّة غيوم منذِرة بعاصفة فوق تُركستان. ظننا أن المرحلة الأسوأ قد انتهت؛ حينما لاحظنا أن الوجه الشمالي للجبال لا يزال رطبًا. بعد نزولنا مسافةَ نصف ميل عَلِقَت السيارة.

لم نستطِع تحريكَها بقُوانا مجتمعةً، مع أنَّ التدرُّج كان قُرابة الثُّلث وكان غطاء محرِّك السيارة يشير بشكلٍ حادٍّ إلى الوادي بالأسفل. كانت العجلات عالقةً في جلمود. لمدة أربع ساعات ونصف، كانت فيها كواحلنا غاطسةً في وحلٍ جليدي متجمِّد، رفعنا الصخور وأبعدناها؛ فغاصت السيارة لمسافةٍ أعمق. عندما حلَّ الظلام، مرَّ بنا راعيان متشِحان بعباءتين بلون أبيض مع قطيعهما. توسَّلنا إليهما أن ينتظرا ويساعدانا. فقالا إنهما لا يتجاسران على ذلك، بسبب الذئاب. غير أن أحدهما أعارنا، بمبادرة منه، بندقيته والرَّصاصتين الباقيتين معه لمساعدتنا على البقاء على قيد الحياة في الليل.

ناقشنا ما علينا فِعله. وأراد السائق جمشيد أن أمشي مع كريستوفر إلى أقربِ قرية لطلب المساعدة، بينما يبقى هو هنا ومعه البندقية. ولكن كريستوفر أراد أن نذهب جميعًا إلى القرية. وأردت أنا أن يبقى جميعنا في السيارة؛ لأني كنت أعلم أن القرية تبعُد خمسةَ أميال، بحجةِ أن السيرَ لمسافة كهذه من شأنه أن يكون مملًّا لدرجةٍ لا تُوصف، وأن أهل القرية المعنية، عندما يكونون مستيقظين، لا يتسمون بحسنِ الضيافة، كما أنهم لديهم ميل للصوصية، وأنه قد يحدث ما هو أسوأ إن أزعجناهم أثناء نومهم، وأن هذا على أي

حال لن يؤدي بنا إلى الحصول على أي مساعدة قبل الصباح. ردَّ كريستوفر بأنه من غير المعقول أن نفترض أن الذئاب سترتدع بسبب المصابيح الأمامية أو صوت المحرِّك، وأننا إن بقينا في السيارة فستشقُّ طريقها بحثًا عن فريسة عبر الستائر الجانبية وتُمصمِص عظامنا. رددت على هذا مؤكدًا أنه سواء كان كلامي معقولًا أم لا، فستكون فرصتنا داخل السيارة أفضلَ من خارجها، وأن كلاب القرية أكثرُ وحشية من الذئاب على أي حال. قلت: «بحق الرب ادخل إلى السيارة، واشرب هذا الويسكي، ودعنا نسترِح.»

وقد فعلنا. استبدلنا الألحفةَ وجلودَ الغنم بملابسنا المُشرَّبة بالطين. وألقى الفانوس المخصَّص للأعاصير، المتدلِّي من دعامة في غطاء المحرِّك، وميضًا كافيًا على عشائنا المكوَّن من لحمِ حَمَل بارد، وصلصة كاتشب من الوعاء الأزرق، وبيض، وخبز، وكعك، وشاي ساخن. بعد ذلك استقررنا كلٌّ في ركنه مع قصتين من قصص «تشارلي تشان» البوليسية. راح جمشيد في النوم في المقعد الأمامي. واستمعت قليلًا لتنهُّدات الرياح بين أشجار العرعر وبومة تنعق من بعيد، ثم رحت في النوم أنا الآخر. ظل كريستوفر مستيقظًا والبندقية على ركبته، وهو يظن أن كلَّ حفيف هو وقْع أقدام ذئب أو قاطع طريق.

في الساعة الثانية ونصف أيقظني بكلمةٍ مرعبة أكثرَ من أيِّ ذئب: «مطر.» وها هو ذا صوت طقطقة على غطاء المحرِّك؛ تزايد ليصبح قرعًا متواصلًا. عند الفجر، انطلق جمشيد يمشي على الطريق بحثًا عن عون.

ونحن لا نزال مدثَّرين بجلود الغنم، بدأنا في تناول الفطور، وكنا نفرد بعضًا من مربى هِرات على كُتَل من الخبز والزبد عندما رفعنا ناظرَينا ورأينا رجلًا فوق صهوة حصان. كان الراعي صاحب البندقية. رددناها هي والرصاصتين مع جزيل الشكر. لم ينبِس ببنت شفة، وتلاشى وسط الأشجار الداكنة المشبَعة بالأمطار.

رجَّع جمشيد وهو يقود جماعةً من عمال الطرق المعمَّمين، الذين كانوا قد أُرسِلوا للعمل بالسُّخرة لأن زيارة من عبد الرحيم كانت متوقَّعة. كان المطر يهطل بغزارةٍ شديدة؛ وكل زاوية من الجبال كان يَشغلها شلال. في الأغلب، كان النزول أسوأ مما كان عليه في شهر نوفمبر. ففي ذلك الوقت على الأقل كانت الأرض جافةً أسفل خط الثلج. أما الآن، فعلى طول ذلك الحيد الضيِّق الذي ترتفع منه القمم الحمراء مخترقةً السُّحب بالأعلى، ويمكن رؤية السلاسل الجبلية بأكملها تنبثق من السُّحب أسفلها، تابعت السيارة بنضالٍ تقدُّمَها، خارج السيطرة تمامًا بوجه عام، متمايلة يَمنةً ويَسرةً في أغلب الأحيان، ولم تبعُد مطلقًا أقل من مسافة قدمين من الحافة. في مرحلةٍ ما، كان جلمودٌ أحمرُ أزاحته الأمطار يسدُّ الحيد،

وكان يجب تمديد رصيف حوله. وصلنا أخيرًا إلى خيمةِ عمالِ الطرق. قالوا إن الطريق من هناك كان جيدًا؛ أي إنه قد حُفِر حديثًا؛ لأن الحفر في هذا البلد هو المرادف لإعادة الرصف. قادنا خارجًا إلى المنحدرات المفتوحة، التي كانت مغطَّاةً الآن بالمراعي. واصلنا الانزلاق والاهتزاز عبْر الأمطار الغزيرة، وكنا كلَّ ربع ميل نُخرِج السيارةَ من أخاديدَ كان يمكن في المعتاد أن يحتاج إخراجها منها إلى نصف دستة من الرجال، ولكن الأرض كانت في هذا الوقت زلِقة للغاية، حتى إن مجرفةً واحدة ودفعاتنا الواهنة كانت كافية.

سِرتُ معظمَ الطريق ناظرًا للأزهار في العشب الطويل بجوار حافة الطريق، والزنابق القرمزية الصغيرة، وزهور السوسن القصيرة ذات اللونين السمني والأصفر، ونوع من زهور البصل الأرجواني التي طاردتني من عروة سُترتي برائحةٍ أشبهَ باللحم الفاسد، وزهور الخشخاش، والجريس، ونبات غريب له أوراق كأوراق التوليب، والذي كانت لزهرته، التي بلون المهلبية الفرنسية الوردية، بَتَلاتٌ مربَّعة متفرقة تنمو لأعلى على شكل كأس. بعد بعض الوقت بدأت المحاصيل في الظهور، وكانت من البِرسيم والقمح، وكانت قصيرةً كحالها في إنجلترا في هذا الموسم. كانت قرية لامان قد ظهرت في الأفق عندما سقطت السيارة في مصرفٍ لم يكن لدينا أدنى أملٍ في إخراجها منه دون عون.

بدت القرية في هذا الوقت من العام مكانًا صغيرًا جميلًا، تظلِّله أشجار الحَور، ويُنعشه جدول مياه مندفع، وتتدلى فوقه المنحدرات الصخرية الحمراء التي تحمل مسطحاتٍ من العشب الأخضر؛ مختلفة جدًّا في الحقيقة عن آخرِ مرة رأيتها فيها عبر الضباب الأبيض للفجر في شهر ديسمبر. كان كريستوفر قد سبقني، واستُقبل بفظاظةٍ وجفاءٍ طبع. ولكن عندما وصلت، كان كبير القرية قد تحدَّث هاتفيًّا عنا مع حاكم قلعة نو، وأحسن وِفادتنا؛ حيث أوقد نارًا في وسط الأرضية لتجفيف ملابسنا. في تلك الليلة أرسل إلينا حاكم قلعة نو صحنًا من البيلاو على صهوة حصان.

هذا الصباح لم تكن توجد سحابة واحدة في السماء. بعد الانتظار لساعة أو ساعتين كي يجفَّ الطريق، انطلقنا في الوادي، عابرين النهر كلَّ عشر دقائق، وكان علينا تجفيف المولد المغناطيسي بعد ذلك في كل مرة. التقينا في منتصف الطريق بحاكمِ قلعة نو على حصانه الرمادي، تتبعه حاشيةٌ بديعة المنظر، لمحت في مؤخرتها السكرتيرَ الذي كان يريد أن يأخذ قلمي. قال إنه أمرَ بتجهيزِ غرفة لنا إن أردناها. لكننا رفضنا؛ فقد كان ينبغي أن نبلغ مرغاب الليلة.

اتسع الوادي. وظهرت في تجاويفِ عُشبه مخيماتُ الكيبيتكا ذاتها التي أعاقت قطعانُها طريقَنا، وزمجرت علينا كلابها، وسخِر منا أطفالها. ولاحظت أن الكلاب السلوقية كانت

لا تزال ضارية. كان العشب كلُّه، حتى ذلك المرتفع على قمم الجروف، ملطَّخًا برُقَع من الخشخاش القرمزي. وبين الحين والآخر، على جانب الطريق، كانت تتخللها دفقة من أبي عرق ذات اللون الأزرق الملَكي محدِثةً تأثيرًا اصطناعيًّا غريبًا، كما لو أن كلًّا منهما قد زُرع بدافع من الوطنية. شربنا بعضَ الحليب في قلعة نو، وتركنا النهرَ أخيرًا، وتابعنا سيرَنا على امتداد الأجزاء السفلية لمنطقةٍ ذات منحدرات متعرِّجة هابطة، مُحرِزين تقدُّمًا جيدًا وشاعرين بالثقة في الوصول إلى مقصدنا قبل حلول الظلام. كان الطريق مليئًا بالسلاحف، التي كان جمشيد يُسميها كركند. قابلنا أيضًا ثعبانَين. كانا بطول أربع أقدام، ولونهما أخضر باهت، وغير مؤذيين على الأرجح. ولكن جمشيد، مدفوعًا بكراهية هندية خالصة، أوقف السيارة وقتلهما بجدية شديدة.

على بُعد عشرين ميلًا من قلعة نو، اصطدم المحور الأمامي بربوة. حدثت رجَّة خفيفة، وتباطأ المحرِّك حتى توقَّف.

أعقب ذلك أحدُ تلك الأوقات الحقيرة المُربِكة، التي أخذنا خلالها نعبث ونضيِّع الوقت، ونغيِّر مولِّد الإشعال، ونتبول في بطارية السيارة، ونفحص شمعات الاحتراق في كل مكان. أبى المحرِّك أن يُصدِر أيَّ صوت. كان المساء قد اقترب، وكانت المنطقة مهجورة، وكان هذا الجزء من الطريق تحديدًا مشهورًا بقُطاع الطرُق.

في هذه المرحلة، ظهر سيدٌ مُلتحٍ يضع عمامةً زرقاء ويمتطي حصانًا أسود طويل الجسم، مُهرولًا من منعطَف في التلال. تبِعه خادمان يحملان البنادق على حنايا سَرجَيهما. كان أحدهما ملتحيًا أيضًا. وكان وجه الآخر مستترًا.

سأل القائد: «مَن أنتم؟»

قاطعه تابعه ذو الوجه المكشوف، مشيرًا إليَّ: «أعرف هذا السيد. لقد أتى إلى قلعة نو في الشتاء، وأصابه المرض هناك. هل صحتك أفضل الآن، يا أغا، بفضل الرب؟»

«صارت أفضل الآن، بفضل الرب. أنا أيضًا أذكرك. أنت المستخدِم الذي تعمل لدى معالي محافظ قلعة نو، وجلبت لي الطعام عندما كنت مريضًا.»

عندما أطمأن كل طرف من الطرفين بهذه المعرفة المشتركة، زاد لدى كل منهما حسن الظن بالآخر. وشرح لهم كريستوفر المأزق الذي كنا فيه.

أعلن الرجل ذو العمامة الزرقاء، قائلًا: «اسمي حاجي لال محمد. وأنا تاجر بشتوني، وكان لديَّ عمل في مرغاب، وأنا الآن في طريق عودتي إلى الهند. من الخطر الوجودُ في هذا الجزء من الطريق بعد حلول الظلام؛ فقد ذُبح رجلٌ هنا منذ وقت غير بعيد. أقرب رِباط

على بُعد فرسخ واحد فقط. إن ركِبتما حصانَي هذين السيدين، فسنذهب إلى هناك ونطلب من الناس أن يرسلوا خيولًا أخرى لسائقكما وأمتعتكما.»

امتطينا الحصانين، وقفز الحارسان ببنادقهما خلفنا. شبَّك الرجل المُقنَّع الغامض يديه حول بطني.

سألني حاجي لال: «ما رأيك فيه؟»

«لا أعرف كيف أُكوِّن رأيًا في رجلٍ لا يمكنني رؤية وجهه.»

«ها، ها، إن عمره صغير للغاية، ولكنه قاتلٌ بارع. لقد قتل حتى الآن خمسة رجال. إنه صغير جدًّا على هذا العدد الكبير، ألا تظن ذلك؟»

قهقَهَ الرجل الغامض خجلًا من تحت ستره، ودغدغني في ضلوعي.

علَّق رفيق كريستوفر على السَّرج قائلًا: «أظن أنكما من أتباع المسيح.»

«بالتأكيد.»

تداخَل حاجي لال قائلًا: «وهل كنتما في هِرات منذ ثلاثة أيام؟ إذَن يمكِنكما أن تخبراني بسعر الاستبدال بين عملة كابول والروبية الهندية. وسعر القراقول.» كان يقصد بذلك جلود الحُملان.

تابَع قائلًا: «هل أنتما متزوِّجان؟ كم لديكما من الأبناء، وكم لديكما من المال؟ أحيانًا أفكِّر في زيارة لندن. كم تكلفة قضاء ليلة هناك؟»

أجاب كريستوفر: «يعتمد ذلك على نوعية الليلة التي تريد قضاءها.»

ذكَّر هذا حاجي لال بأمرٍ أكثر إلحاحًا. فقال: «هل معكما أيُّ عقاقير في حقائبكما؟»

«نعم.»

«هلا تعطيانِني واحدًا؟ أريد ذلك النوع من العقاقير الذي يجعلني أُمتِّع السيدات في هِرات.»

«لا أظن أن معنا ذلك النوع.»

مضينا قُدمًا في صمتٍ لبعض الوقت.

قال حاجي لال فجأةً: «سيارتكما هذه، ما خَطبُها؟»

«لا أعرف.»

«هل ستسير مرةً أخرى؟»

«لا أعرف.»

«ماذا ستفعلان إن لم تفعل؟»

«سنُتابِع طريقنا على ظهور الخيل.»

ساد صمتٌ أطول.

ثم سأل حاجي لال: «هل ستبيعانها؟»

أطربتنا الكلمات. لكن كريستوفر كان حريصًا على ألا يُظهر ذلك.

بعد ساعة من السير بالجياد وصلنا إلى رِباط مغور. الرِّباط هو الكلمة المستخدَمة في أفغانستان لنُزل القوافل، ويُستخدم كذلك مقياسًا للمسافة؛ حيث توجد هذه المنشآت على الطرق السريعة الرئيسية كلَّ أربعة فراسخ أو ستة عشر ميلًا. يتألَّف هذا الرِّباط من فناءٍ عادي، وإسطبلات أسفله، ومجموعة من الغرف فوق المدخل. إلا أن الشرفات مزوَّدة بفتحات لحالات الخطر، وتُغلق البوابات في موعدٍ مبكِّر عنها في بلاد فارس.

وافَق أصحاب المكان على أن الطريق المفتوح لم يكن مكانًا آمنًا لجمشيد والأمتعة في هذا الوقت من اليوم، وأرسلوا رجالًا لإحضارهما بأسرعِ ما يمكِن.

مغور، ١٨ مايو: قبِل كريستوفر عرْضَ حاجي لال بشراء السيارة، والذي كان حوالي خمسين جنيهًا. كان قد اشتراها في الأصل بستين جنيهًا. انطلق أحد الحارسين إلى قلعة نو لإحضار جزء من المال، والباقي سيأتي في أكياس من القُرى المجاورة؛ فلا بد أن صديقنا رجلٌ ذو سمعة طيبة. خُصِمت عشرة جنيهات مقابل الحصان الأسود، الذي أُولِع به كريستوفر. وقد أجَّرتُ واحدًا لنفسي تحسُّبًا لعدم عثورنا على سيارة لاحقًا.

مرَّت توًّا شاحنةٌ في طريقها إلى هِرات، وكان بها سكرتير القنصلية الروسية في ميمنة. وعندما رأى سيارتنا يسحبها ثور، توقَّف لسؤالنا عما إذا كان بوسعه المساعدة، وهو ما كان تصرُّفًا لطيفًا منه. قال إن الشاحنات تمضي من ميمنة إلى مزار شريف كلَّ يوم تقريبًا.

بعدما ذهب، دخل رجل أفغاني الغرفةَ وخاطبني بلقب «توفاريش». قلت: «يا إلهي، لا تَدعُني رفيقًا. إنني إنجليزي.» استغرق الأمر وقتًا طويلًا لإقناعه بأنه ليس كل الشُّقر من الروس. ولكن عندما نجحنا في إقناعه، اتضح أنه كان مواطنًا روسيًّا هاربًا، ولم يكن لديه في الواقع ما يقوله للبلاشفة.

يوجد نهر بالقرب من الرِّباط حيث ذهبنا هذا المساء كي نغسل صحوننا. عندما رأينا قرية على الجانب الآخر منه، سألنا شابًّا مارًّا عما إذا كان بإمكانه أن يحضر لنا أيَّ حليب من هناك. قال إن بإمكانه فِعل ذلك إذا كان لديه أي شيء ليضعه فيه، فأعطيناه تُرمُسًا. ولكن بدلًا من أن يذهب إلى القرية وقف مُتسمِّرًا جاحظَ العينين، يتحسَّس الشيء اللامع

بأصابعه، حتى فرغنا من غسيل الصحون. ثم، عندما بدأنا العودة إلى الرِّباط، جرى خلفنا، وخلع عمامته وقدَّمها لنا ضمانًا للتُّرمُس.

مرَّ بعض الوقت. يظن الجميع أن كريستوفر قد تعرَّض للاحتيال عليه في بيع السيارة، التي يبدو أن قيمتها في هذا البلد أكبرُ مما ظننا. نسيت أن أذكر الجزء الأكثر طرافةً في الصفقة. وهو أنه كان علينا أن نعطي حاجي لال خطابًا كي يتمكَّن من زيارة المباني في نيودلهي. فعلت كلَّ ما في وسعي، مع أنني لا أعرف أحدًا في إدارة الأشغال العامة هناك.

ينبغي للمرء أن يدرُس الإسعافات الأولية قبل خوضِ مثل هذا النوع من الرِّحلات. التقينا للتو برجل يطلب مساعدته في علاج إبهامه المخلوع، وآخرَ يعاني الديدان. أقل ما يمكنني فِعله هو التظاهر بعلاجهما. ولكن بدلًا من التنكُّر في هيئة طبيب مشعوِذ، سيكون من الألطف أن أعرف أنهما سيُشفَيان.

بالامرغاب (١٥٠٠ قدم تقريبًا، ٤٥ ميل من مغور)، ٢٠ مايو: غادرنا هِرات منذ ستة أيام. لو انطلقنا في الصباح وليس عصرًا، لوصلنا على الأرجح هنا في الليلة نفسها.

تألَّفت قافلتنا المنطلِقة من مغور من ستة خيول؛ ثلاثة للأمتعة، وواحد لي، وواحد لـ «الرجل المسلَّح» الذي كان يحرسنا، وحصان كريستوفر الأسود. اتضح أن الأخير عدَّاء رائع؛ إذ يتقدَّم مبدِّلًا بين قوائمه اليسرى واليمنى بسرعةٍ بندقيةٍ رشَّاشة. تركنا طريق السيارات، وعبرنا التلال، ووصلنا لتلالٍ أعلى، لا تزال مغطَّاة بالعُشب، ولكن تتناثر في أرجائها نتوءات من الصخر وشجيرات فستق متفرقة، والتي حسبتها أشجارَ تين بري حتى رأيت عناقيد من مُكسَّرات مُحمرَّة. من أعلى هذه السلسلة الجبلية، ألقينا نظرةً أخيرة على جبال باروباميسوس خلفنا، التي كانت لا تزال تخفيها جزئيًّا سُحبٌ ممطِرة. في المقدمة، وعلى مسافةٍ أقرب، ارتفعت السلسلة الجبلية الرئيسية باندي تركستان.

تداخل في المشهد وادٍ فسيح، ساخن وحجري؛ حيث عاودت الحياة النباتية الصحراوية الظهور واختبأ مسافر وحيد، بعدما رآنا من بعيد، في مسيل ماء حتى عبرنا. على الجانب الآخر من الوادي، بينما كنا نستعد لصعودٍ جديد، ظهر نهر في الأفق، وأدهشنا أنه كان يتدفَّق صوبَ جِدار الجبل مباشرةً. فسَّر مسلكَه وجودُ بوابتين صخريتين، يعلو كلًّا منهما برجُ مراقبة، ويمر النهر منهما عبر الجبال. تبِعنا مساره، عابرين من الضِّفة الغربية إلى الشرقية على جسرٍ متداعٍ، انجرف أحد قوسَيه الحجريَّتين واستُبدل بمِعلاق خشبي. يَستخدم طريقُ السيارات، الذي لا بد أنه يتلاقى مع النهر بعد ذلك في الجنوب، هذا الجسر.

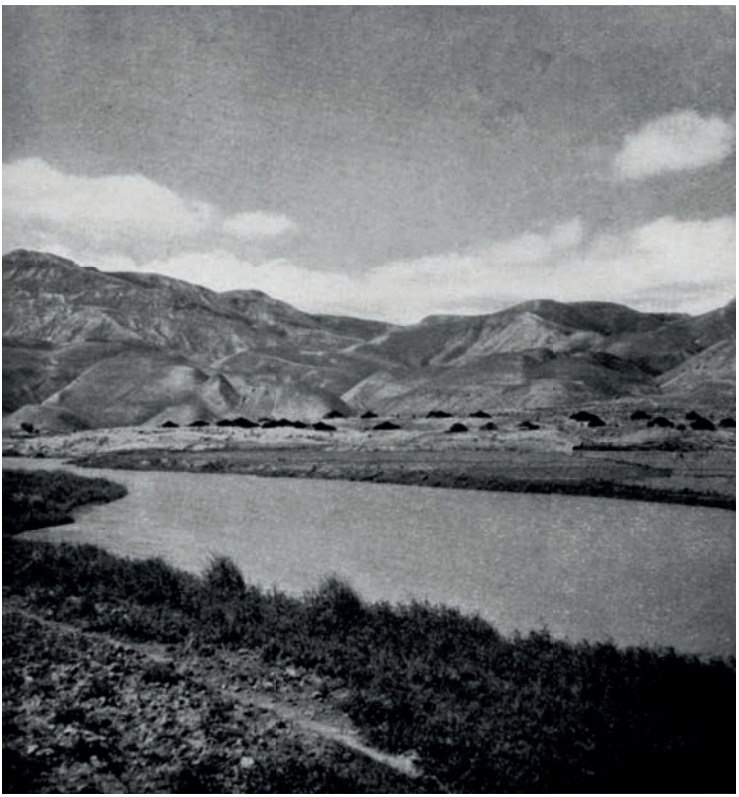

نهر مرغاب.

حسب كلام الروس الذين زارونا في مغور، فإن كلًّا من هذا الجسر والبرجَين قد شيَّدهم الإسكندر.

النهر المارُّ هنا هو نهر مرغاب، الذي يعلو منسوبه في سلسلة جبال هندوكوش ويتقلَّص لينتهي في الصحراء حول مرو. في هذا الموضع هنا كان تقريبًا بحجم نهر التيمز عند ويندسور، غير أن التيار كان أقوى، متدفقًا بين ضفافٍ عشبية منخفضة تصطف فيها قصباتٌ وشجيرات ملتفَّة الثمار الوردية. على الجانب الآخر، تناثرت مجموعات من خيام سوداء أعلى التلال السفحية الخضراء.

بعدما سِرْنا بخيولنا لأكثر من ثلاثين ميلًا، ولا تزال مرغاب تبعُد مسافة اثني عشر ميلًا أخرى، توقَّفنا لقضاء الليل في رِباط. كان الناس حمقى وغير ودودين؛ وكانت غرفتنا حجيرةً لا يدخلها الهواء وتعجُّ بالذباب، وهو ما دلَّ على أنه كان علينا أن نأتي خلال النهار، وكنا سعداء بالرحيل مبكرًا في الصباح، تاركين الوادي أخيرًا وخارجين إلى سهلٍ ذي زرعٍ تحيط به تلال سفحية عشبية مستديرة. كان الجو هنا أكثر حرارة. كان للعشب المقصوص على الطريق مَسحةٌ من لون بني بالفعل، وكانت الذُّرة منتصبة عاليًا، ومملوءة بالبيقيات الوردية. ومع ذلك كان رجال يحرثون الأرض على بعض التلال؛ ربما لمحصولٍ ثانٍ. كالعادة، بدت البلدة كالغابة من بعيد، ولكنها ذكَّرتني بمدينةِ سوق أيرلندية بمجرد دخولنا إليها. تقود الأبواب الأمامية مباشرةً من الشارع إلى منازلَ من طابق واحد، بحيث إنه بدلًا من الجدران الفارغة العادية والأفنية التي تتخللها، يلمح المرء الحياة بداخل هذه البيوت.

هذه هي بداية آسيا الوسطى. داهمَتنا محادثاتٌ باللغة التركية، يتلفَّظ بها رجال مُشعِرون بعيون طويلة ضيقة يرتدون عباءاتٍ مخطَّطة ومزركَشة بالورود. كان التركمان الذين يلبَسون القبَّعات الطويلة والأردية الحمراء يسيرون ذهابًا وإيابًا، وكان معظمهم فارًّا من الحدود الروسية، التي لا تبعد عن هنا سوى اثني عشر ميلًا. رأينا مجموعةً من النساء، جميعهن بثياب حمراء مختلفة الدرجات، وكنَّ جاثمات على طعامهن في فناء مفتوح، وكانت قبَّعاتهن الطويلة تتدلى أثناء تناولهن الطعام، فبَدَوْن كحوضٍ لزهور الغرنوقي وسويت ويليام. أدهشتنا أيضًا رؤية عديد من اليهود جالسين بغير اكتراث أمام متاجرهم.

أخذَنا رجُلنا المسلَّح إلى منزل الحاكم، الذي يوجد في حديقة مُسوَّرة بجوار النهر. وخارجها، على منحدرٍ أعلى المياه، تجثم قلعةٌ قديمة تحوي الآن ثُكنةً عسكريةً صغيرة. من هذه القلعة إلى الحديقة، تصطفُّ على الضِّفة أشجار التوت، التي يقضي تحتها أهلُ البلدة أوقات فراغهم في تبادل الحديث والقراءة والصلاة وتنظيف خيولهم ورعيها. انضم كريستوفر إليهم بجواده.

كان الحاكم يتناول طعامه، لكنه أمَر بأن نكون ضيفَيه؛ فحصلنا على غرفةٍ خلف مكتب سكرتيره. أخبرونا أنه يبلغ من العمر سبعين عامًا، وأن له لحيةً بيضاء طويلة، وأنه يحظى بحبِّ جمٍّ من الناس لردعه اللصوص. كانت أصفاد بعض اللصوص تصلصل على الجانب الآخر من الحديقة، وبدَوا سعداء جدًّا. اتضح أنه يتمتع بمنصب خان بالوراثة، وربما يكون آخرَ ممثل لأولئك الحكام المستقلين الكثيرين الذين ذاع صيتهم بين نهر

أوكسوس وسلسلة جبال هندوكوش حتى ثمانين عامًا مضت، حين ضم الأمير دوست محمد أملاكهم للدولة الأفغانية. أما ابنه، الذي يشبه وجهُه وجْهَ نبيل إسباني ويلبَس حذاءً مرتفع الساق، وبذلة رماية، ومعطفًا واقيًّا من المطر، وياقة بيضاء متصلبة، وعمامة مائلة على إحدى عينيه، فمن المؤكد أنه يمارس واجبات الضيافة كما لو كان وليَّ عهد. الأجواء بأكملها أجواء أبوية. لا ينفكُّ التركمان، والطاجيك، والأوزبك من كلا الجنسين يحضرون إلى ممشى الحديقة طلبًا للعدالة عند نافذة السكرتير.

أيضًا يتجوَّل في الحديقة كلب لابرادور ريتريفر أسود وآخر إسبانيل مشكوك في أمره، كلاهما تربَّى في روسيا.

ميمنة (٢٩٠٠ قدم تقريبًا، ١١٠ أميال من مرغاب)، ٢٢ مايو: إنها تركستان!

كنت أقرأ لبروست طوال الأيام الثلاثة الماضية (وبدأت ألاحظ تسلل تفصيل جامح إلى يومياتي هذه). ذكَّرني وصفه لمدى افتتانه باسم «جيرمانتس» بافتتاني باسم «تركستان». بدأ الأمر في خريف عام ١٩٣١. كان الكساد في أوجه، وكانت أوروبا في غمٍّ لا يُحتمل، وكنت أتساءل عما إذا كانت الشيوعية هي الحل، وبدا أن السبيل الوحيد للفِرار هو فيلا في قاشغر حيث لا يصل البريد. راجعت مكتبة لندن، ومكتبة جمعية آسيا الوسطى، وكلية الدراسات الشرقية؛ غير أنه اتضح من الناحية المعمارية والتاريخية أن تركستان الروسية ستوفِّر لي أكثرَ مما ستوفِّره تركستان الصينية، لو لم تكن بهذا البُعد. تخليت عن فكرة الذهاب إلى قاشغر، وعقدت صداقةً مع سكرتير في السفارة الروسية، وجمعت أعضاء البعثة المحتملة، وذهبت إلى موسكو لطلب الإذن بالانطلاق. ولكن دون جدوى؛ إذ كانت تُلقى عليَّ في كل إدارة حُجةُ أنه عندما يُسمح للعلماء الروس، أو حتى لمتذوق شاي روسي واحد، بالذهاب إلى الهند، فلربما يُسمح لي عندئذٍ بالذهاب إلى بخارى. في عام ١٩٣٢ رجعت إلى الخطة الأصلية. شُكِّلَت مجموعةٌ أخرى، وطلبنا من مكتب الهند الإذن بالسفر على طريق جلجت إلى قاشغر. أُرسِل هذا الطلب إلى دلهي وبكين، بعد استجلاب معلومات إضافية حول نوع البيانات الموثوقة لدى سجلاتِ مكتب الهند فيما يتعلق بالأقران الذين يرغبون في زيارة الهند. ولكن قبل أن يتمكن المكتب من الرد علينا، سقطت الحكومة في قاشغر، واجتاحت الحرب الأهلية شِينْجيانْغ بأكملها، وأُغلِق طريق جلجت أمام المسافرين. وبذلك بقيت تركستان ثالثة، وهي تركستان الأفغانية. تشكَّلت بعثة أخرى للسفر إليها، ولكنها فضَّلت، في آخر لحظة، أن تُجري بحثًا حول خصائص احتراق الفحم. حاولت بنفسي، وفشلت، وحاولت مرةً أخرى، ولديَّ الآن آمال في النجاح. ولكن مع أننا عبرنا الحدود الإقليمية، فما زلنا لم نقطع سوى منتصف الطريق إلى مزار.

عندما تقابل بروست فعليًّا مع دوقة دي جيرمانتس التي كتب عنها، تحطَّمت الصورة التي كان قد رسمها لها؛ وكان عليه رسم صورة أخرى، تتناسب مع المرأة وليس مع الاسم. بينما تأكدت الصورة التي رسمتها للاسم الذي سحرني، بل تعزَّزت. في اليومين الماضيين، تحقَّقت كل مظاهر الحداثة والرومانسية الرعوية التي يوحي بها اسم تركستان؛ حيث نُقل بالفعل فصلٌ كامل من التاريخ من صفحته المطبوعة إلى مخيِّلتي. أعزو هذا التحقق لحظ اختيار ذلك الفصل من فصول العام. كانت ملامح مدام دي جيرمانتس هي ما خذل بروست. بلغنا تركستان في أوج ريعان أوائل الصيف.

توقَّفت ثلاث سيارات في حديقة الحاكم في مرغاب. إحداها كانت الجثة الهامدة لسيارة فورد كوبيه رمادية. والأخريان كانتا من طراز فوكسهول، وكانتا جديدتين ومقفلتين وباللون الأحمر الداكن، وغُطِّيتا بقماش مشمع عندما أمطرت. في الصباح الباكر بعد وصولنا، ركبَ الحاكم وابنه السيارتين الفوكسهول إلى ماروتشاك على الحدود الروسية. شاهدنا بأسًى محرك السيارة الفورد مُبعثَرًا فوق أحواض الخضراوات المحيطة، وطلبنا خيولًا لأنفسنا.

قال صبي فارسي يُدعى عباس، وهو يقتلع مبرِّد المحرك من إحدى الشجيرات: «يمكنني اصطحابكما إلى ميمنة إن وددتُما. سنتحرك في غضون ساعة.»

بدت لنا إمكانية السفر بهذه السيارة الخرقاء لأكثر من ميلين أو ثلاثة أميال من المائة ميل التي تفصلنا عن ميمنة أمرًا بعيدَ المنال، حتى إننا لم نأخذ أيًّا من الاحتياطات المعتادة قبل التحرك، ولم نجهِّز أي طعام، واستنكفنا أن نَعُد قِطع غيار السيارة، ولو حتى من باب المجاملة للسائق، بل بلغ بنا الأمر أن ارتدينا ما نَعُدهما أفضل بذلتين لدينا. وُضِعَت الأمتعة في الخلف، حيث وصلت إلى السقف. عندما صعدت أنا وكريستوفر إلى المقدمة، هبط الهيكل المعدني للسيارة بمقدار قدم، كما لو كنا نلعب دور الحَماة في فيلم كوميدي. كان عباس يلف قبضة ذراع التدوير. وفجأةً ارتفع ذراعه فوق رأسه، وانطلق ضجيج كضجيج متاجر الحدادين من المحرك الذي كان الآن مُجمَّعًا، وقفزت بنا السيارة عبر أحواض الأزهار في حديقة الحاكم، بينما أمسك عباس لتوِّه، في مطاردة سريعة، بعجلة القيادة في الوقت المناسب ليعطف بنا عبر البوابة. في الشارع الرئيسي، هرب الأهالي خوفًا، وفي غضون ثوانٍ، عبرنا البلدة وشققنا طريقنا عبر وادٍ مهجور. سقطت الأمتعة من النوافذ الخالية من الزجاج. أما المبرِّد، الذي أطلق نوافير المياه إلى عَنان السماء، فهبط أولًا على الأرض في المقدمة، ثم سقط للخلف فوق المحرِّك ليقع في شَرَك المِروحة، حتى ربطناه بحبل

الدواب. أصبح صوت المحرك كارثيًّا، وأخذ يصلصل ويئزُّ دون إيقاع من أي نوع، حتى توقَّف تمامًا في النهاية، مع صوت قصف أخير يصمُّ الآذان، وابتسم لنا عباس بابتهاج، وعلا أساريرَه تعبيرٌ أشبه بقائد أوركسترا يضع عصاه بعد سيمفونية صفَّق لها الجمهور. أعلنت فرقعة مؤيِّدة صادرة من الإطار الخلفي الأيسر، مع أنها متأخرة، أن الإطار أيضًا بحاجة إلى الراحة في الوقت الحالي. كنا قد قطعنا عشرة أميال.

ولم يكن لدينا إطارٌ احتياطي. جمَّع عباس قصاصات من الغطاء الخارجي، وصنع منها كسوة مُرقَّعة، بينما وضعت أنا وكريستوفر أفضلَ بذلتين لدينا بعيدًا على العشب، ونحن لا نزال مصممين على أن القدَر سيَعتني بنا. كانت ظلال وقت العصر تمتد. بقيت مسألة إعادة المحرِّك للعمل. ولكن تحقَّق هذا بسرعة عن طريق بضع ضربات عشوائية بمِطرقة، كما يضرب المرء طفلًا، وقفزنا إلى السيارة في الوقت المناسب تمامًا. بدأنا الآن ندرك أن خطوات الكنغر التي كانت تسير بها سيارتنا، مع أنها لم تكن خطوات مريحة كانزلاق الشيفروليه القديمة، كانت تأخذنا على طريق لم يكن من الممكن على الإطلاق أن تتعامل معه السيارة الشيفروليه.

كان عرض الوادي الذي كنا نسلكه حوالي ميلين. وكان نهر، يجري بحذائه جهةَ الغرب، محصورًا في أخدودٍ ترابي. على كلا الجانبين ارتفعت تلالٌ ترابية، كانت معالمها الخضراء الضعيفة، التي صقلها الطقس وجعلها مستديرةً، تتمتَّع بلمعانٍ أشبهَ بلمعانِ جنبَي حصان، مع أنَّ تلك الموجودة في الغرب كانت منحدِرةً انحدارًا شديدًا نحو القاع حتى التقت بالوادي بجروف جرداء، كاشفةً عما تحتها؛ حيث لم يكن للغطاء الأخضر مكان. كان يغطي الوادي والتلال على حدٍّ سواء مرعًى ذو تموجات بلونٍ أخضر ذهبي، وكان من الكثافة بمكان حتى إنه كان يصعب علينا أن نصدِّق أنه لم يزرعه إنسان، وعندما وصلنا إلى حقول المحاصيل، بدت جرداء ونحيلة مقارنةً بالمرعى. هذه المنطقة الرائعة، التي لا يوجد فيها حصاة واحدة تعيق الحرث والبذر، كانت بالكاد مأهولة.

أيضًا لم تكن توجد حصاة واحدة تعضِّد الطريق. عندما غادرنا الوادي، منعطِفين من الشمال إلى الشمال الشرقي، كان ما يحدِّد الطريقَ مجرَّدُ خندقين حُفِرا لهذا الغرض، وهما يتعرَّجان لداخل قيعان التلال وخارجها. كان العشب، الذي بدا شديدَ النعومة من بعيد، مليئًا بالحُفَر والنتوءات، وكان كل نتوء يهدِّد بالقضاء علينا. لكن المسافة إلى ميمنة أخذت تقلُّ تدريجيًّا على نحوٍ غير ملحوظ، وكنا قد قطعنا حوالَي أربعين ميلًا عندما رأى

عباس دِعامتين عشبيتين على الطريق، ومع أنَّ مصابيحه الأمامية كانت في حالة ممتازة فإنه اقترح أن نقضي الليلة هنا. وافقنا لشعورنا أننا خاطرنا اليوم بما فيه الكفاية.

قادنا مسارٌ فرعي من بين الدعامتين فوق عدة جسور محدَّبة إلى منزلٍ منعزِل وساحة تُطلُّ عليها أيكةٌ من أشجار الحَور. جاء صاحبها لاستقبالنا، وكان رجلًا متوسطَ الطول يرتدي ثوبًا أبيض وعمامةً بيضاء، وكان لابتسامته، التي أحاطتها لحيةٌ بنية داكنة مجعَّدة، براءةُ طفلٍ صغير. قادنا إلى غرفة مفروشة بالسجاد بها نافذة خشبية منزلقة، ومِدفأة، والعديد من الكتب القديمة في كوة فوق الباب؛ وكانت تفوح منها رائحة غرفة استقبال إنجليزية، تنبعث من إناء من أوراق ورد عطرية كانت تُجفَّف في كوة أخرى. دخل الأطفال مُترنِّحين وهم يحملون الأمتعة. وأحضر لنا آخرون الشاي بينما جلسنا على العشب بالخارج، نحدِّق إلى الظلال الأفعوانية الباردة بين التلال الخضراء المشوبة بلونٍ ذهبي، وترتفع فوقها القمم البنفسجية الفاتحة الوعرة للجانب الغربي لجبال هندوكوش.

بحلول وقت طعام العشاء، كان الخيَّالة يَصِلون من القرى المجاورة لعلاج أمراضهم. كان أحدهم يعاني الحمَّى، وآخر قروحًا في أنفه، التي كانت قد قُطِعَت تطبيقًا لعقوبةٍ ما، وعانى آخر صداعًا وقيئًا في الصباح، وكان آخر يعاني مرضًا جلديًّا متفشِّيًا في سائر أنحاء ظهره، كان قد استمر لمدة عام وبدا كالزهري، ولكن ما الذي يمكننا أن نفعل له؟ وزَّعنا عليهم كلَّ ما كان معنا من أسبرين وكينين ومراهم، ثم عمدنا إلى تقمُّص دور الطبيب المشعوذ المتسم بالغموض، قائلين إن الأدوية لن تجدي نفعًا، على الأقل في حالة القروح، ما لم تكن مصحوبةً باغتسال متكرِّر في الماء المغلي، أجل «المغلي»، هكذا همسنا قائلين كما لو كنا نَصِفُ علاجًا بكبد ضفدع. هذا الصباح أتى المزيد منهم.

ذهبت في نزهةٍ على الأقدام بعد الإفطار في أيكة الحَور. كانت العصافير تغرِّد في الأفرع العلوية. وبالأسفل، كانت الأكمة مظلَّلة ورطِبة، وتفوح منها رائحةُ غابة إنجليزية؛ مما أصابني بنخزة حنين إلى الوطن. ثم اصطحبَنا مضيِّفنا لرؤية حديقته المُسوَّرة، وقد كانت كرمة عنب لها برجُ مراقبة في المنتصف حيث يجلس للاستمتاع بالمنظر ورؤية القادمين. في أحد الأركان كانت وَهدةٌ شديدةُ الرطوبة تحوي مجموعةً متشابكة من الورود القرمزية الكبيرة، قطف منها حَفنة لكل واحد منا.

سألنا عمَّا إذا كان بوسعنا أن ندفع مقابل إقامتنا، أو على الأقل مقابل الطعام الذي تناولناه. قال: «كلا، لا يمكنكما ذلك. بيتي ليس متجرًا. عِلاوةً على ذلك، فقد أعطيتما الناس ما معكما من عقاقير.»

أوضح عباس أثناء مغادرتنا بالسيارة قائلًا: «إنه رجل تقيٌّ يستقبل جميع المسافرين على هذا الطريق. ولذلك يضع هذه الأشياء» — مشيرًا إلى دعامات العشب — «حتى يعرفوا أن منزله هناك. اسم المكان هو كاريز.»

كانت تفوح من السيارة رائحة الورود عندما عبرنا الحدود إلى تركستان.

كان الطريق الآن قد أصبح طريقًا محفورًا مرةً أخرى، لكننا صادفنا عقباتٍ مرعبةً في مساره عبر التلال. عبرنا قاعَي نهرَين بعرض ثلاثمائة ياردة، ونحن نلعب لعبة الكراسي الموسيقية مع الجلاميد؛ وكان المُنزلَق من الجلمود الأول شديدَ الانحدار حتى إن السيارة عادت للخلف في الماء بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة. في كل طريق محفور كانت الأمطار قد صنعت شقوقًا كبيرة في سطح الأرض اللين. في النهاية، انتقلنا إلى طريق الخيل القديم، الذي لم يتدخَّل فيه المهندسون بأعمال الصرف. وبدلًا من ذلك، كان الطريق قد جهَّز لنا شَركًا من حفرةٍ عادية، قفزت فيها السيارة الفورد وخرجت منها مِثلَ كرة تنس.

قبل اثني عشر ميلًا من ميمنة، توقَّفنا عند بِركة ومجموعة من الأشجار في سهل بخارى قلعة لمشاهدة قتال بين طيور الحَجَل. شكَّل المتفرِّجون حلقةً، وحُرِّرَت الطيور من قِبابها المصنوعة من الخيزران، لكن أحدها فرَّ بعد بضع دقائق، وبعدما جرى مسرعًا من بين أقدامنا، هرب إلى المساحة الخضراء وجميعنا في إثره. كان الطريق أكثر ازدحامًا في ذلك الحين. وكان معظم المسافرين يمتطون خيولًا من نوعية خيول الصيد الصغيرة الحجم، كما لو كانت السلالات الصينية والعربية قد اجتمعت هنا؛ وبعمائمهم ذات الألوان الزاهية، ولحاهم المتدلية، وأرديتهم المزيَّنة بنقوش الزهور، والسجاجيد الملفوفة خلفهم، كان يمكن أن يكونوا قد خرجوا من لوحة من الحِقبة التيمورية، لولا البنادق المعلَّقة على ظهورهم. كانت ثَمَّة حيوانات أيضًا؛ العديد من الثعابين والسلاحف، وطيور القيق الهندية البراقة بقدرِ طيور الرفراف التي كانت تبرز من الثقوب أثناء مرورنا، ونوع من السناجب الأرضية ذو لون برتقالي فاتح، والذي كان ذيله البدائي ذو الشعيرات، الذي لا يتجاوز طوله البوصتين، السِّمةَ الطبيعية المقترنة بمنطقةٍ بلا غابات. كانت المزروعات على التلال بالقرب من ميمنة أكثر كثافة، ولاحظنا أنه بقدرِ ما وصل الحرث، غالبًا إلى قمة كل جرف أخضر، ظهرت نباتات الخشخاش، حتى إن اللون القرمزي على القمم كان متناثرًا وسط اللون الأخضر الذهبي.

كان حاكم ميمنة قد ذهب إلى أندخوي، لكن نائبه، بعد أن أنعشنا بالشاي والحلوى الروسية والفستق واللوز، اصطحبنا إلى نُزلٍ للقوافل مجاورٍ للبازار الرئيسي، وهو مكان

قديم، شبيه بالأبنية في توسكاني، محاط بأقواس خشبية؛ حيث حصل كلٌّ منا على غرفة، والكثير من السجاجيد، وأحواض نحاسية للاغتسال، وخادم ملتحٍ ينتعل حذاءً برقبةٍ عالية وكعب عالٍ، خلع عنه بندقيته كي يساعدنا في الطهي.

سيكون عشاءً مميزًا. غمرَنا شعور بالرفاهية في هذه الأرض السخية. وصلَت للتو من البازار أباريقُ حليب، وصحون بيلاو بالزبيب، وكباب في أسياخ متبَّل جيدًا بالملح والفلفل الأسود، ومربى برقوق، وخبز طازج، وأضفنا إلى ذلك بعض الأطعمة الشهية الخاصة بنا، من حساء جاهز، وكاتشب الطماطم، وبرقوق مجفَّف منقوع في النبيذ، والشوكولاتة، ومشروب أوفالتين. ويوجد ما يكفي من الويسكي. غير أن المكتبة للأسف تقتصر على الكلاسيكيات، وأنا الآن أقرأ ترجمة كراولي لثوقيديدس، بينما عاد كريستوفر لقراءة كتاب بوزويل الممزق.

لدينا أيضًا عملٌ للسير توماس هولديتش بعنوان «بوابات الهند»، الذي يقدِّم ملخَّصًا للاستكشاف الأفغاني حتى عام ١٩١٠، ويصف رحلة موركروفت، الذي توفِّي في أندخوي عام ١٨٢٥. في هذا الكتاب أجد، في الصفحة ٤٤٠: «استُعيدت كتب موركروفت (ثلاثون مجلدًا)، وستفاجئ قائمة هذه المجلدات أيَّ مسافر معاصر يؤمن بما خفَّ حملُه وسَهُل استخدامه من المعدات.» ما يفاجئني أنا هو أنه أخذًا في الاعتبار أنه كان مسافرًا لمدة خمس سنوات، فإن ما كتبه كان من المفترَض أن يكون قليلًا للغاية. ما خفَّ حملُه وسَهُل استخدامه! أعرف هؤلاء الرحَّالين الجدد، هؤلاء الأشبه بعريفي الصف مفرِطي النمو والمملون من المهتمين بالعلوم الزائفة، الذين تبعثهم تجمُّعات من مسئولين عفا عليهم الزمن لمعرفةِ ما إذا كانت الكثبان الرملية تُغنِّي وما إذا كان الثلج باردًا. يدعمهم نفوذ رسمي من كل نوع بأموالٍ غيرِ محدودة، ويتوغَّلون في أبعد خبايا الكرة الأرضية، وبعيدًا عن التأكد من أن الكثبان الرملية تغني وأن الثلج بارد، ما الذي يرصدونه لزيادة الوعي البشري؟

لا شيء.

هل من مفاجأة في الأمر؟ يُعتنى بصحتهم البدنية، ويحصلون على تدريب، ويلتزمون بالقواعد للمحافظة على قوَّتهم، ويُحمَّلون بالكثير من العقاقير لاستعادة قواهم عندما تنهار نتيجة عملية شحذها. ولكن لا أحد يفكِّر في صحتهم العقلية، وفي أهميتها المحتملة على رحلة من المفترَض أن تشتمل على ملاحظات. تحتوي مُعَدَّاتهم الخفيفة والسهلة الاستخدام على طعامٍ يكفي قاطني ناطحة سحاب، وأدوات صالحة لاستخدام سفينة حربية، وأسلحة

كفيلة بتجهيز جيش بأكمله. ولكن يجب ألا تحتوي على كتاب. ليتني كنت غنيًّا بما يكفي كي أمنح جائزة للرحَّالة المتعقل؛ ١٠ آلاف جنيه إسترليني لأول رجل يجتاز طريق ماركو بولو الخارجي، ويقرأ ثلاثة كتب جديدة أسبوعيًّا، و١٠ آلاف جنيه إسترليني أخرى إذا شرب أيضًا زجاجة نبيذ يوميًّا. قد يخبرنا ذلك الرجل شيئًا عن رحلته. قد يكون قوي الملاحظة بطبيعته وقد لا يكون كذلك. ولكنه على الأقل سيستخدم عينيه، ولن يفكِّر في أنه من الضروري أن يُزيِّن نتيجةَ ملاحظاته بحوادثَ مثيرةٍ لم تقع، وعِلم لا يتعدَّى كونه رطانة بمصطلحات غامضة.

ما أعنيه هو أنه لو كان معي المزيد من الروايات البوليسية بدلًا من كتب ثوقيديدس وبعض زجاجات الكلاريت بدلًا من الويسكي الفاتر، لكنت على الأرجح استقررت هنا إلى الأبد.

ميمنة، ٢٤ مايو: أصبح فناء الرِّباط الذي نقيم فيه سوقًا في الصباح. استيقظنا على صوت الحوافر، وتفريغ الحُزم، ومساومات البيع والشراء بالفارسية والتركية. تحت شرفتنا، يتمايل بحرٌ من العمائم البيضاء، والزرقاء الغامقة، والوردية، والسوداء، بعضها مفلطح وعريض، وبعضها محكَم وعلى شكل يقطينة، وبعضها ملفوف بأي شكل كما لو كان خارجًا من عصَّارة ملابس. أغلب هؤلاء التجار من الأوزبك، من ذوي الأنوف المعقوفة واللحى الرمادية الداكنة، وكلهم يلبَسون أرديةً طويلة من قماش مزركش أو حرير بتصاميم من زهور أو خطوط، أو بمؤثرات مضيئة ومبهجة بالألوان الحمراء والأرجوانية والبيضاء والصفراء التي كانت فيما مضى تُصنَع في بخارى، ويُعتقد الآن أنها عتيقة الطراز. وللأحذية الجلدية الطويلة أصابع كالزوارق، وكعوب عالية، وتطريز حول أجزائها العلوية. تحتشد في البازار أعراق أخرى؛ أفغان من الجنوب، وطاجيك يتكلمون الفارسية، وتركمان، وهزارة. التركمان هم أولئك الذين يأتون من سهل نهر أوكسوس، ويتميزون عن القبائل الغربية بقبعة مختلفة؛ فبدلًا من القَلبَق الأسود، يعتمرون قُمعًا من جِلد الحَمَل محاطًا بحلقة من فرو برتقالي خشن، قيل لنا إنه يأتي من «ساج آبي»؛ أي كلب الماء — هل هو ثعلب ماء نهر أوكسوس؟ ينحدر الهزارة، وهم سلالة مغولية، من جيوش تيمور ويعيشون بالأساس في الجبال، في فقرٍ مُدقِع على ما يبدو. هؤلاء الذين نراهم هنا هم الصورة المرفَّهة للأشخاص الأقوياء البنية، من أصحاب الوجوه البيضاوية الوسيمة ذات القالب والملامح الصينية الذين يرتدون ستراتٍ مطرَّزةً قصيرة، وهم لا يختلفون عن أهل المشرق منذ مائة عام. يتحسَّس دخلاء منفردون طريقهم بعناية وبطءٍ عبر الحشد، وهم

تاجرٌ هندوسي، ودرويش يلتف حول رقبته ثعبانٌ أسود حي سامٌّ بطول أربع أقدام، ورجل ضئيل الحجم يرتدي ثوبًا من نسيج قطني أبيض محكَم النسج وقبعة قماشية سوداء، وهو القنصل الروسي. النساء كالعادة مختفيات، ولكن الفتيات الصغار يرتدين الساري والحلي المتدلية من الأنف على الطريقة الهندية. لا يستطيع حتى الجنود أن يثيروا خلافًا واحدًا. سار فوج عسكري عبر البازار هذا الصباح، وكان يتألَّف من رجال بوجوه مخيفة كالجماجم عندما خلعوا عمائمهم، ولكن بين كل بندقية وأخرى بندقية وُضِعَت في فوَّهتها وردة. ربما كان نور محمد بينهم. توجد هنا ثُكنة عسكرية كان عائدًا إليها عندما ودَّعتُه ذلك الصباح في قلعة نو.

لا تتميز البلدة بسمة معمارية. المَعلَم الوحيد بها هو قلعة خَرِبة. ترتفع بداخلها ربوة، كانت عليها مبانٍ، حسبما تدُل كومات القِرْميد، ولكن الآن يشغلها قبر مقدَّس منعزل.

في خارج المدينة؛ حيث نهاية البازار، يوجد مرج رَحبٌ بما يكفي لأن يصلح ملعبَ كريكت إنجليزيًّا، أمام أفق من أشجار الحَور. كلَّ مساء تعزِف هنا فرقةٌ نحاسية أمام فيلا رئيس الأركان، وهي نُزل طيني من طابق واحد يطوِّقه سياج من الورود. في صالات الشاي بالقرب من الطريق، ينقر شخصٌ ما على أوتار جيتار؛ فيضع الرجال كئوسهم ويتمتمون بأغنيةٍ حزينة. يُدير جدولُ ماء بجوارهم طاحونةً صغيرة، وتجمَّع سربٌ من الحمام الأبيض على ضِفته أسفل شجرة دُلْب. تبدأ الفرقة في العزف مرةً أخرى من بعيد.

يتسكَّع رجال بورود في أفواههم عبْر العشب لمشاهدة مباريات المصارعة. يرتدي كل مصارع قلنسوةً ضيقة مستدقَّة الطرف ويحتفظ بعباءته الطويلة، لكنها مربوطة من حول الخَصر بوشاح أحمر، يتيح للمصارع الآخر أن يُمسكه منه. قبل أن تتحدَّد المباراة، يُعلَن عن مصارعة لطيور الحَجَل، وانفكَّت الحلقة لتتشكَّل ثانيةً حول الطائرَين. هرب أحد الطائرين في النهاية، ورفع جميعُ الحاضرين، صِبية وكهول على حدٍّ سواء، ثيابَهم فوق رُكَبهم، وتفرَّقوا في مطاردة جنونية.

أمام ظلمة عاصفة قادمة، يضيء الغروب البرتقالي الباهت الجبالَ الترابية الخضراء، وأشجار الحَور المتمايلة التي يكسوها النسيم بخيالٍ مفضَّض، والملابس المتعددة الألوان لجماهير المباراة.

أندخوي (١١٠ أقدام، ٨٢ ميلًا من ميمنة)، ٢٥ مايو: استأجرنا شاحنةً لتأخذنا إلى مزار شريف. إنها سيارة شيفروليه جديدة، وكلُّ ما فيها يعمل، من ملحقات وبادئ حركة ذاتي وعدَّاد مسافات. هذه هي طريقة السفر هنا. تمدَّدنا فوق المقاعد وحوْلنا جميع

مستلزماتنا، من طعام وزجاجات مياه وكاميرات وكتب ودفاتر يوميات، بينما وُضعَت الأمتعة الثقيلة فوق السيارة. السائق هندي، من بيشاور؛ ولذلك فهو شديد الاحترام، ولكنه كان يتلعثم في الكلام، وعندما يتلعثم هو وكريستوفر معًا تمضي المحادثةُ ببطء. بجواره يجلس صديقنا القديم من ميمنة، الذي يشبه شخصية القط ذي الحذاء في الحكاية الخرافية القديمة، ومعه بندقيته، وفردان من التركمان؛ أحدهما يشبه ضابط حُرَّاس، والآخر يبدو كما لو كان تمثالًا للإله أبولو على الطراز الإتروسكاني.

من أجل السفر، يرتدي صديقنا «القط ذو الحذاء» قبعةً بنيةً من جلد الحَمَل، وسترةً مشقوقة الذيل بحزام أسود، وسروالًا قصيرًا من الخامة نفسِها ترك سحَّابه مفتوحًا؛ ويوجد سروال آخر تحته، ولكن الانطباع يستحوذ على الذهن. اسمه غابور.

من هِرات إلى ميمنة، نسافر في الأساس في اتجاه الشمال الشرقي. عند الوصول إلى ميمنة، انعطفنا جهةَ الشمال إلى وادٍ كوُديانٍ مرتفعاتٍ ويلتشير؛ حيث تصطفُّ القرى متتاليةً قريبةً بعضها من بعض على امتداد نهر صغير لا اسم له يتعرَّج بين البساتين والحقول؛ والبساتين هنا هي بساتين توت ومشمش، والحقول مزروعة بأزهار الكتان ذات اللون الأزرق الباهت. بعد فيض آباد، وهي أكبر القرى، أصبحت التلال أقلَّ ارتفاعًا، وصارت الأرض جدباء، والهواء أكثرَ دفئًا؛ وبدأنا ننزلق في الرمال. ظهر أفقٌ مسطَّح، ولفحَنا نسيمٌ ساخن خبيث، وصارت السماء بلون الرصاص. كنا قد وصلنا إلى سهل نهر أوكسوس، وشعرنا بوجود النهر على بُعد خمسين ميلًا كما يشعر المرء بوجود البحر قبل رؤيته. وفي النهاية، أبصرنا ربوةً مسطَّحة القمة، كان يجثم فوقها منزلٌ قبيح من طابق واحد من القِرْميد أعلى سُلَّم منحدِر تحرسه أسودٌ صفراء من الجص. هنا وجدنا حاكم ميمنة، وهو رجل ضخم البنية يضع نظارة، وله لحية سوداء صغيرة وصوت أنثوي، وقدَّمَنا له خطابًا من شير أحمد.

قال: «أجل، الأرض «مسلوقة» cooked تمامًا في المسافة ما بين هنا ومزار، غير أنها ترجع خضراء مرةً أخرى بالقرب من جيحون»، مستخدمًا هذه الكلمة للإشارة إلى نهر أوكسوس، ولم يفهم أننا نستخدمها للإشارة إلى نهر آمودا ريا. أعطى أوامرَ بتجهيز إقامة لنا في أندخوي، التي كانت لا تزال على بُعد ميلين.

أندخوي هي مركز تجارة جلود الحُملان. عند المستودع في البازار، الذي كان أيضًا ممتلئًا عن آخره بالنفط الروسي والدِّلاء الحديدية المجلفَنة، شاهدنا الجلود وهي تُعالَج بمحلول من الشعير والملح، وتُبسط فوق الأسقف لتجفَّ، وتُكوَّم في بالاتٍ لحزْمها. قال

المدير إن اليهود قد رُحِّلوا من هنا إلى هِرات كي لا تظل التجارة في أيدي «الأجانب». وأضاف أن معظم القطعان كان يمتلكها التركمان. كانت جلود أندخوي هي أفضل الجلود، وتُدانيها جلود آقجة جودةً، أما جلود مزار؛ حيث تتأخر النِّعاج في الولادة ثلاثة أو أربعة أسابيع، فليست جيدة جدًّا. كل عام كان يرسل لاكًا (٧٥٠٠) من الجلود إلى لندن.

سأله كريستوفر عما إذا كان بإمكانه شراء بعض الجلود. جلود جيدة، بالطبع. قال الرجل، مُخرِجًا قطعةً من الفرو لا تكفي إلا لصناعة زوج من الأكمام لدمية: «هذه الجودة تكلِّف ٧٠ أفغانيًّا (ما يعادل جنيهًا إسترلينيًّا واحدًا و١٥ شلنًا). أفضل جودة، تصلح لصنع قبعة جيدة، قيمتها ١٠٠. ولكننا لا نحصل على كثير منها.»

إنه مساء يوم الجمعة، والناس يستمتعون بالعطلة بالجلوس إلى الطاولات أسفل أيكة التوت خارج البازار. أنا جالس بينهم أكتب، وأشرب الويسكي بالثلج، وأنتظر صحنًا من البيلاو.

مزار شريف (١٢٠٠ قدم، ١٢٢ ميلًا من أندخوي)، ٢٦ مايو: يجب أن أقرَّ أن وصولنا هنا هذا المساء مثَّل لي مناسبةً مهيبة. تركت إنجلترا في أغسطس وأنا آمُل أمرين؛ الأول أن أرى آثار بلاد فارس، والثاني أن أصل إلى هذه المدينة. لم يكن أيٌّ من الأمرين جللًا، ولكنهما استغرقا بعض الوقت لتحقيقهما.

خرجنا من أندخوي بحلول الخامسة فجرًا. وعندما لمحنا قطيعًا من الغنم عند طلوع الشمس، تخطَّينا الشاحنة ومشينا تجاهه فوق المرعى الهشِّ الشحيح الذي يموِّج أصواف الغنم. كان الراعي من الأوزبك، وتجنَّب التعامل معنا في البداية؛ ظنًّا منه أننا من الروس. اعتذر عن سوء تصرُّفه فيما بعدُ موضِّحًا أنه منذ ثلاث سنوات سرقَ الروس ستين ألفًا من أفضل الأغنام؛ مما جعلنا نتساءل عما إذا كان اليهود السيِّئو السمعة قد شاركوا في معاملة من هذا النوع. تألَّف قطيعه من سلالتين؛ الكاراكول الذي يُستخرج منه أفضل الفِراء، والسلالة العربية، وقد أوضح لنا كيفية التمييز بينهما من خلال الذيل، ممسِكًا بكبش من إحدى السلالتين وبنعجة من الأخرى. كلاهما له ذيل سمين، ولكن بينما ذيل العربي مستدير أو أشبه بالكُلْية، تتدلَّى من ذيل الكاراكول قطعة من المنتصَف.

عندما سِرْنا أبعدَ من ذلك، وجدنا مخيمًا تركمانيًّا. كان الرجال بالخارج، ولكن الكلاب هاجمَتنا، ولأن النساء ما كنَّ ليصرفنها فقد استلزم الأمر عشرين دقيقة من الحَزْم المدروس لجعل الوحوش المزمجِرة تتراجع. خرجَت لتحيَّتنا عجوزان شمطاوان، على ما يبدو أنهما أرملتان، ومع أنهما كانتا ترتديان أرديةً قبيحة فضفاضة من الخيش الأزرق الرمادي،

الراعي الأوزبكي.

فإنهما احتفظتا بغطاء الرأس الطويل. كانت النساء الأصغر، اللواتي ظلِلنَ مبتعِدات، عبارةً عن منظر جميل يتحرَّك هنا وهناك وسط خلايا النحل السوداء، وهن يمسحن الأرض بدثائر باللونين الوردي والأبيض، ويُبْدين أمارات الاحتشام خلف أخمرة طويلة باللون الأصفر الزعفراني الغني تتدلى من قبعاتهن الوردية الطويلة. تأخذ هذه الأخمرة عادةً شكلَ المعاطف. مررنا ببعض النساء في وقتٍ لاحق من اليوم، وكنَّ لا يزلن يرتدين ثيابًا حمراء، وكانت وجوههن تحيط بها معاطف باللون الأزرق الغني لورود الذرة ومطرَّزة بالزهور.

اقتربت من أمٍّ وطفلين. ففرُّوا إلى خيمة كيبيتكا، وتوجَّهتُ إلى امرأةٍ أصغر سنًّا ذات حمل هائل كانت تضمُّ طفلًا رضيعًا. وضعَته خلفَ حاجز من أغصان متداخِلة، وأمسكت بعصًا طويلة، وأعادت رسم دائرة على التراب أمامها، واقتربت مني مِثل فارس من العصور الوسطى. كان وجهُها مقطِّبًا من الغضب، وكان ثَمَّة شيء في نبرة صيحاتها الشاجِبة جعلني متأذيًا، كما لو كنت أستغل بخِسَّةٍ غيابَ رجلها. ضحكت العجوزان الشمطاوان على المشهد. غير أن حارسنا، الذي كان حارسًا جديدًا انضم لنا في أندخوي، شعر بالخزي، وقال إن هذه هي أفغانستان. كان يرتدي معطفَ مطر غربيًّا من طرازٍ راقٍ، وكان دائمًا ما يستنشق شيئًا من قَرْعة ذات فوَّهة فضية وبغطائها ياقوتة.

كانت إحدى خيمات الكيبيتكا فارغة، ربما كانت دار ضيافة، واستطعنا تفقُّدها دون أن نشعر بالخطر. كان يوجد سفل من تعريشة بالداخل، وآخر من حصير من الأغصان بالخارج، يحيطان بالجزء السفلي من القبَّة السوداء المصنوعة من اللباد. امتد هذا اللباد فوق إطار من الخشب المحدَّب، والذي كان متصلًا، عند القمة، بنوع من السلال الدائرية المفتوحة على السماء، والتي تُستخدم كمدخنة. تحت السلة، عُلِّق إكليل من الشراشيب السوداء. يُفتَح باب ذو ضلفتين من إطار خشبي ضخم، وكان على كلٍّ منهما نقوش طفيفة. كان يوجد لباد على الأرض، وتألَّف الأثاث من خزانات ذات نقوش ورسومات. لم يكن الجو العام حقيرًا أو وحشيًّا على الإطلاق. أثناء مغادرتنا، رأينا إحدى خيمات الكيبيتكا تُفكَّك. كانت دعامات الإطار تشبه مجموعةً من الزلَّاجات الرفيعة عند طيها. لكن قمَّة السلة، التي كانت في حجم عجلة عربة، ترنَّحت في غير استقرار فوق سَنام الجمل.

كان يومًا مشئومًا وخانقًا وبطيئًا، بدت أوكسيانا كالهند في افتقارها للألوان وفي ضواحيها. أغرتنا رقعة خضراء من مراعٍ في خواجة دوكوه بالتوقف مرةً أخرى، لمشاهدة قطيع من الفرسات التي تُربى للتناسل وأمهارها الصغيرة، ووسطها كان يثب فحلٌ عجوز هزيل طوله ستة عشر شِبرًا، وهو ما يُعد طولًا كبيرًا في هذه المناطق. قال كريستوفر إن مجموعة من الأطفال ذوي المظهر الرَّث الجالسين على أحد الجدران يُذكِّرونه بالزبائن في قرية سليدمير. وصلنا بعد ذلك إلى شبرجان، وهو مكان خَرِب تُطِل عليه قلعة، ومنه يمضي طريق جنوبًا إلى سربل. لاحظ فيرير بالقرب من سربل نقشًا صخريًّا ساسانيًّا. هكذا يقول. ولكننا لم نستطِع أن نسمع أي تأكيد على وجوده بين ميمنة وأندخوي، وهو شخص غير موثوق للغاية بحيث لا يمكن أن نذهب بحثًا عن ذلك النقش دون تأكيد.

كانت أقجة أكثرَ ازدهارًا. رأينا عربة للمثلجات أسفل جدران القلعة، وضع لنا صاحبها طاولة في الشاحنة لتناول الغداء عليها، وأحضر دلوًا من الثلج لتبريد مشروباتنا.

بعد أقجة، تغيَّر لون الطبيعة من لون الرصاص إلى لون الألومنيوم، فصار باهتًا وشاحبًا كشحوب الموت، كما لو أن الشمس قد ظلت تسحب بهجتها لآلاف وآلاف من السنين؛ وهذا لأننا كنا في ذلك الوقت في سهل بَلْخ، ويُقال إن بَلْخ هي أقدم مدينة في العالم. كادت تكتلات الأشجار الخضراء، ذات خُصل العشب المقطوعة قطعًا خشنًا والتي تأخذ شكل النافورة، تبدو سوداء على هذه الخلفية المُقبضة. رأينا بين الحين والآخر حقلًا للشعير، وقد كان ناضجًا، وكان التركمان، العراة إلى الخَصر، يجُزُّونه بالمناجل. غير أنه لم يكن بُنيًّا أو ذهبيًّا؛ وهو ما يُذكِّرنا بسيرس، إلهة الوفرة. يبدو أنه قد صار أبيضَ مبكِّرًا، كشعر رجل مجنون، لفقدانه التغذية. ومن هذه الأكفان المترامية الأطراف، أولًا على شمال الطريق ثم على جنوبه، ارتفعت الأشكال الرمادية البيضاء المتآكلة لمعمار مهجور في تلال مجعَّدة وشاحبة بفعل الأمطار والشمس، في حالة متهالكة أكثر من أي بناء بشري رأيته في حياتي؛ هرم معوج، ومنصة مستدقة، وكومة من الشرفات المفرجة، وتمثال لوحش جاثم، جميعها أشياء عرفها الإغريق البختريون، ومماركو بولو من بعدهم. لا بد أنها زالت. ولكن انعكاس أشعة الشمس ذاته قد نفخ الروح في فخارها الشاحب، مبقيًا على بعض من بريق أشكالها الذي لا ينطفئ، بريق لا يمتلكه سد روماني أو تلة ينمو عليها العشب، لا يزال وامضًا في وجه عالمٍ يفوقه سطوعًا، مُتعَبًا كمن أنهكته محاولة انتحار فاشلة.

ومع ذلك، فقد أصبحت المنطقة رويدًا رويدًا أكثرَ خضرة، وكست المراعي الأرض العنيدة، وتضاعفت الأشجار، وانبثق فجأةً صفٌّ من جدران بالية وواهنة من الأرض، واحتل الأفق. بمرورنا داخلها، وجدنا أنفسنا وسط حاضرة شاسعة من الأطلال الممتدة بعيدًا إلى الشمال، بينما على جنوب الطريق، كانت البساتين المشرقة، من أشجار توت وحور ودُلْب منفردةً مهيبةً، قرةً للعين بعدما أثخنتها العتاقة الموحشة للمشهد السالف. كنا واقفين في بَلْخ نفسها، أم المدن.

علَّق حارسنا، مطالعًا الآثار التي تُرِك معظمها على هذه الحالة على يد جنكيز خان، قائلًا: «لقد كان مكانًا بديعًا حتى دمَّره البلاشفة منذ ثماني سنوات.»

قادنا التقدُّم مسافة نصف ميل إلى القلب المأهول للمكان؛ حيث بازار، ومتاجر، وسرايات، وتقاطعات طرق. بعدما خرجنا من بين الأشجار صوبَ الجنوب، ظهرت قبَّة مُخدَّدة طويلة بلون أزرق غامق على خلفية الخضار الداكن والعبوس الرمادي لعاصفة

تهبُّ على جبال هندوكوش. مشينا إلى هذا المبنى، بينما ذهب السائق يبحث عن غرف للإقامة، وما أثار دهشتَنا عندما خرجنا من الخلف رؤيةُ صاحبنا حاكم ميمنة وسط ساحة مفتوحة. بالقرب منه وقف فرانك، الذي دلَّ رأسه الشبيه بحبة البازلاء على أنه ألماني. انتظمت فرقة من أربعة جنود على جانب، وكانت عُصبة من الضباط والسكرتارية قد تجمَّعت على الجانب الآخر. وبينهما، أمام خيمة تمتد أمامها بُسُط، كان الألماني يشرح تضاريس المكان لرجلٍ مبجَّل يعتمر قبعةً من الفرو، وله لحية سوداء مشذبة بعناية، ويرتدي قميصَ كريكت مفتوحًا، ويضع ثلاثة من أقلام الحبر السائل في جيب صدره.

كان هذا الرجل، الذي قدِمنا إليه حاكم ميمنة، هو محمد جُل خان، وزير الداخلية التركستاني. وكان قد جاء بالسيارة من مزار لتفقُّد إعادة بناء المدينة. كانت توجد أوتاد في الأرض، وقد أُعدَّت بالفعل مساحة بين واجهة الضريح المقبَّب والقوس المهدمة لمدرسةٍ مقابلة له. أخبرنا الألماني أنه قضى ثلاث سنوات في أفغانستان، منها ستة أشهر في مزار؛ حيث كان يعمل قائمًا بجميع أعمال الجسور، والقنوات، والطرق، والبناء بوجه عام.

كانت العاصفة تقترب. ركب محمد جُل سيارته وغادر بعد أن تمنَّى لنا ألا تتغلب علينا مصاعب الطريق. جعلَنا ذِكرُه لفندق في مزار، حيث توقَّع أن نلقى راحةً هناك، نقرِّر أن نتبعه بدلًا من أن نتوقف في بَلْخ. كان ذلك يعني أن نقطع مسافة خمسة عشر ميلًا أخرى. حل الفيضان والظلام عندما وصلنا للعاصمة.

سألْنا بكلمات فارسية بسيطة: «أين دار الضيافة؟»

«إنها ليست دار ضيافة. إنه «فندق». من هذا الطريق.»

إنه كذلك بالفعل. ففي كل غرفة نوم يوجد سرير بهيكل من حديد ومرتبة بزنبرك، ومُرفَق بالغرفة حمَّام مُبلَّط؛ حيث غمرنا أنفسنا بالماء من دلوٍ وجفَّفنا أقدامنا في حصيرةٍ مكتوب عليها «حصيرة الحمَّام». غرفة الطعام مفروشة بطاولة فنادق طويلة، وعليها أدوات المائدة من نوع شفيلد وآنية لغسل الأصابع. الطعام المقدَّم هو طعام فارسي أفغاني إنجليزي هندي في أسوأ جودة لكلٍّ من هذه المطابخ. تُغلَق أبواب دورة المياه من الخارج فقط. كنت على وشْك أن أخبِر المديرَ بهذا الأمر، لكن كريستوفر قال إنها تروق له ولا يرغب في تغييرها.

دفعنا ٧ شلنات و٦ بنسات في اليوم، وهو سعر ليس ببخس بالمعايير المحلية. بالنظر إلى حماس الموظفين، لا بد أننا أول ضيفين يحلان بالمكان.

مزار شريف، ٢٧ مايو: ثَمَّة حُلم وراء بناء هذه المدينة.

في زمن السلطان سنجر، الذي حكم في النصف الأول من القرن الثاني عشر، وصلَت إلى بَلْخ رواية من الهند مفادُها أن حضرة علي، رابع الخلفاء، مدفون في الجوار. أنكر ذلك أحدُ ملالي المكان، الذي اعتقد، كحال معظم الشيعة حتى الآن، أنه دُفن في النجف بشبه الجزيرة العربية. حينئذٍ ظهر علي بنفسه للملا في المنام وأكَّد الرواية. عُثِر على القبر، وأمر السلطان سنجر بأن يُشيَّد فوقه ضريح، والذي انتهى بناؤه سنة ١١٣٦ وأصبح نواة المدينة الحالية.

هدم جنكيز خان هذا الضريح. في سنة ١٤٨١، حلَّ محلَّه ضريح آخر بطلب من حسين بايقرا، الذي كان في حملة في أوكسيانا قبل ذلك بعام. منذ ذلك الحين أصبحت مزار شريف مكانًا للحج، وتدريجيًّا أقصت أطلالَ بَلْخ المتضررة من كونها المدينة الرئيسية للإقليم، كما أقصت مشهدُ، بالنهج نفسِه، طوسَ في خراسان.

لا يوجد الكثير الذي يمكن رؤيته في مبنى حسين بايقرا من الخارج، مع أنَّ قبتَيه الضحلتين، الشاهدتين على وجود حرمٍ داخلي وآخرَ خارجي، توحيان بأن المخطَّط كان منسوخًا من مصلَّى جوهر شاد. أُعيد تبليط الجدران الخارجية بالكامل في القرن الماضي بفسيفساء هندسية غير مصقولة، بالألون الأبيض والأزرق الفاتح والأسود. وحتى منذ كان نيدرماير هنا، جرت إضافات؛ إذ لا تظهر في صورته الفوتوغرافية الدرابزينات الإيطالية من الفخَّار الفيروزي اللون على طول الحواجز الرئيسية. ومع ذلك، فالمجموعة بأكملها ليست سيئة؛ حيث يمكن وصفها بأنها خليط بين كنيسة سان ماركو في فينيسيا ومنزل ريفي إليزابيثي مُنفَّذ بخزف الفاينس الأزرق.

خارج الضريح الكبير، توجد أطلال ضريحين أصغر منه. انهارت قبَّتاهما، ولكن احتفظ كلٌّ منهما بألواح من الفسيفساء حول طبلة القبَّة، وهي ألواح قبيحة من ناحية اللون بسبب لون المُغْرة الفاقع الضارب إلى اللون الوردي. ومثْل الضريح الذي في هِرات، يحتوي الضريح الذي في الشرق على قبَّة داخلية، وهي هيكل وسيط غير مرتفع يستقر على جدار دهليز داخل الطبلة. أعلى هذا، لا يزال يمكن رؤية دعامات القِرْميد المنحنية التي كانت تدعم القبَّة العليا حينما كانت ترتفع من خارج الطبلة.

وكما في مشهد، أُزيلت المنازل حول الضريح حتى يمكن رؤيته من بعيد مُكملًا المشهد لعدة شوارع. في الواقع كانت المدينة كلها قد تأنَّقت مؤخرًا. البازارات جديدة ومُبيَّضة، وتستند أسقفها على أوتاد تسمح بنفاذ الضوء والهواء من أسفلها. في المدينة الجديدة، حيث

يوجد الفندق ومكاتب الحاكم، تَحُد الطرقَ مزاريبُ أنيقةٌ من القِرْميد. حركة المرور موزَّعة بين الحنطور الهندي ذي المظلة، وعربة الدروشكي الروسية بنيرها الخشبي المرتفع فوق عنق الحصان. بعد مرغاب وميمنة، شعرنا باستعادة الصلة مع العالم الخارجي، وتمنَّينا لو بقينا مدةً أطول في تلك الأماكن. ومع ذلك، فسيكون من الجفاء ألا أعترف بأن المدينة كانت أبهى بفضل هذه التحسينات. إننا نستمتع حقًّا بإقامتنا في الفندق.

يبدو أنه توجد اعتراضات على زيارتنا لنهر أوكسوس. كان كلٌّ من الحاكم ومدير الخارجية قد سافرا إلى هيباك، وكان علينا أن نتعامل مع نائب الأخير، وهو شابٌّ مختال غِرٌّ تلقَّى اقتراحاتنا بتكبُّر. ولكن من الواضح أنه لا يملك سلطة اتخاذ قرار في الأمر. لا بد أن نطلب مساعدة «الفزير» (بالفاء الفارسية)، كما يُطلق على محمد جُل.

مزار شريف، ٢٨ مايو: توجد حديقة عامة خارج الفندق، تنمو بها أزهار سويت ويليام، وأزهار التنين، وأزهار الخَطمي، وأزهار الربيع الشائعة المسائية. وقد وُضعَت بين الأحواض مقاعدُ صغيرة، وكثير من الحصير الأكثر شيوعًا المصنوع من الأغصان؛ حيث يجلس الناس ويتناولون المشروبات بينما تُعزف الموسيقى. توجد فرقتان. إحداهما تقف في الشمس، صفٌّ من الرجال المسنين معهم آلات نفخ؛ يعزفون ثلاثة ألحان أوروبية، ويرافقهم شابان بالخلف، يقرعان كل إيقاع على مثلَّث وطبلة. بينما تجلس الفرقة الأخرى متكاسلةً على منبرٍ أسفل إحدى الأشجار، وتعزف موسيقى هندية على جيتار وطبول متنوعة وقَدَمية صغيرة. نستمع إلى الموسيقى من غرفتَينا اللتين تُطِل نوافذهما على شرفةٍ خلف الحديقة.

عصر كلَّ يوم، عندما تتجمَّع السُّحب فوق الجبال، يحل علينا كسلٌ لا يُقاوم. يملأ الغرفةَ الذباب والحرارة الشديدة الرطوبة. وتُحوِّل نقنقةُ طيور الحَجَل أحلامي إلى عصر يوم من أيام شهر سبتمبر في الوطن، حتى أتذكَّر أنها تنتظر أن تخوض قتالًا. ما السبب في تكوُّن تلك السُّحب؟ الطقس الشديد الحرارة بما فيه الكفاية، ولكن كان من المفترَض أن بداية الصيف كانت منذ ستة أسابيع. لم يشهد أحد عامًا كهذا من قبل. أغلقت الأمطارُ التي سقطت ليلة وصولنا الطريقَ إلى كابل لمدة شهر؛ وسقطت قرية بأكملها في الوادي العميق الضيق عند هيباك. إذا تابعنا المضي بحصانَينا من هنا، كما قد يقتضي الأمر، فسيكون علينا التخييم، وبصرف النظر عن ضرورة صنْع شبكتين للبعوض، فقد كنا أكسلَ من أن ننظر في أمر اللوازم. توفير المياه هو الصعوبة الكبرى في رحلة كهذه؛ لأن المصابين بالزهري في الحلق، وهم كُثُر، ميَّالون إلى البصق في الآبار.

ثُبِّطت أكثرَ آمالُنا في بلوغ نهر أوكسوس.

يتصرَّف منتظِم الفندق، وهو رجل مسن بدينٌ وبغيض، كما لو أنه سجَّاننا. هذا الصباح تبِعَنا عندما كنا ذاهبين محتجًّا إلى مكتب محمد جُل؛ حيث علمنا أن «الفزير» لن يستيقظ حتى الساعة الحادية عشرة. في الحادية عشرة، تبِعنا مرة أخرى إلى هناك. كان «الفزير» لا يزال نائمًا. ثم تبِعني إلى مكتب التلغراف، لاهثًا ومتعرِّقًا في الطقس الحار؛ وكلما ازداد لُهاثه، زدتُ من سرعة سيري. قال منتظِم التلغراف الذي كان قد أخبرني عنه زميله في هِرات، إنه قد نسي كل الإنجليزية التي تعلَّمها تحت ضغط التحدُّث بالروسية؛ فقد كان يوجد رجل روسي معه في المكتب. واقترح عليَّ الذهاب إلى الطبيب وليس إليه. في الطريق إلى المستشفى، ركبت عربةً يجرُّها مُهْر صغير، تاركًا منتظِم الفندق في الطريق. ولكن يبدو أنه سيتعيَّن على السائق أن يُكمل تقرير تحرُّكاتي.

اتضح أن الطبيب، ويُدعى أبا المجيد خان، قد تخرَّج في كامبردج، وقد كان رجلًا وسيمًا ومثقفًا، ويتمتع باحتشام فطري، قلما تجده بين الهنود، سرعان ما نما إلى مودة. إنه هنا منذ ثمانية أعوام، وعندما انتبه لدهشتي من الأمر، أوضح أنه كان عليه أن يترك الخدمةَ الطبية الهندية بسبب حادثة ذات صلة بحركة عدم التعاون. تحدَّث بحزنٍ بعض الشيء عن مرحلة طيش الشباب هذه، التي دمَّرت حياته المهنية، وأضاف أنه يبدو أن حركة عدم التعاون قد انتهت حاليًّا، كما لو أنه كان يشير إلى أن الجهد الذي كلَّفه الكثير قد بُذل في قضية خاسرة. غير أنه لم تكن توجد أي مرارة في صوته، ولا أيٌّ من ذلك التحدي المحرِج الذي غالبًا ما يُبديه القوميُّون الهنود تجاه رجل إنجليزي. حاولت أن أوصِّل إليه، دون أن أبدو مُغاليًا، أن القوميين قد نالوا تعاطفي وتعاطف العديد من الإنجليز اليوم أكثرَ مما كان عليه الأمر منذ عشر سنوات. ولم تكن توجد أي مرارة أيضًا في ملاحظاته بشأن أفغانستان. إنه مُغرَم بالناس وبعمله، الأمر الذي يختلف فيه عن الهنود الآخرين الذين قابلتهم في هذا البلد.

إنه ليس عملًا سهلًا. فعليه أن يدير المستشفى بمبلغ ١٠ آلاف روبية أفغانية في العام؛ أي ما يعادل ٢٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا. توجد الأسرة في سُرادقين أو ثلاثة سرادقات من طابق واحد، تقع في حديقة ظليلة مليئة بالطيور المغرِّدة. بدت صلبة، ولكنها نظيفة ومرتَّبة جيدًا. يعاني معظم المرضى إعتامَ عدسة العين، والحصوات، والزهري.

أخبرت الطبيب عن رغبتنا في زيارة نهر أوكسوس ومحاولاتنا لرؤية محمد جُل. قال إن نوبات مرض النوم التي تعرَّض لها سالف الذكر كانت مجرَّد تلميح مهذَّب بأنه لا يرغب في مناقشة الأمر معنا. سألته عن الخطوات الأخرى التي يمكننا اتخاذها. فاقترح أن

نكتب خطابًا باللغة الإنجليزية إلى «الفزير»، على أن يكون بأسلوب مُتقَن بحيث لا يتمكَّن منتظِم التلغراف من ترجمته. في تلك الحالة، سيُستدعى أحد التجار الهنود المقيمين، والذي قد يمتدحنا لديه.

كانت نتيجة هذا الاقتراح ما يأتي:

صاحب السعادة محمد جُل خان،
وزير داخلية تركستان
صاحب السعادة،

لِعلمنا من تجرِبتنا الشخصية أن يومَ سعادتكم قصير للغاية بالفعل لانشغالكم بالصالح العام، فإننا على مضضٍ واضح، في غياب صاحبَي السعادة الوالي ومدير الخارجة في هيباك، نتجرأ على التقدُّم لسعادتكم بطلب شخصي تافه.

للاضطلاع برحلتنا من إنجلترا إلى تركستان الأفغانية، التي عوَّضتنا رؤيةُ إدارة سعادتكم الكريمة إلى حدٍّ بعيد عمَّا فيها من ضجر ومشاقَّ، كان هدفنا الأساسي هو أن نشهد، بأم أعيننا، مياه نهر آمودايا المشهور في التاريخ والروايات باسم نهر أوكسوس، الذي يمثِّل موضوعَ قصيدة إنجليزية خطَّها القلم المقدَّس لماثيو أرنولد. نجد أنفسنا الآن، بعد سبعة أشهر من الترقُّب، على بُعد أربعين ميلًا من ضِفافه.

وإذ فهِمْنا من سكرتير صاحب السعادة مدير الخارجية أن الحصول على إذنٍ استثنائي ضروري لزيارة النهر، فإننا نطلب هذا الإذن لأنفسنا، واثقين من أن سعادتكم لن تُضلَّل بإسناد دافع سياسي إلى ما هو ليس سوى فضول طبيعي لرجل مثقف.

إن حقيقة أن آخرين، بحِكمتهم الدنيا، قد يكونون ضحايا لهذا الوهم تذكِّرنا بأن أفغانستان وروسيا ليستا البلدين الوحيدين في العالم اللذين يفصل بينهما نهر. يمكننا التجرؤ على قول إن المسافر الأفغاني، المقيم في فرنسا أو ألمانيا، لن يواجه أي لوائح تمنعه من الاستمتاع بصور الجمال في نهر الراين.

توجد بالفعل بعض البلدان التي لم يخترق فيها نورُ التقدُّم ليلَ بربرية العصور الوسطى، والتي يجب أن يتوقَّع الزائر الأجنبي فيها أن تُعرقِله شكوكٌ لا أساس لها من الصحة. ولكننا عزَّينا أنفسنا، أثناء إقامتنا في بلاد فارس، بتذكير أنفسنا بأننا قريبًا سنكون في أفغانستان؛ ومن ثَم سنَفرُّ من مكانٍ تسوده

مجموعة أشبه بالنساء الفارغات والمضطرِبات إلى شعبٍ صلب وشجاع، محصَّن من المخاوف السخيفة، ويسعده أن يمنح الغرباء تلك الحرية التي يطالبون بها عن حق لأنفسهم.

هل كنَّا محقِّين في ذلك؟ وعند عودتنا إلى بلادنا، هل سنقول إننا كنا محقِّين؟ يكمُن الجواب لدى سعادتكم. بالتأكيد، سنحكي عن الفندق في مزار شريف المجهَّز بجميع وسائل الراحة التي تعرفها العواصم الغربية الكبرى، وعن مدينة بصدد إعادة الإعمار على نحو قد تحسُدها عليه لندن نفسُها، وعن البازارات المكتظة بجميع رفاهيات الحضارة. ولكن هل سنضيف عندئذٍ أن الزائر محروم من زيارة عامل الجذب الرئيسي الفريد في المنطقة، مع أنَّ عاصمة سعادتكم بها كل شيء يسرُّ الزائر؟ أي باختصار، إن مَن يأتي إلى مزار شريف سيُعامل كجاسوس، وكبلشفي، وكمعكِّر للسلام، إذا طلب أن يخطو على الضِّفاف التي قاتل عليها رستم؟ إننا نؤمن بأن سعادتكم، إذ تستشعر الغَيرة على اسم بلادكم، ستستنكر مثل هذه التصريحات. كما نؤمن أيضًا أنه بعد قراءة هذه الرسالة، لن تكون ضرورية.

كنا نأمُل في الأصل أن نخوض رحلةً على ظهور الخيل على امتداد النهر من باتا كيسار إلى حضرة إمام. إن كان هذا غير مستحسَن، فسنكون سعداء بمجرد المضي بالخيل أو السيارة من هنا إلى باتا كيسار، والعودة منها إلى هنا. كل ما نتُوق إليه هو أن نشاهد النهر، وأي نقطة عليه ستفي بهذا الغرض إذا رغبت سعادتك في اقتراح نقطة أخرى. لقد ذكرنا باتا كيسار لأنها أقرب نقطة، ولأنه من هناك يمكن رؤية آثار ترمذ القديمة على الضِّفة المقابلة.

مع الاعتذار عن إزعاج سعادتكم بهذه الرسالة الطويلة بلغة أجنبية.

لقد أتاحت لنا كتابة هذه الوثيقة المضحكة كثيرًا من المرح. لا بد أن يكون محمد جُل أكثرَ حماقة مما يبدو إن انخدع غروره بها.

مزار شريف، ٢٩ مايو: على الأقل أدَّت الرسالة إلى إصدار رد. وقد كان بالرفض.

يبدو أن الأمر لم يكن قد تعلَّق فحسب بسوء طبع محمد جُل. فالأمر ينطوي على سياسة عليا، وهي تنصُّ على أن الإذن للأجانب بزيارة النهر يجب الحصول عليه من كابول؛ ومن ثَم حتى لو رغب محمد جُل في منحنا إياه، فلا يستطيع أن يسمح لنا بالذهاب دون مراسلات قد تستغرق شهرًا في ذلك الوقت بعد تعطُّل التلغراف في هيباك. فضلًا عن

هذا، توجد أيضًا عقبة محلية. ففي الأشهر الستة الماضية، عبرت مجموعات ضخمة من التركمان النهر من روسيا واستقرَّت في الغابة على الضِّفة الجنوبية. من شأن خروجهم على القانون وحده أن يكفي لأن يمنع رحلتنا المقترَحة إلى حضرة إمام. كما أنه سيكون بمثابة ذريعة لأي عملاء من البلاشفة قد يظنون أن من واجبهم منع اثنين من الإنجليز من استكشاف الحدود. قد يبدو هذا المبرِّر الأخير خيالًا لا داعي له لو لم يتوافق مع المعلومات التي حصلنا عليها في مشهد.

حسب الطبيب، الذي زار طشقند قبل بضع سنوات ولم يلقَ استقبالًا جيدًا هناك، لن يفوتنا شيء إن لم نرَ باتا كيسار، التي ليس بها سوى خيمتين، واحدة لموظف الجمارك وأخرى للحارس؛ فقد كانت توجد بعض المباني في الماضي، لكنها جُرفت بفعل الفيضان. ومع ذلك، فقد أقرَّ بأن الرحلة إلى تشاياب أو حضرة إمام كان من شأنها أن تكون مشوقة؛ حيث تأخذنا عبر منطقة جميلة تشتهر بطيور الدُّرَّاج، مع أنه لا توجد نمورٌ هناك كما كنت أتصوَّر.

ومع ذلك، سأودُّ لو أنني رأيت أطلال ترمز، التي يصفها يات بأنها تبدو رائعة للغاية من الضِّفة الجنوبية، وتوجد وسطها مئذنة قديمة رسمها سار. لكنني أتصوَّر أن ترمز هي تحديدًا ما لا يريدنا أولئك العملاء المفترضون أن نراه. ينتهي هناك خط السكة الحديدية من بخارى، ويحرس المكانَ فوجٌ من روسيا الأوروبية. إنها بيشاور تركستان الروسية.

لا تقف القوات الروسية على نهر أوكسوس هناك للاستعراض. فقد غزت أفغانستان بالفعل وقت خلع أمان الله. لم يكن غزوًا جادًّا جدًّا، لكنه كافٍ لتفسيرِ ما قاله حارسنا في بَلْخ؛ إذ كانت القوة بكاملها تتألف من حوالَي ٣٠٠ رجل، وثلاث بنادق، وخدمة طبية صغيرة. ذات مرة، حُبِسوا في حصن دِهدادي، وهو منطقة مغلَقة كبيرة ذات جدران مررنا بها على الطريق بين هذه المنطقة وبَلْخ ولاحظناها لأن الجدران لم تنهَرْ وكان في حالة جيدة. هنا حاصرتهم جماعات التركمان، الذين صدوهم بسَحب بنادقهم من أحد جانبَي الجدران إلى الآخر. غير أن التركمان، الذين يقال إن عددهم كان أكثر من ٢٠ ألفًا، قد خاضوا معركةً بائسة.

يمكنني تخيُّل الاضطراب الذي لا بد أنه قد هز حكومة الهند عندما سمعت بهذا الغزو، بغضِّ النظر عن حقيقة أن الروس، بقدرِ ما أستطيع أن أرى، لم يكونوا يفعلون سوى ما نفعله كل عام على الحدود الشمالية الغربية، من إخماد للاضطرابات القبَلِيَّة قبل أن تنتشر عبر الحدود. لا شك في أن القوات الروسية، لو سنحت لها الفرصة، لتصرَّفت لصالح

أمان الله، مثلما تصرَّفت قواتنا في ظروف مماثلة، في حالة الملك نادر. لكن المسألة العامة واضحة. إذا لم يكن بوسع الأفغان الحفاظ على النظام الداخلي، فسيتحتَّم على الروس أن يفعلوا ذلك نيابةً عنهم في الشمال، مثلما نفعل في الجنوب. لقد أظهروا هذا في ذلك الوقت، وكانوا مستعدين لإظهاره مرةً أخرى في نوفمبر الماضي، عندما كنت في هِرات. لا عجب أن الأفغان قلقون، لا سيما هنا. فلم يمرَّ سوى ثمانين سنة على دمج هذا الجزء من تركستان في الدولة الأفغانية. إن الوصول من كابول صعبٌ بسبب جبال هندوكوش. ينظر الروس إلى التركمان المحليين، الذين تضخَّم عددهم بسبب انضمام لاجئين ساخطين إليهم، على أنهم مصدر محتمَل لعدوى معاداة البلاشفة. بطبيعة الحال، تكمُن الحماية الحقيقية للمنطقة في حقيقة أن الروس ليسوا متحمسين للتورُّط مع البريطانيين، وأن تماسك أفغانستان في حالة الهدوء، مفيد لكلا القوتين باعتبارها منطقة عازلة. لكن الأفغان يظنون أنه من المهين الاعتراف بهذا. ومع ذلك، فهم يعرفون جيدًا أن السبيل لإبقاء الروس على مَبعدة هو الحفاظ على سلام بلادهم، وأن أفضل وسيلة لفعل ذلك هي خطوط التلغراف والطرق: الأولى لاستدعاء القوات، والثانية لنقلها لمسرح الأحداث في حال حدوث أي تمرُّد. لقد رأينا شيئًا من جهودهم في هذا الصدد. لكن الاتصالات الوطنية ستحتاج إلى كثير من التحسين قبل ألا تعود تحت رحمة الطقس.

كما توقَّعنا بعد محادثتنا مع الراعي الأوزبكي، كان الخوف من الاختراق الروسي، اقتصاديًّا إن لم يكن بالقوة، هو ما أدَّى إلى إجلاء اليهود في الشتاء الماضي. كان يوجد دومًا عدد قليل من اليهود في أفغانستان، يعانون الهزالَ ونقص التغذية، ويفتقرون إلى الثروة والنفوذ. بقي هؤلاء اليهود، وقد رأينا بعضًا منهم في مرغاب. أولئك الذين قابلتهم في قلعة نو في كرب شديد كانوا من يهود بخارى — ظننت أنهم ربما كانوا كذلك — الذين لم يأتوا إلى أفغانستان إلا بعد الثورة، عندما ساعدهم على الفِرار القنصل الأفغاني في طشقند، والذي كان يمكن رشوته للحصول على تأشيرات دخول. واليهود دائمًا، بعد أن يستقروا في بلد جديد، يظلون على تواصلٍ مع المجتمع الأم، وبدأ الأفغان يخشون أن معظم أرباح تجارة جلود الحُملان كان يجري تحويلها خلسةً إلى روسيا، فضلًا عن الأغنام نفسِها. لم يكن اليهود وحدَهم مَن يعانون هذا النوعَ من الغَيرة. قبل عشر سنوات كان يوجد حوالي ٤٠٠ تاجر هندي في مزار وحولها. منذ ذلك الحين، ولا سيما منذ قدوم محمد جُل، مُورِسَ معهم ابتزاز ممنهَج لإبعادهم عن التجارة، حتى لم يتبقَّ منهم سوى خمسة أو ستة، أما حكومة الهند، التي لم تفعل شيئًا لمساعدتهم، فمن المفترض أنها في مراحلها الأخيرة.

بئسًا لحال آسيا! كل شيء يتلخَّص في القومية الحتمية، تلك الرغبة في الاكتفاء الذاتي، والرغبة في التميز في العالم والتوقف عن جذب الانتباه بسبب الافتقار إلى تجهيزات السباكة. لا تفتقر القومية الأفغانية إلى الوقار كالفارسية لأن المسئولين تعلَّموا، بفضل قبعة أمان الله، أن الأشخاص الذين يسعون إلى إلهامهم بها ما زالوا على استعداد للقتال قبل أن يتخلوا عن التراث في مقابل حصة من كعكة التقدُّم التكنولوجي. لكنها تمضي في طريقها في صمت، في بعض الأحيان بتعقُّل في اتجاه المنافع العامة مثل الطرق ومكاتب البريد، وأحيانًا في اتجاه تلك التصرُّفات الغريبة المتسمة بالبذخ مثل الفندق هنا وإعادة بناء بَلْخ. هذه هي مخططات محمد جُل الشخصية؛ وهي تُظهر القومي المتطرف، الذي يهتم بالرموز أكثرَ من المنفعة؛ وهو في ذلك بمثابة دي فاليرا الأفغاني، الذي قد يذهب إلى حد تغيير اللغة الرسمية من الفارسية إلى الباشتو. ومع ذلك، فإن محمد جُل هو أكثر من مجرد متباهٍ؛ فحديثنا في بَلْخ أثبت أننا كنا نتواصل مع رجل فريد. فقد تلقَّى تعليمه في تركيا، وأصبح مساعدًا لأنور باشا، وكان معه بالقرب من بخارى عندما قتله الروس. يتمتع في بلده بسمعةٍ فريدة لعدم فساده وتنزُّهه عن المصالح الشخصية؛ هذا هو سرُّ نفوذه، الذي يتجاوز حدود تركستان. في الواقع، سمعنا أن هذا هو سبب إبقائه في تركستان.

مزار شريف، ٣٠ مايو: قضينا اليوم في بَلْخ.

أقيم الضريح في الجزء المأهول من المدينة إحياءً لذكرى خواجة أبي نصر بارسا، نجل وليٍّ أكثرَ شهرة وهو خواجة محمد بارسا، الذي أوصل الدِّين للشاعر الجامي عندما كان في الخامسة من عمره، وتوفِّي في المدينة المنورة سنة ١٤١٩. أصبح أبو نصر بارسا محاضرًا في العقيدة في هِرات، في المدرسة التي أسَّستها فيروزا بيجوم، والدة حسين بايقرا. يبدو أنه قد استقر في وقتٍ لاحق في بَلْخ؛ لأنه تقدَّم هناك في عام ١٤٥٢ لتقديم المشورة لبابر، ابن بايسنقر، بألا يعبر نهر أوكسوس ويهاجم أبا سعيد. توفِّي سنة ١٤٦٠.

جسمُ المبنى مثمَّن من القِرْميد الخالي من النقوش الذي تخفيه وتعلوه واجهةٌ من البلاط، وعلى المثمَّن تنتصب القبَّة المخدَّدة إلى ارتفاع ثمانين قدمًا. تستقر أيضًا على المثمن مئذنتان متلاصقتان بين القبَّة والواجهة.

اقتصرت ألوان الواجهة على الأبيض والأزرق الداكن والأزرق الفاتح، مُعزَّزةً بلمسات رصينة باللون الأسود. إن غياب اللون الأرجواني والألوان الدافئة الأخرى هو ما يُنتِج التأثير الفضي الذي أذهلنا عند وصولنا أول مرة. يستمر هذا التأثير مع القبَّة التي يغطي أضلاعها الدائرية السميكة قِرْميد صغيرٌ مزجَّج بلون فيروزي مخضر؛ وحيث تآكلت الطبقة

الزجاجية في الجزء العلوي، تجد الأضلاع بيضاء، وتبدو كما لو كانت قد تساقط عليها الثلج. وكحال القبتين الأخريين من هذا النوع في هِرات وسمرقند، فإن قبَّة أبي نصر بارسا تتمتَّع بعظمة أثرية. غير أن المبنى برُمَّته واهٍ ورومانسي. ويبدو كأن قوةً مجهولة تعتصره إلى أعلى. والنتيجة هي خيال، وجمال خارق في بعض النواحي.

بلخ: ضريح خواجة أبي نصر بارسا ١٤٦١.

لم نتمكَّن من الدخول، ولكن عند التسلُّل إلى واحدة من النوافذ الست عشرة التي تحيط بالطبلة، داهمَنا صوتُ تدرُّب جوقة قرية. كان هذا الصوت صادرًا، كالمعتاد، من الملا وتلاميذه.

يوجد ضريحٌ آخر خارج البوابة الشرقية يُعرف باسم ضريح خواجة أجاشا. لا أعرف مَن كان الولي أجاشا. حمل هذا الاسمَ ثلاثُ محظيات جشعات لحسين بايقرا، وزوجة لبابر. وقد جئن من عائلة أوزبكية.

إنه ليس مبنًى مثيرًا للاهتمام. وقد اختفتِ القبَّة. ويوجد حول الطبلة نقشٌ مزجَّج بالخط الكوفي. كما توجد بالجوار منصاتٌ أخرى من تلك المنصات الاصطناعية الرابضة التي يرجع إليها الفضل في شهرة بَلْخ الأثرية.

تناولنا الغداء أسفل شجرة دُلْب وسط حشد من الحفَّارين المعمَّمين. مخطَّط المدينة الجديدة يضاهي في طموحه مدينة كانبرا، ولكن لا أحدَ ممن بوسعهم تجنُّبها سيأتي من مزار إلى هذه الأجواء المحمومة؛ إذ يبدو الأمر كما لو أن شخصًا يعيد بناء أفسس من أجل إقصاء سميرنا. في وقت لاحق، كنت أرسم الضريح عندما ظهر شخص ذو لحية سوداء يرتدي ثوبًا كابوليًّا، وتمتم بشيء عن صحتي، وذكر أنه مع أن التصوير الفوتوغرافي مسموح به، فإن الرسم ليس كذلك؛ ومن ثَم فإنه سيأخذ رسمي. عندئذٍ استحوذ عليَّ غضبٌ أعاقني حتى إنني لم أستطِع الكلام عدة دقائق. عندما تمكَّنت من الكلام، سبقني بالحديث أحد الخدم من الفندق، والذي، على حد تعبيره، «تشاجر» مع الرجل الغاشم المتصلِّف، وعلم أنه يعمل في مشروع إعادة البناء. وعندما كانا قد انتهيا، كنت أنا ورسمي بعيدَين عن الأنظار.

جاء الدكتور أبو المجيد هذا المساء لإعطائي حُقنة. كان عليه أن يطلب الإذن بالانصراف لفعل ذلك، وارتأى أنه من التحوُّط ألا يتناول معنا العشاء. لكننا تمكَّنا من إعطائه ويسكي وصودا باردَين، بعد أن حصلنا على أربع زجاجات صودا من المصوِّر ووضعناها في دلوٍ من الثلج. كان هذا انتصارًا لنا جميعًا. لكني استطعت أن ألاحظ أن مذاق «السدادة المحترقة» أعاد له مجددًا ذكرياتٍ حزينة عن شبابه وتوقُّعاته. ذهبت إلى منزله أمس الأول، وقد كان أحد البيوت الطينية العادية في المكان، ووجدت أنه كان لديه كراسي وأريكة مغطَّاة بقماش مزركش، ومكشكش، وفضفاض على طريقة الريف الإنجليزي.

أخبرنا أنه حتى مجيء فوتشير إلى هنا قبل بضع سنوات وشرائه جميعَ عملات بختر اليونانية القديمة، كانت لا تزال متداولة. منذ ذلك الحين، بدأ الناس يظنون أنها لا تقدَّر بثمن، ويطلبون مقابلها عشرين أو ثلاثين مِثلًا من القيمة التي حدَّدها المتحف لها.

بدأت الفاكهة في الظهور: المشمش اللذيذ، والآن بعض الكَرز، ولكنه كَرز أسود، وهو شديد المرارة لدرجةِ أننا صنعنا منه مربًّى.

مزار شريف، ١ يونيو: صباح أمس توجَّه كريستوفر إلى مكتب مدير الخارجية ليطلب الإذن بزيارة القنصلية الروسية. كان مبرِّره أننا بحاجة إلى بعض التأشيرات، والتي لا أملَ في الواقع في الحصول عليها، مع أنه من المثير للغضب معرفةُ أن بخارى لا تبعُد سوى خمس عشرة ساعة من ترمز بالقطار. ومع ذلك، لم يُتَح له أن يستخدم هذا العذر؛ لأن نائب مدير الخارجية نائم بالنسبة إلينا الآن. ومن ثَم ذهب وحدَه، وشقَّ طريقه عبر معسكر للجنود الأفغان الذين رفعوا حِرابهم في وجهه، ووصل أخيرًا إلى السيد بورياتشينكو، وهو رجل مثقَّف صغير البنية كان جالسًا يقرأ تحت شجرة.

قال السيد بورياتشينكو: «هل تريدان تأشيرتَي دخول إلى سمرقند؟ بالطبع تريدان ذلك. سأرسل برقيةً إلى موسكو على الفور أخبرهم فيها أن اثنين من أساتذة الثقافة الإسلامية من جامعة أكسفورد» — (فليسامحنا الرب، غادرَ كلانا أكسفورد دون الحصول على شهادة) — «قد وصلا إلى هنا وفي انتظار الإذن لعبور آموداريا. كلا، لا شيء يستحق الزيارة في ترمز. المكان الذي ينبغي أن تذهبا إليه هو أناو. لقد ألَّف البروفيسور سيميونوف مؤخرًا كتابًا عن الآثار التيمورية هناك. أتمنَّى لو كان بوسعي أن أمنحكما التأشيراتِ على الفور، لكن يؤسفني أن أقول إن الأمر سيستغرق أسبوعًا أو نحو ذلك لتلقي ردٍّ. على أي حال، أنتما «هنا» لبعض الوقت، هذا هو المهم. لا بد أن نقيم حفلًا. هل ستأتيان؟»

سأل كريستوفر، غافلًا، من دهشته، عن شُكرِ الرجل: «متى؟»

«متى؟ لا أعرف متى. ما أهمية ذلك؟ هذا المساء؟ هل يناسبك هذا؟»

«تمامًا. في أي ساعة؟»

«في أي ساعة؟ في السابعة، هل هذا جيد؟ أم السادسة؟ أم الرابعة إلا خمس دقائق؟ يمكننا البدء الآن إذا كنت ترغب في ذلك.»

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف، وكان صباحًا شديد الحرارة. فقال كريستوفر إن المساء ربما سيكون أفضل.

في السادسة والنصف خرجنا من الفندق على أطراف أصابعنا حتى لا يسمعنا المنتظِم، ووصلنا إلى بوابة القنصلية؛ حيث لوَّح الحراس بأسلحتهم كما فعلوا من قبل، ووجدنا أنفسنا في سلسلة من الأفنية التي تظلِّلها الأشجار، وفي الفناء الأمامي كان يوجد عددٌ من الشاحنات والسيارات، بما في ذلك سيارة فوكسهول حمراء. استقبلنا السيد بورياتشينكو في غرفة باردة وخالية من صور لينين وماركس، ومضاءة بمحطةِ إضاءة كهربائية خاصة. قلت إنني أظن من اسمه أنه لا بد وأنه من أوكرانيا. «أجل، من كييف، وزوجتي من ريازين.»

دخلت زوجته، وكانت امرأة شابَّة ترتدي ملابسَ أرجوانية داكنة بسيطة، وكان وجهها البشوش محاطًا بشَعرٍ ينسدل مستويًا من مَفرق في المنتصف. تبِعها آخرون؛ رجل ضخم متعثر، تفوح منه رائحة عطرة خفيفة، ويصدُر من وجهه المليء بالحُفَر صوتٌ شبيه بصوتِ يمامة، وزوجته، وهي شقراء ذات شفتين حمراوين كان شعرها الذهبي مصفَّفًا باستقامة من جبهتها، والسيد بورياتشينكو البالغ من العمر خمس سنوات ويشبه كثيرًا شاليابين، وفتًى وفتاة ينتميان للزوجين الثانيين، والطبيب وهو رجل قصير وبدين ذو شارب أسود وشَعر كشعر جزار، وسيدة أخرى تضع بشكل متحفِّظ بعضَ الأصباغ على وجهها، وذات شعر أشقر منفوش على شكل عُرف ديك، والرجل السمين الذي رأيته في مكتب التلغراف، والذي قال إنه كان ضابطًا لاسلكيًّا في كانتربري أثناء الحرب، وشابان أنيقان وصلا للتو من كابول، وكانا قد أمضيا أسبوعين في الرحلة بسبب الأمطار، وكان آخر مَن وصل فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، وهي ابنة السيدة ذات الأصباغ، وكانت حركاتها مبهجة للعين، ومن المقرَّر أن تصبح راقصة باليه.

وفقًا للمعايير الروسية، التي تختلف عن معاييرنا، لم يكن الطعام وافرًا في الواقع، وكيف له أن يكون كذلك؟ مع أنَّهم كانوا قد اشترَوا، بتكلفة كبيرة، آخرَ سردين في المدينة، كما اكتشفنا بعد ذلك. ولكنه اتسم بتلك الأجواء من الإفراط التي يحفُّها الروس دائمًا به، وفيما واصل ضيوفٌ جددٌ المجيء، وتواصل جلب طاولات جديدة، وكراسي جديدة، وقفز الأطفال فوق حجور الناس، وتتابعت الصحون، وظلت ممتلئة كعادتها بالسردين من الهند، والبابريكا من روسيا، واللحم الطازج مع سلطة البصل، والخبز. وكان دورق من الفودكا الصفراء، الذي تسبح فيه الفاكهة، يُعاد ملؤه بلا توقُّف. تذمَّر الروس الذين كانوا يغترفون منه بوفرة في الكئوس، غاضبين من رشفاتنا البطيئة. ولكن ذلك كان فقط في البداية.

كان الشابان القادمان من كابول قد جلبا عددًا من التسجيلات الإنجليزية الجديدة التي كانت قد طُلِبَت من بيشاور، ولكنها تلِفَت كلُّها في تحطُّم شاحنتهما بفعل عاصفة هبَّت عند هيباك، وكانت الخسارة خيبةَ أمل مأساوية لهذا المجتمع المعزول، ولكن عندما تسمعهما يعتذران عن ذلك، قد يظن المرء أن التسجيلات قد طُلبت لنا لا لهما. وفي ظل الظروف الحالية، استُبدل التانجو والجاز بموسيقى «شهرزاد»، و«بوريس جودونوف»، و«يفجيني أونيجين». رقصنا، وغنينا، وجلسنا لتناول الطعام، ورقصنا مرةً أخرى. كانت المحادثات بالفارسية، وما جعل الأمر أكثرَ غرابة، عند الحديث مع أبناء جِلدتي، كان

الاستخدام اللازم للإيماءات الفارسية، من انحناء الرأس وارتجاف جَفن العين، ووضْع اليد على القلب، والتظاهر العام بإنكار الذات. خاطبَنا السيدُ بورياتشينكو والرجل الذي يشبه صوته صوت اليمامة بلقب «صاحب». ربما اعتقدا أنه يبدو أكثرَ مساواةً من لقبَي أصحاب السعادة وأصحاب المعالي الفارسيين اللذين كنا نستخدمهما في مخاطبتهما.

مرَّت الساعات سريعًا، وتدفَّق الدورق، وحُمل عامل التلغراف إلى الخارج، وشعرت بخدَر، وبدأ الروس في الإفصاح عن مشاعرهم، وعندما أفقتُ وجدتُ كريستوفر يلهث لالتقاط أنفاسه أسفلَ أفراد الجَمع بأكمله. كانت الساعة الثانية، وحان وقت العودة إلى المنزل. لم يكن الفندق يبعُد سوى بضع مئات من الياردات. ولكن السيد بورياتشينكو استدعى سيارة «كونسولسكي فوكسهول»، وأصرَّ على توصيلنا إليه. كان هذا تصرُّفًا ينم عن صداقة حقيقية. لأنه سواء كنا غير مستقرَّين في مشينا أم لا، كان سيصبح من غير الحكمة أن نخاطر بملاحظة الأفغان لذلك، وهي حقيقة قدَّرْناها عندما أدخل أحدُ الحراس بندقيته من نافذة السيارة.

كان هذا الصباح مرهقًا أكثرَ من المدى المعتاد في صباح الأيام التالية. عرَّجنا على القنصلية بعد تناول الشاي، وبدلًا من الزهور أخذنا معنا بعضَ صناديق السيجار، ووجدناهم جميعًا جالسِين في الخارج فيما يشبه ساحةً للألعاب الرياضية مجهَّزة بأراجيح، وعوارض جهاز متوازٍ، وشبكة عالية يمكن لأي عدد من الناس المنقسمين على جانبَيها أن يضربوا كرةَ قدم خفيفة بقبضاتهم. بدءوا مباراةً من أجلنا، وأُضيف إلى الجمع الآن ثلاثة أو أربعة رجال آخرين، من عامة الناس من الطبقة العاملة؛ حيث يعملون في قيادة السيارات وإصلاحها. بدا عامل التلغراف أكبرَ في العُمر.

أخبرنا السيد بورياتشينكو أن الروس الآخرين الوحيدين في هذا الجزء من البلاد كانوا أربعة من مكافحي الجراد يعيشون في خان آباد وما حولها. الجراد آفةٌ جديدة هنا. فقد وصل من موسكو منذ بضع سنوات، وتوالد على المنحدرات الشمالية لجبال هندوكوش، ومن هناك نزل إلى تركستان الروسية؛ حيث هدَّد محاصيل القطن.

ونظرًا لوجود طريق يربط بين هنا وخان آباد، وآخرَ من هناك إلى كابول، ويتجنَّب مضيق هيباك، قرَّرنا في النهاية عدمَ قطع الطريق بالجياد. ستأخذنا هذه التحويلة ١٥٠ ميلًا أبعدَ في اتجاه الشرق، إلى حدود خان آباد، وقد كانت ذريعةُ جعلِه متاحًا بسببِ انسداد الطريق في هيباك فرصةً لا يمكن تفويتها. يشعر كريستوفر بالأسف لعدم خوض الرحلة بالخيول، لكنني أظن أن التحويلة ستكون مشوقةً أكثر.

رِباط على الطريق قبل قندوز (١١٠٠ قدم، ٩٥ ميلًا من مزار شريف)، ٣ يونيو:
حتى قبل أن نترك طهران، كنا قد عزمْنا على ألا نَبيتَ في قندوز إذا تمكَّنَّا من بلوغها. فقد مات موركروفت على إثر حمَّى أصيب بها في هذه المسيرات. ويوجد مثَلٌ يقول إن زيارة واحدة لقندوز تعادل انتحارًا. لذا ها نحن أولاء، نستلقي في أيكةِ توت بجوار بِركة راكدة، وكلاهما عاملُ جذبٍ لا يُقاوَم للبعوض الفتَّاك. كما يكثُر وجودُ آفاتٍ أخرى. رميت فِراشي بجوار أحد الجدران. واكتشفت به على الفور عشَّ دبابير، وعلى أي حال فقد حذَّرني الناس من أنه مليء بالعقارب. وعندما اقترحت الانتقال إلى حديقةٍ مجاورة، قالوا إنها تعجُّ بالثعابين. لحسن حظِّنا أننا طلبنا شبكاتِ البعوض تلك في البازار بمزار. لففت شبكتي فوق حامل الكاميرا، وكان كريستوفر قد قطع نصف شجرة توت ليصنع لنفسه إطارًا. تنفخ الضفادع فقاعاتٍ موسيقيةً في البِركة. وفي الجنوب الشرقي، استقبلت سلسلةٌ جديدةٌ وشاسعةٌ من القمم الثلجية أولَ ضوء للقمر. يُعمِّر حارسانا بندقيتَيهما بالبارود قبل الذهاب إلى النوم، وينقضُّ قِطٌّ على حليب الصباح. تناولنا في العشاء بيضًا مخفوقًا وبصلًا. كان البصل فكرةَ كريستوفر، وكان قد طهاه وقطَّعه مسبقًا في الفندق كي لا يحتاج إلى شيء سوى التسخين. إنه ابتكار عبقري.

كان اليوم الذي ساقنا إلى هذه العَقبة قد بدأ بتعقيداتِ آثار حفل روسي آخر. لم يكن سوى حفل زاكوسكا (وجبة خفيفة) هذه المرة، ولكننا رقصنا مجددًا، ومجددًا تحرَّرت الأرواح وتشبَّثت بنا. قال السيد بورياتشينكو إنه حتى لو أن أمتين كبريين كجبلين لم تكونا قادرتين على تحقيق التقارب المتبادل، فلا يوجد مبرِّر يمنع أفراد هاتين الأمتين عن فِعل ذلك، وعن نفسه فقد أُعجِب بإنجلترا، وكان يأمُل لمصلحتنا أن تحدث فيها ثورةٌ قريبًا. وأضاف أنه لو كان بإمكاننا الإقامة في مزار بدلًا من الانطلاق بهذه العجلة غير المبررة، لرجع القنصلُ نفسُه في غضون بضعة أيام ومعه ذخيرةٌ من شراب البراندي الجيد، إضافةً إلى أنه كان لديه أمَل كبير في منحنا التأشيرات.

لم يكن لديَّ هذا الأمل. غير أنه قد هالني بشدة أن السياسة التي اتبعتها كلٌّ من روسيا وإنجلترا من أجل إجلاء مشترك من تركستان والهند قد بدأت تفقد مغزاها. بالنظر إلى مضيِّفينا، من رجال ونساء يتَّسمون بالهدوء والثقافة وينفقون أموالهم على الموسيقى الكلاسيكية، بدا لنا أنه من غير المعقول أن يُحرَموا من شيء حتى تأشيرات المرور عبر الهند. وأدركنا، عِلاوةً على ذلك، أن مصالح روسيا وإنجلترا في آسيا، بدلًا من التصارع كما اعتادتا، قد أصبحت الآن واحدة تقريبًا، لا سيما فيما يتعلق بالدول الفاصلة بينهما، والتي

يتمثل غرضها من العلاقات الأجنبية في فرضِ نفسِها بمضايقة جاراتها الكبريات. لو وافق الروس على عرقلةِ تدفُّق الأموال والعقائد التي لا تزال تنفذ إلى الهند تملُّقًا لمذهب الماندان في الثورة العالمية؛ فقد ترى هذه الوحدةُ في المصالح النور. من شأن مؤتمرٍ بين حاكم طشقند ونائب الملك، حول بلاد فارس، وأفغانستان، وسنجان، والتبت، أن يفيد كلا الطرفين أكثرَ بكثير من الاستمرار في الترويج للثورة من جانب، والخوف منها على الجانب الآخر.

عندما غادرنا، مرةً أخرى في سيارة كونسولسكي فوكسهول، تبِعَنا الجمعُ بأكمله إلى البوابة، ملوِّحين توديعًا لنا ومتمنين لنا رحلة سالمة.

خارج مزار هذا الصباح قابلنا تنينًا. كان طوله ثلاث أقدام ونصفًا، وبطنه صفراء، وكان مرتفعًا جدًّا على قوائمه الأربع الصغيرة الشبيهة بقوائم أثاث شيبيندايل. هزَّ ذيله مهتاجًا، وفرَّ إلى داخل حفرة. وجدنا بالجوار عشًّا لطائر قَطًا به ثلاث بيضات.

في طشقورجان، حيث ينعطف الطريق إلى هيباك، توقَّفنا لتناول الفطور. كنت ألتقط صورةً فوتوغرافيةً للقلعة، وهي مبنًى شبيه بالمباني الصينية أعلى سيل جبلي، حينما قال أكبر حارسَينا سنًّا، والذي كان رجلًا مسنًّا عطوفًا يرتدي سترةً بيضاء مشقوقة الذيل ذات مربَّعات كبيرة، إن التصوير «غير ضروري». أجبته بأنه إذا كان يرى ذلك حقًّا، فإنه من الأفضل أن يرجع إلى مزار؛ فقد كانت الشاحنة شاحنتنا، ولم يكن بها مساحة كبيرة. لاحقًا، عندما كنت ألتقط صورةً أخرى لسهل أوكسوس من ارتفاع مناسب، تدخَّل مرةً أخرى وهزَّ ذراعي. هذه المرة زمجرت فيه حتى تدلَّى فكه ذهولًا وسقطت بندقيته. وعندما أخرجت الكاميرا بعد ذلك، لاذ بالصمت.

تعجَّبنا من أن السلطات في مزار منَحَتنا حارسَين بدلًا من واحد. عندئذٍ اعترف الحارسان بأنفسهما أن ذلك كان لمنعِنا من التقاط الصور الفوتوغرافية. كان المسكينان في غاية الحزن لعدم تمكُّنهما من أداء واجبهما. لكن حقًّا ليس بوسعنا أن نساعدهما في ذلك.

كانت الأرض لا تزال قاحلة، غير أن بريقًا متقدًا قد حلَّ في ذلك الوقت محل الكآبة المعدنية للسهل الواقع أمام مزار. كانت المراعي هناك تتألَّف من برسيم شائك جافٍّ. لم تكن توجد أي أشجار، ولم يكن في المنطقة سوى القليل من مظاهر الحياة. كل ستة عشر ميلًا كنا نمرُّ على رِباط منعزِل. ورأينا في مرة من المرات سربًا من النسور مكوَّمًا في اجتماع حول بِركة. وأحيانًا كان الجراد يطن بالجوار في أسراب صغيرة. بدأت سفوح جبال شاديان، التي تحيط بسهل تركستان في الجنوب، في الانحناء باتجاه الشمال وصعدناها تدريجيًّا. فجأة، على بُعد ثمانية وثمانين ميلًا من مزار، توقَّف الارتفاع وهبط الطريق مسافة ألف

قدم. أسفل منا، تمايلت قافلة من الجِمال، صاعدةً جانب التل ببطء، وكان كل جمل فيها مُحمَّلًا بزوج من المهود الخشبية به سيدات. امتدَّت أسفلها المستنقَعات المتلألئة لقندوز ومنطقة قطغن. وبعيدًا، عبر ضوء الشمس الضبابي، ارتفعت جبال خان آباد آخذةً معها مخيلتي عبر ممر واخان إلى جبال بامير والصين نفسها.

عند سفح المنحدر، كانت شاحنة أخرى تنتظر على عتبة جسر من الأعمدة والعشب، امتد عبر نهر في طريق مشقوق بعمق اثنتي عشرة قدمًا. كان سائقنا على وشْك المرور عندما تقدَّمت الشاحنة الأخرى فجأةً. اهتزَّ الجسر وتدلَّى. وفي غيمة من الأتربة والأعواد، وعلى صوت صيحات ولُهاث وأخشاب تنفلج، انحرفت الشاحنة بانقلابة جانبية بطيئة في النهر؛ حيث هبطت وسقفها مغمور في المياه، وانكشف هيكلها على نحوٍ فاضح، بينما رفرفت عجلاتها البائسة في الهواء. كان الرُّكاب قد نزلوا، وخرج السائق، الذي كانت مقصورته قد مالت بها الضِّفة المقابلة لأعلى، دون إصابات. لكنَّ أحدًا صاح بأن امرأةً بالداخل، وببسالة زائدة عن الحد رميت نفسي أنا وكريستوفر على الحُطام، فقطعنا الحبال التي تحيط بالجزء الخارجي، وأزلنا بالات الأمتعة التي كانت في الداخل، لنكتشف أنه لا يوجد أحدٌ بالداخل على الإطلاق. بعد إنقاذ البالات من التيار، ازدانت المنطقة بأكملها بأقمشةٍ مزركَشة بنقوش نباتات عشبية، وبساتين من القبعات الحريرية الوردية، ومروج من السجاجيد، جميعها بُسطت لتجف.

وكان قد انبثق من الحقول سربٌ من رجال نصف عراة لتبيُّن الكارثة. عندئذٍ، ركب حاكم قندوز فرسًا عداءً رماديًّا سريعًا، وقد كان رجلًا غاضبًا ذا لحية حمراء، وبدأ بالتعامل مع الأهالي بسوطه، آمرًا إياهم بسحب الشاحنة خارج النهر وإصلاح الجسر قبل الصباح. وضعنا أمتعتنا فوق الخيل وعبرنا النهر إلى رِباط، كان مزدحمًا جدًّا حتى إننا فضَّلنا النوم في العراء.

كان من بين رُكاب الشاحنة المحطَّمة رجل طويل ذو لحية سوداء كثيفة، ويرتدي بذلة يومية، ويتحدَّث الألمانية. قال إنه أحد أفراد سكرتارية الملك، وإنه يخوض هذه الرحلة كي يؤلِّف كتابَ رِحلات عن أفغانستان. جلس على ضِفة النهر، مدوِّنًا كلَّ شيء عنها بمثابرة من اليمين إلى اليسار. نظر بارتياب إلى شراب الويسكي الذي نحمله، مع أننا كنا في ذلك الوقت قد تعلَّمنا عادةَ تسميته بالشربات في العلن.

خان آباد (١٣٠٠ قدم، ٢٧ ميلًا من رِباطٍ يقع قبل قندوز)، ٤ يونيو: أُصلِح الجسر عند الظهر، وعبَرَته شاحنتنا بأمان. اتضح أن سائقنا السيد جمال هو شقيق السائق

الآخر. ربط شاحنتنا بالشاحنة المحطَّمة بواسطة سلكٍ معدني، وتدريجيًّا، بينما كان الرجل العاري يرفع أعمدةً من الأسفل، سحبها عموديًّا لأعلى. لم يكن قد لحِق بها أيُّ أضرار فيما عدا الطلاء، ودارت مع أول لمسة، وسارت على الطريق أمامنا.

قادنا مسارٌ رملي عبر قصبات المستنقع العالية إلى شاطئ مفتوح بجوار نهر قندوز، في موقعٍ أقبل فيه تدفُّقه، من ماء طيني مثلَّج وردي اللون، بعرض ستين ياردة، يكتسح مُنعطَفًا في طريقه إلى نهر أوكسوس بسرعة قطار سريع. كان الشاطئ مزدحمًا بالناس، وكانت الحرارة الشديدة تنبعث من الرمال المتلألئة، وأمام صفحة السماء الزرقاء الرائقة ذات المسحة الوردية، تداخلت الصورتان الظليتان لصفٍّ من الجِمال وآخر من الصفصاف. عندما وصلنا، كانت العبَّارة تُفرِغ حمولتها على الضِّفة المقابلة، مكدَّسة بالرجال والخيل والبضائع. كانت تتألَّف من صندلَين غير مصقولين مرتفعَي المؤخرة، مربوطَين معًا بمنصة مُسيَّجة من المنتصف. باغتها التيار. وفي الوقت نفسه، اندفع بنشاط صفٌّ من سباحِين ممسكِين باستقامةٍ حبلَ قطرٍ سريع عبر النهر، بينما استخدم رجل في مؤخر أحد الصندلين مجدافًا عريضًا كدَفة توجيه. في النهاية، وبفضل المنعطَف، اصطدمت بشاطئنا على مسافةِ ربع ميل في اتجاه مجرى النهر. بعيدًا في الأعلى، كان سباحون آخرون يوجِّهون بأنفسهم الخيول والماشية للعبور. عندما عادوا إلى اليابسة، رأينا أن العديد من هؤلاء السباحين المحترفين كانت لهم ثمار قَرْع كبيرة مربوطة بظهورهم. كانت بشرتهم بنيةً داكنة من أثر التعرض للشمس، وكان لبعضهم وجوه تدل على أنهم سكان أصليون من ذوي المهن المتدنية، ولكن لم يستطِع أحد أن يخبرنا عما إذا كانوا ينتمون لعِرق معيَّن. لم يمنعنا من الانضمام إليهم في رحلة العودة سوى مراعاتنا لحشمة الأفغان البدائيين.

كان يتعيَّن الآن سَحبُ العبَّارة ضد تيار النهر إلى قمة المنعطف مرة أخرى، حيث اعتلت شاحنتنا المنصة المُسيَّجة. اقتربنا من الضِّفة الأخرى بسرعة عشر عُقَد في الساعة، وكنت أستعد للسباحة لإنقاذ حياتي عندما خفَّ الاصطدام باستدارةٍ بارعة، واحتككنا بالجرف الترابي المنخفض. كان حماس الحشد يعادل الحماس في منطقة باتني في يوم سباق القوارب؛ حيث السباحون العراة ذوو البشرة الداكنة، والأوزبك الضخام البنية في أرديتهم المزيَّنة بنقوش الورود، والتركمان الرابضون والمحدِّقون بفضول معتمرين قبعاتِ فِراء مدبَّبة، والهزارة في عمائمهم السوداء التي تضاهي في عرْضها قبعات أسكوت، ورجل أو رجلان بلحيةٍ مهذَّبة ظنناهما من كافرستان، ساعدنا في الصعود إلى الحقل بالأعلى. مشى

حاكم قندوز متغطرسًا وسطهم جميعًا، والسوط في يده، فبدا مثل خادم اسكتلندي، وهو يُشرِف باهتمام على العملية بأكملها.

دلَّ صفٌّ من المتاريس البيضاء، والضامرة، والقديمة كتلال بَلْخ، عن بلوغنا قندوز. على الجانب الآخر منه، انطلقنا عبر سهلٍ أخضر صاعد؛ مما جعلنا أقربَ إلى قمم الثلج الكبيرة في الجنوب الشرقي، بحيث استطعنا تمييزَ الأوجه والشقوق الصخرية العارية بين الثلج. في المرعى، الذي يتألَّف من ذلك البرسيم الشائك الغريب الذي تشبه أزهاره أزهارَ البرسيم العادية؛ حيث اللون السمني والأطراف الوردية، بينما تشبه الأوراق نباتَ الإيلكس إلى حدٍّ كبير، انتصبت هنا وهناك بعض مخيمات الكيبيتكا، المبنية على عجلٍ وغير مرتَّبة، وحولها ترعى قطعان من الخيول والماشية. ظهرت نبتة بروق صفراء،[1] بارتفاع ثلاث أو أربع أقدام، منفردة في البداية، ثم في رُقَع، لتحوِّل في النهاية المرجَ بأكمله إلى بحرٍ بلون النرجس البري العميق الذي يدفئه التورد الذهبي لغروب الشمس.

يطلق سكان خان آباد على هذه القضبان الصفراء اسم «سيخ»، ويصنعون نوعًا من الخيوط من ثمارها الخضراء.

عند سفح الجبال التحقنا بالطريق القادم من كابول، الذي اكتسب فيه الصف المزدوج لخطوط الهاتف المعلَّقة على مسافاتٍ قريبة أهميةً سياسية جديدة، إذا كانت تمتد، كما افترضنا، إلى مدخل وادي واخان، ذلك الجزء الضيق من أفغانستان الذي يفصل بين الدول الآسيوية الثلاث الكبار؛ روسيا، والصين، والهند. قادنا انخفاض مفاجئ إلى المدينة؛ حيث تبيَّن أن مدير الخارجية كان شابًّا في الثامنة عشرة من عمره جعله التهاب الزائدة الدودية يبدو أكبر سنًّا. ظهرت فجأةً وسط مفرداته الفارسية الكلمات الآتية بالإنجليزية: «حذاء»، و«برنامج»، و«سكر»، و«سيارة نقل صغيرة». اصطحبنا لشرب الشاي في قاعة استقبال الحاكم، وهي غرفة طولها تسعون قدمًا مزيَّنة بالشعارات الوطنية بالأبيض والأسود على ستارة برتقالية في إحدى نهايتَيها.

وإذ كنا نشعر بالتعب ومتسخَين، طلبنا الحصول على غرف. ولكن بدلًا من بيت الضيافة المتوقَّع، الذي كان قد انهار مؤخرًا، قادنا إلى أيكة من أشجار دُلْب تُصدِر حفيفًا، في ارتفاع أشجار الدردار، يرجع تاريخها، كما قال، إلى «أيام الميرات»، بعبارة أخرى، إلى ما قبل غزو الأمير دوست محمد لبدخشان. هنا نُصبت الخِيام، وفُرشَت البُسُط، ووُضعت الطاولات والكراسي، وأضيئت المصابيح في استقبالنا. قال إنه كان بوسعهم تقديمُ ما هو أفضل لو أنهم كانوا قد علموا بقدومنا، لكن لم يكن يوجد خط هاتف بين هنا ومزار لتنبيهه.

نُسمي حارسَينا «القس» و«راعي الأبرشية». لعدم علمي بأن خيمة ثالثة في الخلفية كانت تحتوي على مرحاضٍ حُفِر حديثًا، سألت «القس» عن مكانه. في البداية لم يفهم، مع أنني استخدمت الكلمات الفارسية العادية. ثم خمَّن. قال: «آه، أنت تقصد «جواب الشاي».»

تعبير ملطَّف جميل عن تلك المهمة الأساسية.

خان آباد، ٥ يونيو: هذا الصباح التقينا بالحاكم، شير محمد خان، وهو رجل حصيف أجاب عن أسئلتنا مباشرةً دون أي تظاهر بالنوم طوال اليوم.

قال بصوتٍ منخفِض حزين: «كلا، لا يمكنكما الذهاب إلى حضرة إمام؛ لأنها قريبة من النهر، ولا يمكنكما الذهاب لرؤية الينابيع الساخنة في تشاياب للسبب نفسِه؛ فالنهر يمثِّل الحدود، وسيكون من غير الملائم السماح لكما بالذهاب إلى هناك. أما عن طريق شيترال، فسيُغلق ممر دورا بالثلج لمدة شهرين آخرين. وعلى أي حال، في الحالات الثلاث كلها، سيتعيَّن عليكما الحصول على إذن من كابول.»

يؤسفني عدم الذهاب إلى حضرة إمام، حيث أخبرنا مدير الخارجية أن الضريح هناك مغطًّى بالبلاط.

لذلك، غدًا، بعد عشرة أشهر من السفر، سنتوجَّه إلى الوطن.

يوجد قليل مما يثير اهتمامنا هنا، باستثناء معسكرنا اللطيف الظليل. جرف الفيضان الجسر المبني من القِرْميد فوق النهر. يُقال إن أشجار الفاصوليا الهندية التي تُعطِّر حديقة الحاكم أتت من روسيا. يبيعون الجليد بدلًا من الثلج في البازار.

باميان (٨٤٠٠ قدم، ١٩٥ ميلًا من خان آباد)، ٨ يونيو: كنا قد ركبنا للتو الشاحنةَ في خان آباد أمس الأول، عندما ركض مدير الخارجية خلفنا وطلب منا الانتظار ساعة، بينما وجد مرافقين جددًا للذهاب معنا. عندما عِلمنا باحتمالية «القس» و«راعي الأبرشية»، انفجر كريستوفر غضبًا وصاح، وركلتُ أنا الأرض بقدمي، وتمتم «القس» في أذن مدير الخارجية بأنه كان من شأننا أن نشكِّل خطرًا إذا عُرقلنا عن هدفنا، بينما أقسم السيد جمال أنه لن ينتظر لحظةً أخرى، وانطلقنا بالسيارة، مُختطِفين حارسَينا. إنهما سعداء بالرحلة القصيرة؛ لأنهما لم يريا العاصمة من قبل، ولكنهما قلقان مما قد يحدث لهما في مزار عند عودتهما. لا أعلم لماذا نحن مقتنعان لهذه الدرجة بأهمية صحبتهما؛ فهما هزليان أكثر من كونهما مفيدين. ومع ذلك، فكلما طُلب من «القس» فِعل أي شيء، كرَّر الطلب عدة مرات بنبرة غنائية، وينطق بمديح طويل عن رغبته التي لا تنضب في

المساعدة، متوسِّلًا لنا أن نصدِّق أن سعادته وسعادتنا واحدة، ثم لا يُنفذ الطلب. أما «راعي الأبرشية»، فيصرِّح بكسله. يجب دفعه للعمل بهِزة قوية. لكنهما على الأقل لم يعودا يمنعاننا من التصوير أو الذهاب إلى حيث نريد، الأمر الذي ربما كان سيفعله الحراس الجدد.

على بُعد ثمانية عشر ميلًا من خان آباد، التحقنا بطريق نهر قندوز مرة أخرى عندما دخل الجبال، وما زلنا بجانب جزء منه هنا في باميان؛ وفي الواقع، لولا هذا النهر، لكان من الصعب تخيُّل كيف كان يمكن إنشاء طريق سريع فوق جبال هندوكوش. في الوقت الحالي، تبيَّن أنه مصدر إزعاج، أو أصل لشيء من هذا القبيل. أجبرَنا رافدٌ صغير، ممتلئ عن آخره بالمياه الجليدية، على التوقُّف وسط سهل بجلان.

لم يكن أمامنا ما نفعله سوى الانتظار، وتحديد علامات للماء بالحجارة لنرى ما إذا كانت ترتفع أم تهبِط. الظل الوحيد الذي حصلنا عليه، عندما استقررنا في المرعى البارد، كان من تكتُّلات عشب السهوب. كان بالقرب منا تل صغير على شكل بُزاق، تعلوه بضعة مقابر وضريح مقابل سلسلة جبال جليدية كبيرة في الشرق. بعد فترة من الوقت، انضمت إلينا شاحنة أخرى، ونظَّم رجالها مباراة للرماية على قطعةٍ معدنية، انضم إليها «القس» و«راعي الأبرشية» والسيد جمال. استحممت أنا وكريستوفر، غير أن المياه كانت قذرة حتى إننا اضطُررنا لتنظيف أجسادنا بعد ذلك بفرشاة ملابس. عند المساء، بسطنا فراشَينا بجوار الشاحنة. تجمَّع بعوض بحجم النسور كما لو كان قد سمِع جرس العشاء.

في الصباح الباكر لليوم التالي، كنت مستلقيًا في فراشي، عندما وصل عند النهر رجل مُسن على ظهر حصان كستنائي. كان يرتدي عباءةً بلونِ شوكولاتة باهتٍ مزيَّنة بنقوش ورود، وكان طرف عمامته ملفوفًا حول وجهه فوق لحية رمادية داكنة. وكان يحمل فوق السَّرج حَمَلًا بُنيًّا. خلفه، جاء ابنه الذي يبلغ الثانية عشرة من عمره على قدمَيه، متبخترًا في عباءة حمراء بلون زهور الغُرنوقي وعمامة بيضاء في مثل حجمه، حاملًا عصًا يوجِّه بها خطوات نعجة سوداء وحَمَلها الأسود.

بعدما احتشد الجمع عند مخاضة النهر، بدأت عملية العبور. قاد الرجل المسن أولًا حصانه إلى التيار، ملاقيًا صعوبةً في إبقاء رأس حصانه في مواجهة التيار، وثبَّت الحَمَلَ البُنيَّ على الجهة الأخرى. وبينما كان عائدًا، أمسك الطفل بالحَمَل الأسود. ثم أعطاه لأبيه، الذي عاود النزول إلى الماء ممسكًا به متدليًا من ساق واحدة فصرخ. تبِعتهم النعجة ناعقةً في تعاطف. غير أن التيار سحبها بعيدًا، واستقر بها على الضِّفة التي انطلقت منها. وفي

أثناء ذلك، ظلَّ حَمَلُها يَثغو، مع أنه كان في أمان حينئذٍ على الضِّفة الأخرى مع الحَمَل البُني. رجع الرجل المسن مجددًا، وساعد ابنه في توجيه النعجة المبتلة المرتعشة مسافةَ مائة ياردة إلى الضِّفة أعلى المَخاضة. فأخذها التيار من هناك مرة أخرى، واستقر بها بعناية عند المَخاضة نفسِها، ولكن هذه المرة على الجهة الأخرى، حيث استقبلها الحَمَلان استقبالًا حارًّا. وضع الصبي الصغير قدمَه فوق حذاء أبيه، وقفز خلفه مستقصيًا التيار بعصاه أثناء عبورهما، ليرى إن كان القاع صلبًا. نزل من فوق حصانه على الضِّفة الأخرى، وأعاد الحَمَلَ البُني لسَرج أبيه، وحثَّ النعجة والحَمَل الأسود على السير، وانطلق في هرولة متمايلًا، وعباءته الغُرنوقية تُرفرف خلفه. تبِعهم الحصان الكستنائي، وغابت القافلة في الأفق.

كان السؤال في ذلك الحين هو عما إذا كان ينبغي لنا نحن أيضًا أن نواصل المسير على ظهور الخيل. ولكن المياه كانت قد انخفضت بمقدار ثلاث بوصات ونصف في الليل، وعزم السيد جمال على تقديم عرض للحفاظ على عَقْده. جُمِع ثلاثون رجلًا من قرية مستترة عن الأنظار، بعضهم ليسحب من الأمام بالحبال، وبعضهم للدفع من الخلف. وصلت الشاحنة إلى منحدر المَخاضة، وطارت لتسقط بمقدمتها في المياه، وانقلبت وكادت تقتل الرجال الذين في المقدمة، وفي غضون عشر ثوانٍ كان التيار قد حملها بعيدًا للغاية لتخرج من الجهة الأخرى. تراجَعَت، وحوَّلَت طرفها الأمامي عن التيار، وسبحت في النهر بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة، يتبعها حشدٌ من الرجال الصائحين ذوي الجذوع المكسوة بالشَّعر ويعتمرون قلنسوات ضيقة، والذين جاءوا في الوقت المناسب لإعطائها دفعةً قوية أخرى على اليابسة عند المَخاضة الثانية على مسافةٍ أبعد مع اتجاه مجرى النهر. لم تمس نقطة مياه واحدة الأجزاء الأساسية للمحرِّك.

كانت بجلان نفسُها مجموعةً من القرى في الطرف الجنوبي للسَّهل، وكانت قائمةً وسط الحقول حيث كانت الذرة جاهزةً للحصاد ومفروشة ليجفَّ في كومات. عبَرنا نهر قندوز مجددًا عبر بلدة بُل خُمري، وهو جسرٌ قديم من القِرْميد ذو قوس واحدة، ووجدت بجواره مجموعة من القرنفلات البيضاء الصغيرة فوق قصبات طويلة. بدءًا من هناك أضحى الطريق ذا تجهيزات هندسية جيدة مع تدرُّجات طفيفة تُحمَل على حواجز أو تمرُّ عبْر قواطع، ولكن نظرًا لكونه لا يزال في أرضٍ ترابية، فلم يكن يوجد ما يحافظ على هذه الأشغال، وكانت الأمطار تقطع فيها كالجبن. وقد استوجب كلٌّ منها تقريبًا، بدلًا من أن تكون ملائمة، تحويلًا في الطريق عبْر أرض لم يكن بها طريق على الإطلاق.

حينئذٍ بدأ الجزء الأجمل على الإطلاق في الرحلة، الذي جعلنا نشتاق إلى أن نكون على ظهور الخيل. ابتعد الطريق عن النهر، وبدأ هجومًا مباشرًا على قلب جبال هندوكوش، صاعدًا معاقلها الخضراء، دون تعرُّجات، وإنما عبْر سلسلة من المرتفعات الشديدة الانحدار التي تقود من حَبدٍ لآخر. على جميع الجوانب، بالأسفل والأعلى، وعلى مرمى البصر، كانت جروف العشب المتموِّج مزينةً بتنوُّع لا نهائي من الزهور، الصفراء، والبيضاء، والأرجوانية، والوردية، النامية بصورة فنية رائعة؛ إذ ليست متقاربة للغاية، ولا شديدة التبعثر، ولا ينمو أيٌّ من أنواعها بإفراط، حتى بدا وكأن بستانيَّ أحدِ الأمراء، كما لو كان بيكون من الشرق، قد نسَّق سلسلة الجبال بأكملها. الهندباء البرية الزرقاء، وخبازات الخَطْمي الوردية الطويلة، ومجموعات زهور الذرة الليمونية اللون فوق عُقَد بُنية ضخمة، ورُقع من عناقيد زهرية مدبَّبة بيضاء قصيرة كالياسمين، ونبتة كاسر حجر كبيرة ذات أوراق مرقَّطة، وزهرة صغيرة بلون أصفر سمني، وبقلب بُني كمسك الحدائق، وباقات من قراصات زرقاء ووردية بأوراق غير لاذعة، وباقات متشعِّبة من زهور الكَركَند بلون زهري مورد، كل ذلك كان فقط غيضًا من فيض الزهور التي ومضت أمامنا من هذا البستان الملوَّن الشاسع الذي تحفُّه السُّحب من أعلى وتعاريج تركستان الشديدة الانحسار بالأسفل، كانت تغمز لنا أحيانًا من تحت شجيرات الفستق، بينما كانت شاحنتنا الخرِبة تصدر أزيزًا وتنفث دخانها ونحن نلعنها في طريقنا إلى أعلى ممرٍّ كامبيراك.

مندفعين فوق المرتفعات الخضراء، وصلنا إلى ممرٍّ ضيق، بطول ميلين؛ حيث أصبح الطريق قاعَ سيلٍ من الحجارة السائبة، وبالكاد تمكَّنت الشاحنة من أن تندسَّ بين الجلاميد غير المتماسكة. عندما انفتح هذا، كان نهر قندوز أسفلنا مرةً أخرى؛ حيث ارتفعت قمم ثلجية هائلة من الجهة الأخرى له. عند هذه النقطة، قادنا النهر غربًا ممتطيًا أحصنته النهرية البيضاء صوبنا نزولًا على امتداد الوادي، حتى أرغمنا الظلام على التوقُّف في قريةٍ تُسمى تالة أو برفك أو تالة-برفك في بعض الأحيان.

استيقظنا هذا الصباح لندرك أننا تركنا آسيا الوسطى. كانت قبائل من الجنوب تتجه شمالًا، وكانوا من الأفغان الأصليين، الداكني البشرة، ويشبهون هنودًا في ملابسهم، ويسوقون صفوفًا من مائتَي أو ثلاثمائة جمل. توَّجت قلاعٌ مهدَّمة وجدران حصينةٌ المرتفعات المقابلة. جرى النهر، كما لو كان قد أثاره انحساره، مُزبِدًا من خانقٍ ترتفع جدرانه الصخرية العمودية مئات الأقدام نحو السماء الزرقاء. ظل هذا التكوين، تتخلله قرًى مزروعة من حين لآخر، مسافة أربعين ميلًا، وبدأ برسم لثلثَي دائرة. عبرنا النهر ثماني

أو تسع مرات عبر جسور خشبية. اصطفَّت أشجار الرمان بزهورها القرمزية وشجيرات وردية من نوع ملتفة الثمار على حافة المياه. قادنا في النهاية جسرٌ آخر بعيدًا عن الطريق الرئيسي في اتجاه الغرب إلى وادي باميان.

منذ أن تركنا سهل نهر أوكسوس، ارتفعنا قرابة ٦٠٠٠ قدم، ولمعت ألوان هذا الوادي العجيب بجروفه ذات اللون الأحمر الراوندي، وقممه النيلية اللون المسقوفة بثلج متلألئ، والذرة النامية حديثًا ذات اللون الأخضر الفسفوري الحاد، بتوهُّج مضاعف في جو الجبال الصافي. أعلى الوديان الجانبية، وقعت عيوننا على أطلال وكهوف. شحب لون الجروف. وفجأة، كعشٍّ دبابير ضخم، كانت كهوف الرهبان البوذيين التي لا حصر لها معلقةً هناك، ومتجمعةً حول تمثالَي بوذا العملاقين.

لاح لنا في الأفق من منحدر عبر النهر منزلٌ إفرنجي بسقف معدني. كان الحاكم غائبًا، لكن نائبه، الذي كان يشبه خنزير بحر مصاب بالربو في منامته الزرقاء، بدا قلقًا من وصولنا دون سابق إنذار وهاتَفَ كابول لإعلان الخبر. خرجنا إلى شرفة، ونظرنا لأسفل إلى الحقول الخضراء البرَّاقة؛ حيث كانت تصطفُّ على النهر الأزرق الرمادي أشجار حَور خضراء زبرجدية، والمسارات الترابية الحمراء التي يسوق فيها الفلاحون حيواناتهم، ثم نظرنا لأعلى لنجد تمثالَي بوذا، على بُعد ميل، يُطِلان على الشرفة كما لو كانا في زيارة من زيارات فترةِ ما بعد الظهيرة. سقطت صفحة من ضوء أصفر وبنفسجي من السُّحب. أصابت الواديَ رجفةٌ، تبِعتها هبَّة مطر. ثم اندلعت العاصفة وهزَّت المنزل طوال ساعة من الزمن. عندما انقشعت، كان يتناثر على الجبال النيلية اللون جليدٌ جديد.

شيبر (٩٠٠٠ قدم تقريبًا، ٢٤ ميلًا من باميان)، ٩ يونيو: لم أكن أرغب في المكوث طويلًا في باميان. ففنُّها يفتقر للحيوية. عندما جاء تشيونتسانج إلى هنا، طُلي تمثالَا بوذا باللون الذهبي كي يشبِها البرونز، وحُشد ٥٠٠٠ راهب في المتاهات بجوارهما. كان هذا سنة ٦٣٢؛ ومات محمد في العام نفسه، وبلغ العرب باميان قبل نهاية القرن. ولكن لم يُستأصل الرهبان أخيرًا إلا بعد ١٥٠ عامًا. يمكنني تخيُّل شعور العرب تجاههم وتجاه أصنامهم في هذا الوادي الدموي. لا بد أن نادر شاه قد شعر بنفس الشعور بعد ١٠٠٠ عام عندما كسر ساقَي تمثال بوذا الأكبر.

يبلغ ارتفاع التمثال الكبير ١٧٤ قدمًا، والصغير ١١٥ قدمًا؛ ويفصل بينهما ربع ميل. يحمل التمثال الأكبر آثار قشرة جصية، والتي كانت مطلية باللون الأحمر، على ما يبدو كأساس للطبقة المذهَّبة. ليس لأيٍّ منهما قيمة فنية. ولكن يمكن لي استيعاب ذلك؛ فما

يصيبني بالاشمئزاز هو إنكارهما للحِس، المتمثل في افتقارهما لأي فخر بضخامتهما الرخوة البشعة. وحتى المواد المستخدَمة ليست جميلة؛ حيث شُيد الجرف من الحصى المضغوط، وليس من الحجارة. أُعطي عدد كبير من الحفارين الرهبان مَعاولَ، وطُلبَ منهم أن يقلِّدوا تمثالًا مهيبًا من الهند أو الصين شبيهًا بتماثيل العصر الهِلينسْتي. لم تكن النتيجة منصِفةً حتى لكرامة العمال.

ظُلَّات الكوَّتين اللتين تحويان التمثالين مكسوَّة بالجص ومطلية. في الكوة الصغرى مُعلَّقٌ مشهد انتصار، بالألوان الأحمر والأصفر والأزرق، والذي تَعرَّف به هاكين وهِرتسفلد، وآخرون على تأثير ساساني؛ غير أن الدليل على هذه الفكرة يأتي من ماسون الذي رأى نقشًا بهلويًّا هنا قبل مائة عام. الرسومات حول رأس التمثال الأكبر محفوظة في حالةٍ أفضل، ويمكن تفحُّصها من كَثَب بالوقوف على الرأس نفسِه. على كلا جانبَي الكوة، أسفل انحناء القنطرة، تتدلَّى خمسة أنواط بقطر عشر أقدام تقريبًا، تحتوي على تماثيل بوديساتفا. يحيط بهذه التماثيل هالاتٌ على شكل حدوة حصان بالألوان الأبيض والأصفر والأزرق، ولها شعور مخضَّبة باللون الأحمر. وبين كل نوط والآخر توجد زهرة لوتس ثلاثية الأفرع، أو على الأقل ظننا أنها كذلك، مع أنها قد تُفسَّر في سياقات أخرى بأنها حامل مِصباح غاز كَنَسي يحمل ثلاث كرات زجاجية. يشغل المنطقة التالية بالأعلى رصيفٌ في مربعاتٍ تبدو بصورةٍ مخالفة لحقيقتها، وتشغل المنطقة أعلاها كسوة خشبية من ستائر بومبيانية ذات إطار من ريش الطاووس. يوجد أعلى هذا صفَّان آخران من تماثيل بوديساتفا الجالسة أمام هالات وعروش بالتناوب، والعروش مزيَّنة بسجاجيد مرصَّعة. وبينها كئوس كبيرة على سُوق، عليها نقوش تشبه الخطوط الساكسونية وملائكة الكروبيم الأطفال. المنطقة العليا مفقودة. الألوان هي الألوان الجصية العادية، وهي اللون الرمادي الأردوازي والأصفر الفاقع، ولون الشوكولاتة المحمر الصدئ، ومَسحة عُنابية باهتة، والأزرق الزاهي كلون زهرة الجريس.

تدل الأشكال على أن الأفكار الفارسية والهندية والصينية والهلينستية، تلاقت كلها في باميان في القرنين الخامس والسادس. من المشوق أن يكون لدينا تسجيل لهذا اللقاء. غير أن ثمرته ليست سارَّة. الاستثناء الوحيد هو الصف الأسفل لتماثيل بوديساتفا، الذي يقول عنه هاكين إنه أقدم من الصفوف الأخرى. إذ يتمتع بتلك الأجواء الساكنة، البهية رغم فراغها، وهو أفضل ما يمكن أن يتوقعه المرء من الأيقونات البوذية.

تحتفظ الغرف في الجرف بسجلٍّ مماثل من الأفكار المعمارية المعاصرة. كان الرهبان ملزَمين بإعطاء شكل معيَّن للأجزاء الداخلية لعمارتهم الشعائرية. ولكن من بين جميع

الأعراف المتاحة أمامهم، لا بد أن الجزء الداخلي للقبَّة الحجرية الهندية كان بلا شك الأقلَّ ملاءمة لإعادة إنتاجه في أعمدة المونوليث. ومع ذلك، فقد حفروه هنا، بأقواسه المتدلية الضخمة، ودعاماته المتقاطعة الثقيلة، وقُبَيبته غير الملائمة. أسفر التأثير الساساني عن نتائجَ أكثر اتساقًا. إذ توجد صالة فسيحة تشبه على نحوٍ استثنائي الغرفَ المقبَّبة في فيروز آباد، ويمكن من خلال تشكيلاتها، المقسَّمة إلى أقواسٍ أو شيء من هذا القبيل أعلى حنايا المقرنصات، معرفةُ الكيفية التي استخدم بها الساسانيون الجص في الأصل. يظهر في كهوفٍ أخرى قبابٌ تستقر على جدران دائرية ومُثمَّنة، بعضها منحوت بإتقان، وأحدها مزيَّن بإفريز من الأرابيسك، يمكن أن يكون نموذجًا أوليًّا للإفريز الذي في مسجد الجمعة بقزوين، الذي بُني بعد هذا الأثر بستة قرون. إلا أن الرابط الأبرز مع العمارة الإسلامية، الذي يثبت اقتباسها المباشر من ابتكارات عابدي النار في الماضي، موجود في كهف مربع حيث تستقر قبَّة على أربع حنايا مقرنصة تتألَّف كلٌّ منها من خمس أقواس مركزية. يعاود هذا التصميم الأكثر تفردًا، بالإضافة إلى قوس آخر، الظهورَ في ضريح في كاسان بتركستان، بُني في القرن الرابع عشر.

ترك علماء الآثار الفرنسيون الكهوف في حالة جيدة، وأصلحوا الجص المطلي، وأضافوا سلالم عندما استلزم ذلك، ووضعوا ملاحظات واضحة بالفرنسية والفارسية لإرشاد أولئك الذين لم تُتَح لهم الفرصة لدراسة تقاريرهم المنشورة: «المجموعة سي؛ قاعة اجتماعات»، «المجموعة دي، الحرم، ذو تأثيرات إيرانية» ... إلخ.

لا يزال طريق كابول، بعدما عاودنا الالتحاق به، يمضي بحِذاء رافد فرعي صغير أخير من نهر قندوز، أدَّى بنا تجاه ممر شيبر، خروجًا إلى تلالٍ جرداء كانت الذُّرة عليها لا تزال نِثارًا أخضر على التربة البُنية. هناك قابلنا رجلًا قال إن الطريق على الجهة الأخرى للممر كان مسدودًا بفعل انهيار أرضي. كان قد فات أوان استكشافه. ومن ثَم رجعنا إلى قريةِ شيبر، التي تتألَّف من مجموعة معزولة من المنازل تحت القمم الجرداء.

في هذا الصباح في باميان، انطفأت النار بينما كان كريستوفر يخفق البيض بخنجره، وطلب من «راعي الأبرشية» إحضارَ المزيد من الخشب. وطلب ذلك منه مرةً أخرى. ثم حثَّ الرجل بالخنجر. الآن في شيبر، أراد «راعي الأبرشية» و«القس» مشاركتنا غرفتنا. قلنا إنها ليست كبيرة بما يكفي. لم يكن «راعي الأبرشية» معتادًا على هذه المعاملة، وألقى علينا محاضرة حول الأمر. قال إنه لا شك في أن لنا عاداتنا الإفرنجية. ولكنه يرجونا أن ندرك أن، في أفغانستان، كل شيء يعتمد على الصداقة. إذا فعل أشياءَ من أجلنا، فهذا لأننا أصدقاؤه،

وليس لأننا طلبنا منه أن يفعلها. وأنه حارس في وظيفة حكومية، وليس خادمنا. وأنه يأمُل أن نكون، لِما تبقَّى من الرحلة، أصدقاء جيدين؛ كي «يتمكن» من فعل أشياء لنا. وهكذا.

ليس خطؤنا أنه ليس معنا خادم. فقد حاولنا الحصول على واحد في كل مدينة ذهبنا إليها منذ كنا في هِرات، وفي كل مرة كانت السلطات تجيبنا بأن الحراس الذين يمدوننا بهم سيعملون كخدم. ومن ثَم فنحن في تنمُّرنا على «راعي الأبرشية» لا نفعل شيئًا سوى تطبيق كلام السلطات. ومع ذلك، فقد أحرجنا كلامه.

أعدَّ القرويون حفلًا غنائيًّا بعد العشاء.

قال «القس»: «لا تُعزف الموسيقى الجيدة إلا في أفغانستان، وبلاد فارس، وإنجلترا، والهند.»

سأل كريستوفر: «ماذا عن روسيا؟»

«روسيا؟ الموسيقى الروسية رديئة بلا شك.»

شاريكار (٥٣٠٠ قدم، ٧٤ ميلًا من شيبر)، ١٠ يونيو: لم يكن ما منعنا من بلوغ كابول الليلة انهيار أرضي واحد، بل دزينة من الانهيارات الأرضية. لا نبعد عنها سوى أربعين ميلًا، وقد أعلن جسر حديدي عن المنطقة المتحضرة المحيطة بالعاصمة. هنا، في نُزُل القوافل هذا، تناولنا العشاء على طاولة وجلسنا على كراسي، وتذكَّرنا فجأةً أن رحلتنا على وشْك الانتهاء. كان الأسبوع الأخير مشحونًا. أصبح من روتيني الذي أؤديه تلقائيًّا هو الاستيقاظ في الرابعة، وطهي العصيدة على نار الحطب، وطلب الطعام لعُدة نزهتنا الضئيلة في علبها المعدنية الفارسية البالية، والتأكد من ملء المصابيح تحسبًا لأن نمضي الليلة في العراء، والهرع لملء زجاجات المياه عند كل ينبوع مياه، وتنظيف أحذيتنا كل يومين، وإهداء السجائر للرجال لإبقائهم سعداء؛ ومن ثَم يُشعرنا تذكُّر أن ذلك سينتهي غدًا بفتور وبعض الحزن.

يبلغ ارتفاع ممر شيبر ١٠ آلاف قدم، وكنا قد اقتربنا من خط الثلج قبل أن نترك التدفُّق الأخير لنهر قندوز؛ حيث بدأ في رحلته الطويلة إلى نهر أوكسوس وبحر آرال. بعد خمس دقائق بدأ تدفُّق آخر في رحلة إلى نهر السند والمحيط الهندي. تتسم الجغرافيا بإثارة خاصة.

بعد تجاوز الممر بمِيل، بلغنا الانهيارات الأرضية الأولى، وهي كومات من الوحل السائل والحصى التي تُخفي صخورًا كبيرة. وها قد شرعت مجموعةٌ من عمال الطرق الجيدين في العمل. ولكن عند مجموعة العقبات الثانية والأضخم، بعد عشرة أميال، لم أجد سوى

بعض القرويين المرتبكين الذين كانوا يتمرَّغون في الوحل كالأطفال، واضطُررت لأداء دور رئيس العمال لأفرض بعض النظام على عملياتهم. الآن كانت المحاصيل أسفل الطريق، التي كانت بالفعل شِبه تالفة نتيجة لأنهار الوحل، مُهدَّدةً بفيضانٍ آخر، وهُرعت النساء الهلعات المسكينات من القرية بالمناجل لإنقاذ المتبقي منها لاستخدامه ككلأ. رأى أهل القرية أن من واجبهم إخلاء الطريق، لكن ذلك لم يكن رأي مجموعة من سائقي البغال الذين تصادف مرورهم، واستُقبلوا، عند احتجاجهم على إجبارهم على هذا العمل، بوابل من الضربات من السيد جمال، وبمشهد «القس» وهو يصوِّب بندقيته تجاههم. فأذعنوا فزعين.

كان النهر، النهر الجديد الذي يجري إلى الهند، مكسوًّا بورود وردية اللون ونباتات سبيريا بيضاء. ازداد أهل الوادي خصوبةً. وأحاطت بساتين من الجوز بالقرى؛ حيث كان التجار الهنود بعمائمهم المبهجة الضيقة يجلسون في متاجرهم. وبعد ذلك، كصفعة على الوجه، أتى جسر شاريكار الحديدي.

كابول (٥٩٠٠ قدم، ٣٦ ميلًا من شاريكار)، ١١ يونيو: من هِرات إلى كابول كنا قد قطعنا ٩٣٠ ميلًا، خمسة وأربعون ميلًا منها على ظهور الخيل.

أدَّى بنا طريق منحدِر متعرِّج نزولًا من هضبة شاريكار إلى سهلٍ أصغر داخل حلقة من الجبال؛ حيث ومضت المياه الجارية وألواح الحديد الموجة وسط الأشجار. عند مدخل العاصمة، جرَّدت الشرطة «القس» و«راعي الأبرشية» من بندقيتيهما، مما أزعجهما كثيرًا، ولكن ما كان أحد سيصدق أنهما موظفان حكوميان بسبب عمائمهما. مضينا بالسيارة إلى مكتب الخارجية؛ حيث كانت النباتات المتسلقة الإنجليزية الحمراء الزاهية تتسلق الدرابزين الحديدي، ثم إلى الفندق حيث كانت توجد أوراق للكتابة في كل غرفة نوم، ثم إلى المفوضية الروسية حيث لم يكن قد وصلهم ردٌّ على تلغراف السيد بورياتشينكو، ثم إلى المتجر الألماني، حيث رفضوا أن يبيعوا لنا شراب الهوك دون إذن من وزارة التجارة؛ وأخيرًا إلى مفوَّضيتنا حيث طلب منا الوزير، السير ريتشارد ماكونوتشي، أن نقيم. المفوَّضية منزلٌ أبيض، تُضفي عليه الأعمدة مهابةً، ومؤثَّث كما لو كان في الوطن، دون شبكاتِ بعوضٍ أو مراوحَ تُذكِّر المرء بالشرق. يقول كريستوفر إنه يجد أن من الغريب أن يكون في غرفة لا تتساقط حوائطها.

يتوافق الرأي في القنصلية مع اعتبار أنه من السُّخف رفضُ منْح الدبلوماسيين الروس في كابول تأشيراتِ مرور عبر الهند. حتى إذا تقدَّموا بعيدًا في اتجاه الحدود وصولًا

إلى منطقةٍ مثل جلال آباد، تُرسل حكومة الهند شكاوى رسمية. والنتيجة هي نوع من الاتفاق الضمني بين المفوَّضيتين والحكومة الأفغانية على منْع الإنجليز من السفر في شمال البلاد، وعلى منْع الروس من السفر في جنوبها. لهذا السبب لم تتمكَّن السلطات في مزار من السماح لنا بعبور نهر أوكسوس، مع أنهم لا يعترفون بهذا السبب كي لا يبدو أنه يحدُّ من سيادتهم. كنا محظوظين لتقدُّمنا إلى هذا الحد، وخاصةً أنه يبدو أن حاجي لال محمد الذي أحضر السيارة، وسائقنا جمشيد تاروبوريفالا، أشاعا حكايةً مفادها أننا عملاء سرِّيون نعمل في وضع الخرائط. في المرة التالية التي أقوم فيها برحلة كهذه، سآخذ دروسًا في التجسُّس مسبقًا. ولأن عليَّ تحمُّل عيوب المهنة بأي حال، فقد أجني كذلك بعضًا من مميزاتها، إن كان لها مميزات.

تعتمد الدبلوماسية البريطانية الآن على ورود الوزير. ففي حفل عيد ميلاد الملك، في ٣ يونيو، كان قد اكتمل تفتُّحها، ولم يكن الأفغان، المحِبُّون جميعهم للورود، قد رأوا زهورًا رسمية بهذا الحجم من قبل. في الصباح التالي، كانت بطاقات الزيارة من وزير البلاط ترفرف من أجود الأشجار؛ فقد تركها البستاني الخاص به في الليل. الآن يريد جميع الوزراء الآخرين غرسات أيضًا، كما يحدِثون لغطًا حول زهور الفاوانيا، التي وُعِدوا بها للعام التالي.

كانت باقات الورود الرسمية بديعة، ولكنني أفضِّل شجرةً أفغانية تقف عند البوابة في المقدمة. يبلغ ارتفاعها خمس عشرة قدمًا، ومكسوة بزهور بيضاء وافرة حتى إنه لا تكاد تُرى منها ورقة واحدة.

كابول، ١٤ يونيو: تمرُّ الأيام هادئةً بلا أحداث.

الحديقة هنا بهيجة جدًّا حتى إنه يصعب مغادرتها، وعامرة بأزهارِ سويت ويليام، وأجراس كانتربري، وزهور الحوض المزروعة وسط العشب، والمصاطب، والتعريشات الظليلة؛ قد يحسبها المرء إنجلترا حتى يلاحظ الجبل الأرجواني خلف المنزل الأبيض الكبير. يوجد تسعون شخصًا في المنشأة بأكملها، وفي ملعب التنس هذا المساء كان يوجد ستة من جامعي الكرات في زيِّهم الموحَّد في مباراة واحدة. يشتكي أناس، رغم أنني لم أُرِد قطُّ أن أفعل مثلهم، من أن سفاراتنا ومفوَّضياتنا ترى أنه ليس من واجبها ألا تساعد الزائرين، وذلك اعتمادًا على رسالةِ اللورد ساليسبري. قد لا يوجد غرضٌ آخرُ من وجود هذه المفوَّضية، بغضِّ النظر عما يمكن أن يراه الزائر. وليس فقط الزائر الإنجليز. فالأمريكيون الذين يأتون إلى هنا غالبًا ما يواجهون صعوباتٍ من نوعٍ ما، ولعدم وجود مفوَّضية لهم، يطلبون المساعدة من مفوَّضيتنا، وبالفعل ينالونها.

غزنة (٧٣٠٠ قدم، ٩٨ ميلًا من كابول)، ١٥ يونيو: استغرقت الرحلة إلى هنا أربع ساعات ونصفًا، على طريقٍ صلبٍ جيد عبْر صحراء توب، التي كانت مفروشة بزهور السوسن.

ينتصب «برجا النصر» الشهيران، وبينهما مسافة ٧٠٠ ياردة، على الطريق إلى قرية روضة؛ وهما جذعان على شكلِ نجمة ثمانية، ارتفاعُ كلٍّ منهما سبعون قدمًا، ولهما الآن سطح من قبَّعة من القصدير لتجنيبهما المزيدَ من التلف. يُبين فيجيني الذي رسمهما سنة ١٨٣٦، أن هيكليهما الفوقيين الدائريين كانا يفوقان ضِعف ارتفاعهما. بُنيا كمئذنتين، تذكاريتين وليستا دينيتين؛ إذ لا تدل الأرضية على أنه كان يوجد مسجد في المنطقة في أي وقت من الأوقات. كان من عادات الساسانيين بناء أبراج كهذه، وبعد مجيء الإسلام استمر الفُرس في هذه العادة، حتى حوالي القرن الرابع عشر. والمآذن في دامغان وسبزوار، والكثير من المآذن في أفغانستان، منعزلةٌ على نحوٍ مماثل.

كان يوجد دومًا خلطٌ حول بناةِ هذين البرجَين. نشر جيه إيه رولينسون النقوشَ المحفورة عليهما سنة ١٨٤٣، ونسبَ أكبرَ البرجين وأفخمَهما إلى محمود، ابن سُبُكتِكِين، مؤسِّس الإمبراطورية الغزنوية وراعي الفردوسي وابن سينا. ولكن لا بد أن رولينسون قد اختلط عليه الأمر في ملاحظاته؛ ففي عام ١٩٢٥ عندما تحصَّل فلاري الاختصاصي في دراسة النقوش على بعض الصور الفوتوغرافية، وجد أن النقش ذا الصلة بمحمود كان في الحقيقة على البرج الأصغر، بينما يحمل البرج الأكبر نقشًا باسم سليله مسعود الثالث، ابن إبراهيم. ولذلك، فلا بد أن البرج الأصغر يرجع إلى ما قبل عام ١٠٣٠، وأن البرج الأكبر يرجع إلى ما بين عامَي ١٠٩٩ و١١١٤.

يتمثَّل الفرْق بينهما في الاتساع؛ حيث يبلغ قُطر البرج الأكبر، مع استبعاد القاعدة الصخرية، حوالي أربع وعشرين قدمًا، بينما يبلغ قُطر الأصغر حوالي اثنتين وعشرين قدمًا. كلاهما مبني بقِرْميد بلون بني غني مشوب بلون أحمر، ومزيَّن بطين نضيج محفور باللون نفسِه. في كلا البرجين، كلُّ تجويف من التجاويف الثمانية بين الأطراف المستدقة للنجوم مقسَّم إلى ثماني مناطق مزخرفة بأعماقٍ مختلفة. بين المناطق الثالثة والرابعة، والخامسة والسادسة، والسادسة والسابعة، تقطع البناءَ القِرْميدي رافداتٌ خشبية.

باستثناء الأنماط المتعرِّجة التي نُظم القِرْميد بها، تقتصر زخرفة البرج الأصغر على شريطين ضيقين من الطين النضيج في المنتصف، وعلى الألواح الستة عشر من الكتابة الكوفية العريضة بالأعلى، التي تصف محمود بأنه «السلطان المهيب، وملك الإسلام، ومؤتمَن

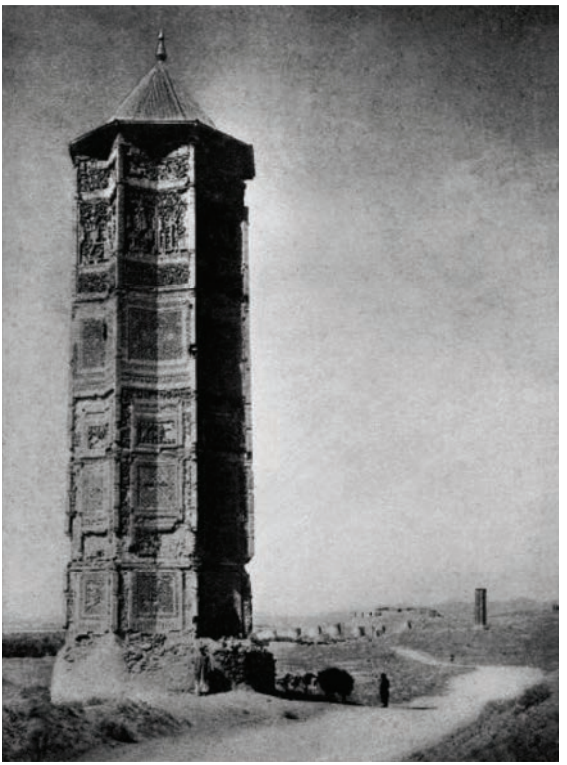

غزنة: «أبراج النصر» الأقرب حوالي ١١٠٠، والأبعد قبل ١٠٣٠.

المجتمع، وأبو المظفر، وسند المسلمين، وعون الفقراء، أبو القاسم محمود — أنار الله ثباته — ابن سُبُكتِكِين الغزنوي ... أمير المؤمنين». البرج الأكبر أكثر ثراءً، وقِطَع القِرْميد فيه متقاربة أكثر، وجميع المناطق الثمانية مملوءة بزخرفة متقنة، ومؤطَّرة بنقوشٍ أقل في بعض الأحيان. يوجد ستة عشر لوحًا آخر حول الجزء العلوي فيها عرْضٌ بألقاب مسعود، ويتميز خطُّها الكوفي بأنه أطول وأجمل؛ إذ يبرز من متاهةِ أنماط كجنود يخرجون من حشد. بشكل عام، عندما يتعلَّق الأمر بمقارنة مبنيَين متشابهين في التصميم لكنهما يعودان إلى عصرين مختلفين، تكون بساطة المبنى الأقدم مفضَّلة. الأمر هنا ليس كذلك. فلجودة أشغال القِرْميد في البرج الأكبر ودقَّة زخرفته خصائص وظيفية. إذ تجعلان البرجَ ثابتًا

على الأرض؛ مما يمنحه ذلك الشعور بالقوة والتماسك الذي يحتاج إليه لدعم العمود أعلاه. تُظهر صورةٌ قديمة في المفوَّضية بكابول، التُقطَت حوالي عام ١٨٧٠، تفاصيلَ هذا العمود. كانت أول خمس وعشرين قدمًا بسيطة وربما كانت مخفية، عندما بُني البرج لأول مرة، وكانت له شرفة خشبية. قُسِّم بعد ذلك إلى أضلاع زخرفية، منحنية ومسطَّحة بالتناوب. يعلو ذلك ثمانية أزواج من الكوَّات المتطاولة وطوقٌ من النحت يبدو وكأنه كان يحتوي على نقش بالخط الكوفي.

من المثير للاهتمام أن أتذكَّر أن هذه المئذنة بُنيت في القرن نفسِه الذي بُنيت فيه مئذنة قنبد قابوس. كلتاهما ضخمة، وتستحق الإفراط في التفاخر. لكن الفرق بين زخرفة إحداهما وبساطة الأخرى يُظهر أن فكرتين مختلفتين كانتا قائمتين في العمارة الفارسية في ذلك الوقت. كانت العمارة السلجوقية، التي تلت ذلك، ثمرةَ هاتين الفكرتين، وورثت عبقرية كلتيهما محقِّقةً التوازن المثالي بين الزخرفة والبناء.

استقطب قبر السلطان محمود، الذي يقع في قرية الروضة على بُعد نصف ميل، انتباهَ الرحالة أكثرَ من البرجين. يقول ابن بطوطة، في منتصف القرن الرابع عشر، إنه كانت تعلوه تكية. زاره بابر بالطبع، ورأى قبرَي السلطانين إبراهيم ومسعود القريبين. وبعد ذلك أتى إليه فيجيني في عام ١٨٣٦، وبعد ست سنوات، جاء جيش إنجليزي، وهو الذي أخذ بوابة القبر لأن مؤرِّخًا أحمقَ — أعتقد أنه كان فيريشتا — قال إنها بوابة معبد سومناث الهندوسي في جوجارات، وإن محمودًا سرقها عندما نهب المدينة. استُخدمت معجزات وسائل النقل (إذ يبلغ قياسها ١٦ قدمًا ونصفًا في ١٣ قدمًا ونصف) لإحضارها إلى أجرا، بينما طلب اللورد إلينبورو من أمراء الهند ملاحظةَ إلى أي مدًى «تُثبِت الحكومة البريطانية حُبها لكم، عندما تعتبر شرفَكم شرفَها، وتستخدم قوة قواتها لتعيد إليكم بوابة معبد سومناث، التي ظلت زمنًا طويلًا تَذكارًا لخضوعكم للأفغان». أدَّت السخرية التي قوبل هذا الإعلان إلى إرسال البوابة إلى مكان في غياهب الحصن في أجرا، حيث لا تزال هناك. خشبها من خشب الدوداري الأفغاني، وبها نقشٌ على عتبتها يدعو بالمغفرة من الله لأبي القاسم محمود، ابن سُبُكتِكِين. ومع ذلك، فإن أسطورةً أصلها الهندوسي لا تزال موجودة في الكتب المدرسية. بإمكان حكومة الهند دحضُ البوابة تمامًا. لم يتمكَّن أحدٌ قطُّ من إيجاد مسوِّغ لسلبها حتى بنشر وصف لنقوشها، التي تتسم بالتفرُّد في الفن الإسلامي.

بعد الحرب، عندما كان نيدرماير هنا، كانت المقبرة مكشوفة. وجدناها الآن تحت قبَّة فسيحة، ويمكن الوصول إليها عبْر أروقة مسقوفة وحديقة ورود.

كان ثلاثة رجال مسنين يتلون القرآن من مصاحف كبيرة، بينما انحنى مرشدانا فوق سور خشبي لإزالة الغطاء الأسود؛ لتهتزَّ بَتَلات الورود التي كانت تغطيه وتشكِّل كومةً في إحدى نهايتيه. وعندئذٍ ظهر مهدٌ حجري مقلوب بنهايتين مثلَّثتين، وبطول خمس أقدام وارتفاع عشرين بوصة، على وطيدةٍ عريضة. الحجر من الرخام الأبيض وشبه الشفاف. على الجهة التي تواجه مكة، يوجد نقشٌ بالخط الكوفي في صفَّين يبدأ بالعبارة: «تقبَّل الله بقبولٍ حسنٍ الأميرَ النبيل والقائد نظام الدين أبا القاسم محمود بن سُبُكتِكِين». وعلى الجهة الأخرى، حلية صغيرة ثلاثية الأوراق مكتوب عليها: «توفِّي ... مساء يوم الخميس قبل انتهاء شهر ربيع الثاني بسبع ليالٍ، سنة ٤٢١.» كان ذلك يوافق ١٨ فبراير ١٠٣٠.

تكمُن قيمة المقبرة كعمل فني في عمقِ نحتِها ووفرتِه، وفي لمعانِ الرخام الذي مرَّ عليه الزمن، وقبل كل شيء في النقش الرئيسي. يتميز الخط الكوفي بجمالٍ ذي وظيفة عملية؛ فعند النظر إليه من الناحية التصميمية البحتة، يبدو بروزه الفريد في حدِّ ذاته شكلًا من أشكال الخطابة، في نقله للحديث من صيغته المسموعة إلى صيغةٍ مرئية. لقد استمتعت برؤيةِ عدة نماذج له في الأشهر العشرة الماضية. غير أنه لا يمكن لأيٍّ منها مضاهاة هذه الرموز المتناغمة الطويلة، التي تتداخل معها أوراق أشجار متراقصة، والتي تنعى فقْدَ محمود، فاتح الهند، وبلاد فارس، وأوكسيانا، بعد تسعة قرون من وفاته، وفي العاصمة التي حكم منها.

أُبعدَ الحشد الذي تبِعنا إلى الحديقة من الضريح بينما كنا نشاهد القبر؛ مما أغضب رجلًا أراد الصلاة في المكان. صاح قائلًا: «لمَ تسمحون بدخول أولئك الكتبة المهرطِقين؟ هذا لا يصح.» أيَّده الحشد، وبدأ الناس في الصياح أيضًا، حتى إنهم قد هدَّدوا حارسَينا بأن يتعاركوا معهما. لقد كانت زيارة القبر من اقتراحهما. وكان وزير الخارجية قد أرسل برقيةً من كابول تفيد بأنه يمكننا أن نرى كل شيء.

كابول، ١٧ يونيو: حللنا لغزًا في طريق عودتنا من غزنة.

كانت بعض أشجار الصفصاف الصغيرة تنمو على طول جدول بالقرب من الطريق، وتوقَّف السيد جمال ليتيح لمساعده أن يلتقطَ منها بعض الأفرع، التي ألقى بها في مؤخرة الشاحنة. عندما سقطت على أقدامنا، فاحت منها الرائحة المحيِّرة نفسُها التي انتشرت في الرحلة بأكملها منذ صادفتنا أول مرة عند حدود أفغانستان، والتي تعيد إلى ناظرَيَّ الآن، بحلاوتها الغامرة، صورةَ مآذن هِرات. كانت تنبعث من عناقيد أزهار خضراء مصفرة،[٢] لا

يمكن ملاحظتها من بعيد، ولكن إن شممتها مجددًا في أي وقت، فستذكِّرني بأفغانستان كما تذكِّرني خِزانةٌ من خشب الأرز بطفولتي.

سمِع السيد جمال أنه بُعَيدَ عبورنا تحطَّمت شِحنتان تمامًا بفعل التيار الذي عطَّلنا على سهل بجلان، وأن العبَّارة في نهر قندوز انقلبت وغرقت، وأغرقت خمس نساء.

نقيم الآن في الفندق الموجود هنا، الذي يديره الهنود ولا يخلو من أمارات التحضُّر؛ فقد انتهَوا للتو من بناء ملحق وأرسلوا برقيةً يطلبون فيها رئيسَ طهاة ألمانيًّا. تتسم كابول في معظم أنحائها بالبساطة والتواضع، كما لو كانت بَلْخ بالمعنى الجيد للتعبير. فهي تتمركز حول بضعة تلال جرداء ترتفع فجأةً من السهل الأخضر وتعمل كدفاعات للمدينة. وتزيِّن الجبالُ الثلجية الأفقَ، ويقع المجلس النيابي في حقل للذُّرة، وتخفي جادَّات طويلة مشارفَ المدينة. في الشتاء، على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم، قد تكون البرودة صعبة. لكن الطقس في الوقت الحالي رائع، فهو حارٌّ ولكنه منعِش دائمًا. دُور السينما والمشروبات الكحولية ممنوعة. وقد كان على طبيب المفوَّضية الامتناع عن علاج النساء بناءً على طلب الكنيسة، ولكنهن يترددن عليه أحيانًا متنكراتٍ في هيئة صِبية. وسياسة التغريب القسرية غير مطبَّقة. ومع ذلك، يُباشر التغريب بالاقتداء، وأشعر أنه ربما يكون الأفغان قد وصلوا للاعتدال الذي تتطلع إليه آسيا. فحتى أكثرهم قومية يُظهر تباينًا مُرضيًا مع إثبات الذات المُختالة التي يتمسك بها الفارسي المعاصر.

التقيت هذا الصباح في المفوَّضية بالكولونيل بورتر، الذي سألني عن طبيعةِ عملي. فقلت إنني كنت أشاهد العمارة الإسلامية.

ردَّ قائلًا: «فلتعلم أنني رأيت قدرًا كبيرًا من العمارة الإسلامية بطريقة أو بأخرى في فلسطين ومصر وبلاد فارس، وقد كرَّست قدرًا كبيرًا من التفكير في المسألة. ويمكنني أن أخبرك بحل المشكلة إن أردت.»

«حقًّا. ما هو؟»

«الأمر برُمَّته «ذو طبيعة قضيبية»»، ونطق بالكلمة بهمسٍ بغيض.

هالتني لأول وهلة ملاحظةُ أن لفرويد تأثيرًا على الحدود الشمالية الغربية، ولكن سرعان ما اكتشفت أن العالَم بأسْره من منظور الكولونيل بورتر كان ذا طبيعة قضيبية.

عصرًا، أوصلَنا فليتشر من المفوَّضية بالسيارة إلى دار الأمان وبغمان، حيث أحلامُ أمان الله غير المكتملة. كان من المقرَّر أن تكون المدينة الأولى نيودلهي، والأخيرة سيملا جديدة، اللتين بُنيتا بالإعانات المالية الإنجليزية، التي ادخرها والد أمان الله، حبيب الله، عامًا

بعد عام ولم يُنفِقها قطُّ. تتصل دار الأمان بكابول بجادَّات من أجمل الجادَّات في العالم، بطول أربعة أميال، مستقيمة تمامًا، وباتساع طريق جريت ويست، وتصطفُّ فيها أشجار الحَور ذات الجذوع البيضاء الطويلة. تجري أمام أشجار الحَور جداول تحوطها حواف عشبية. وخلفها ممراتُ مشيٍ مظلَّلة وتشابُك من الورود الصفراء والبيضاء، التي اكتمل ازدهارها الآن والغنية بالرائحة العطِرة. ثم في النهاية، يا إلهي، تظهر الزاوية — وليس حتى الواجهة — ذات الأبراج لمكتب بلدية فرنسي تحيطه حديقة بلدية فرنسية مهجورة تمامًا. بينما أسفلها، تمامًا في مركز المشهد بأكمله الممتد لأربعة أميال، يوجد مصنعٌ ألماني لأعواد الثقاب مبني على طراز منزل ريفي بالأسمنت المسلَّح.

تمتد بغمان، أو سيملا الأفغانية، على منحدرٍ مكسوٍّ بالأشجار على ارتفاع ألفين أو ثلاثة آلاف قدم فوق السهل؛ حيث تتخلل الفرجاتُ العشبيةُ أشجارَ الحور والجوز، وتعزف أوركسترا من جداول الجبال، ويظهر الثلج عبر الأشجار قريبًا على نحوٍ غير متوقع. في كل فرجة يوجد منزل أو مكتب أو مسرح بذلك المظهر المريح، الذي يُذكِّر على نحوٍ سيئ بالمنتجعات الصحية الألمانية والمناطق الخلفية من حي بيملكو في لندن، لدرجةٍ يستحيل معها تصوُّر أين وجد أمان الله المهندسين المعماريين لتصميم تلك المباني، ولو على سبيل المزاح. ولكنها ليست مزحةً على الإطلاق. فهذه المباني غيرُ المأهولة، والبالية، والبغيضة، تلوِّث منظر الغابة والجداول ومشهد السهل أسفلها، حيث تمضي الممرات الظليلة الضيقة متعرجةً عبر الحقول غير المنتظمة. يتمثَّل أوج هذه الحضارة الزائفة في حلبة سباق، لا تتجاوز في حجمها حقلَ كريكت، أُجبرت الفيَلة على التسابُق حول أركانها الحادة.

اشتريت بعض اللازورد، ليس لأنه كان رخيصًا أو جيدَ اللون، ولكن لأنه يأتي من المناجم الشهيرة بالقرب من إشكاشم في ولاية بدخشان؛ ومن ثَم فهو حجر أصلي طحنه الرسامون القدامى للحصول على اللون الأزرق. يخضع بيعه لاحتكار حكومي، وتذهب جميع صادرات المناجم إلى برلين.

خرج كريستوفر لشرب الجِعة مع مُعلِّم ألماني، بينما كنت أنا، مثل مَرْثا في الكتاب المقدَّس، المُرتبِكة في خِدمةٍ كثيرة، منشغلًا في حَزْم الأمتعة ودفع الفاتورة. لقد حلَّ منتصف الليل.

الهند: بيشاور (١٢٠٠ قدم، ١٨٩ ميلًا من كابول)، ١٩ يونيو: ظهرت نتيجةُ استقامتي عندما أقبَل السيد جمال بالسيارة في الخامسة من صباح اليوم التالي متوقعًا كالعادة أن ينتظر ساعتين، فكانت الأمتعة جاهزةً على عتبةِ الباب، ووصلنا بيشاور في

مساء اليوم نفسه. حتى بسيارة سريعة تستغرق هذه الرحلة في العادة يومين. لقد كانت رحلةً قاسية، نزولًا عبْر الجبال الجرداء ذات الزوايا السوداء إلى ضباب الهند الرمادي. كنا في جلال آباد عند الساعة الواحدة، حيث اشترينا شمَّامة، وتابعْنا المضيَّ مسرعين نحو ممر خيبر فوق أرض خلاء رمادية من حصًى متطاير في الجو الحار. في دكا، وهي قرية صغيرة مبعثَرة تحتوي على بضعة متاجر، ومضخة بنزين، وشجرة واحدة متقزِّمة على جرفٍ فوق نهر كابول الذي صار رحبًا هنا، انتهت الإجراءات الرسمية الحدودية سريعًا. ودنَت الجبال منا. أشار السيد جمال بفخر إلى أنه أفريدي. فحصَت مجموعةٌ من الأفغان الجالسين تحت شجرتين جوازاتِ سفرنا مرة أخرى. وظهر بعد المنعطف حاجزٌ فولاذي مرفوع، وحارس يضع خوذةً فولاذية، وعلامة طريق تعلن عن وصولنا إلى الهند البريطانية كما لو كانت موقفًا محليًّا للسيارات. كان مكتب الجوازات الجديد منزلًا من طابق واحد في حديقة شجيرات مزهرة. جلسنا على مقعد وأكلنا آخرَ سلطةِ دجاج لدينا من الوعاء الأزرق من أصفهان، بينما طلب منا ضابط الجوازات، نظرًا لأن الساعة قد صارت الرابعة والربع، وقد فات وقت السماح للأوروبيين بالمرور، أن نقول إننا دخلنا الساعة الثالثة والنصف.

مع توالي الممرات، تجد ممرَّ خيبر لطيفًا على نحوٍ ممتع. وهذا هو ما يجعله مسرحًا لمثلِ هذه الأعمال المذهلة. تُفسِح مساراتُ آسيا الوسطى؛ حيث خطُّ الهاتف الوحيد على أعمدته الخشبية الواهنة، مجالًا لمعرفة الوفرة الرومانية. لا يوجد طريق واحد فقط، بل طريقان متدرِّجان ينعطفان صعودًا وهبوطًا على طول الممر الضيق: الطريق الأسفلتي الأملس كشارع بيكاديللي والمُحاط بأسوار منخفضة ذات فتحات، والآخر، سلفه، متروك للجِمال، ولكنه لا يزال طريقًا سريعًا لم نشهد مثله منذ كنا في دمشق. متشابكًا مع كلا الطريقين، يأتي طريقٌ ثالثٌ أكبر، وهو سكة حديدية، تؤدي إلى مقدمة الممر وسرعان ما تمتد بعده، متلألئةً عبر الأنفاق، التي تنحسر أفواهها السوداء، المحاطة ببوابات ضخمة من البناء الأحمر، إلى المسافة الرمادية الموحِشة. تحدُّ الطريقين والسكة الحديدية من الجانبين أرصفةٌ من حجارة مقطَّعة تربط بين الجبال، وتحملها جسورٌ حديدية عبر الوديان وفيما بينها. وحُزَم من أسلاك الهاتف مثبتة على أعمدة معدنية بواسطة عوازل بيضاء لامعة، وإشارات حمراء وخضراء ترصِّع الضباب في الجو الحار المتقد، وأحواض شرب على شكل توابيت قديمة، وعلامات طريق متباعدة، بين الواحدة والأخرى ثلاثين ياردة، عن اقتراب إل، وجيه، وبي — لندي كوتال، وجمرود، وبيشاور — جميعها تُكمل الدليل على المعاقل الرمادية الأنيقة الجاثمة على كل حافة وقمة، والتي تفيد بأنه إذا كان على الإنجليز أن يهتموا

بالدفاع عن الهند، فذلك ينبغي أن يتحقَّق بأقل قَدْر من الإزعاج للأفراد. كان هذا شعورنا. كان مشهد الحس السليم هو ما أبهجنا وسط الحرارة الرهيبة، حيث أوكار رجال القبائل، والصلات العميقة بين الحجاج والفاتحين، مشهد يبعث على الرضا والتفاخر بالوطنية.

كان السيد جمال في حالة من الهياج. وصرخ متجهِّمًا من المظهر المتألق للطريق قائلًا: «سَرَك بِسيار خَرَاب! يا له من طريق سيئ للغاية! يجب أن تحلوا ضيوفًا عليَّ الليلة في خيبر.» مررنا بلندي كوتال، حيث كان أفراد فوج هامبر من جوركا يلعبون الهوكي، ولكننا لم نرَ أيَّ ضبَّاط باستثناء أولئك الذين كانوا يمرون بسرعةٍ كبيرة في ملابس التنس وسيارات الموريس؛ ومن ثَم لم نتمكَّن من إيصال رسائل هامبر. في قرية خيبر، وهي قرية عادية على الممر، حيث كان كلُّ منزل منطقةً مسيَّجةً محصَّنة لها برجُ مراقبة خاص، توقَّف السيد جمال، وقفز حشدٌ من الأطفال المشاكسين في الشاحنة، غير عابئين بنا أو بحقائبنا، لتحية والدهم. هُرع مالك الشاحنة، وهو رأسمالي كبير، من منزله ليرى كيف كان حال شاحنته على الطرق الأفغانية. كشف مساعد السيد جمال، رافعًا المقعدَ الأمامي، عن مخزون سِرِّي من السُّكر الروسي اشتراه في مزار. وصل أقاربه أيضًا، وسرعان ما تجمَّعت القرية بأكملها في حلقة للترحيب بالغائب، بعد ثلاثة أشهُر من الغياب.

كنا نودُّ قَبول دعوة السيد جمال. فقد كان سيصبح من الممتع أن نسير إلى ثُكنات لندي كوتال في اليوم التالي، وأن نُظهِر تبسُّطًا بقضاء الليلة على الطريق مع سائقنا. ولكننا حتى الآن لسنا متأكِدين مما إذا كنا سنلحق بالباخرة «مالوجا» في بومباي. بروح دعابته المعتادة، ترك السيد جمال أُسرته وتابَع المضيَّ بنا على الطريق. انفرجت التلال، كاشفةً عن الأشجار اللانهائية المتناثرة في أنحاء الهند. في السابعة والنصف، كنا نحتسي شراب الجين الفوَّار في الصالة الرخامية بفندق دِين.

ودَّعَنا السيد جمال بأسًى شديد. كان قد قطع بنا مسافةً إجمالية تُقدَّر بنحو ٨٤٠ ميلًا ما بين مزار وبيشاور. لم يكن قَطُّ سيئ المزاج أو مكتئبًا بسبب العقبات، بل كان دائمًا هادئًا، ومبتهِجًا، ودقيقًا في المواعيد، ومهذَّبًا، ومتقِنًا لعمله. خلال الرحلة بأكملها، وعلى أصعب الطرق التي يمكن أن تمرَّ عليها السيارات، لم نرَ مرةً واحدةً صندوق الأدوات يُفتح أو إطارًا يتغيَّر.

كانت الشاحنة من طراز شيفروليه.

القطار البريدي الحدودي، ٢١ يونيو: توقَّفنا لقضاء الليلة في دلهي، وفي صباح اليوم التالي، قبل شروق الشمس، كنا واقفين تحت قوس لوتينز التذكارية. أُضيفت للموقع

بعض المستحدثات منذ أن اتخذه نائب الملك مقرًّا لإقامته: أفيال جاجر آشوريو بذهب كارتييه، ومخطَّط للمدينة من الذهب على قاعدة عمود جايبور، وتماثيل إيروين وريدينج، التي تعطي مَسحة عالمية للقصر الكبير. اقترحت على اللورد إيروين أن يصنع إيبشتاين تمثاله. وكان ردُّه: «ظننت أنك ستقول ذلك»، ولكنه جلس أمام رِيد ديك ليصنعه له. أما عن منحدر طريق الملك، فلن يكون خطئي إن لم يتذكَّر الناس بيكر بسبب خبثه ومكره.

كان من الغريب أن أرى عند قطب منار زخرفةً على الطراز السلجوقي منحوتة في الحجر وليس في الجص. لقد ذهبَت عنها ميزتها بهذه المادة الأخرى؛ إذ تصبح هنديةً ومتكلَّفةً وتفقد حريتها.

غادر هذا القطار بيشاور بعد خمس عشرة ساعةً فقط من مغادرتنا لها؛ لذلك لم يكن لدينا كثير من الوقت.

الباخرة إس إس مالوجا، ٢٥ يونيو: يتأرجح قاربٌ ضخم حمولتُه ٢٠ ألف طن، عبر بحر كالحبر. سُحبٌ من الرذاذ؛ ومِلح وعَرق وضجَر في كل مكان. صوت تقيؤ، وغرفة طعام فارغة.

بعد تجرِبة سابقة في رحلةٍ مبهِجة حقًّا مع شركة بي آند أوه في الموسم المزدحِم، ركبت والفزع يعتريني. غير أن ذلك كان قبل أربع سنوات، عندما كانت المنافسة الإيطالية قد بدأت لتوِّها. ألَمَسُ الآن تغييرًا نحو الأفضل في السلوك والالتزام. كما أن القارب نصف ممتلئ فقط؛ ومن ثَم نجونا من الإقامة في مقر إقامة جماعي. رغم ذلك، فالأمر أشبه بعقوبة مروِّعة؛ حيث يُمحى أسبوعان من حياة المرء بتكلفة كبيرة.

الباخرة إس إس مالوجا، ١ يوليو: عقَدْنا صداقةً مع السيد والسيدة تشيتشيستر والآنسة ويلز. عندما رأت الآنسة ويلز كريستوفر يتسكَّع على سطح الباخرة مرتديًا سروالًا قصيرًا، وذلك القميص الأحمر الذي اشتراه في عباس آباد، سألته: «هل أنت مستكشِف؟»

أجاب كريستوفر: «لا، ولكنني كنت في أفغانستان.»

قال تشيتشيستر: «آه، أفغانستان، إنها في الهند، أليس كذلك؟»

سافيرناك، ٨ يوليو: تركت كريستوفر في مرسيليا. كان ذاهبًا إلى برلين لرؤية فراو واسموس. بدت إنجلترا كئيبةً وقبيحة من القطار بسبب الجفاف. عند بادينجتون بدأت أشعر بدُوار، ذلك الدُّوار الناتج عن تصوُّر التوقُّف، عند التصادم الوشيك بين زخم أحد عشر شهرًا من الحركة وجمود الحياة في وطنٍ حبيب. حدث التصادم؛ كان قد مر ١٩ يومًا ونصف منذ غادرنا كابول. جاءت كلابُنا تركض نحوي. ثم أمي التي، بعد أن انتهتِ

الرحلة، أروي لها الحكاية كاملةً، ما رأيته ممَّا نصحتني برؤيته، وستخبرني إن كنت قد وفَّيت بنصيحتها.

هوامش

(١) Erymurus luteus (إريموروس لوتس).
(٢) الزيتون البري.

هنداوي